سعيد الجزائري

تاريخ التجسس في العالم

دار الجيل
بيروت

سعيد الجزائري

تاريخ التجسس في العالم

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

المقدمة

تاريخ التجسس في العالم، هو كتابي الجديد عن أعمال الجاسوسية في العالم منذ قديم الزمن وقد أحببت أن أعود بقارئي الكريم إلى (أصل) الأعمال الجاسوسية على مختلف أشكالها التي لا تخطر على بال، رغم تقديمي العديد من الكتب السابقة عن المخابرات في العالم، لكن هذا الكتاب سيكون ضرورياً لإكمال المعلومات عن أهم أعمال الجاسوسية في العالم ومنها على سبيل المثال والتحديد فصل تجسس الفنانات وغيره من الفصول الهامة.

كما يعرض هذا الكتاب ـ من قبيل العلم بالشيء ـ للتكنولوجيا المستخدمة في عالم التجسس ويصفها كما هي فعلاً لدرجة وصف عمليات خلط وتحضير المتفجرات. ويذهب بعيداً في سرد تاريخ الأقمار التجسسية وكيفية عملها. والأهم من ذلك كله هو العودة بالقارئ إلى الماضي (منذ مئات السنين) وإطلاعه على كيفية عمل المخابرات قديماً باستعمال الرموز والإشارات لإيصال الأخبار الجاسوسية من عميل إلى دولته وبالعكس، كل ذلك وغيره من المعلومات الدقيقة عن تاريخ التجسس في العالم.

أرجو الله أن أكون قد وفقت في هذا العرض الجديد من سلسلة الكتب عن الجاسوسية في العالم.

المؤلف

الفصل الأول

المخابرات كانت منذ آلاف السنين وحتى الآن...؟

* ذات يوم منذ أربعة آلاف سنة، وفي مدينة تدعى (منية خوفو) على ضفاف النيل، قصت إحدى المخطوطات الهيروغليفية تاريخ أحد فراعنة ذلك الزمان، وكانت تلك المخطوطة أول كلمات تسطر في تاريخ حل الرموز الطويل. كما ظهرت أولى كتابة هيروغليفية مختلفة عن سواها من الكتابات الهيروغليفية المألوفة والمعروفة آنذاك. وهذا ما يفسر علاقتها بلغات الرموز وما آلت إليه اليوم بعد تطور مستمر تعود بدايته إلى ذلك العصر الغابر. وفي العام ١٩٠٠ق .م. نقشت هذه المخطوطة على قبر خوفو موتب الثاني إلى جانب ٢٢٢ عموداً كانت تحيط بالمقبرة، لم يبق منها سوى عشرين فقط. وقد تبين للدارسين أن تلك المخطوطة لم تكن تهدف إلى إخفاء معلومات حتى توضع بلغة مختلفة عن السائد في عصرها، بل إلى إضفاء طابع من الرسمية، كما لو كانت قراراً حكومياً أو تشريعاً صادراً عن أعلى سلطة في الدولة. هذه هي الأسباب التي أعطتها قيمتها التاريخية المميزة كأول نص كتب في تاريخ المخطوطات السرية. وهناك نصوص أخرى مماثلة كتبت ونقشت في ما بعد، وهي تمثل صيغاً متنوعة من الصيغ الجنائزية التي حواها كتاب الأموات الخاص بالفرعون ستهي ألاول في الأقصر. ومما يلفت الأنظار، أن بعضاً من هذه المخطوطات، المتأخرة زمنياً عن الأولى، قد هدف إلى إعطاء معلومات سرية. لكن الهدف من السرية هذه لم يكن إخفاء محتوى المخطوطة عن القارئ، كما هي الحال في حرب المخابرات بين الأفراد والمؤسسات والدول في هذه الأيام، إنما إضفاء الطابع السحري عن طريق الغموض، وذلك بغية استجلاب الهيبة والبركة وإحاطة من نقشت المخطوطة على قبره بهما. وهذا، بنظر ناقشي المخطوطة، يستمطر الرحمة من الآلهة. غير أن الغموض كان من شأنه، على المدى الطويل، إبعاد الناس عن هذه الكتابات، مما جعل عمر التجربة قصيراً. ومهما يكن من أمر، فإن هذه المرحلة من

المخطوطات السرية تعتبر، على الرغم من شحها، بداية تاريخية لعالم المخابرات. ويكفي، لارتباطها بهذا العالم، احتواء نصوصها على العنصرين المكونين لها وهما الاستبدال والسرية.

كان تاريخ الرموز بطيئاً في الآلاف الثلاثة الأولى من سنيه. كان هذا العلم ينبت ويترعرع وسط مدنية معينة ويضمحل باضمحلالها، وباستثناء بقايا لا قيمة لها كانت تستمر وتنتقل إلى مدنية أخرى لاحقة. ولم تتبلور الرموز كعلم وكفن إلا مع بزوغ فجر النهضة.

رموز المخابرات في الصين

* في الصين لم تبلغ الرموز شأواً بعيداً يذكر. كانت المراسلات تتم بالطريقة الشفهية يتولاها سعاة مختصون، أو بواسطة رسائل كانت تكتب على حرير ناعم، وتوضع في كرات صغيرة من الشمع يخفيها ناقلوها سواء عن طريق بلعها أو عن طريق إدخالها في أحشائهم من الخلف. وأول مؤلف تحدث عن استعمال الرموز في الصين القديمة يعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي. في هذا المؤلف يتبين أن الصينيين استخدموا طريقة الاستبدال في مراسلاتهم العسكرية. لكن الأمر ظل محصوراً في نطاق ضيق ومحدود. يدل على ذلك أن جنكيز خان، وهو أكبر الفاتحين الآسيويين، لم يعرف الرموز طوال كل فتوحاته.

ويذكر في كتب التاريخ أن ين تانغ، الابن التاسع للإمبراطور شنغ تسو، انهزم عام ١٧٢٢ ميلادية أمام أخيه ين تشن في معركة بينهما على عرش أبيهما المتوفى، ونفي إلى مقاطعة سيننغ حيث اصطحبه مبشر برتغالي يدعى جواو موراو وعلمه الأبجدية اللاتينية. وقد استخدم ين هذه الأبجدية ليكتب بها رسائل سرية إلى ابنه. وفي بداية عام ١٧٢٦، وقعت إحدى تلك الرسائل في أيدي رجال أخيه الإمبراطور، مما دفع هذا الأخير لنفيه إلى مقاطعة باوتنغ فو حيث مات. كما مات موراو هو الآخر في السجن.

لماذا لم تنم لغة الرموز في الصين مع أن الحضارة الصينية سبقت الكثير من الحضارات السابقة؟ هذا السؤال وجد العلامة أوين لاتيمور (من جامعة ليدز) الجواب

عليه، وهو أن اللغة الصينية كانت بحد ذاتها لغة رموز لصعوبتها وندرة قارئيها من الصينيين أنفسهم.

أما في الهند، التي بلغت شأواً بعيداً من المدنية في حقبة طويلة من الزمن، فالوضع كان مختلفاً كل الاختلاف. لقد عرفت الهند الرموز وطرق فكها. ففي كتاب فانسيبايانا، جاء أن على النساء تعلم «الكتابة السرية» من بين الفنون الأربعة والستين التي يجب عليهن تعلمها. كما جاء في الارتا ساسترا الشهير لمؤلفه كوتيليا (كتبه بين عامي ٣٠٠ و ٣٢١ق .م.) أن على السفراء تعلم فن فك الرموز عن طريق الاستماع إلى أحاديث الناس وثرثرة الشحاذين والسكارى والمجانين، وكذلك الاستماع إلى النائمين الذي يتكلمون في نومهم، وقراءة ما يكتب في المعابد وأماكن الحج، وأخيراً، عليهم تعلم فك الرموز التي تحويها الكتابات السرية. وهذا المؤلف هو أول بادرة عملية في علم فك الرموز لأغراض سياسية.

الحضارة الرابعة التي عرفت لغة الرموز كانت حضارة ما بين النهرين. تطور هذا الفن فيها بشكل مشابه لما جرى في مصر. لكنه تعدى الحدود المصرية ليصل إلى مستوى يدعو إلى الدهشة والإعجاب. فأقدم عملية فك للرموز ظهرت على لوحة صغيرة من الفخار طولها ثماني سنتمترات وعرضها خمسة، يعود تاريخها إلى حوالي عام ١٥٠٠ق .م. (وجدت هذه اللوحة في سيلوسيا على ضفاف دجلة. كان الطلاء الذي غطيت به الأول من نوعه في التاريخ. وقد استخدم هذا الطلاء لإخفاء رموز لم يستطع العلم حتى هذه اللحظة فكها).

كان البابليون والآشوريون يستخدمون أحياناً إشارات مسمارية نادرة آنذاك لتأريخ وتوقيع لوحاتهم. وفي عهد السيلوسيين، قبل قليل من العهد المسيحي، أصبحت اللغة المسمارية تستعمل في أوروك (العراق حالياً) على سبيل التحذلق أو التسلية، بعد أن أصبحت في نهاية عهد انحطاطها.

ومن الواضح أن مخطوطات هذه الحضارة لم تكن، في نطاق الرموز السرية، مبنية على قاعدة واضحة من المقابلة بين الأصل والرمز، باستثناء ما اكتشف من لوحات في سوز (إيران حالياً)، والتي قد تكون أقدم رمز مكتشف في هذا النطاق.

والكتابات المقدسة لم تتجنب تماماً فن الرموز أو ما يشابهه. فالتقليد العبري يعدد استبدالات ثلاثة في العهد القديم. في حين أن العهد الجديد لم يتوسل السرية. وهذا مجال للاستغراب.

وفي الآلياذة إشارة من هوميروس إلى رسالة تحوي بعض الرموز. هذه الرسالة بعث بها الملك بروتوس إلى عمه أيوباتيس مع بيليروفون وفيها إشارات تفيد الإيعاز إلى إيوباتيس بقتل حامل الرسالة، لأنه، كما ادعت زوجة الملك، راودها عن نفسها، بينما العكس هو الصحيح. هذا المقطع من الإلياذة هو الوحيد الذي يأتي على ذكر رموز لها تفسيرات لا يفقهها سوى المتعاملين بها. ومهما كان جانب الخيال الشعري والقصصي في الملحمة كبيراً، فإن هذا دليل على أن استعمال الرموز لم يكن مجهولاً في زمن حوادث الإلياذة. يثبت ذلك ما نقرؤه من حوادث وثورات جرت، بناء على رسائل سرية، بين اليونان والفرس، رسائل كانت ترسل سواء في بطون الطرائد أو تكتب على جلدة رأس حلق شعرها وأرسل صاحبها لإيصال الرسالة بعد أن نبت شعره وأصبحت كثافته كافية (وقد ظهرت أفلام كثيرة بنفس المعنى).

من جهة أخرى، يدين العالم بأسره إلى اليونان في علم تأمين المواصلات. ففي كتاب «الدفاع عن المراكز المحصنة» لإيناس، يعيد المؤلف إلى الذاكرة بعضاً من قصص هيرودوت ويعدد بعض وسائلها. من هذه الوسائل استبدال الأحرف بالنقاط أو التدليل عليها بالثقوب. وقد عاشت إحدى هذه الوسائل إلى القرن الحالي. وهي تقضي بوضع ثقب بواسطةِ دبوس على الأحرف التي تؤلف بتسلسلها الرسالة المطلوبة، وذلك ضمن كتاب يختار لهذه الغاية ويكون بعيداً بموضوعه كل البعد عن الشبهة. استخدم الجواسيس الألمان هذه الوسيلة في الحرب العالمية الأولى. كما استخدموها في الحرب العالمية الثانية على صفحات الجرائد بعد أن استبدلوا الثقوب بالحبر السري.

وفي الجدول الآتي الذي استنبطه كاتب يوناني آخر يدعى بوليب، يكون لكل حرف بديل مؤلف من رقمين، الأول: أفقي، والثاني: عمودي. والرقمان موضوعان جنباً إلى حنب يعطيان البديل الرقمي للحرف كما يلي:

	١	٢	٣	٤	٥
١ ـ	أ	ب	ت	ث	ج
٢ ـ	ح	خ	د	ذ	ر
٣ ـ	ز	س	ش	ص	ض
٤ ـ	ط	ظ	ع	غ	ف
٥ ـ	ق	ك	ل	م	ن
٦ ـ	هـ	و	ي.		

فالحرف ج مثلاً يتمثل بالرقم ٥ أفقياً وبالرقم ١ عمودياً، فبديله الرقمي إذاً هو ١٥، والحرف ذ ٢٤، والحرف ك ٥٢، والحرف ي ٦٣.. ألخ.

أول من استخدم جدول بوليب في الأمور العسكرية هو يوليوس قيصر في حرب الغول وذلك ضمن رسالة بعث بها إلى شيشرون. وكان لهذه الرسالة فضل كبير في انتصار الرومان في تلك الحرب، إذ جعلت شيشرون يصمد بعد أن قرأ أن النجدة آتية خلال أيام من القيصر.

لقد خلد قيصراً اسمه في تاريخ فك الرموز بعد أن أدخل تعديلات على جدول بوليب. لقد كان أول من اعتمد الأبجدية البديلة القائمة على استبدال كل حرف منها بالحرف الذي يليه بالدرجة الثالثة. أي إن الألف تستبدل بالثاء والباء بالجيم وهكذا. واليوم أصبحت هذه الطريقة تعرف بـ«أبجدية يوليوس قيصر».

إن ازدهار علم الرموز وانتشاره يرتبطان بالمستوى الثقافي والعلمي للمجتمع. ذلك أن الاتصال البشري بواسطة الكتابة، سواء كانت هذه الكتابة أصيلة أو بديلة، يفترض وجود أناس يتقنون الكتابة والقراءة معاً. وكلما توسعت حلقة هؤلاء، توسعت معها الاتصالات الخطية. واليوم، أدخلت الاختراعات الألكترونية الحديثة طرائق جديدة ومتطورة إلى علم الرموز وكيفية فكها، فأعطت هذا العلم مجالات واسعة للتحرك والانتشار.

إن اليزيديين، وعددهم يقارب الـ (٥٠٠٠٠) يقطنون شمال العراق، يستخدمون الكتابة السرية في كتبهم الدينية خوفاً من الاضطهاد. كذلك سكان التيبت. ولا يزال

أفراد قبيلة النيزيبيدي في نيجيريا يمنعون على الأوروبيين رموز لغتهم السرية. وفي تايلاند، أشكال متعددة من الكتابات الرمزية أيضاً. وحوالي الألف بعد الميلاد، كان الفرس يستخدمون الكتابة السرية لأهداف ديبلوماسية، هذه الكتابة كانت تدعى «شاه دابيريا» وجل استعمالها كان بين الملوك. كما أن الفرس عرفوا لغة رمزية أخرى تدعى «راز سهريا» كانت، هي الأخرى، لمراسلات الملوك فقط.

في دير القديس جيريمي في صقارة بمصر، اكتشفت العبارة التالية نقشها رجل مجهول على أحد الحيطان وذلك بواسطة أبجدية بديلة وحوالي القرن الرابع ميلادي:

«باسم القادر الجبار، سيد كل شيء، تذكر عبدك فيكتور، الفقير والبسيط».

وفي دير آخر يعود إلى القرن السابع ويدعى دير أبيفان في منطقة الشيخ عبد الضرنة بمصر العليا، وجدت في حجرة راهب يدعى إلياس قطعة خشبية طولها ثلاثون سنتمتراً وعرضها عشرة، كتب عليها بالحبر الأسود نص من سطرين بأبجدية يونانية - قبطية بديلة. هذه اللوحة، الموجودة حالياً في متحف الفن في نيويورك، تعتبر أقدم أبجدية بديلة في العالم، باعتبار أن لوحات سوز المسمارية تدخل في نطاق السرية المبنية على الرموز لا على الأبجدية.

في أوروبا، حيث الأبجدية اللاتينية هي التي كانت سائدة لم يكن للغة الرموز شأن يذكر فبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية، غرقت تلك القارة في ظلمات القرون الوسطى. كانت الأمية شبه شاملة وهذا ما لم يترك مجالاً لأي علم أو فن، بما في ذلك علم الرموز، للبروز والانتشار، ولا يغير هذا الواقع وجود راهب هنا يقتل ضجره برمز بديل لكلمة أو لتوقيع، أو آخر هناك يستبدل أبجديته اللاتينية بأخرى يونانية أو أرمنية. على أن هذا الواقع لم يمنع من تسجيل بعض الأسماء في هذا المضمار. فالقديس بونيفاس أدخل إلى أوروبا طريقة استبدال الأحرف الصوتية بالنقاط. والراهب جربرت تبنى طريقة استبدال المقاطع بالأحرف.

وأخيراً الراهبة هيدلغارد التي ابتدعت أبجدية بديلة كانت تدعي أنها من وحي إلهي. غير أن الاسم الذي لم يكتف باستعمال الكتابة السرية، بل يتعداها إلى الإبداع والتطوير خلال القرن الثالث عشر الميلادي، كان الراهب الإنكليزي باكون الذي ألف

كتاباً بالمعنى أعطاه العنوان التالي: «الأعمال السرية للطبيعة والفن وانتفاء السحر». ويجب أن لا نغفل في هذا السياق، ذكر الإنكليزي جوفري جوسر الذي كتب بيده مقاطع رمزية تعتبر من أشهر ما كتب حتى اليوم.

اقترنت الرموز على مدى آلاف السنين بالسحر. ولا يزال لهذا التاريخ الطويل من التلازم أثره في أذهان الناس من العامة. في القديم، وعلى مدى دهور وعصور، كان الرمز يعني حدثاً أو غيبة. وارتباطه بالسحر يحيطه بالسرية وبالمجهول. هذا الواقع كثيراً ما كان يستخدم لمصلحة الملوك والنافذين ورجال الدين. ولم ينتف هذا الأثر من أذهان الناس، الذين لا يزالون، بعدد كبير منهم، ينظرون إلى الرمز نظرة تهيب، وأحياناً نظرة تخوف. وما تطير البعض من هرة سوداء أو شكل حيوان مقيت في فنجان قهوة مشروب أو هيئة وحش في غيوم السماء سوى بقايا من رسوبات خلفها تلازم الرمز مع السحر. حتى أن الأميركيين أطلقوا، عام ١٩٤٠، على عملية فك الرموز الديبلوماسية اليابانية آنذاك، تسمية (العام السحري).

في أي من الحالات والأمثال الواردة حتى الآن، لا يمكن القول إنه كان هناك علم للرموز بالمعنى الصحيح للكلمة. العرب هم أول من أوجد علماً بهذا المعنى، وذلك بإيجادهم طرقاً ومناهج له، وبتدوينها خطياً. هذه الأمة التي خرجت في القرن السابع من الجزيرة العربية وانتشرت بسرعة البرق على مساحة واسعة من العالم، قامت بسرعة مذهلة واحدة من أعرق حضارات التاريخ. هذه الحضارة التي فتحت فيها العلوم وخصب فيها الخيال، وغزرت فيها الرموز والتآويل والروحانيات علم اللغة، سبقت جميع ما قبلها في الكتابات السرية. ففي العام ٢٤١ للهجرة ٨٥٥ ميلادية، أشار العالم أبو بكر بن وحشية إلى عدة أبجديات سرية تقليدية تستعمل في خدمة السحر وذلك في كتابه «شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام». والأبجدية «الداوودية»، كما سميت آنذاك، ليست سوى أبجدية عربية محرّفة.

هذه الأبجدية كانت تعتبر الأبجدية السحرية الأفضل، وكانت تسمى أحياناً «الروحانية».

لم تمارس الدول الإسلامية، إلا نادراً، فك الرموز، وذلك في بعض الأمور السياسية. ولعل ذلك ناتج عن تغير الحكام وعدم استقرار الإدارة في تلك الدول،

وبالتالي عن عدم إمكانية اعتماد سفراء لدى الدول الأجنبية لفترات متمادية.

يبرز ما صنعه العرب في علم الرموز في كتاب «صبح الأعشى» لمؤلفه أحمد بن علي القلقشندي، وهو عبارة عن موسوعة من أربعة عشر جزءاً كتبت لإعطاء عمال الدولة المعلومات الكافية في أهم فروع المعرفة. أنجز هذا المؤلف الكتاب عام ١٤١٢م وكان موفقاً في ما سعى إليه. في الجزء المعنون «إخفاء المعلومات السرية في الرسائل» قسمان: الأول يختص بالرموز والاصطلاحات، والثاني بالحبر السري وفك الرموز.

ويعود القلقشندي في معظم بنود بحثه إلى كتابات علي بن الدريهم الذي عاش بين عامي ١٣١٢ و١٣٦١ وشغل مناصب عدة في الإدارة والتدريس لدى المماليك في كل من سوريا ومصر غير أن كتاباته لم تصل إلينا.

يبدأ القلقشندي بشرح السر قائلاً إنه ضروري «لأن العدو يسعى لزرع أي عائق بين المرسل والمرسل إليه، على سبيل المثال، بين سلطتين أو شخصين.

ويلجأ إلى السرية عندما تكون الطرق غير آمنة بسبب مراقبة البريد عليها. إن هذه الملاحظة الأخيرة تركز بشكل معبر على ضرورة الترميز وعلى فك الرموز في آن معاً. ويسرد الكاتب بعد ذلك طرقاً عدة للاستبدال. إحدى هذه الطرق تعطي بدائل عدة للحرف الواحد في الأبجدية الأصلية. غير أن هذه التجديدات، على أهميتها، بهت بريقها باستنباط آخر أهم بكثير، أعني به بحث القلقشندي المستفيض في تحليل الرموز، وهو البحث الأول من نوعه في التاريخ والعالم.

وتطرح دراسة القلقشندي مبدأً أساسياً هو أن محلل الرموز يجب أن يكون ضليعاً في اللغة التي كتبت بها الرسالة. ولما كانت العربية هي «الأنبل» والأروع بين اللغات «وكذلك» الأكثر استعمالاً في تلك البقعة من العالم، نجد في المؤلف تحليلاً مفصلاً لخصائصها مع إبراز مميز لهذه الخصائص في القرآن الكريم.

ولا نعلم إلى أي مدى استطاع العرب أن يستفيدوا مما ابتدعوا في علم الرموز وما إذا كانوا استثمروا هذا العلم لمصالحهم السياسية والدبلوماسية. لكن المرجح أنهم لم يفعلوا ذلك كما يجب.

عام ١٦٠٠م أرسل السلطان أحمد المنصور، سلطان المغرب، بعثة بقيادة أمين سره الخاص عبد الوحيد بن مسعود أنون إلى ملكة انكلترا اليزابيت ليعرض عليها حلفاً ضد إسبانيا. دبج العرض في رسالة سرية على طريقة الاستبدال. غير أن الرسالة وقعت، كما يبدو، بين يدي أعرابي لم يعرف قيمتها وقيمة الإرث العظيم الذي تركته أمته للعالم في هذا المضمار. كتب هذا الأعرابي يقول في مذكراته فيما بعد:

«الحمد لله! رسالة من أمين سر عبد الوحيد بن مسعود أنون. وجدت رسالة مكتوبة بيده بأحرف سرية، فيها معلومات تخص خليفتنا أبو العباس المنصور أيده الله. هذه الرسالة موجهة إلى سلطانة النصارى الموجودة في دولة لندن عام ١٠٠٩.

ومنذ أن وقعت هذه الرسالة بين يدي وأنا أدرس رموزها.. وأحللها، وبعد خمس عشرة سنة أعانني الله على فك هذه الرموز على الرغم من أن أحداً لم يساعدني في ذلك..».

خمس عشرة سنة؟ من أجل فك رموز مستند لم يكن يتطلب من القلقشندي سوى ساعات معدودة باعتباره صاحب خبرة عظيمة في فك الرموز.

إحدى مجموعات مقاطع جوفري الرمزية

الفصل الثاني

استعمال المخابرات للرموز من عام ١٨٤٨ إلى ١٩١٤

* كان التلغراف (البرق) أعظم اختراع تم خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر (١٩٠٠) م وقد أحدث ضجة شبيهة بإطلاق أول قمر صناعي في عصرنا الحالي.

أثار التلغراف في البداية بعض الحذر من جانب التجار ورجال الأعمال بصورة خاصة، وذلك خوفاً منهم على أسرارهم المهنية ومصالحهم التجارية. لكن هذا الحذر لم يلبث أن تبدد بعد أن تأكد لهم أن العاملين في دوائر التلغراف لا يعيرون أي اهتمام لمحتويات النصوص والرسائل التي يرسلونها بالشيفرة. والذي شجع الناس عامة والتجار ورجال الأعمال بصورة خاصة على استخدام التلغراف، وبالإضافة إلى عنصري السرعة والتوفير، هو أن الرسائل البرقية يمكن أن تكون رسائل مرمزة. وفي هذا تطويق آخر لمحاذير كشف الأسرار.

وقد وجد العسكريون في إلتلغراف اكتشافاً رائعاً لتسهيل مهامهم، بعدما كبرت الجيوش وانفلشت في أماكن مترامية من العالم. ومما ساعد على هذا الانفلاش وشجعه انتشار سكك الحديد وتطورها.

وقد خلق هذا الاكتشاف وضعاً جديداً انبثقت عنه نظريات جديدة. وهكذا بدأ عالم ما يعرف بالشيفرة العسكرية التي أوجدها (جان غليوم هوبرت فكتور ـ فرانسوا الكسندر أوجيست ـ كركوف فون نيوفان ـ هوف). نعم هذا هو اسمه الكامل. وقد ولد في هولندا في ١٩ كانون الثاني ـ يناير من عام ١٨٣٥. عندما بلغ أوجيست كركوف، كما اختصر اسمه في ما بعد، السابعة والأربعين من عمره، كتب الشيفرة العسكرية. بعد ذلك، تبنى فكرة اللغة العالمية، فولا بوك، التي وضعها رجل دين ألماني يدعى جوهان مارتين شلاير حوالي عام ١٨٨٥. وقد بلغ حماسه لتلك اللغة أن

وضع لها كتاباً متكاملاً في القواعد وكذلك قاموساً إلى جانب الفرنسية. لكن تلك اللغة، على الرغم من انتشارها الحماسي فترة من الزمن في فرنسا، حيث بدأ البعض يتخاطب بواسطتها في الشارع، ما لبثت أن تلاشت كالسراب، وضع كركوف شيفرة عسكرية متكاملة استطاعت أن ترد على كل الأسئلة المطروحة آنذاك في هذا المضمار، وأن توجد الحلول المناسبة لكل المسائل المستعصية، ومما زاد في قيمة هذه الشيفرة أنها تتناسب في استعمالها مع الأجهزة التلغرافية. يضاف إلى ذلك، وقد يكون هذا هو الأهم، هو أن كاركوف توخى في تعاليمه التي ابتدعها عن الشيفرة، أن يكون نظامها، ومهما كانت أشكالها، مبنياً على قواعد أساسية هي: استحالة فكها مادياً، احتمال وقوعها في أيدي الأعداء، إمكانية حفظها دون كتابتها، ملاءمتها للمراسلات التلغرافية، سهولة نقلها دون إرباك، وأخيراً سهولة ممارستها.

إن أية شيفرة لا توفر العناصر الستة أعلاه، لا بد وأن تحوي ثغرة قد ينفذ منها محلل رموز بارع في المعسكر المعادي.

استفاد الفرنسيون كثيراً من النظام الذي وضعه كركوف وأصبح لديهم نظام للشيفرة من أدق وأرقى أنظمة العالم آنذاك، ولعل ما جعلهم يهتمون بهذا القدر بتنمية مخابراتهم العسكرية، الهزيمة التي منيوا بها في حرب ١٨٧٠ ضد ألمانيا. لذا، لم تأت الحرب العالمية الأولى إلا وكانوا قد أصبحوا على قدر كبير من الكفاءة في حق المخابرات العسكرية.

أما الألمان، فلم يعيروا هذا الحقل الاهتمام ذاته الذي أعاره الفرنسيون ولعل ثقتهم بتفوقهم العسكري هي التي جعلتهم لا يلتفتون الالتفات الكافي إلى شأن آخر غير هذا التفوق لاعتقادهم بعدم الحاجة لمثل هذا التدبير.

ولا ننسى، ونحن في سياق الحديث عن الشيفرة، اسماً لامعاً ظهر في إنكلترا هو شارل ونستون، الذي اخترع التلغراف الكهربائي قبل مورس، كما درس التلغراف تحت ـ المائي وأنجز خرائط عدة في هذا الحقل ساعدت من أتى بعده على تطوير الأفكار وبلورتها عام ١٨٦٠، وكان في الستين من عمره، توصل إلى فك رموز رسالة من سبع صفحات من الحجم الكبير، كان شارل الأول قد بعث بها إلى السير غوفل. وقال إن عملية الفك هذه كانت من الأمور المستعصية التي عجز أمامها علماء

كثيرون في علم الشيفرة. ومن اختراعاته في هذا الحقل، إطار للترميز عرض لأول مرة في معرض باريس الدولي عام ١٨٦٧. وهو يعتمد الأبجدية البديلة. ومن رواد علم الرموز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، نذكر فاليريوودي رتسيل وبازيريس وقياريس. وهذا الأخير كان أول من صمم آلة للترميز تعتمد الطباعة في عملها. كما كان أول من وضع معادلات الترميز والاستبدال المتعدد الأبجديات.
وعام ١٨٨٠، سجل قياريس أكبر إنجاز علمي له، ألا وهو إدخال الرياضيات في علم الرموز. وقد ألف في ذلك كتاب «علم الشيفرة وفك رموزها في الرسائل السرية» عام ١٨٩٣، وفي السنة نفسها، قام بتنظيم مكتب الشيفرة في الخارجية الفرنسية. وقد مات عام ١٩٠١ بعد أن وضع عام ١٨٩٨ قاموسه الترميزي الشهير «أ. ب. ث».
أما بازيريس، فقد توصل إلى فك رموز مراسلات كل من فرنسوا الأول وفرنسوا الثاني وهنري الرابع وميرابو ونابوليون. وعام ١٨٩٢، ساعد محكمة سانت - إيتيان على فك رموز الرسائل التي كان الفوضويون يتبادلونها والتي شكلت عنصراً رئيسياً في محاكمتهم. وأثناء الحرب العالمية الأولى، قدم بازيريس خدمات جلى إلى الجيش الفرنسي عن طريق فك رموز رسائل الجيش الألماني آنذاك وقد مات في ٧ تشرين الثاني - نوفمبر - بعد أن كان قد توقف عن العمل قبل ذلك بسبع سنوات، عام ١٩٢٤.

* من بين القضايا البارزة التي أظهرت أهمية علم الرموز في المخابرات، ما حصل في قضية النقيب اليهودي في الجيش الفرنسي دريفوس. في تمام الساعة التاسعة في صباح الخامس عشر من شهر تشرين الأول - أوكتوبر من عام ١٨٩٤، اقتيد النقيب دريفوس أمام محكمة عسكرية خاصة بتهمة التعامل مع الألمان وتسريب وثيقة تحوي معلومات عسكرية إلى الجيس الألماني. وقد اعتمد الإتهام، بصورة خاصة، على بعض التشابه بين خط دريفوس والخط الذي كتبت معلومات الوثيقة به. أخذت هذه القضية حجماً كبيراً، إذ اعتبر البعض، من سياسيين مناوئين للحكومة ومفكرين أن في القضية عداء للسامية وأن الاتهام افتراء، فدريفوس ليس إلا كبش محرقة في هذه القضية. في الأول من تشرين الثاني - نوفمبر - أرسل الملحق العسكري الإيطالي في باريس، العقيد بانيزاردي، رسالة بالشيفرة إلى حكومته يذكر فيها أن دريفوس غير معروف منه وكذلك غير معروف من زميله الألماني، وأنه يجهل

أن يكون المتهم قد عمل لحساب قيادة الجيش الإيطالي. هذه الرسالة جاءت إثر نشر خبر تعامل دريفوس مع ألمانيا أو إيطاليا في جريدة «الكلمة الحرة» في باريس. وهي جريدة معروفة بعدائها للسامية. ولما كانت جميع الرسائل، لا سيما السرية منها، مراقبة من قبل جهاز المخابرات آنذاك، فقد نقلت تلك الرسالة إلى الجهات المختصة لفك رموزها. هنا حصل الاختلاف الذي دام طويلاً بين الاختصاصيين بالشيفرة في كل من وزارة الخارجية والقيادة العسكرية الفرنسيتين. لقد ذكر في الرسالة ما يلي: «إذا لم يعقد النقيب دريفوس أية علاقة معكم، فقد يكون من المستحسن أن تشيروا على سفيركم أن يصدر تكذيباً رسمياً بعميلنا المشبوه». هاتان الكلمتان الأخيرتان فسرتا وكأنهما إدانة مموهة لدريفوس. أعيدت عملية فك رموز الرسالة على أيدي فرقاء آخرين. وكانت النتيجة أن ترجمت الرسالة كما يلي: «إذا لم يعقد النقيب دريفوس أية علاقة معكم، فقد يكون من المستحسن أن تشيروا على سفيركم أن يصدر تكذيباً رسمياً لتجنب تعليقات الصحف». لكن الخارجية الفرنسية لم تقتنع بهذه الترجمة الجديدة. ومما قاله «سندهر»، المسؤول فيها عن إصدار القرار: «في وزارة الخارجية، لا شيء يمكن اعتباره مؤكداً». هنا، وبغية إعطاء الحجة الدامغة لصحة الترجمة الثانية، عمد مانون، أحد ضباط المدفعية الفرنسيين المكلفين بالارتباط مع وزارة الخارجية، إلى حيلة. لقد دبّج، بمعرفة رؤسائه وموافقتهم، رسالة بالشيفرة التي استعملت في فك رموز رسالة بانيزاردي، تذكر معلومات مزعومة يمكن أن تثير اهتمام الإيطاليين. وأرسل هذه الرسالة بطريقة تجعلها تقع بين يدي بانيزاردي، الذي لا بد وأن يعمل على فك رموزها وإرسال صورة عنها مرمزة بالشيفرة نفسها. وهذا ما حصل بالفعل.

وبعد تحليل رموز رسالة بانيزاردي هذه، والتي وصلت إلى الفرنسيين من خلال مراقبتهم البريد، تبين أن الترجمة الثانية لرسالة بانيزاردي الخاصة بدريفوس صحيحة. لكن التدخلات من قبل بعض رجال الدولة من مدنيين وعسكريين والإحراجات التي سببتها لهم هذه القضية، وخصوصاً إمكانية إدانة البعض من الرؤوس الكبيرة، كل هذا أدى إلى عدم إعلان كل التفاصيل وبالتالي، إلى عدم إعلان براءة دريفوس إلا بعد سبع سنوات، عندما أطلق سراحه وعين فارساً في فرقة الشرف.

عندما انتهت قضية دريفوس عام ١٩٠٦، كانت أوروبا على أقل من عشر سنوات من الحرب العالمية الأولى. وكان العالم كله يتهيأ للحرب بكل ما لديه من وسائل. هنا برزت أهمية المخابرات فقد عكفت كل دولة على تنمية إمكاناتها في هذا الحقل منفقة المبالغ الطائلة ومجندة الإمكانات الكبيرة، كان هم كل منها، وإن بدرجات متفاوتة تتراوح بين البراعة والتخلف، والتوصل إلى ما لم يتوصل إليه سواها. وقد برعت في ذلك، بصورة خاصة، المخابرات العسكرية. وتألقت، في نطاق هذه المخابرات، أسماء أمثال فرنسوا بينيل وفرنسوا كارتييه من مدرسة البوليتكنيك، وكلاهما فرنسي. وقد توصل بينيل لأن يصبح الرئيس الأعلى لقسم الشيفرة الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى بعد أن استطاع حل رموز الشيفرة لتي كان يستعملها الألمان آنذاك.

واهتمام الفرنسيين بالمخابرات وفنونها، من الشيفرة إلى المخبرين إلى الجواسيس والمتطوعين أدى إلى تفوقهم بشكل بارز في هذا الحقل على أعدائهم. في حين أن الألمان كانوا في الحرب العالمية الأولى، كما في حرب ١٨٧٠، يعتقدون أن تفوقهم العسكري كفيل بتأمين انتصار ساحق لهم. لذلك أهملوا خلال هذه الحرب شأن المخابرات، ولم يعيروا ما يمكن أن يؤديه الراديو في هذا المجال من خدمات. أما انكلترا وإيطاليا، فلم تبلغ، هما الأخريان، ما بلغته فرنسا والنمسا والمجر من درجة عالية ومتطورة. فهذه الأخيرة استفادت من أمجاد غرفتها السوداء الراحلة. وفي عام ١٩١١، عندما اندلعت الحرب بين إيطاليا والدولة العثمانية حول ليبيا، وأمطرت السماء رسائل سرية من كل جانب عن الحرب، انتهزت هذه الدولة الفرصة فأسست دائرة للمخابرات ووضعت على رأسها النقيب أندريا فيكل، وجندت لها فريقاً درس بعمق الطرائق الروسية الفعالة آنذاك، خصوصاً في السلم. كما اشترت من إيطاليا بعضاً من نظم فك الرموز فيها توفيراً على عناصرها الإجهاد الفكري. كما ذكر في تبرير عملية الشراء. ومعروف أن علمية شراء أنظمة الترميز أصبحت شائعة في أوروبا وتتوسل ما يمكن تشبيهه بالزاد أو بالبورصة، بمعنى أن من يدفع أكثر يحصل على السلعة. وقد جعل هذا الوضع دولة النمسا ـ المجر مركزاً للجواسيس يأتونها من كل حدب وصوب يشترون ويبيعون.

ويروى أن كونتيسة إيطالية جميلة كانت على علاقة عاطفية حميمة مع ضابط

نمساوي ـ مجري، استطاعت في إحدى لياليها الدافئة مع عشيقها أن تسرق من حقيبته كتاباً من أسرار الشيفرة في بلده واضعة مكانه كتاباً آخر له شكل الكتاب الأول، إنما يحوي صفحات بيضاء، وعندما اكتشف الأمر بعد أيام. جن جنون الحكومة النمساوية ـ المجرية وقامت، دون جدوى، بحملة اعتقالات واسعة في صفوف العسكريين المدنيين. وعندما وصل الخبر صدفة إلى سمع ملحق في السفارة الروسية، ضحك وقال: «لقد عرضوا عليّ شراء هذا الكتاب بأربعمائة ألف روبل، لكني رفضت لأني وجدت أن الثمن باهظ» وقد ساعد هذا التصريح على اكتشاف الفاعل في ما بعد.

كما يروى أن أحد تجار الشيفرة باع الحكومة النمساوية ـ المجرية نظاماً ترميزياً صربياً ادعى أنه حصل عليه من ابن أخيه الذي يعمل في دائرة المخابرات الصربية. وقد استطاع هذا التاجر تضليل الحكومة المذكورة وإيهامها بأن هذه العملية، إن هي اكتشفت، ستكلفه رأسه لا محالة. وحتى يتم اللعبة، طلب من النمساويين ـ المجريين التأكد من أن الشيفرة هي فعلاً المستعملة من قبل حكومة صربيا، وذلك بمطابقتها على رسالتين موجهتين من صربيا إلى سفارتها في فيينا، وذلك بعد أن اتفق مع عميل له على إرسال الرسالتين إلى السفارة المذكورة للتضليل. اشترى النمساويون ـ المجريون الشيفرة بعشرة آلاف كورون. وكم كانت خيبتهم كبيرة عندما تبين لهم بالتجربة أن الشيفرة مزورة. فقد علموا أن الرسالتين اللتين تلقتهما سفارة صربيا، واللتين كانتا في أساس الاقتناع بالشراء قد أربكتا محللي الرموز في سفارة صربيا في البداية، إلى أن توصلوا إلى إهمالهما بعد أن وجدوا فيهما لعبة دون معنى.

غير أن النمساويين لم يكونوا المخدوعين دوماً. فقد استطاعوا اكتشاف ما لا يقل عن مئة وخمسين كلمة من شيفرة إيطالية كانت، لفترة طويلة، تستعمل بين روما والآستانة (استانبول).

وفي نطاق التحالفات بين الدول الهادفة إلى حماية أنفسها من أخطار مشتركة. تم، عام ١٩١١، تحالف في حقل المخابرات بين فرنسا وبريطانيا، وذلك في نطاق التنسيق بينهما إذا ما شنت حرب ضدهما أو ضد إحداهما. وقد تكررت اللقاءات

لهذه الغاية بين لمارتييه الفرنسي وسبيرس البريطاني إلى أن وضع مشروع متكامل بالمعنى أودع كلا من الأجهزة المختصة في البلدين.

كانت دقة المشروع تصل حتى إلى أصغر التفاصيل في التعاون بين البلدين. وبعد وضع اللمسة الأخيرة عليه في ربيع عام١٩١٤ أقدم أحدهم على اغتيال أرشيدوق في مكان ناء في البلقان، فاندلعت بين الأمم حرب طاحنة كبدتها خسائر لا تحصى في قدراتها البشرية والاقتصادية (هي الحرب العالمية الأولى).

الفصل الثالث

يقظة الغرب واستعمال المخابرات للرموز السرية

* غزا علم الرموز السرية الغرب مع انحسار الإقطاعية فيه وزوال ظلمات العصر الوسيط عنه. كانت الغزوة في البداية خجولة وبدائية، حتى في نطاق الكنيسة التي كانت السلطة العلمية الأقوى آنذاك.

منذ عام ١٢٢٦ بدأ الترميز السياسي يظهر في البندقية حيث وجدت في المحفوظات صلبان ونقاط تحل محل الكلمات. وأهم علم في هذا المجال كان الفهرسة.

بدأ الترميز مع لافند بوضعه فهرساً مكوناً من كلمات ومقاطع تقابلها رموزها. كان العدد في البداية لا يتعدى اثني عشر اسماً إلى جانب الطريقة الاستبدالية المعروفة، وأضحى في القرن الثامن عشر مع روسيا القيصرية يتجاوز الثلاثة آلاف.

ولعل الإيطالي ليون باتيستا البرتي هو أول الباحثين الذين طوروا طريقة الترميز وأبدعوا التعددية في الاستبدال. ودراسته في هذا الصدد، المكونة من خمس وعشرين صفحة مخطوطة باللاتينية، تعتبر أقدم عمل ترميزي في العالم الغربي.

غير أن الترميز في الغرب لم يتطور وينتشر إلا مع تطور الديبلوماسية. ذلك أن التوسع في إرسال السفراء إلى الدول الأخرى أدى إلى الحاجة السرية في نقل التقارير والمعلومات لما لهذا من تأثير على المنافسة بين الدول والحفاظ على مصالحها. ولعل التسمية التي كانت تطلق على السفراء وهي «الجواسيس الشرفاء» خير دليل على أهمية السرية في نطاق العمل الديبلوماسي.

في هذا الجو، أصبح اعتراض الرسائل ومصادرتها وبالتالي فك رموزها من الأمور المألوفة. وقد أدى ذلك بكل دولة إلى تجنيد الكثير من الاختصاصيين للعمل

الترميزي. حتى وصل الأمر بها، في نهاية القرن التاسع عشر، إلى جعل هذا العلم اختصاصاً يتفرغ إليه من يدرسه.

والبندقية كانت السباقة بين المدن الإيطالية في التألق بهذا الصدد بوجود سورو فيها. لقد استطاع هذا العالم الترميزي أن يبز جميع معاصريه بفضل ذكائه الخارق وعلمه الوفير. وقد دفع ذلك سائر الحكومات إلى مضاعفة جهودها للتصدي لحرب الرموز والمخابرات. هذا وكان الملوك والبابوات يلجأون إلى سورو كلما عصي عليهم فك رموز في رسالة مصادرة.

بعد البندقية تأتي فلورنسا وفيها بيرو موسيفيلي الشهير ونيكولاس مكيافيل - صاحب كتاب «فن الحرب» الشاهد على أهمية علم الرموز. ولا ننسى في هذا السياق جيكو سيمونتا، الذي كتب في ميلانو، إبان عصر النهضة، أول دراسة مخصصة كلياً لعلم الرموز.

وفي فرنسا، نذكر فيليبير باهو الذي كان يعمل في خدمة فرانسوا الأول، والذي كتب أحد معاصريه عنه يقول: «لقد كان عمله شاقاً ويتطلب الكثير من الوقت في البداية. ولكنه سرعان ما كان يتقدم مسرعاً في عمله بمجرد اكتشاف السر، شأنه في ذلك شأن من ترك حجارة الحائط أمامه بمجرد انتزاع حجر أساسي منها.

ولم يهمل الإنكليز هذا العلم. لقد كانوا يفضون الرسائل الدبلوماسية الموجهة من وإلى سفير البندقية، وكذلك، على الأغلب، رسائل سائر الممثلين الديبلوماسيين المعتمدين في بلاط هنري الثامن.

لكن الأشهر في هذا المضمار من كانوا في خدمة البابوات، وأولهم على الإطلاق ماتيو أرجنتي الذي لاحظ، من خلال خبرته الطويلة، أن علم المراسلات السرية كان ضعيفاً في بولونيا والسويد وسويسرا، وأن الألمان كانوا من الجهل بأنهم كانوا يفضلون حرق الرسائل السرية التي كانت تقع في أيديهم على بذل العناء في فك رموزها. غير أن كلاً من فرنسا وإنكلترا والبندقية وفلورنسا كانت مثار اهتمامه لطول باعها في هذا المضمار.

عام ١٥١٨، ظهر في الغرب أول كتاب من نوعه في علم الرموز والمخابرات للراهب جان تريتان. عنوان الكتاب «الخطوط المتعددة» في ستة مجلدات، لمؤلفه

جان تريتان، راهب ورز بورغ، سبانهام سابقاً، مهدى للإمبراطور مكسميليان».

والإسبان بلغوا شأواً بعيداً في إتقانهم للسرية والرموز لا سيما في الأمور العسكرية. حتى ان الرسائل المرمزة كانت تحمل مع الجند في الحرب كما يحمل السلاح. لكن ذلك لم يزدهر بشكل بارز إلا في أيام فيليب الثاني، الذي كان يهتم بأدق التفاصيل في مؤسسات حكمه. وقد كان الفهرس الرمزي، الذي وضع في عهده عام ١٥٥٦، أفضل ما استنبط بتاريخه ونموذجاً لعلم الرموز الاسباني حتى أواسط القرن السابع عشر. كان هذا الفهرس يتألف من قسمين: عام يتداوله السفراء في ما بينهم، وخاص محصور في مراسلات الملوك. وقد جاء وقت أصبحت فيه الإدارة التي تتولى الترميز وفك رموز الآخرين الجهاز الأقوى في الدولة، يتهيبه الجميع ويرهب جانبه كبار رجالات الدولة. حتى إن فيليب الثاني نفسه لم يكن، في بعض المواقف، لينجو من هذا التسلط.

عام ١٥٨٩، اعتلى هنري دي نافار عرش فرنسا وأصبح يعرف باسم (هنري الرابع) كان بروتستنتياً وهذا ما جلب له عداء «العصبة المقدسة» الكاثوليكية التي كان يرأسها دوق دولامايين.

كانت العلاقة وثيقة بين هذا الدوق وبين ملك إسبانيا فيليب الثاني، مما أثار الريبة في نفس هنري الرابع. وذات يوم، وقعت في يدي هنري الرابع رسالتان سريتان موجهتان من فيليب الثاني إلى دوق دي لامايين. وبغية فك رموز هاتين الرسالتين والوقوف على محتواهما، استدعى هنري الرابع فيات، أشهر علماء الجبر في فرنسا آنذاك وأحد ألمع العاملين في فك الرموز في عصره. انكب فيات على العمل مدة تقارب السنة، انتهى بنتيجتها إلى كشف الرسالتين بكاملهما وإرسال ترجمتهما إلى الملك. كانت الرسالتان تحويان سر تعاون دوق دي لامايين مع فيليب الثاني بهدف قلب هنري الرابع واعتلاء الدوق عرش فرنسا. وعلى الرغم من أن هنري الرابع كان قد سحق جماعة الدوق في معركة فاصلة بينهما وقعت قبل وصول ترجمة الرسالتين إليه من فيات، إلا أن فك رموز الرسالتين أثار أمامه أموراً عديدة كانت مؤثرة وفاعلة في مجريات السياسة الفرنسية في ذلك العصر.

* أما في إنكلترا، فقد لمع في عالم الرموز اسم هو توماس فيليب، الذي تبناه

وزير الملكة إليزابيت، فرنسيس والشنغهام. كان فرنسيس هذا يسعى لقتل الملكة لإحلال ماري ستيوارت، ملكة الايكوس، مكانها. بعد مراسلات عديدة سرية بين رجاله وبين ماري، استطاع إقناع هذه الأخيرة بالخطة. وكذلك إقناع فيليب الثاني، ملك إسبانيا بدعم ماري ستيوارت فور اعتلائها عرش انكلترا. والمعروف أن الكثلكة تجمع بين فيليب الثاني وماري. غير أن الخطة كشفت بعد فترة طويلة من تحضيرها وقبل وقت قصير من ساعة التنفيذ، اكتشفت بواسطة عميل مزدوج يدعى جيلبير جيفورد. وعندما وصل الخبر إلى الملكة أليزابيت، أمرت بالقبض على ماري ستيوارت وكل من اشترك في المؤامرة. وبعد يومين من المحاكمة، صدر عن المحكمة حكم بإعدام ماري. ويذكر المؤرخون بإعجاب الشجاعة التي تلقت بها ماري الحكم بموتها وهدوء الأعصاب الذي أبدته أمام المقصلة في تلك الصبيحة، صبيحة الثامن من شباط ـ فبراير من عام ١٥٨٧، وقولها المشهور وهي تصعد منصة المقصلة: «نهايتي هي بدايتي».

وفي سياق ذكر أهم الأسماء في عالم الشيفرة والمخابرات في الغرب إبان عصر النهضة، لا بد من إيراد الأسماء التالية:

١ـ الإيطالي جيوفان باتيستا بلساو صاحب كتاب «شيفرة السينيور بلساو».

٢ـ الإيطالي أيضاً جيوفاني باتيستا بورتا، صاحب الطريقة الحديثة للأبجدية المتعددة البدائل.

٣ـ الفرنسي جيروم كاردان، الباحث في أمور الترميز وصاحب نظرية تعليم العميان القراءة بواسطة اللمس. ولجيروم هذا لوحة ترميزية ظلت لفترة طويلة تستعمل إلى أن تجاوزتها طرق أكثر حداثة.

٤ـ الفرنسي فيجينير الذي ابتدع أسلوباً في الشيفرة الخاصة بالأبجدية البديلة. ألف نحواً من عشرين كتاباً أهمها «دراسة حول الأرقام أو وسائل الكتابة السرية». وهو كتاب من (٦٠٠) صفحة تضمن، إلى جانب خلاصة ما توصل إليه العالم في علم الرموز آنذاك، مواضيع عدة لا تمت بصلة إلى العنوان وتعالج الكيمياء والفلك والحساب وسوى ذلك من الأمور.

وهكذا رأينا أن عالَم الرموز في المخابرات لم ينقطع لا في الشرق ولا في

الغرب. إنه عالم الإنسان الذي يخشى الإنسان ويحاول، إن هو لم ينقض عليه، أن يحيط نفسه بالدفاعات اللازمة لسلامته، وذلك في أبسط الاحتمالات.

فجر التاسع عشر من نيسان - إبريل من عام ١٦٢٨، طوق الجيش الملكي الفرنسي بقيادة هنري الثاني مدينة ريالمون، جنوبي فرنسا، بغية إخضاع أهلها، وهم من الهوغنو البروتستانت لحكمه الكاثوليكي. ولم يكتف بالحصار، بل عمل قصفاً لحصونها ومراكز دفاعتها دون هوادة، والمدينة تقاوم بشراسة أدهشت المهاجمين وجعلتهم يتهيبون قوتها ويطلقون التكهنات في ما بينهم حول حجم هذه القوة.

وبينما الحرب مستمرة على هذا النحو، ألقى جيش هنري الثاني القبض، خارج حصون المدينة على أحد الهوغنو ومعه رساله سرية مرمزة يود تسليمها لرجال الهوغنو المدافعين عن المدينة خارج الأسوار. بعد عناء طويل، استطاع أحد أتباع الملك هنري فك رموز الرسالة، فإذا هي تشرح الوضع السيئ للهوغنو داخل المدينة بسبب النقص الفادح لديهم في الذخيرة والمؤن. وتخلص الرسالة إلى أن المدينة ستستسلم لا محالة إن هي لم تتلق فوراً الإمدادات اللازمة.

كان لتلك الرسالة أكبر الأثر في تقرير مصير المعركة. فقد ضاعف الجيش المهاجم على أثرها ضغطه على المدينة، بعد أن ارتفعت معنوياته بمعرفته وضعية العدو. وفي يوم الثلاثين من الشهر نفسه، استسلمت المدينة فدخلها الجيش المنتصر بفضل اطلاع القيادة على حالة البلاد الداخلية من جاسوس.

هذه المعركة غيرت وجه فرنسا الديني بتثبيتها حكم الكاثوليك بعد صراع دام وطويل بينهم وبين البروتستانت ولا شك في أن فك رموز الرسالة كان له الأثر الكبير في ذلك، وإن الفضل كل الفضل يعود إلى من قام بهذا العمل، وهو انطوان روسينيول الذي أصبح في ما بعد أكبر محلل رموز في عصره بفرنسا.

ويذكر تاريخ الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت أن انطوان روسينيول ساهم مساهمة فعالة في سقوط مدينة لا روشيل، معقل البروتستانت، في أيدي الكاثوليك. فقد استقدمه الداهية رشليو، بعد ما سمع عن نبوغه في فك رموز رسالة مدينة ريالمون. وخلال حصار مدينة لا روشيل من قبل الملك وجيشه الكاثوليكي، وقعت في أيدي هذا الجيش رسائل مرمزة مرسلة من حامية المدينة إلى قيادة

الأسطول الإنكليزي تطلب فيها الحامية من هؤلاء مساندة الأسطول لهم بشكل عاجل. استعين ببروسينيول الذي استطاع فك رموز الرسائل ومعرفة محتواها.

عندها، ما كان من الأسطول الملكي الفرنسي إلاّ أن وقف على شاطئ المدينة متربصاً بالأسطول الإنكليزي، الذي تهيب الموقف ولم يستطع التقدم خطوة واحدة نحو المدينة. بعد هذا لم تلبث المدينة أن سقطت في أيدي الجيش المهاجم، وسقط معها آخر معقل بروتستنتي فرنسي في تلك الحروب الطويلة، كما بزغ فجر تاريخ عريق لعلم الرموز وفنون المخابرات في فرنسا.

كافأ الملك روسينيول على نبوغه وإخلاصه، فقربه إليه وجعله في خدمته. وقد ظل هذا العالم في البلاط من عهد لويس الثالث عشر إلى عهد لويس الرابع عشر، ويذكر أن لويس الثالث عشر أوصى ولي عهده، وهو على فراش موته، بالحفاظ على روسنيول من بعده. حتى ان الكاردينال مازاران، خليفة رشليو، أعطاه وظيفة مدير الحسابات. وهذا ما جعله، إلى جانب عمله الأساسي كمحلل للرموز، رجلاً مهماً في الدولة، عالماً بمعظم خفاياها وواقفاً على أهم أسرارها. ظل روسينيول يعمل دون كلل إلى أن توفي في شهر كانون الأول ـ ديسمبر عام ١٦٨٢، قبل أيام من عيده الرابع والثمانين في الأول من شهر كانون الثاني ـ يناير التالي.

بعد موته، خلفه في عمله، كمرمز ومحلل للرموز، ابنه بونا فنتور، الذي لمع في مهنته بشكل متقارب من أبيه. إن نجاح روسينيول ومن بعده ابنه، أظهر أهمية المخابرات في حياة الدولة السياسية والعسكرية والديبلوماسية. وهذا ما جعل ملوك فرنسا يغدقون العطاء لكل من أظهر كفاءة أو أبرز براعة في هذا المضمار. وقد أدى هذا الاهتمام إلى إنشاء «الغرفة السوداء» الفرنسية التي أوكلت إليها طوال القرن الثامن عشر مهمة قراءة وتحليل رسائل الديبلوماسيين الأجانب.

كانت الغرف السوداء متشابهة آنذاك، لكن غرفة فيينا كانت الأفضل في أوروبا. كانت تعمل بفعالية خيالية. تتلقى كل صباح، الساعة السابعة، جميع الرسائل الموجهة إلى السفارات. تفتح هذه الرسائل وتحال إلى مدير معاون ليقرأها ويأمر بنسخها أو نسخ المقاطع الهامة فيها. بعد ذلك، تعاد إلى مغلفاتها وكأن شيئاً لم يكن. وعند الساعة التاسعة والنصف، كانت تلك الرسائل تأخذ طريقها عائدة إلى

مركز البريد. بعدها ينكب جيش من المترجمين ومحللي الرموز على النسخ، ولا يتركونها إلا وقد دبجت بالألمانية وأرسلت إلى المراجع المختلفة.

كانت الغرفة السوداء موضع اهتمام الملوك شخصياً. فشارل الرابع كان يمنح عناصرها مكافآت سخية. كذلك الإمبراطورة ماري تيريز التي كانت تجمع في ديوانها العاملين في الغرفة، تدرس وإياهم أفضل السبل لتطوير فنهم، مغدقة عليهم العطاءات والمنح دون حساب حتى ان التشجيع وصل لدرجة حثهم على التوصل، بشكل أو بآخر، إلى مكاتب السفراء المعتمدين في العاصمة ليسرقوا منها ما استطاعوا من رسائل ومستندات.

كان لإنكلترا أيضاً غرفتها السوداء بإدارة مديرها الشهير جون واليس المعروف بأنه أشهر عالم في الرياضيات قبل نيوتن.

بدأ واليس عمله كمحلل للرموز وكبارع في عمل المخابرات بطريق الصدفة، فقد تلقت يوماً الليدي فير، التي كان يعمل واليس في خدمتها، رسالة مرمزة، وجدها خادمها على باب بيتها استغربت الأمر وعرضته على واليس، فما كان منه إلا أن انكب على درس رموزها وتحليلها. وما هي إلا ساعات حتى توصل إلى إعادة كتابة الرسالة باللغة الإنكليزية وعرضها على الليدي. ونتيجة لهذه التجربة، تشجع واليس في التوغل بهذا الحقل. وفي عام ١٦٤٣، كلفه البرلمان الإنكليزي بحل رموز رسائل كان قد بعث بها شارل الأول خلال الحرب الأهلية. وفي عام ١٦٦٠، كشف واليس أسرار مفاوضات شارل الثاني مع الوزراء الإنكليز لإعادته إلى عرش إنكلترا. وقد كافأه شارل الثاني بعدئذ بأن عينه مديراً لخزانته. وعام ١٦٨٩ استطاع واليس كشف رموز رسالة بعث بها ملك فرنسا إلى سفيره في بولونيا، وفيها يعرض على ملك هذا البلد التحالف في حرب ضد بروسيا. وفي تاريخ المخابرات الإنكليزية اسم شهير آخر هو الأب ويلز، الذي استطاع إجهاض عدة حركات تمرد داخل إنكلترا بفضل كشفه لرموز رسائل كان المتآمرون يتبادلونها في ما بينهم لتحضير المؤامرات. وبعد موته عام ١٧٤٢، خلفه تباعاً ولداه إدوارد وفرنسيس، ومن بعدهما أحفاده إدوارد ووليم وفرنسيس.

سنة ١٧١٤، اعتلى جورج الأول عرش إنكلترا، وقد اهتم هذا الملك اهتماماً

بارزاً بالمخابرات ورجالها في المملكة. كما أقام تعاوناً وثيقاً بين الغرفتين السوداوين الإنكليزية والألمانية.

بلغ إنتاج الغرفة الإنكليزية خلال القرن الثامن عشر معدلاً لا يتراوح بين رسالتين أو ثلاث في الأسبوع الواحد. أما مصادر الرسائل فكانت فرنسا والنمسا والدويلات الألمانية وبولونيا وإسبانيا والبرتغال وهولنده والدانمرك والسويد وسردينيا ودويلات إيطاليا واليونان وتركيا وروسيا وأخيراً الولايات المتحدة. بلغت محفوظات المراسلات الفرنسية المصادرة محتوياتها خمسة مجلدات مجموع صفحاتها (٢٠٢٠) صفحة، بالإضافة إلى مجلدات ثلاثة تبحث في طرق فك الرموز، وذلك كله خلال قرنين من الزمن، ولم تتخلف الولايات المتحدة عن هذا المركب، على الرغم من حداثة سنها ومن عدم أهيمة مراسلاتها، ففي رسالة أرسلها لافاييت من فيلادلفيا عام ١٧٨٠ إلى وزير خارجية فرنسا، تبين، بعد تحليل رموزها، أن كاتبها يقترح غزو الجيوش الفرنسية لولاية نيويورك وإن واشنطن تزمع غزو كندا، إلى جانب معلومات عن قوة النقد المحلي وتيارات الرأي العام هذه الرسالة رُمي بها في البحر من على السفينة التي كانت تنقلها، بعدما استولى عليها الإنكليز في عرض البحر. لكن أحد البحارة الإنكليز نزل إلى الماء واستعاد الصندوق الذي كان يحويها.

هذا التاريخ الحافل للغرف السوداء في أوروبا لم يلبث أن اضمحل تحت وطأة ضربات الحركات الثورية، التي كانت بمعظمها تتمحور حول حرية الإنسان وعدم جواز التدخل في شؤون الآخرين وكشف أسرارهم. وهكذا، ومنذ عام ١٨٤٠، إبان الهبّة الثورية ضد التسلط والانفراد، بزغ فجر جديد لمفاهيم جديدة. لم يعد يسمح بفتح الرسائل من قبل الحكومة، فتلاشى مفعول الغرف السوداء.

وفي شهر تشرين الأول - أوكتوبر من عام ١٨٤٤، اضطرت الحكومة الإنكليزية إلى التوقف عن فتح كل أنواع الرسائل، الخاصة منها والدولية، كما أنه أعلن عن حل إدارة المخابرات وفك الرموز في العام نفسه. وسنة ١٨٤٨ حُلت الغرفة السوداء النمساوية الذائعة الصيت. أما في فرنسا، فقد اختفت هذه الغرفة بعد أن كانت قواها قد انهكت تحت وطأة الضربات المتتالية من قبل الثوار الفرنسيين المشبعين بروح الحرية الفردية واحترام حقوق الإنسان. وهكذا انتهت حقبة الغرف

السوداء في أوروبا بعد أن أدت قسطها في خدمة أغراض دولها وحكام تلك الدول.

وقد عادت المخابرات الفرنسية في القرن العشرين للإطلاع على محتويات الحقائب الديبلوماسية بشكل مغاير للاتفاقات والأعراف الدولية التي تمنع التعرض للحقائب الديبلوماسية، حيث قامت هذه المخابرات بالإيعاز لأحد عملائها عام ١٩٦٥ بسرقة الحقيبه الديبلوماسية للمناضل المغربي الراحل (المهدي بن بركة) في مطار باريس الدولي أثناء استراحته حيث سلمت الحقيبة لمختبر المخابرات الفرنسية المتواجد في أحد أبنية المطار فتم فتح أقفالها من قبل خبراء المخابرات أيضاً (كانت المخابرات الفرنسية تستخدم بعض أصحاب السوابق من المجرمين المحترفين) وجرى تصوير جميع الأوراق التي كان المهدي يحملها، والتي سببت فيما بعد (تصفيته سياسياً لصالح وزير الداخلية المغربي السابق).

الفصل الرابع

تنوع أعمال المخابرات



** لماذا السفارات هي مراكز تجسس شرعية في هذا العصر ولماذا الملحقون والموظفون بالعشرات بل بالمئات فيها؟*

في البدء كان التجسس العسكري، وكان التجسس العسكري هو الأهم وكان محصوراً في الغالب بالفترة التي تقع فيها الحرب.

اليوم تنوعت الحروب وتنوعت أعمال المخابرات.

اليوم صار يهم كل دولة مهتمة بمصيرها أن تعلم ماذا يجري في الدول الأخرى في الحقول الاجتماعية والصناعية والزراعية والتطويرية عامة والسياسية وحتى النقابية والطلابية.

اليوم صار في تعابيرنا ما يسمى الحرب الحامية والحرب الباردة وما يسمى الهدنة بين دولتين وما يسمى عدم اعتراف هذه الدولة بوجود تلك.

الحرب الحامية هي وحدها الحرب «الممتازة» التي تقارن بأية حرب ماضية بالمعنى المعروف ولكن ماذا من أمر الأصناف الباقية؟ أليست حروباً بشكل أو بآخر؟ الدولة التي هي في هدنة مع دولة أخرى، والدولة التي ليس بينها وبين دولة أخرى معاهدة صلح، والدولة التي لا تعترف بوجود دولة أخرى: أليست هذه التصنيفات كلها دليلاً على وجود حال من العداء أو من الحرب بتصنيف أو بآخر؟

على هذا الأساس، ينص منطق الدولة، هذه الأيام على القول إن المخططين

العسكريين صاروا يضعون برامجهم في التحصن والتسلح والتدريب والهجوم ارتكازاً على معرفتهم بعناصر متجمعة لديهم عما لدى الدولة العدوة في جميع الحقول.

رئاسة الأركان في الدولة التي تحترم نفسها هي التي تسعى إلى معرفة أوضاع كثيرة غير تلك العسكرية الصرفة، لدى العدو المباشر. مثلاً: ما هي أوضاع الصحة العامة؟ ما هو مقدار تفشي الأمراض الوبائية والجلدية؟ ما هو مقدار توافر المياه؟ ما هي الزراعات التي يعيش عليها العدو؟ ما هي مصانعه؟ إلى أي حد تصل القدرة الإنتاجية عند العمال؟ ما هي أوضاع العمال المعيشية؟ هل يمكن تحريكهم لإعلان الإضراب في الوقت اللازم لدحرجة انتاج البلاد إلى الهوة؟ ما هو الوضع النفساني في البلاد؟ هل المواطنون مطمئنون إلى سلامتهم؟ هل يؤيدون حكومتهم؟ هل يفضلون أي حكم ولو احتلالياً على حكمها؟

إلى أي حد يستعد الأفراد للخيانة بسبب نقمتهم على الحكم القائم؟ إلى أي حدّ، رغم الخيانة يتقبلون هجوم جيش أجنبي وتمركزه عندهم كمحتل؟ ما هي مشاكلهم المعيشية التي يمكن أن يحلها لهم جيش محتل حتى يتعايشوا ويتعاونوا معه؟

ثم وكذلك: ما هو راتب الجندي؟ ما هي ترتيبات حكومته لتجعله يطمئن إلى عائلته إذا جرح أو أسر؟ مع أن صحته جيدة وأعصابه ممتازة. هل يمكن خلخلته نفسياً حتى لا يقاتل؟ ما هو نوع سلاحه ومبلغ ذخيرته؟ هل يطمئن إلى الشعب الذي يقاتل من أجله؟ هل بينه وبين سائر الشعب تجاوب؟ هل يقاتل من أجل شعب بلاده؟ هل أصبح جندياً للاعتياش أم أنه جندي في سبيل الحفاظ على الوطن؟ هل له عقيدة سياسية أو وطنية عامة ثابتة؟ هل يثق بالضابط الذي يقوده؟ ما هي الهوة النفسانية التي يمكن حفرها بينه وبين ضابطه.؟

الأسئلة لا تنتهي، لكنها كلها تطرحها على نفسها أية هيئة أركان محترمة في هذا العصر. كل الأجوبة على هذه المتطلبات لا تأتي إلا بعمل المخابرات الشامل.

خريطة عن المجارير لها أهميتها. خريطة عن تمديدات الكهرباء لها أهميتها. خريطة عن قساطل المياه الرئيسة والفرعية لها أهميتها. خريطة عن شبكات الطرق لها أهميتها. لائحة بأسماء مخاتير القرى لها أهميتها. دراسة عن مدخول الفرد في المدينة ومدخوله في القرية لها أهميتها.

مسائل من هذا النوع هي دائماً مفيدة لكل خصم. إنها لا تهم رئاسة الأركان

وحدها بل تهم الوزارات المتعددة في الدولة لأخذ العلم بكل شيء.

المسائل الصناعية تكاد تكون كافية وحدها كدافع لإنشاء المخابرات. كل الدول في هذا العصر تريد أن تتقدم صناعياً. الصناعة صارت أشبه بعقدة النقص عند بعض الدول نصف المتقدمة أو حتى المتقدمة كلياً. كل دولة، مهما كان تصنيفها صناعياً، تريد في هذا العصر أن يزداد تقدمها الصناعي ومع التقدم الصناعي يكرج التقدم العلمي والعكس بالعكس. ومع التقدم الصناعي تحلّ مشاكل كثيرة تتعلق بتشغيل الناس ورفع مستواهم المعيشي وزيادة تقدمهم الاجتماعي وتنسيق إداراتهم النقابية والحكومية.

من التجسس الصناعي والعلمي وحده هذه الأيام قد تصل أية دولة إلى معرفة ما لدى الدولة الأخرى من إمكانات القوة الدفاعية والهجومية. الجائع والمحتاج والعاطل عن العمل والمهترئ عصبياً ليس ولا يمكن أن يصبح جندياً بقياسات ومتطلبات حروب الثلث الأخير من القرن العشرين. الفلاح لا يمكن بين ليلة وضحاها أن يقف وراء الدماغ الالكتروني.

الإحصاءات جزء من عمل المخابرات. الدراسات العلمية جزء آخر من عمل المخابرات. معرفة أي تطور طبي في جراحة الكلية، مثلاً، جزء ثالث من المخابرات.

المخابرات، وما الذي لا تشمله أو يمكن أن يبقى بعيداً عن ميدانها في هذا العصر الذي وصلنا إليه؟

والمخابرات باتت جزءاً أساسياً من هيكل الإدارة الحكومية وفعلا تمارسه الدول الكبرى في جملة الأفعال التي تمارسها عن طريق الوزارات القائمة في حكوماتها.

المخابرات عالم قائم في ذاته وهي تحتاج إلى جهاز تنفيذي. وما كان منها في ما وراء حدود أي بلد، فهو ما تقوم به السفارة المعينة في ما وراء هذه الحدود. كذا، شرعاً وقانوناً وضمن حصانة في نطاق المعقول.

هذا ما تمكنا من معرفته لتقديمه للقارئ حتى يبقى معنا على اطلاع تام عن عمل المخابرات خلال السفارات واستغلال الحصانات لتمرير المؤامرات في كل زمان ومكان.

وننتقل إلى نوع آخر من أعمال المخابرات في العالم - في التسعينات لا فرق.

ثورة في عالم الاستخبارات

* الثورة حدثت في الوسائل والأساليب، وهذا مما لا شك فيه. الوسائل ـ الآلات تغيرت في حدّ فائق. الاختراعات سهلت السمع والنظر البعيدين وجعلتهما في متناول أجهزة المخابرات على نطاق واسع.

ومع كثرة الاختراعات الآلية كثرت المهمات الملقاة على عاتق أجهزة المخابرات.

قلنا إن المخابرات كانت في الأساس عسكرية محضة إذ كانت بدايتها مجرد الاستكشاف قبل المعركة. منذ الحرب العالمية الأولى وبصفة خاصة منذ الحرب العالمية الثانية صارت المخابرات شاملة أكثر حول الحياة. التجسس والاكتشاف العسكريان صارا جزءاً من عالم أوسع بكثير. صارت المخابرات تهتم بالاختراع الجديد وبتمديدات المياه وبشق الطرقات وبمواقع مولدات الكهرباء وباسم النقيب الجديد لهذه الفئة العمالية أو تلك وبطريق انتخاب هذا النائب أو ذاك وبمبلغ ثروة هذا أو ذاك من الناس. باختصار: صارت المخابرات تريد أن تعرف كل شيء عن الناس في كل ظرف وتاريخ.

ومعرفة كل شيء بشكل دائم مسألة تتطلب الرجال والمال، كما أن صدّ الآخرين عن معرفة كل شيء يتطلب الرجال والمال (أي عمل مكافحة الجاسوسية).

توضيح

* إذا كانت المخابرات لهذه الدولة مهمتها جمع المعلومات في تلك الدولة، فمهمة مخابرات تلك الدولة هي أيضاً جمع المعلومات في هذه الدولة. ما يسري على الآخرين يسري على النفس.

هذا كله يحتاج إلى ألوف الرجال والنساء والى ملايين الدولارات كذلك يحتاج إلى شيء أساسي آخر لم يرد الحديث عنه بعد.

هذا الشيء الآخر هو الجهاز الداخلي في كل بلد، المضاد للمخابرات الأجنبية العاملة فيه. الجاسوس يحتاج إلى من يكشفه ويلقي القبض عليه ويقدمه إلى القضاء.

ومن يريد أن يكشف الجاسوس، يجب أن تتوفر لديه إمكانات إن لم تكن أكثر من إمكانات الجاسوس فعلى الأقل مساوية لها.

لذا يقوم في كل بلد ما يسمى بجهاز الأمن. هذا الجهاز تختلف تسمياته ومهماته باختلاف البلدان لكن وظيفته الرئيسة هي التكفل بمراقبة نشاط الجواسيس والعملاء من الأجانب ومن المواطنين المحليين وتعقبهم وحتى الاندساس في صوفهم والتعرف إلى خلاياهم وارتباطاتهم ووسائلهم.

جهاز الأمن يماثل جهاز المخابرات في أشياء كثيرة لكنه صاحب مسؤوليات إضافية هي في الغالب مسؤوليات الشرطة. رجل جهاز الأمن يزود بسلاح ناري في أكثر البلدان ويجري التعقبات والمطاردات ويعرض نفسه في ظروف كثيرة لأن يكون إما قاتلاً وإما قتيلاً.

ومع اختلاف هوية الجهازين في كل بلد. المخابرات والأمن، فقد قضت العادة في أكثر البلدان أن يكون بينهما رابط قوي وتنسيق دائم. أكثر الدول تشكل لجنة مشتركة من رئيسي الفرعين ومن موظفين كبار آخرين لهم علاقة بتنفيذ مخططات الدولة.

والتنسيق ضمن هذه اللجنة المشتركة ضروري للغاية ما دام أنه تنسيق فحسب. لماذا؟ لأن سيطرة أي من الجهازين على الآخر تؤدي إلى فقدان التوازن الإداري والوظيفي وبالتالي إلى أحد أمرين: إما جعل جهاز المخابرات الخارجية أداة تنكيل داخلية وإما جعل جهاز الأمن الداخلي أداة ارتكاب أخطاء فادحة في البلدان الأجنبية. الخطورة هذه مرتكزة إلى نوعية التخصص في كلا الجهازين وما يفرضه هذا التخصص من التزام ضمن حدود معينة.

وجهاز المخابرات الخارجية والأمن الداخلي يزدادان توسعاً في أكثر بلدان العالم. صارا جزءاً من الحكم والإدارة وجزءاً من كل شيء يومي في البلد. أي بلد حديث في العالم لا يستطيع أن لا يركز في أطره الإدارية جهازاً للأمن الداخلي (السري طبعاً) بالإضافة إلى جهاز المخابرات وأن ينفق على هذا وذاك عشرات الملايين.

حدود عمل المخابرات

* إذاً أصبحت المخابرات، كتعبير شامل جزءاً أساسياً ضرورياً من الإدارة الحكومية العامة لأي بلد، فما هو مبلغ فعلها وتفاعلها مع التخطيط العام المرسوم دستورياً لهذا البلد؟

عند هذه النقطة تكثر الخلافات في الرأي وتتوسع آفاق المناقشات. المفروض أن تكون المخابرات واحدة من أجهزة الدولة وإدارتها والمفروض أن تعمل هذه المخابرات بموجب التخطيط أو الهيكل العام الذي وضعته الدولة لعملها.

والمخابرات برجالها، جزء من المجتمع. فإلى أي حد تعتبر هذه القوة السرية نفسها قادرة على لجم نفسها وهي على ما هي عليه من حرية في التصرف حسبما كفل لها القانون ذلك؟

في أكبر الدول الغربية أمثال متكاثرة على مدى الفضيحة التي يغرق فيها النظام بسبب حرية التصرف عند مخابراتها التي فاقت المعقول في تفسير مدى مسؤولياتها.

في الدول الشرقية أمثال على حالات كثيرة كانت فيها المخابرات أشبه بالهيئة الحاكمة بل وكذلك المتحكمة، بسائر المواطنين ومصائرهم.

والمخابرات المركزية الأميركية رتبت مؤامرات على عدد وفير من دول العالم إلى حد أن البيت الأبيض وجد نفسه ملزماً في عدد وفير من المرات بإصدار بيانات متناقضة حول مدى معرفته بهذه المؤامرات وتبنيه لها. المخابرات البريطانية كانت لها فضائح مماثلة وكذلك المخابرات الفرنسية.

المخابرات السوفياتية التي كانت ذات يوم جهازاً واحداً مع الشرطة السرية الداخلية، كانت هي العنصر الأول في التنكيل والذبح والسحل خلال عمليات ترسيخ النظام وفي القضاء على الخصوم الداخليين أو في عمليات التطهير التي ذهب ضحيتها ملايين البشر في أواسط الثلاثينات.

عود إلى بدء: هل كانت هذه التصرفات في الغرب والشرق من تخطيط المخابرات وحدها أم أن المخابرات كانت تتلقى الأوامر بما كانت تقوم به؟

الأوامر، ولا شك اعطيت بشكل من الأشكال، والمخابرات راحت تتصرف

بما لها من قوة سرية رهيبة، وتضيف تفسيراتها ووسائلها هي في السر على خط لم يرسمه لها الآمر الأول والمسؤول الأول في الدولة.

الأمثال على ذلك كثيرة

* هذا السؤال مطروح، ليس في الدول الكبرى من شرقية وغربية فحسب، بل كذلك من دول العالم الثالث حيث تأخذ المسألة أبعاداً رهيبة.

في ٩٩و٩٩ بالمئة من دول العالم الثالث يعتبر السؤال مطروحاً، هل الحاكم هو الذي يأمر المخابرات أم أن المخابرات هي التي تتحكم بالحاكم، أو بالحكم أو بالنظام من وراء الحاكم؟ كثيرون من مفكري هذه الدول طرحوا هذا السؤال وعرفوا له جواباً لكنهم كانوا عاجزين عن التحرك وطرح المسألة للنقاش العام.

ليس أسهل على المخابرات في الكثرة الساحقة من دول العالم الثالث من أن تسيطر على وسائل الإعلام من تلفزيونية وإذاعية وصحافية وليس أسهل عليها من شراء أصحاب العلاقة كباراً وصغاراً وليس أسهل عليها من إقناع هؤلاء بأن ما يفعلونه لمصلحتها إنما هو العمل المفيد لمصلحة البلاد ككل.

هذا الارتداد إلى الداخل كان بالنسبة إلى المخابرات القائمة في بعض دول العالم الثالث بمثابة متنفس لها لإثبات وجودها. أكثر دول العالم الثالث ليست قادرة، لا مالياً ولا أدبياً على ملاحقة شؤون غيرها مهما بلغت بها الحاجة إلى ذلك.

مخابراتها في هذه الحال تتحول من عنصر يلاحق العدو الخارجي إلى عنصر ينكل بالخصم الداخلي.

وتتطور الأمور وتتحول المخابرات من عنصر تنكيل لحساب غيرها إلى هيئة شبه مستقلة تفتح دكانها على حسابها من أجل التنكيل والتحكم إلى الحد الذي يصبح فيه أعيان البلاد ووجهاؤها عملاء عندها يأتمرون بأوامرها وينفذون ما تريده منهم المخابرات بإسمها كلما هزت لهم العصا.

خلال رئاسة الجنرال ايزانهاور كانت السياسة الأميركية مرتكزة على (الافتراض) أن الاتحاد السوفياتي وضع موعداً محدداً لهجوم شامل صاعق على الولايات المتحدة

ذلك الافتراض تعاظم بسبب التفسيرات المخيفة المبنية على معلومات المخابرات خلال الازمات الكبرى للحرب الباردة (في حينه).

وفي المقابل، فإن الاهتمام الأميركي بـ«الموعد السوفياتي» قاد إلى المزيد من طلب المعلومات الاستخبارية عن الاتحاد السوفياتي وهذا ما دفع الرئس ايزنهاور إلى الموافقة على تنفيذ برنامج التجسس بطائرات «يو - ٢» الذي كان فعالاً للغاية ولو خطراً، والذي انتهى بالنتيجة إلى تقريب العالم من حافة الحرب الذرية، لقد أثبت حادث إسقاط طائرة «يو - ٢» فوق الأراضي السوفياتية أن التجسس قد أصبح خطيراً جداً في العصر الذري.

بالإضافة إلى ذلك فإن أجهزة المخابرات خلفت أخطاراً رهيبة ضمن الهيكل المجتمعي بالذات فالقوة السرية لا يمكن الإشراف عليها بسهولة كما أن المسلحين بهذه القوة يتسترون بطريقة ذكية وراء بقية الآلات الحكومية.

أول رئيس للمخابرات المركزية الأميركية آلان دالس قال ذات يوم: «المخابرات هي الآلة الفضلى للتآمر. فالعاملون فيها يستطيعون أن يفعلوا ما يشاؤون من غير أن يطرح عليهم أحد أي سؤال. كل نتفة من ورق وكل قرش من نفقاتها وكل اتصالاتها وحتى اتصالاتها مع العدو هي من أسرار الدولة».

آنذاك قيل: إنَّ دالس كان يتحدث بصفة خاصة عن المخابرات العسكرية الألمانية في العهد النازي، محاولاً بذلك الإيحاء بأن هكذا مخابرات تؤثر على تصرفات حكوماتها لا تزال غير متوافرة بهذا الشكل في الغرب.

دالس حر أن يقول ما يريد عن النازيين، لكن الرجل قال شيئاً يشمل نظام بلاده بالذات ومخابراته.

الواقع أن الديمقراطيات الغربية لا يمكن استثناؤها من الأخطار الرهيبة الناتجة عن إقامة مراكز كبيرة للقوة السرية ضمن إطار هيكلها أي جهاز مخابرات، هكذا أثبتت التجربة في أكثر الديمقراطيات الغربية، يستطيع أن يخطئ وأن يسيء التصرف، بالصدفة أو عن قصد فيحرج موقف الحكومة أو حتى يجعلها تنزلق على قشرة موز.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان من السذاجة الاعتقاد أن مؤسسة سرية كبيرة،

متغلغلة في قلب المجتمع، ستحصر اهتماماتها بالعمل كلياً خارج إطار مجتمعها بالذات. كان ولا يزال من الصعب جداً تمييز ولو جهاز مخابرات واحد ليست له تدخلات وتفاعلات ضمن حدود بلاده بالذات وأسباب ذلك واضحة ومنطقية وخطيرة.

على هذا الأساس كان للمخابرات مشاكل معقدة وصعبة في الولايات المتحدة. فالشعب الأميركي كان تقليدياً يُسرح قواته المسلحة في زمن السلم وإلى حد أن الولايات المتحدة ان لم يكن لها جهاز مخابرات رسمي حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية.

الفكرة السائدة في الولايات المتحدة قبل الحرب العالمية الثانية كانت تلك التي أعرب عنها وزير الخارجية الأسبق هنري ستيمسون الذي أغلق الغرفة السوداء في وزارة الخارجية والتي كانت مهمتها حلّ رموز البرقيات وأطلق جملته الشهيرة: أيها السادة، لا تقرأوا بريد بعضكم بعضاً نريد بعض الحياء».

في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية كان رأي من هذا النوع قد أصبح من المستحيلات فقد بدأت الحرب الباردة وكثرت فيها المؤسسات السرية التي تقاتلت بوسائل لا علاقة لها بالأخلاق الحميدة التي تعلمها المدارس أبناء الوطن.

وعند هذه النقطة بالذات شعرت الحكومة الأميركية بالحاجة القصوى إلى التستر على هذه الوسائل وإلى نفي وجودها، مما أوجد وضعاً معقداً من المواقف العلنية وكذلك الاستخلاص الخاطئ أنه من الضروري دعم الحق في الحياة والحرية بالحق الكامل في الكذب.

في مناسبات كثيرة كانت مشاكل الحكومة الأميركية في «صدق» مواقفها أنها كانت مضطرة إلى إعطاء بيانات رسمية مغلوطة لحماية نشاط المخابرات. جونسون لم يكن ذاك الذي أوجد البيانات البعيدة عن الصدق، قبله ومنذ عهد ايزنهاور وعبر عهد كينيدي، انتعش الكذب الحكومي والبيان المضلل في سبيل تغطية النشاطات المرتبطة بالمخابرات.

عام ١٩٥٤ بدأ التضليل الأميركي الرسمي المفضوح عندما اضطرت حكومة

ايزنهاور إلى نفي وجود أية علاقة للمخابرات المركزية الأميركية بعملية قلب النظام في غواتيمالا.

عام ١٩٥٨ أصدرت الحكومة الأميركية بياناً تنفي فيه أي دور للمخابرات المركزية في الثورة التي قامت ضد سوكارنو في أندونيسيا.

عام ١٩٦٠ نفت الحكومة الأميركية في البداية أن تكون قد أرسلت طائرات «يو ـ ٢» فوق أراضي الاتحاد السوفياتي. لكنها بعد ذلك تعرضت لفضيحة مخزية عندما أمعن خروتشوف في تحطيم كرامة الرئيس ايزنهاور برفض استعداده للاجتماع به في باريس، مع أن الاثنين كانا قد وصلا إلى العاصمة الفرنسية للاجتماع.

عام ١٩٦١ ادعى الرئيس كينيدي أن «مجهولين» هم الذي قاموا بعملية خليج الخنازير في كوبا، فيما كانت حكومة كينيدي بالذات عام ١٩٦٢ تصدر التصريحات المضللة الواحد بعد الآخر خلال أزمة الصواريخ السوفياتية في كوبا (وهو الذي سمح بالعملية).

كل هذه التراكمات قادت إلى وضع فريد في الوقت الحاضر من العداوة بين الحكومة والشعب في الولايات المتحدة. لقد توسع اختلاط الأمور على الأميركيين في السنوات الأخيرة إلى حد أن كثيرين منهم مستعدون لتصديق أي شيء يقرأونه مهما كان مبلغ ما فيه من إشاعات أو صدق ولوضع علامة استفهام وشك حول أكثر ما تقوله لهم الحكومة في بياناتها الرسمية.

ماذا كانت النتيجة؟ كثيرون استخلصوا الرأي بأن الوضع في الولايات المتحدة بات سقيماً للغاية وأن مثل هذا الوضع ليس بعيداً عن المواقف المتطرفة التي تشهدها البلاد في الظروف الحاضرة.

المثال الحي على ذلك أن أميركيين كثيرين ما زالوا يعجبون للفشل الذي آلت إليه لجنة وارن في جعل الناس يصدقونها في ما قالته بسبب كثرة الألغاز المتعلقة بالمخابرات الواردة في تقريرها عن اغتيال الرئيس كينيدي[1].

(١) مخابرات الرئيس الراحل كينيدي هي التي اشتركت في تصفيته بسبب عدم موافقته على تآمرها ضد الشعوب، القصة الكاملة الحقيقية لاغتيال الرئيس كينيدي نشرت في الجزء الثاني من سلسلة كتبي (المخابرات والعالم) في الصفحة ٢٧٧ والكتاب من إصدار دار الجيل في بيروت.

من ذلك أن مارينا بروساكوفا كانت مقيمة مع عمها إيليا بروسكوفا، وهو برتبة كولونيل في المخابرات السوفياتية، يوم التقت لي هارفي أوزوالد في مدينة مينسك السوفياتية هناك احتمال بأن تكون المخابرات السوفياتية قد حققت في أمر أوزوالد وذلك عن طريق الصليب الأحمر السوفياتي من أجل مساعدة أوزوالد على العيش في الأراضي السوفياتية. أوزوالد جرى معه التحقيق مرتين من جانب المخابرات السوفياتية أثناء إقامته في الاتحاد السوفياتي كما أن المخابرات المركزية الأميركية ومكتب التحقيق الاتحادي الأميركي فتحا ملفاً لأوزالد منذ هربه إلى الاتحاد السوفياتي عام ١٩٥٩. ثم أن أوزوالد، قبل تنفيذ عملية الاغتيال بثمانية أسابيع، ذهب إلى مدينة مكسيكو وحاول الحصول على تأشيرة سفر من كل من السفارة الكوبية والسفارة السوفياتية، ثم كتب إلى السفارة السوفياتية في واشنطن قائلاً إنه فيما كان في مدينة مكسيكو اجتمع إلى مسؤول سوفياتي، تبين للمخابرات الأميركية في ما بعد - أنه ضابط في المخابرات السوفياتية يدعى فاليري فلاديميرفيتش كوستيلوف. المخابرات المركزية أبلغت مكتب التحقيق الاتحادي بخبر زيارة أوزوالد للسفارة السوفياتية في مدينة مكسيكو.

القصد من سرد هذا المثل هو الوصول إلى القول إن الحرب الباردة والتضليل الرسمي في إعطاء المعلومات بغية التستر على أعمال المخابرات، وقد خلقا جوا من الشك في جدية المعالجة الحكومية للأمور حتى ولو كانت الحكومة تتكلم بصدق.

منذ الفترة التي عقبت الحرب العالمية الثانية وقع المجتمع الأميركي في بئر «الأخلاق العليا» للحرب الباردة حيث سرى القول إن النتيجة تبرر الواسطة وإن الواجب يقضي باعتماد الوسائل نفسها التي يعتمدها السوفيات من أجل المحافظة على النظام الأميركي بالذات.

في بحث الجاسوس الحديث، قال المؤرخ الأميركي جام بارزن: «إن ما يستوجب التوبيخ والتعنيف هو أن العالم الحديث قد ركز بشكل رسمي أحلام الأولاد الصغار وأعمالهم على حبهم للمخابرات وسعيهم للعمل بها بأي شكل؟.

وفي الأيام العصيبة التي تلت وقوع حادثة «يو - ٢» فوق الاتحاد السوفياتي عام ١٩٦٠ اضطر الرئيس أيزنهاور إلى انتقاء الكلمات لتبرير التجسس الذي أمر هو نفسه به.

آنذاك قال الرئيس الأميركي: ما من أحد يريد بيرل هاربر ثانية». كما قال: «إن النشاطات للحصول على المعلومات الاستخبارية. . . لها طابع خاص وسري. إنها نشاطات غير منظورة ولها قواعدها الخاصة ووسائلها في التخفي التي تهدف إلى التضليل».

نشاطات المخابرات، قال إيزنهاور عنها: «مقرفة لكنها ضرورة أساسية».

كما أن أكثر الأعمال تطرفاً ودموية يمكن تبريره الآن بالأخلاق العليا. والشرح الشيوعي الجازم في هذا النطاق لا يحتاج إلى كثرة تحليل.

لينين قال: «الأخلاق هي تلك التي تستخدم لتدمير مجتمع قديم يستغل غيره. . . . على الشيوعي أن يكون مستعداً إلى جميع أنواع التصرفات وأن يستخدم الوسائل غير المشروعة وأن يخفي الحقيقة للوصول إلى غايته».

ظهرت في الاتحاد السوفياتي ـ موجة واسعة من التمجيد لرجال المخابرات الذين يقومون بواجباتهم أيام الرئيس خروتشوف.

بداية هذا الاتجاه كانت ظاهرة حتى قبل تنحية خروتشوف عن الحكم، مع أن التمجيد الواسع للجواسيس السوفيات بدأ في فترة لاحقة، الحنكة الواجب تأمينها في عملية جعل الجواسيس أبطالاً، كانت تقضي بأن يجري توفير كمية وافرة من العناصر الإنسانية المرتبطة بقضية الجاسوس قبل رفعه على سلم المجد.

في هذا النطاق يذكر أن خروتشوف قال للسفير الأميركي فوق العادة أفريل هاريمان في حديث تبادلاه إن ستالين وصلت به الشكوك والظنون إلى حدّ لا يطاق خلال السنوات الأخيرة من عمره إلى حدّ أن مساعديه ومستشاريه كانوا يخافون الاختفاء من الوجود كلما استدعاهم إليه. لذلك، وبعدما مات ستالين، قرر خلفاؤه أنهم لن يسمحوا باستمرار هذا الجو وهذه النفسية في العمل وأن الضرورة تقضي بقص أجنحة الشرطة السرية الرهيبة على هذا الأساس، قال خروتشوف لهاريمان، لم يلق زعماء الكرملن صعوبة تذكر في التخلص من بيريا الذي وصفه بأنه كان «طموحاً أكثر من اللازم».

رئيس المخابرات السوفياتية الكسندر شيليبين بعد ذلك قال في خطاب ألقاه

عام١٩٦١ أمام مؤتمر الحزب الشيوعي: «إن أجهزة الأمن لم تعد ذلك الدب المخيف، كما حاول الأعداء ـ بيريا ومساعدوه ـ أن يجعلوها منذ زمن ليس بالبعيد، لكنها في الحقيقة هي الأجهزة السياسية للشعب في حزبنا»[١].

والحملة الرامية إلى تكريم الجواسيس السوفيات وتعظيمهم بدأت جدياً بعد تنحية خروتشوف عن الحكم بثلاثة أسابيع، وذلك عندما منح وسام بطل الاتحاد السوفياتي ـ بعد الوفاة ـ في ٥ تشرين الثاني ١٩٦٤ إلى ريتشارد سورج، الجاسوس الشهير للسوفيات في اليابان خلال الحرب العالمية الثانية[٢].

وحوالي الفترة نفسها نشرت صحيفة كرسومولسكايا برافدا الناطقة بلسان الشبيبة الشيوعية سلسلة من إحدى عشرة حلقة عن مقاومة التجسس وعن جدارات بعض الشبان والشابات السوفيات في المحافظة على سلامة الوطن.

والدعاية للجواسيس العاملين في خدمة الاتحاد السوفياتي انتقلت إلى صناعة الأفلام كذلك. فالفيلم السوفياتي الناجح في تلك الأيام كان «مجرم الدولة» حيث كانت البطولة في القصة لشاب جميل مقدام ينتمي إلى المخابرات السوفياتية، فيما كان فيلم آخر برمته يمجد قصة ريتشارد سورج «بطل الاتحاد السوفياتي في أعمال المخابرات».

ثم فيلم ثالث لفت الأنظار آنذاك وهو «سر الرئيس». والعبرة التي تركها الفيلم في أذهان السوفيات الذين شاهدوه هي أن القوات السوفياتية المسلحة أصيبت بالانكسارات لأن ستالين تجاهل المعلومات الاستخبارية القيمة التي كان عملاء المخابرات السوفياتية يحصلون عليها وسط الأخطار المحدقة بحياة كل منهم.

وفق ذلك انطلقت موجه عارمة في الاتحاد السوفياتي من الكتب والقصص الجاسوسية إلى حد أن الكاريكاتور في بعض المجلات كان عن التجسس ومكافحة التجسس لفترة طويلة.

---

(١) هذه المعلومات الهامة تم الكشف عنها في التسعينات.

(٢) القصة الكاملة لإعدام الجاسوس السوفياتي ريتشارد سورج في طوكيو نشرت في الصفحات ٨٢ ـ ١٠٥ من كتابي (المخابرات والعالم ـ الجزء الأول) بعنوان «أشهر الجواسيس» من إصدار دار الجيل في بيروت.

الخطوات الأوسع

* في أيار ١٩٦٥ اتخذت موسكو خطوة غير اعتيادية وأقرت علناً وللمرة الأولى بأن رودلف آبل كان جاسوساً سوفياتياً وأنه قلد وساماً رفيعاً بعد تبادله بالجاسوس الأميركي باورز عام ١٩٦٢ بعد ذلك راح التلفزيون السوفياتي يعطي لمحات عن حياة آبل خلال الحرب العالمية الثانية كعميل للمخابرات السوفياتية في صفوف الألمان.

بالمقابل، يجب أن يذكر هنا أن المخابرات المركزية الأميركية أقدمت بدورها على منح وسام رفيع لفرنسيس غاري باورز في نيسان ١٩٦٥. الوسام نفسه كان سرياً وكذلك حفلة تعليقه على صدر الرجل بحضور كبار المسؤولين في المخابرات الأميريكية. وبالإضافة إلى ذلك أعلنت المخابرات المركزية الأميركية أن باورز، بعد عودته إلى الولايات المتحدة بتسعة أشهر، قد تأمنت له وظيفة طيار لتجربة الطائرات الجديدة لدى شركة لوكهيد لصنع الطائرات وأن ذلك يشمل طائرات «يو ـ ٢» الجديدة المخصصة للتجسس (نفس مهنته).

عودة إلى الاتحاد السوفياتي سابقاً

* بعد بث البرنامج التلفزيوني المشار إليه ببضعة أيام نشرت صحيفة / البرافدا مقالاً طويلاً بتوقيع رئيس المخابرات الجديد (فلا ديمير سميتشاسني) يمجد فيه الجواسيس السوفيات.

خلال الحرب العالمية الثانية، قال كاتب المقال، كانت هنالك حرب سرية قاسية إلى جانب القتال العلني الضاري. . . . فكان ذلك بمثابة تجربة عظيمة الفائدة للمخابرات السوفياتية ولدائرة مكافحة التجسس. كما أقر الكاتب بأن عهد ستالين «حدثت فيه تجاوزات وأخطاء خطيرة في أعمال أجهزة أمن الدولة» لكن ذلك «لم يغير من الطبيعة الاشتراكية لأجهزة المخابرات ومكافحة التجسس السوفياتية ولم يقطعهما عن الشعب والحزب».

وأضاف سميتشاسني في ذلك المقال: «لا يسع المرء إلا أن يعرب عن تقديره الخاص وامتنانه العميق للعملاء السوفيات الميامين مثل بطل الاتحاد السوفياتي

ريتشارد سورج. والعميل المعروف باسم رودلف آبل، حققوا مهمات صعبة ومشرفة في الكفاح ضد العدو. . . . . إن أجهزة الأمن السوفياتية، بإنجازها هذه المهمات، تلوح بالسيف القاطع في وجه أجهزة المخابرات الاستعمارية أن رجالنا لا يكلّون في حراسة مصالح الشعب السوفياتي.

من وجهة النظر السوفياتية تبدو الثورة العالمية للمخابرات. واليقظة العالمية تحسباً من التجسس وكأنهما تتمشيان مع رغبة موسكو ذاتها في إزالة آثار الماضي. بتعبير أسهل الإرهاب في عهد ستالين، الذي نفذته أجهزة الأمن لدى الدولة، ترك وراءه جرحاً عميقاً وظاهراً ربما كانت كلمات سميتشاسني المعسولة أعجز من أن تزيله. لذلك فإن جهود موسكو في إعادة الاعتبار للجواسيس السوفيات وإحاطتهم بالتمجيد والتعظيم من أجل إعطاء وجه جديد للمخابرات السوفياتية الحديثة، لم تكن تطوراً عفوياً بل حملة دعائية محكمة التخطيط.

طبعاً، في النظر إلى الاتجاهات السوفياتية الجديدة، يجوز التفسير حسبما يميل الهوى وذلك قبل التسعينات وقبل غورباتشوف والتفكيك.

على ذلك؟

خبير أميركي قال إن حملة موسكو التشويقية للمخابرات السوفياتية بدت وكأنها تهدف إلى خلق جو جديد يستطيع المواطن السوفياتي العادي فيه أن يشعر في حياته بحسن الجوار مع رجل المخابرات.

خبير بريطاني قال إن الحملة كانت دليلاً على أن المخابرات السوفياتية كانت تعرض عضلاتها أمام المجتمع السوفياتي بالذات وأنها هي التي كانت وراء حملة التمجيد للجواسيس ومنح الأوسمة.

ولا شك في أن المخابرات السوفياتية هي التي كانت غاطسة في حملة نشر مذكرات للجواسيس التي بدأت عام ١٩٦٤ بعدما كانت قضايا تجسسية شهيرة قد أصبحت معروفة في الشرق والغرب.

القضايا الجاسوسية الشهيرة التي نشرت قصصها، بعضها يثير الاهتمام لما له من مدلولات.

أولها قصة غريفيل وين التي نشرت في إحدى الصحف البريطانية.

غريفيل وين، بعد اعتقاله في بودابست، وصف بأنه رجل أعمال بريطاني ومدير شركة موبيل للمعارض، وهي شركة معارض متنقلة كانت تنتقل آنذاك بين دول أوروبا الشرقية.

وين كتب في مذكراته في ما بعد أنه تلقى علوم الهندسة في جامعة نوتينغهام ثم أصبح ضابطاً خلال الحرب العالمية الثانية. بعد انتهاء الحرب اشتغل لدى شركة كهربائية في دائرة التسويق ثم بدأ عمله الحر كمصدر للآلات الصناعية الثقيلة. منذ ذلك الحين وهو يكثر من السفر إلى الخارج، بما في ذلك الاتحاد السوفياتي.

من أمور حياته الخاصة أنه كان يقيم في إحدى المدن البريطانية مع زوجته شهيلا وابنه أندرو. وأن قضيباً فولاذياً كان مركباً في ساقه نتيجة عملية جراحية أجريت له بعد حادث اصطدام سيارة وقع له في مدينة أوديسا السوفياتية أثناء زيارته لها.

التقى وين للمرة الأولى ضابطاً برتبة كولونيل في المخابرات العسكرية السوفياتية يدعى أولينغ بنكوفسكي كانت وظيفته العلنية موظفاً مدنياً في اللجنة الحكومية للتنسيق في الأبحاث العلمية ومع الزمن لاحظ وين أن بنكوفسكي يسعى إلى تحقيق الاتصال مع المخابرات الغربية فقال له ذات مرة إن أكثر رجال الأعمال البريطانيين الذين لهم خبرتي يودون في العادة أن يحققوا لك رغبتك.

بعد ذلك كان وين في موسكو من جديد. فلما عاد إلى لندن، حمل معه رسالة من بنكوفسكي إلى المخابرات البريطانية ثم ما لبث أن أصبح طوال الأشهر الستة عشر التالية رسول مخابرات يعمل لمصلحة بنكوفسكي.

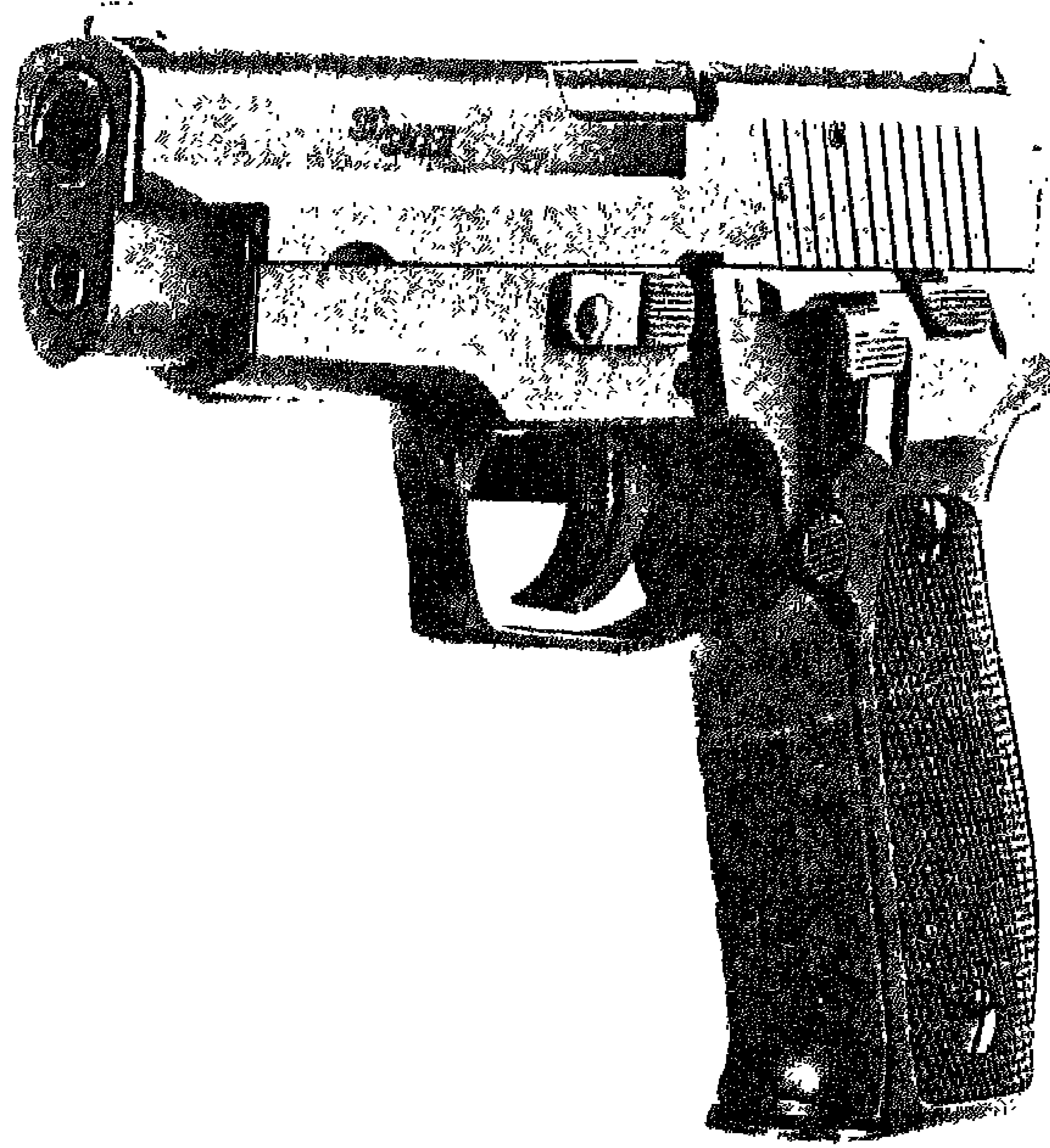
خلال هذه الفترة بالذات زار بنكوفسكي لندن مرتين كعضو في وفدين رسميين وخلال الزيارتين اللتين بلغ مجموع أيامهما ٣٧ يوماً ومن ثم خلال رحلة لاحقة إلى باريس، كان بنكوفسكي عرضة لتحقيق واسع جداً أجرته معه المخابرات البريطانية والمخابرات المركزية الأميركية.

بنكوفسكي اعتقل في موسكو قبيل اعتقال وين في بودابست، والاثنان اعترفا بجرمهما أثناء محاكمتهما التي جرت في موسكو.

خلال المحاكمة وصف وين نفسه بأنه مهندس كهربائي وتاجر خدعته المخابرات البريطانية ووضع اللوم في مشكلته على عميلين بريطانيين قال إنهما أقنعاه بأن ما يقوم به لا علاقة له البتة بالتجسس.

بالنتيجة، حكم على وين بالسجن ثماني سنوات فيما حكم بنكوفسكي بالإعدام. وقالت تاس: لقد تم إعدام الجاسوس بنكوفسكي.

وبالنتيجة كذلك وردت أثناء المحاكمة أسماء ستة ديبلوماسيين بريطانيين من العاملين في السفارة البريطانية في موسكو وزوجة أحدهم كذلك، بالإضافة إلى أسماء خمسة من الديبلوماسيين الأميركيين في العاصمة السوفياتية. وقد أخرج السوفيات من أراضيهم إثر ذلك خمسة ديبلوماسيين أميركيين وخمسة ديبلوماسيين بريطانيين لكن السجن للجاسوس في زمن ثورة المخابرات لا يطول فقد جرى تبادل بين وين وجاسوس سوفياتي وعاد وين إلى لندن لنشر مذكراته.



الفصل الخامس

الحرب العالمية الثانية والمخابرات

* في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم ٣١ آب - أوغسطس من سنة ١٩٣٩ المشؤوم، والذي كان بداية لست سنوات من حرب ضروس، كان هيرمان غورينغ يستقبل في برلين (٢) شارع ليبزغ، رجل الأعمال السويدي بيرغر داهلروس، الذي كان يحاول عبثاً إبعاد الكارثة من خلال وساطة مكوكية بين إنكلترا والمانيا. وبينما الرجلان يتبادلان الحديث، إذ بأحد الضباط يسلم غورينغ ظرفاً أحمر من النوع الذي كان يستعمل في المراسلات الهامة. ما إن قرأ غورينغ الرسالة حتى انتفض من على كرسيه والتفت إلى محدثه معلناً له بغضب أن بين يديه البرهان الدامغ بأن البولونيين كانوا ينسفون كل محاولة للتفاوض.

بعد برهة، وكانت أعصاب غورينغ قد هدأت بعض الشيء، التفت ثانية إلى داهلروس لينبئه الخبر أن ما بيده هو عبارة عن رسالة سرية فكت وزارة الخارجية الألمانية رموزها. وهي موجهة من الحكومة البولونية إلى سفيرها في برلين تمنعه فيها من إجراء أية محادثات حسية مع الألمان. هذا يعني أن البولونيين لا ينوون التفاوض، بل تمييع الأمور والتمويه على جيرانهم الألمان. وإمعاناً في الإقناع، خط غورينغ بيده محتوى الرسالة وأعطاه إلى محدثه ليبرزه إلى سفير بريطانيا. وأضاف قائلاً إنه بعلمه هذا يتحمل مسؤولية كبرى هي مسؤولية كشف الشيفرة البولونية من قبل الألمان. لكنه يعتقد مخلصاً أن من المصلحة كشف نوايا فرصوفيا السيئة.

لم يكن كل هذا إلا ذريعة إضافية لإعلان الحرب. والواقع أن الألمان لم يكونوا يفكرون سوى بخداع داهلروس. ذلك أن هتلر نفسه كان قد وقع «بيان الحرب رقم ١»، عندما كان الزائر الوسيط يدخل مكتب غورينغ.

وفجر اليوم التالي، كانت الجيوش الألمانية تجتاح بولونيا بحجة واهية كان

بطلها رجل مخابرات ألماني (الشرح الكامل لقصة غزو واحتلال بولونيا المشابهة لغزو واحتلال العراق عام ١٩٩٠ تجدونه في الصفحات (٣٤٣ إلى ٣٤٩) من كتابي ـ المخابرات والعالم ـ الجزء الأول).

أعمال المخابرات الألمانية

* بدلت المخابرات الألمانية أنماط أعمالها مرات عديدة خلال الحرب وكانت هذه المخابرات تشمل ليس فقط أعداءها، بل أيضاً وبالمستوى نفسه حلفاءها. ويروى كيف أن وزير خارجية إيطاليا، الكونت شيانو اغتاظ عندما علم أن الألمان يلتقطون رسائل وزارته، وقد قال يومها جملته المشهورة: «جميل أن أعرف ذلك. سيقرأون في المستقبل ما أريد أنا أن يقرأوه».

لقد انطلقت أنظمة المخابرات الألمانية في الحرب العالمية الثانية من النقطة التي وصلت إليها في نهاية الحرب العالمية الأولى. وبعد سلسلة من الإصلاحات، إن في الجهاز البشري أو في النظم أو في الهيكلية الإدارية، أصبحت هذه المخابرات على قدر مرموق من المستوى والفعالية.

ويجب أن لا يغرب عن بالنا ما للدول الصغيرة في مجال المخابرات، كما يجب أن لا نتجاهل قدرها في هذا المجال. وإذا كانت مخابرات تلك الدول لم تتألق تحت الأضواء كما هي الحال بالنسبة للدول الكبرى، فذلك عائد ليس فقط إلى عدم إمكانيتها في إيجاد الكفاءات الملائمة العالية في صفوف شعوبها، بل إلى التكاليف الباهظة التي تستلزمها هذه الأعمال. أضف إلى ذلك أن تأثير الدول الكبرى على مسرح السياسة الدولية يجعل مما تقوم به مادة اهتمام ومراقبة من خصومها وبالتالي مجالاً لصراعات تجسسية الغرض منها اغتراف أكبر قدر ممكن من المعلومات عنها لتوظيفها للمصالح العليا لكل دولة.

نعود إلى ألمانيا لنرى أن الناحية التسلطية، التي كان يتميز بها نظام الحكم، خلق وضعاً شاذاً بحيث أصبح لكل متنفذ في الدولة فلكه الخاص به في مادة المخابرات. وهكذا نرى غورينغ يشكل عام ١٩٣٣، وبعد أسابيع قليلة من تعيينه وزيراً للجو، جهازاً من ثمانية أشخاص ممن يثق بهم، ويسميه «مكتب الأبحاث».

لم يكن لهذا الجهاز الحق في أي اتصال إلا من خلال غورينغ نفسه. وفي عام ١٩٣٤، بدأ الجهاز بالقيام بالمهمة المرسومة له والتي كان غورينغ ينتظرها منه وهي تمرير معلومات تسهل له استمالة هتلر إلى جانبه في حربه ضد روم، رئيس أحد أجهزة المخابرات وصديق هتلر الحميم في الحزب النازي.

كان جهاز غورينغ يتصدى للاتصالات الهاتفية ويفتح الرسائل ويفك رموز الشيفرة، وقد توصل، في ٧ أيار ـ مايو سنة ١٩٤٠ إلى التقاط مخابرة بين رئيس الوزراء البريطاني شمبرلين ورئيس الوزراء الفرنسي رينو.

في سنة ١٩٣٩، توحدت مختلف الأجهزة البوليسية التابعة للحزب وللدولة لتشكل «الدائرة المركزية لأمن الرايخ». بعد ذلك بقليل، استطاع والتر سلنبرغ، أحد موظفي المخابرات الألمانية، من الحصول على محفوظات الدائرة السرية النمسوية. لكنه لاحظ أن المعلومات الأهم التي تضمنتها كانت قد فكت رموزها من قبل الألمان. كذلك تذكر ويلهلم هوتل، العضو الشاب في الجهاز الجديد الموحد، ما قام به رجال المخابرات النمسوية ـ المجرية من أعمال بارعة خلال الحرب العالمية الأولى ورافق ذلك أن اكتشف هوتل أن الرئيس السابق لهذه المخابرات، وهو الجنرال أندرياس فيغل، موقوف في سجون الغستابو منذ عام ١٩٣٨. فسعى لإطلاق سراحه. لكنه وضعه في فيلا وسط برلين وأخذ يستفيد من خبراته السابقة ويرسل له الضباط ليتعلموا على يديه. ولما كانت عملية التعليم هذه تستغرق بعض الوقت، مما لا ينسجم مع متطلبات الفترة، فقد سعت المخابرات الألمانية للجوء إلى مصادر أخرى، لذا اشترت من ياماتو أوميناتا، رئيس المخابرات اليابانية في أوروبا، كامل الشيفرة المعتمدة في كل من تركيا والبرازيل والبرتغال والفاتيكان ويوغوسلافيا لقاء ثمانية وعشرين ألفاً من الفرنكات السويسرية. وكانت هذه أول صفقة شراء بالجملة لأسرار عائدة للمخابرات في تاريخ هذا الحقل.

كانت الدائرة المركزية لأمن الرايخ تعتمد، بصورة رئيسية، على المعلومات التي يحصل عليها جهاز غورينغ. ولم يكن هذا يروق لهيملر، الحاقد دوماً على غورينغ. لذلك بعث هيملر إليه بشلنبرغ في دارته الأنيقة ليطلب منه دمج جهازه عملياً بالجهاز الذي يرأسه هيملر. لم ينفعل غورينغ أبداً بعد أن استمع إلى شلنبرغ. كل ما

قاله، بعد إنصات هادئ ومهذب، هو هذه الجملة: «سأدرس ذلك مع هيملر». لكن شيئاً من هذا الدرس لم يحصل.

عام ١٩٤٣، قامت المخابرات الألمانية بعملية تجسس شهيرة أطلق عليها اسم شيشرون وشيشرون، هذا كان بزانا الألباني، الخادم الخاص لسفير بريطانيا العظمى في تركيا. استطاع هذا الخادم تصوير محتويات جميع الملفات السرية التي كانت في خزانة السفير، بعد أن اكتشف الرمز الخاص بمفتاح الصندوق الذي يحويها. ثم باعها لعميل المخابرات الألمانية في تركيا مويزيش. وقد قبض مقابل ذلك خمسة عشر ألفاً من الليرات التركية بأوراق نقدية مزورة. ومع أن المعلومات التي تضمنتها صور هذه المستندات كانت غاية في الأهمية، ومنها المحاضر الكاملة لمحادثات ستالين - روزفلت - تشرشل، فإن هتلر وأعوانه لم يثقوا بها. وقد قال رئيس المخابرات الألمانية آنذاك إلى مويزيش بشأنها جملته المشهورة: «رائعة جداً بحيث لا تصدق». وهكذا فإن عملية شيشرون التي كانت ناجحة جداً في استقاء المعلومات، عادت لتنقلب فشلاً ذريعاً في مرحلة الاستفادة من هذه المعلومات وهذه المعلومات الجديدة تضاف إلى ما نشرته في كتاب (المخابرات والعالم - الجزء الأول) صفحة (٣٥٠).

عام١٩٤٤ استطاع هوتل الحصول من الرئيس المجري، أندور ذتوجاي، على سماح مستمر بأن يطلع على جميع ما يقع في يد المخابرات المجرية من معلومات. وكان هوتل قد زار مقر تلك المخابرات وأعجب بحسن تجهيزها وتنظيمها.

فاقت أهمية ما قدمته المخابرات المجرية، لزميلتها الألمانية كل تقدير، كانت غاية في الدقة والأهمية. استطاعت فك جزء كبير من الرسائل السرية لمختلف السفارات في موسكو. كما استطاعت كشف بعض المراسلات الأميركية والبريطانية خاصة خلال عام ١٩٤٥. ويقتضي أن نذكر في هذا المجال الصيد الثمين الذي حصلت عليه من خلال رسائل سفير تركيا بالراديو عن تخوف ستالين من نوايا حلفائه الأنكلو - ساكسون، والتي كان يعتقد أنها ترمي إلى عقد صلح منفرد مع ألمانيا.

عندما غزا هتلر يوغوسلافيا، كانت السرعة التي انتهى بها من هذا الغزو مذهلة، على الرغم من طبيعة البلاد الجبلية الصعبة، لكن مع بعض التحقق، يتبين أن الفضل، بصورة خاصة يعود إلى المعلومات الدقيقة والشاملة التي مررتها

الاستخبارات الألمانية إلى قيادة الجيش عن كل التفاصيل الخاصة بالقوات اليوغوسلافية المحاربة، وذلك من خلال محطة استقبال متمركزة في صوفيا. وبعد إتمام الغزو، استطاع فريق من المخابرات الألمانية كشف الشيفرة التي كان يستعملها كل من ميخايلوفيتش وخصمه تيتو. حتى أن تيتو ظن في فترة من الفترات أن بعضاً من رجاله يخونه، فقام بعمليات تطهير متكررة في صفوف قواته. لكنه ما لبث أن اكتشف أن هزائمه في حرب العصابات في تلك الفترة مردها إلى معرفة العدو لأحجام قواته وأماكن تمركزها ووسائل عملها، وذلك بفضل المخابرات. وهذا ما يجعله يبدل شيفرته أكثر من مرة. ولكن دونما جدوى تذكر.

منذ الإنزال الشهير على شواطئ شمال أفريقيا في أواسط عام ١٩٤٢، تمكن الألمان من كشف كل ما يتعلق بالشيفرة الأميركية المستعملة في تلك العملية، وبالتالي من تكوين صورة واضحة عن جيوش الأعداء، بما في ذلك معنوياتهم ومستوى استعداداتهم. وهكذا، يذكر أن رسالة التقطت من قبلهم أثناء إعطاء تعليمات للقوات البريطانية العاملة في منطقة العمليات تتضمن إشارة إلى أن هذه القوات في مأزق. لم توضح الرسالة المكان بسبب الالتقاط السيئ ساعة ذكره. لكن القيادة الألمانية أعطت تعليمات معجلة بالبحث عن المكان بواسطة سلاح الجو ولم تكن القيادة البريطانية قد انتهت من إعطاء تعليماتها حتى انقض الألمان على القوات البريطانية وأبادوا معظمها.

في بداية شباط - فبراير من عام ١٩٤٤، وأثناء الحملة الإيطالية، حاول الجيش الأميركي الاستيلاء على مصنع كاروشيتو لأهمية موقعه الستراتيجي. غير أن محاولاتهم المتكررة قد فشلت بسبب وحيد وهو أن الألمان كانوا التقطوا، في وقت سابق، رسالة سرية عن العملية مما مكنهم من إجهاضها وتكبيد الأميركيين خسائر فادحة.

وعندما أمن الحلفاء لأنفسهم تفوقاً في الجو، لم يكن للألمان يد، وقد حرموا من هذا التفوق، من أن يعوضوا بمضاعفة فعالية المخابرات. وقد برز ذلك بشكل واضح إبان الإنزال على شاطئ النورمندي. توصلت المخابرات الألمانية لأن يكون لديها جهاز بشري من عشرة آلاف موزعين على عدة وحدات. أكبر هذه الوحدات

كانت فرقة المخابرات الجوية رقم (٣٥١) وقوامها أربعة آلاف وخمسمئة رجل. كانت هذه الفرقة تهتم بمراسلات القاذفات وطائرات النقل ومراكز قيادة القوات الجوية الحليفة في أوروبا الغربية. وهناك وحدات أقل أهمية كانت تقوم بالعمل نفسه في أماكن أخرى. لقد جرت محاولة لاستخدام فرق نسائية لفك رموز أحد أنظمة شيفرة الحلفاء جو/أرض، لكن المحاولة انتهت إلى الفشل، واستوجب الأمر العودة إلى الجانب الآخر. وبغية تشجيع الشباب، من الطلاب خاصة، على الإبداع في سلك المخابرات، كان يجري إدخالهم إلى مدارس خاصة بهذا الحقل. وكل من يفشل في دراسته يرسل إلى الجبهة الشرقية وقد تبين، في ما بعد، أن تسعين بالمئة منهم قد أرسلوا إلى تلك الجبهة.

في الأول من آب ـ أوغسطس سنة ١٩٤٣، أدى التقاط رسالة سرية أميركية من قبل الألمان إلى تجنب كارثة نفطية في رومانيا. كانت مئة وثماني وسبعون مقاتلة قد انطلقت من بنغازي لضرب المنشآت النفطية في بلويستي برومانيا. كانت تلك (أكبر وأطول غارة في تاريخ الحرب العالمية الثانية) بعد أن قطعت الطائرات مسافة ألفي كلم، بثت الفرقة الجوية التاسعة في سلاح الجو الأميركي رسالة مقتضبة إلى قاعدة للحلفاء في المتوسط معلمة إياها بالتحليق، وذلك خوفاً من ضربها من قبل الحلفاء كما حصل قبل بضعة أسابيع عندما أسقطت البحرية الأميركية عدداً كبيراً من الطائرات الأميركية معتقدة أنها قاذفات قنابل ألمانية. لكن اتخاذ هذا الاحتياط أدى إلى عكس ما كان ينتظر منه. فمنذ التقاط الرسالة، سارعت المخابرات الألمانية إلى ترجمة رموزها وإيصال هذه الترجمة إلى القيادة الألمانية في بلويستي، حيث جرى الاستعداد الكامل لاستقبال الطائرات بوابل من قذائف المدافع المضادة للطائرات. وكانت حصيلة تلك الغارة الفاشلة سقوط أكثر من ثلث الطائرات المغيرة في غضون دقائق معدودة.

كم من المرات استطاعت المخابرات الألمانية تقديم المساعدة الفعالة لجيوش ألمانيا من برية وبحرية وجوية! فالكثير من مدمرات الأسطول البريطاني أغرق بفضل كشف رموز رسالة التقطت على موجات الأثير. ولم يكن الاستيلاء على المدمرة البريطانية «مدينة بغداد» من قبل المدمرة الألمانية المتطورة أطلنتس، في ١٠ تموز ـ يوليو سنة ١٩٤٠ في عرض المحيط الهندي، ليتم لولا مساعدة المخابرات السريعة

والفعالة. ومعلوم أن هذا الاستيلاء أدى كذلك إلى الحصول على مستندات سرية غاية في الأهمية كان القبطان الإنكليزي ينوي رميها في البحر عندما داهمه ضباط ألمان وشهروا عليه السلاح ليمنعوه من فعل ذلك. كم من الضحايا من أساطيل الحلفاء وقعت أمام أطلنتس التي كانت، بفضل الجهاز اللاقط المتطور على متنها. كانت تكمن لضحاياها وتنقض عليهم في الأماكن التي لا يمكنهم الهروب منها. وهذا ما جعلها المدمرة الأكثر جهوزيّة في تاريخ البحرية في الحرب العالمية الثانية.

وهذه المعلومات الجديدة عن عمليات البارجة الأطلنتس ـ أو (الأطلنتيك) ننشرها في هذا الكتاب لاحقاً لما نشر في كتابي(حرب المخابرات السرية).

عام ١٩٤١، وبفضل ما كشف من أسرار في الرسائل الهوائية التي كانت تبث على الراديو ارتفعت خسائر الحلفاء بشكل رهيب. ففي الأشهر آذار ـ مارس ونيسان ـ أبريل وأيار ـ مايو، أغرقت مئة واثنتان وأربعون سفينة حربية، أي بمعدل واحدة كل ست عشرة ساعة.

وفي شهر مارس من عام١٩٤٣، بلغت معارك الأطلنتيك درجتها القصوى. أوشكت الغواصات الألمانية أن تقطع طرق الإمدادات البحرية بين أوروبا وأميركا. مئة وواحد وأربعون ألف طن أغرقت في ثلاثة أيام مقابل خسارة ألمانية بلغت غواصة واحدة. وقد اعتبرت هذه الحملة أكبر ضربة تلقاها الحلفاء طوال الحرب بكاملها.

المخابرات الإيطالية ودورها في معركة الشيفرة والرموز

* في إيطاليا كان لكل من الجيش والبحرية جهاز مخابرات خاص. استطاع جهاز البحرية عام ١٩٤١ أن يكشف الشيفرة التي كانت تستعملها البحرية البريطانية في المتوسط، والتي كانت من الضعف بحيث هدد الأميرال كونينغهام، بعد غزو كريت، ببث رسائله باللغة العادية إن لم يزود بشيفرة أكثر تطوراً. في ٢٧ آذار ـ مارس، أي قبل معركة رأس ماتابان، أدى فك رموز تقرير إحدى طائرات الاستكشاف البريطانية إلى إفشال غارة جوية بريطانية على بعض المواقع الإيطالية، بعد أن كانت المدفعية المضادة للطائرات قد تربصت بالمغيرين فأمطرتهم بوابل من قذائفها مما جعلهم يلقون بحمولتهم من القنابل بشكل عشوائي فوّت عليهم الغاية من الغارة.

أما الجهاز التابع للجيش الإيطالي، فقد كان يسمى دائرة المخابرات العسكرية. هذه الدائرة كان لديها قسم هام وحسن التنظيم لفك الرموز من ديبلوماسية وعسكرية. كان الجنرال غيتوريو غامبا على رأس قسم الشيفرة. في الدائرة. كان هناك أيضاً قسم الكيمياء الذي يهتم بأنواع الحبر السري، بصورة خاصة، وقسم التجسس وقسم المراقبة. كان لغامبا أيضاً سلطة على قسم آخر مولج في استنباط الرموز والشيفرات للجيش.

استطاع الإيطاليون، كما فعل زملاؤهم الألمان، كشف أنظمة الشيفرة العسكرية اليوغوسلافية. ومعروف أن العلاقات بين يوغوسلافيا وإيطاليا لم تكن في يوم من الأيام علاقات مودة، وذلك بسبب مقاطعتي فيومي وترستا.

كان الإيطاليون، حتى غزو يوغوسلافيا من قوات المحور، وبعد احتلالهم لألبانيا، يوجهون صوب الشمال ما كان تشرشل يسميه «أقفيتهم العارية». لم يكن لليوغوسلافيين أمل في مجابهة الألمان.

لكنه كان من الواضح أن تصديهم للإيطاليين، السيئي التنظيم، يمكنهم من إحراز انتصار بارز عليهم، وبالتالي من وضع موسوليني في موقف صعب، كذلك يمكنهم من عرقلة تقدم العدو والحصول على العتاد والذخيرة اللازمة للاستمرار في حرب استنزاف طويلة المدى ضد النازيين. وهذا فعلاً ما حصل. ففي السابع من نيسان - إبريل من عام ١٩٤١، تحركت فرقتان يوغسلافيتان. وفي الثاني عشر من الشهر، تمكنت إحداهما من دحر الإيطاليين في سكوتاري بعد أن شنت عليهم هجمات عنيفة. وسط هذه المعمعة، لجأت دائرة المخابرات العسكرية الإيطالية إلى حيلة، أرسلت بالشيفرة اليوغسلافية رسالة إلى قيادة كل من الفرقتين اليوغسلافيتين في تلك المنطقة بتوقيع مزعوم من الجنرال سيموفيتش، رئيس الحكومة اليوغسلافية. وقد طلبت في الرسالتين انسحاباً فورياً للقوات مع وقف كامل لجميع العمليات العسكرية. نفذت إحدى الفرقتين الأمر على الفور. أما الأخرى، فقد طلبت إيضاحاً من القيادة العليا. ولما لم يأت التوضيح، فقد فضلت تنفيذ الأوامر. بعد ذلك، ما كان من الإيطاليين إلا أن سارعوا إلى احتلال المواقع المخلاة وجنبوا أنفسهم هزيمة شنعاء.

لم تكتف المخابرات الإيطالية، شأنها في ذلك شأن سائر المخابرات، بالاهتمام بما يقوله أو يبثه العدو، بل تعدت نشاطاتها إلى الحلفاء وكذلك إلى الدول المحايدة. لقد كانت حصيلتها من هذه الأخيرة ثمينة. ذلك أن الأطراف المحايدين يتمتعون عادة بالموضوعية وصفاء الذهن، مما لا يتوافر لدى المتخاصمين. وهكذا استطاع الإيطاليون معرفة حقيقة الأوضاع الداخلية في الاتحاد السوفياتي من خلال رسالة بعث بها خوبيتشيف إلى حكومته بواسطة السفير التركي زورلو. هذه الرسالة كانت تقول «كيف أن الحرب تتعب الروس كثيراً. لكن روسيا لا تزال قوية وقوة المحور في تناقص مستمر». ويذكر شيانو، وزير الخارجية الإيطالية أن الدوتشي طلب إليه إبلاغ مضمون هذه الرسالة إلى سفير ألمانيا في روما. وفي مجال آخر، يثير شيانو مسألة رسالة أخرى إنكليزية كشفها الإيطاليون، وفيها أن «موسوليني غضب من رومل عندما اتهم هذا الأخير ضباطاً إيطاليين بتسريب معلومات إلى العدو عن خطط وضعها (يقال إن للانتصار مئة أب، أما الهزيمة فيتيمة).

كان للمخابرات الإيطالية نجاحاتها التي لا تنكر في حقل فك الشيفرة للآخرين. لكن مجدها بصورة خاصة، في سرقة المستندات بواسطة الجواسيس. وأشهر عملية في هذا المضمار تلك التي قام بها لورس جيراردي، حاجب السفير الأميركي في روما، ظل جيراردي يعمل في تلك السفارة منذ عام ١٩٢٠، وفي آب - أغسطس من عام ١٩٤١ تمكن من إعطاء المخابرات الإيطالية الرمز الخاص بفتح الصندوق الحديدي الذي كان السفير يحفظ فيه ترجمة الشيفرة التي تستخدمها السفارة في مراسلاتها السرية. وبفضل ذلك تمكن أحد عناصر المخابرات من فتح الصندوق. وتصوير مستنداته وإعادة كل شيء فيه إلى ما كان عليه. الصيد كان ثميناً. ذلك أن هذه الشيفرة كانت تستعمل في مراسلات الولايات المتحدة مع العالم بأسره. وفي إحدى هذه المراسلات، التي بعث بها السفير الأميركي في موسكو، تبين كم يعاني الاتحاد السوفياتي من صعوبات في المؤن والسلاح وأنه قد يستسلم إذا لم تسارع الولايات المتحدة إلى نجدته. لكن المعلومات الأهم كانت تتعلق بمسرح العمليات حيث كان مصير الحرب يتقرر يوماً بعد يوم.

منذ عام ١٩٤٠، كان الملحق العسكري الأميركي في القاهرة يدعى الكولونيل فيلرز. كان فيلرز لا ينفك يتنقل بين القطعات العسكرية الإنكليزية في الثكنات وعلى

خطوط الجبهة، بعد أن كانت السلطات العسكرية الإنكليزية قد أعطيت التعليمات باستقباله ساعة يشاء وبتسهيل تنقلاته. إثر كل جولة أو كل اتصال مع مسؤول، كان فيلرز يضع تقريراً بالأمر ويرسله إلى حكومته. وفي الطريق، كانت أجهزة الالتقاط العائدة لدول المحور تتسلم الرسالة وتترجمها وترسل فحواها إلى القيادة المختصة. كل ذلك بفضل عملية الحاجب جيراردي. وعندما كان رومل في العلمين، كانت المعلومات عن تحركات الحلفاء وخططهم تصله بعد ساعات قليلة من إرسال المعلومات بشأنها. وهكذا، عام ١٩٤٢، كشف سر تجميع الأسطول الإنكليزي في مرسى مطروح، على الساحل المصري في المتوسط.

لكن رومل لم يكن يستطيع الاستفادة من كل هذا كما كان يرغب بسبب أزمة البنزين لديه، وكذلك بسبب ما كان جيشه يعانيه من تصدي السفن الإنكليزية المنطلقة من مالطا لطرق تموينه، وبالتالي، حرمانه من الإمدادات الضرورية، لذا، كنا نرى انتصاراته تحقق تبعاً لتمكنه من اختراق اعتراض الإنكليز لسفن أسطوله. كما كنا نرى الهزائم تلحق به حالما يعود هذا الاعتراض إلى العمل بفعالية.

عام ١٩٤٢، استطاع رومل، بفضل فيلرز ورسائله الشهيرة، من أن يحقق انتصاراً باهراً على الحلفاء. ففي ليل ١٢ إلى ١٣ حزيران - يونيو كان الحلفاء ينوون شن هجوم صاعق على المطارات والمرافئ في تورنت. بعث فيلرز برسالة إلى حكومته في واشنطن ينبئها فيها بالخبر. كانت المخابرات الإيطالية والألمانية قد التقطت الرسالة حوالي الساعة الثامنة. وما أن حانت الساعة الحادية عشرة، إلا وكانت الرسالة بين يدي رومل. وهكذا كان لديه الوقت الكافي للاستعدادات واستقبال المهاجمين بـ «الترحاب». كانت مجزرة رهيبة.

في اليوم التالي، انطلقت الطائرات الألمانية، التي انقذتها الرسالة، لتضرب قافلة الاسكندرية مكبدة الحلفاء أيضاً الخسائر الإضافية الجسيمة. وقد ظلت الطريق إلى مالطا محفوفة بالمخاطر إلى فترة طويلة بعد هذه الضربة الموجعة.

لا شك في أن المخابرات قدمت إلى رومل أجل الخدمات. فيوم ١٦ حزيران - يونيو سنة ١٩٤٢ وصلت إليه رسالة موجهة من الفرقة الهندية (٢٩) إلى الفرقة السابعة المصفحة، تفيد عن هجوم ينوي الإنكليز القيام به على المواقع الألمانية الليل التالي في موقع الصدم. لم يكتف رومل بانتظار الهجوم والاستعداد

له، بل أخذ هو بزمام المبادرة وفاجأ الإنكليز، وهم يتهيأون للهجوم عليه، بهجوم صاعق أضاع صوابهم ومواقعهم.

ولكن، في العاشر من تموز - يوليو من العام نفسه، تمكن الإنكليز، بعد ضربة أنزلوها بالألمان في الصحراء المصرية، من الحصول على المستند الذي ساعد جيراردي على سرقته، فخسر رومل عنصراً حيوياً من عناصر انتصاره، وربح أعداؤه ما لم يكونوا يحلمون به.

ولم تكن هذه الضربة التي نزلت بروميل لتقف عند هذا الحد. فقد أفشى أحد أسرى الحرب الألمان سر الشيفرة المسروقة من سفارة الولايات المتحدة في روما. عندها استدعي فيلرز إلى واشنطن وأتي بملحق عسكري آخر، كما جرى استبدال الشيفرة القديمة بأخرى جديدة يصعب فكها. وهكذا جف النبع الذي ظل الألمان يستقون منه لفترة طويلة.

هذا التبدل الجذري في المعطيات حصل في الوقت الذي كان فيه رومل يتهيأ لاجتياز الحدود المصرية. كانت استعداداته العسكرية على قدم وساق. لكن المعلومات عن العدو كانت تصله بشكل متقطع ومجتزأ. حتى أن فترة طويلة من الزمن مرت ورومل يعتمد في معلوماته على الاستنتاجات والتكهنات. وهذا ما لا يعطي في الحرب نتائج مضمونة وهكذا لم تصل إليه أية معلومات عن المئات من الدبابات والمدافع التي كان الحلفاء يهيؤونها لمعركة العلمين الشهيرة. يضاف إلى هذه الصعوبات، صعوبات التزود بالوقود اللازم لآلياته. وعندما أعطى مونتغومري، القائد الإنكليزي، الأمر بالضرب، كانت المفاجأة صاعقة. كان رومل في إجازة نقاهة في النمسا. قطع إجازته وعاد إلى العلمين ليدير المعركة بنفسه. غير أن الوقت كان قد فات وكان كل شيء قد انتهى. وفي مذكراته كتب تشرشل يقول: «قبل العلمين، لم تكن لدينا انتصارات. وبعد العلمين لم تعد لدينا هزائم». هذا التبدل، لم تكن المخابرات بعيدة عنه.

المخابرات السويدية

* من بين الدول المحايدة، كانت السويد تملك أفضل جهاز للمخابرات. في

البداية كان هم هذا البلد منصباً على ما إذا كان في نية هتلر حمايته كما فعل بالنسبة للدانمرك والنروج بدأت المخابرات السويدية تتألق مع بداية القرن، وقد لمع فيها اسم إيف غيلدن، الذي عمل طويلاً على آلات فك الرموز التي كانت تنتجها شركة أرفيد دام. سنة ١٩٣١، نشر دراسة مشهورة حول علم الشيفرة في الحرب العالمية الأولى، وقد ترجمت إلى اللغتين الإنكليزية والفرنسية.

بعد خمس سنوات من نشر رسالة غيلدن، أنشأت السويد دائرة المخابرات بإدارة الكولونيل واربرغ، وهو رجل فقد يديه ورجليه إثر كسور أصيب بها نتيجة وقوعه من على صهوة جواده. تكشف واربرغ عن غباء في المخابرات لا يقل عن غبائه في الفروسية. فاستُبدل بأحد ضباط البحرية. أما غيلدن، فقد أقام تعاوناً في حقل المخابرات بين السويد والنروج، كما شجع طلاب الجامعات على الاهتمام بهذا العلم. وقد لمع منهم عدد كبير.

وعندما نشبت الحرب، كان عدد العاملين في جهاز المخابرات السويدية اثنين وعشرين. وفي عام ١٩٤٠، توزع رجال المخابرات على أقسام أربعة:

الأول: للغات اللاتينية، خاصة الفرنسية والإيطالية، بقيادة غيلدن الذي عاش عشر سنوات في فرنسا مع أمه الفرنسية.

الثاني: للغة الألمانية بقيادة كارل أوتو، أحد أشهر أساتذة الرياضيات.

الثالث: للغة الإنكليزية بقيادة الدكتور أولوف فيليتزن.

أما الرابع والأخير: فكان للغة الروسية بقيادة الدكتور أرن بيرلنغ. ظل جهاز المخابرات هذا ينمو إلى أن بلغ في نهاية الحرب حوالي الألف رجل. ومما ساعد في ازدهاره ونموه ما كان يحصل من تعاون مثمر بينه وبين الأجهزة المماثلة في الدول السكندينافية الأخرى وهي النروج والدانمارك وفنلندا.

في بداية عام ١٩٤٠، أي قبل احتلال النروج بقليل، تمكن السويديون من اكتشاف أسرار المراسلات التي كان العملاء الألمان يبثونها. كانت هذه الرسائل تأخذ ظاهرياً شكل معلومات يرسلها صيادو السمك عن الأسعار وحجم الصيد وما شابه. لكن غرابة الأرقام استرعت انتباه السويديين الذين ما لبثوا أن اكتشفوا حقيقة ما ترمي

إليه هذه الأرقام. وقد كان لهذا الاكتشاف أثر كبير في جاسوسية الحرب في شمال أوروبا.

وسع السويديون نطاق علمهم ليشمل التجسس بالمعنى الضيق للكلمة. لم يكونوا بعيدين عن أية مخابرة هاتفية لأي سفير أو موظف في سفارة. وقد استطاعوا، من خلال ذلك، الحصول على معلومات غاية في الأهمية، بالإضافة إلى ذلك، كانت مراقبتهم لرجال معينين، كالسفراء وسواهم، في السويد وفي الخارج، تشمل كل شاردة وواردة. وكانت جميع هذه المعلومات تنصب بين أيدي ذوي الاختصاص يمحصونها ويحللونها ويستنتجون منها المفيد.

لكن الفائدة الكبرى في هذا الحقل أتت إليهم من خلال أخطاء الآخرين. وهذه هي العادة لدى الجميع وخلال الحروب كما في أوقات السلم. والشخص البارز في اقتراف الأخطاء، التي استفاد منها السويديون، كان قنصل ألمانيا في مدينة ستافنر السويدية. حتى أن محللي الشيفرة في ستوكهولم علقوا صورة كبيرة له على حائط أحد مكاتبهم اعترافاً منهم بما أسداه لهم من خدمات لا تقدر بثمن.

أعظم عمل قام به السويديون في نطاق المخابرات كان اكتشافهم لسر الآلة الطابعة لشيفرة سيمنس والتي كان الألمان يستعملونها في رسائلهم السرية من النروج ومن سفارتهم في ستوكهولم. لقد استطاع آرن بيرلنغ انجاز تصحيح كامل لهذه الآلة وكلف اختصاصياً أميركياً بصناعتها. وعلى الرغم من شكلها الضخم المخيف ومن صوتها المقيت، فإنها استطاعت أن تطبع الرسائل الألمانية التي كان السويديون يجهدون لقراءتها.

كان العمل يجري بشكل متواصل في مكاتب مخابرات السويد. وكل صباح، عندما يأتي الرئيس كان أول ما كان يفعله هو السؤال عن الأخبار الألمانية. وكان الجواب الحاضر يأتيه على الفور. وعندما قام الألمان بتحركات مريبة على الحدود النروجية السويدية تنبه السويديون وقطعوا الطريق على الألمان لدخول بلادهم. وقد اعترف الألمان ببراعة مخابرات السويد في هذا الموضوع وهنأوا في ما بعد ثورنل، المسؤول السويدي، فما كان من هذا الأخير إلا أن أحال التهنئة إلى رجاله ومعاونيه وهذا منتهى التواضع من أي رئيس مخابرات.

من منجزات السويد في هذا الحقل، اكتشاف نية الألمان بغزو الاتحاد السوفياتي. وقد نقلوا ما اكتشفوه إلى سفير بريطانيا في موسكو. لكن المؤسف أن ستالين لم يصدق الخبر كما أنه لم يصدق معلومات (جاسوسه) الدكتور(ريتشارد سورج) الذي سبق له أن أسس شبكة جاسوسية مهمة للمخابرات السوفياتية في طوكيو.

المخابرات البولونية

* أما بولونيا، فقد كانت في هاجس مستمر من إعادة تسلح ألمانيا، وذلك منذ العشرينات، لذا، فإنها كانت دائمة الرقابة لهذه الجارة المقلقة. وأفضل أنواع الرقابة للمخابرات، لا سيما العسكرية منها. وقد أنشأت الدولة البولونية لهذه الغاية مكتباً للشيفرة في نطاق القيادة العسكرية العليا للجيش البولوني.

أحست بولونيا أن الوسائل المستعملة في المخابرات أصبحت بالية ولا تأتلف والتطورات الآنية. وقد وعت أن الأمر يستدعي، في البداية، تكوين العنصر البشري المدرب، لذلك، لجأت إلى شباب الجامعات من اللامعين في الرياضيات، من هؤلاء الشباب لمع ثلاثة هم، زيكالسكي وروزيكي وريجوسكي.

استطاع الثلاثة تطوير المخابرات البولونية من وسائل وتجهيزات. وأصبح تطور بولونيا في مجال الشيفرة لا يقل تطوراً عن سواه من الأنظمة في زمن ما بين الحربين.

لكن المساعدة الكبرى التي تلقوها كانت من الفرنسي بيرتران. كان بيرتران هذا ضابطاً في سلاح المشاة الفرنسي عام ١٩١٥. وبعد أن جرح في معركة على الدردنيل، توجه نحو علم فك الرموز. عام ١٩٣١، توصل إلى اقتناع بأن خير وسيلة لدفع المخابرات أية مخابرات إلى الأمام هي في شراء شيفرات جاهزة مع مفاتيحها. وفي هذه الأثناء كان أحد العاملين في قسم الشيفرة في وزارة الدفاع الألمانية يتصل سراً بأجهزة المخابرات الفرنسية. كان اسمه هانس شميدن وهو أخ لضابط ألماني أصبح في ما بعد جنرالاً. بعد تسعة عشر لقاء في عدة دول، سلم شميدن إلى الفرنسيين حوالي ثلاثمائة مستنداً سرياً، منها ما يتعلق بنظم الشيفرة الألمانية،

ومفاتيحها. جميع هذه المستندات سلمت إلى مكتب المخابرات البولوني، الذي استخلص منها أعظم الفائدة. وقد ساعد هذا الإنجاز الشبان البولونيين الثلاثة على التمرس في مهنتهم واتقانها في ما بعد، بشكل بارز. وبعد أسابيع عدة من هذا التعاون الفرنسي - البولوني، حصل أن أصبح هتلر مستشاراً للرايخ.

في أواسط عام ١٩٣٣، زاد البولونيون عدد العاملين في جهاز الشيفرة ستة أشخاص ليتمكنوا من إنجاز الأعمال المتزايدة، كما وضعوا في العمل آلة لفك الرموز على نسق آلة «أنيغما» الألمانية، إنما مكبرة بحيث بلغ انتاجها ضعف انتاج الآلة الأم. وقد اطلقوا عليها اسم بومبا. بفضل هذا التطور، استطاعوا اكتشاف ما حصل من اغتيالات في صفوف النازيين في تلك الليلة المسماة «ليلة السكاكين الطويلة». ومعروف أن من بين الذين اغتيلوا أرنست روم، أحد أقرب المقربين إلى هتلر في الحزب. بعد ذلك، طوروا آلة أخرى لفك الرموز تنتج يومياً أضعاف ما تنتجه بومبا.

قبل اجتياح الألمان لبولونيا، بدأت مصادر المخابرات البولونية تشح، وهذا ما حمل الفرنسي بيرتران على تنظيم لقاء بين مخابرات كل من فرنسا وبريطانيا وبولونيا، غايته تكثيف الجهود حول تطوير الآلة أنيغما، وهو ما بدأ به البولونيون بنجاح كما أسلفنا، لكن المندوب البولوني فضل العمل منفرداً بعدما لاحظ أنه ليس لدى الآخرين ما يمكنهم إعطاءه له في هذا المجال.

بعد جهود حثيثة، تمكنوا من إدخال تطوير آخر على الآلة بومبا، بحيث لم يعد في استعمالها أية صعوبات مهما زاد حجم العمل. وفي تموز - يوليو من عام ١٩٣٩، وبمبادرة من البولونيين، اجتمع هؤلاء بالفرنسيين والبريطانيين وقدموا لهم ما توصلوا إليه. كانت هدية رائعة ساعدت الحلفاء كثيراً أثناء الحرب التي كانت طبولها قد بدأت تقرع.

عند الساعة الرابعة من فجر الأول من أيلول - سبتمبر من عام ١٩٣٩، كانت الجيوش الألمانية تجتاز الحدود إلى بولونيا. عندها سارع العاملون في المخابرات البولونية إلى الهرب لفرنسا عن طريق رومانيا، وهناك انضموا إلى الفرنسيين وبدأوا العمل معهم. وقد قدموا خدمات جلى في فك الكثير من رموز الرسائل الألمانية. وعندما اجتاح الألمان فرنسا، هرب الفريق البولوني إلى الجزء الذي لم يطله

الاحتلال واستقر في قصر فوزيس ضمن فريق حمل اسم كاديكس. ومن هناك استمر في تقديم الخدمات للحلفاء على مدى سنوات. والغريب أن الألمان لم يتنبهوا للأمر وبالتالي، لم يعطلوا عمليات الالتقاط.

في الثامن من تشرين الثاني - نوفمبر عام ١٩٤٢، ورداً على الإنزال الأميركي على الشاطئ الأفريقي الشمالي، أنجز الألمان غزو فرنسا وقد ألقي القبض على بيرتران وأعوانه. أما البولونيون فقد هربوا إلى إنكلترا، ومن هناك، استمروا في العمل ضمن وحدة خاصة ببلدهم حتى آخر أيام الحرب.

في هذه الأثناء كانت مدرسة الرموز والشيفرة البريطانية قد بدأت بتخريج بعض الطلاب، كانت مجمعات المدرسة تقع على بعد نحو ثمانين كيلومتراً إلى الشمال الغربي من لندن، في مكان يدعى بلتشلي. من طلابها المتفوقين لمع اسم آلان تورينغ، كما لمع هوغ الكسندر وهاري غولومبيك وروي جنكنز.

أولى منجزات مدرسة بلتشلي كانت تطوير الآلة البولونية يومياً بشكل أصبحت معه أكثر فعالية وأكثر سرعة. وقد أعطيت تسمية بومبا قياساً مع الاسم البولوني. بفضل هذه الآلة، التي وضعت في الخدمة عام ١٩٤٠، استطاع الإنكليز فك رموز الكثير من الرسائل الألمانية. لكن من الإنصاف القول إن الأثر العملي لهذه الآلات كان هزيلاً، باعتبار أن المعلومات كانت تصل منها متأخرة بعض الشيء، مما كان يفوت الكثير من فوائدها. لكن الفراغ في هذا المضمار جرى سده بواسطة الرادار. ويذكر في هذا المجال أن الغارة المبيدة التي شنها سلاح الجو الألماني على المدينة الإنكليزية كوفنتري عام ١٩٤٠، على الرغم من وجود الرادار، والمخابرات في آن معاً، لم تكن لتنجح بالشكل الذي حصل لولا الأخطاء البشرية التي اقترفت في عمليات الدفاع. وما قاله تشرشل من أنه ضحى بالمدينة لينقذ نظام «أولترا»، لم يكن سوى كلام لم ينطل على أحد. ونظام أولترا، الذي ادعى تشرشل المحافظة عليه بثمن باهظ، لم يقدم كثيراً من الخدمات إبان الحرب، اللهم إلا سماحه للبريطانيين بكشف نية الألمان بالعدول عن غزو الجزر البريطانية، ففي ٢٥ تشرين الأول - أكتوبر عام ١٩٤٠، استطاع هذا النظام أن يكتشف أن الألمان ألغوا إحدى الوحدات الإدارية التابعة لقوات الغزو. هذا التدبير، بالإضافة إلى عناصر أخرى

كشفتها مصادر المخابرات. أوضح أن الألمان عدلوا، مؤقتاً على الأقل، عن مشروعهم باحتلال الجزر البريطانية.

من الأهداف الرئيسية لمدرسة بلتشلي كان كشف نظام أنيغما. وقد تيسرت هذه المهمة بسبب تزويد الألمان جميع قطعاتهم البحرية بأجهزة تعتمد هذا النظام. وفي شباط - فبراير عام ١٩٤١ ونتيجة لغارة شنتها البحرية البريطانية على جزر لوفوتين، وهي أرخبيل قريب من الشاطئ النرويجي شمالي الدائرة القطبية، استطاعوا احتجاز طراد الماني كان يحاول التسلل. وعلى الرغم من أن آلة الشيفرة التي كانت على متنه قد ألقي بها في البحر، فقد بقيت قطع الغيار الاحتياطية ومنها الأسطوانة على ظهرها. وهذا ما أتاح للإنكليز معرفة أمور كثيرة عن أسرار هذه الآلة، كما مكنهم من إعادة تركيب بعض المفاتيح اليومية للشيفرة الألمانية.

وفي ٨ أيار - مايو من عام ١٩٤١، تمكن الإنكليز أيضاً من الاستيلاء على غواصة ألمانية في معركة بحرية جرت بينهم وبين الألمان في بحر الشمال. وقد استطاعوا الحصول من الغواصة، وقبل وقت قليل من غرقها وهي مقطورة، على أجهزة البث والاستقبال مع أنظمتها. ذلك أن العبوات الناسفة المهيأة لتدمير هذه الأجهزة لم تنفجر. وقد أتاح هذا الصيد الثمين للإنكليز أن يكتشفوا جميع المراسلات تحت المائية التي كانت تتبادلها الغواصات الألمانية. لكن صعوبة أخرى جديدة لم تلبث أن أجبرت الإنكليز على إعادة النظر بفائدة الطريدة. في الأول من شهر شباط - فبراير من عام ١٩٤٢، ابتدع الألمان شبكتين استخباريتين جديدتين للاتصالات تحت المائية، الأولى لغواصاتهم في المحيط الأطلسي. والثانية لمراسلاتهم الساحلية. وعلى الرغم من أن النظامين كانا يعتمدان طريقة الأنيغما، إلا أن المفاتيح المستعملة كانت مختلفة عن تلك التي استولى عليها منهم الإنكليز. وبعد فترة، تمكن الإنكليز من اكتشاف مفاتيح الشبكة الأولى. أما الثانية فقد بقيت مغلقة أمامهم فترة أطول حتى نهاية عام ١٩٤٢.

كان لهذا الوضع غير المرضي أثره الإيجابي على الألمان، إذ أتاح لهم التحرك بقدر كبير من الحرية في مياه الأطلسي. غير أن شهر العسل هذا لم يطل. فما أن دخلت الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء وأرسلت غواصاتها إلى أعماق

المحيط حتى بدأت الصعوبات تنتصب أمام الألمان. وأول الغيث كان التصدي لخمس قوافل متتالية من أسطولهم وبعثرتها وتدميرها بعد معرفة أماكنها.

أخيراً، وفي كانون الأول ـ ديسمبر من عام ١٩٤٢، أثمرت جهود مدرسة بلتشلي عن كشف الشبكة الألمانية الثانية الساحلية. هذا الإنجاز أتاح لهم تحقيق الكثير من الانتصارات البحرية والجوية في آن معاً. مما عقد الأمور أمام الالمان وجعلهم يفقدون الكثير من قطعاتهم البحرية على غفلة منهم. لقد كانت المعلومات التي ترسلها أجهزتهم تحت المائية ترسل إلى الاستخبارات الجوية البريطانية من قبل عناصر بلتشلي، فتسارع الطائرات إلى ضرب الغواصات الألمانية قبل موعد تلاقيها مع الغواصات الإنكليزية المحملة بالمؤن والذخائر.

استطاع فريق بلتشلي أيضاً اكتشاف سر الطابعة سيمنس، كما فعل من قبلهم السويديون، لقد صمموا لهذه الغاية مجموعات الكترونية من الأجهزة. آخرها وأكثرها إبداعاً والذي سمي كلولوسوس يعتبر من قبل العديد من الاختصاصيين في تاريخ التكنولوجيا الحاسبة الإلكترونية الأولى. لقد مكّنت هذه الحاسبة الإنكليز ومعهم حلفاؤهم من التوغل في أنظمة الشيفرة الألمانية، كما مكنتهم أخيراً من الفوز بالمعارك التي أوصلتهم إلى قلب ألمانيا. بفضل هذه الآلة، اكتشفت بشكل مسبق خطة هتلر الهادفة إلى القيام بهجوم مضاد للقضاء على ثغرة أفرانش. لكن النجاح لم يكن على الدوام حليف الحلفاء بمنجزات هذه الحاسبة. ففي ١٦ كانون الأول ـ ديسمبر من عام ١٩٤٤، هاجم الألمان الأردين في فرنسا دون أن يتمكن الحلفاء من كشف الهجوم قبل حصوله، وقد يكون ذلك عائداً لسوء الاستقبال أو ربما لسوء استثمار المعلومات.

لم يترك الإنكليز وسيلة استخبارية إلا وسلكوها. كانت جهودهم في هذا المضمار كبيرة، وكانت نتائجها مميزة. لكنهم، من فرط حماسهم، أغفلوا، ربما عن ترفع، استخدام الطرق التقليدية القديمة.

عميلة نشيطة وفاتنة الجمال للمخابرات البريطانية

* في شتاء ١٩٤٠ـ ١٩٤١، تلقت آمي اليزابيت أمراً من جهاز المخابرات

البريطانية العاملة في الولايات المتحدة الأميركية بالحصول على الشيفرة التي تعتمدها البحرية الإيطالية. كانت آمي هذه أميريكية فاتنة الجمال. تزوجت في التاسعة عشرة من دبلوماسي إنكليزي. لكنها طلقت منه في ما بعد. وفي الثلاثين من عمرها عينت في المخابرات الإنكليزية في أميركا. فور تلقيها الأمر، عملت بحيث اجتمعت بالملحق البحري في السفارة الإيطالية في واشنطن، الأميرال البرتو لايس، ولم تمض أسابيع حتى وقع البرتو في غرامها بشكل أفقده كل إرادة. هنا، ودون إضاعة لوقت، طلبت آمي منه مباشرة أن يعطيها الرمز البحري الإيطالي. قبل البرتو، على الرغم من سنه وخبرته، بخيانة بلده من أجل امرأة. تمت العملية بتصوير جميع المستندات اللازمة وإعادة الأصول إلى مكانها في الصناديق الحديدية. أما الصور، فقد أرسلت على عجل إلى لندن.

لم تمض شهور إلا وتبين كم كانت رائعة نتائج هذه العملية. حتى أن تشرشل نفسه اعترف بذلك بشكل غير مباشر. بعد أيام من العملية، اعترف لايس لآمي بوجود بعض الخطط التخريبية ضد أميركا. هذا الاعتراف كلفه أن يعتبر شخصاً غير مرغوب فيه في الولايات المتحدة، وأن يطلب منه مغادرة البلاد. على رصيف المرفأ أمام الباخرة التي كانت متوجهة إلى بلده. أمضى الدقائق الأخيرة مع آمي غير آبه بدموع عائلته. لقد أتاح رحيل لايس لآمي الاهتمام بمهمة أخرى كان هدفها هذه المرة سفارة حكومة فيشي الفرنسية.

هذه المرة انتحلت آمي شخصية صحفية. وبينما كانت بانتظار مقابلة مع السفير الفرنسي، أمضت الوقت بالتحدث طوال ساعة كاملة مع الملحق الصحفي في السفارة الكابيتان شارل بروس. كانت هذه الساعة كافية لإيقاع المسكين بحبائلها. وعندما تأكدت من سيطرتها عليه، اعترفت له بأنها عميلة سرية أغرته لأن يعمل إلى جانبها، مثيرة فيه روح الوطنية مع فرنسا الحرة ضد حكومة لافال. نتيجة لذلك، حصلت من بروس على نسخ من جميع المراسلات التي مرت في السفارة إرسالاً واستقبالاً، كما بدأ يقدم لها نسخة عن تقريره اليومي. هذه النسخ أتاحت للبريطانيين فرصة التعرف، أكثر من ذي قبل، على أسرار الشيفرة الفرنسية. ولكن في آذار ـ مارس من عام ١٩٤٢، طلبت لندن من المخابرات في الولايات المتحدة أن تحصل على نظام الشيفرة التي يعتمدها الملحقون البحريون الفرنسيون. وهناك من يظن أن تشرشل كان

في أساس هذه الرغبة. فقد كان يرمي إلى شن هجوم على مدغشقر ليمنعها من أن تصبح قاعدة للغواصات اليابانية، وكان قد شك في أن يرسل فيشي تعزيزات إلى هناك من داكار، إذا ما حصل مثل هذا الهجوم. لذا كانت مراقبة البحرية الفرنسية ومراسلاتها نوعاً من الحذر المطلوب.

بدأت آمي بطلب نظام الشيفرة من عشيقها بروس، فأجابها بأن مثل هذا الأمر مستحيل، لأن رئيس قسم الشيفرة ومساعده يحتفظان وحدهما بهذا المستند. عند ذلك توجهت في اتصالاتها إليهما لكنها فشلت مع الاثنين، لم تيأس، بل بدلت في التكتيك. في إحدى الليالي، توجه العشيقان، آمي وبروس إلى السفارة في وقت متأخر. وحتى يكون دخولهما إليها طبيعياً، وغير مثير لأية ريبة، فقد أقنعا الحارس بمنتهى اللباقة أن إيجاد غرفة شاغرة في فندق بواشنطن أمر شبه مستحيل في زمن الحرب. وأرفقا خطوتهما هذه بإكرامية دسمة. تكرر ذلك بحيث أصبح أمراً مألوفاً بالنسبة للحارس. وفي إحدى ليالي حزيران - يونيو من عام ١٩٤٢، رآهما الحارس خارجين من سيارة تاكسي على أحسن ما يمكن من الانشراح ومعهما زجاجة شامبانيا، دعياه لمشاركتهما الشرب فلم يتأخر. وبعد دقائق معدودة، كان يغط في نوم عميق عند ذلك، أدخلا «سائق التاكسي» الذي لم يكن إلا خبيراً في فتح الأقفال المستعصية. ومع ذلك فقد بقي ثلاث ساعات ليكتشف سر فتح الصندوق الحديدي. وهذا ما جعل الوقت متأخراً لتصوير المستندات، مما اضطر الثنائي للعودة بعد يومين.

لكن تكرار خداع الحارس أصبح أمراً مريباً سيما وأن هذا الأخير أصبح يشك في هذه الزيارات المتكررة والليلية إلى السفارة. توقعت آمي أن الحارس لا بد وأن يدخل بعد دخولهما ليرى ماذا يفعلان، فرتبت خطة تزيل كل شكوكه. وهكذا عندما دخل إلى الغرفة حيث كانت مع عشيقها، كما توقعت، إذ به يراها عارية تماماً في سرير العاشق بروس.

ارتبك الرجل وانسحب معتذراً. إثر ذلك، أدخل المتآمران «سائق التاكسي» بواسطة شباك. وبعد وقت قصير فتح الصندوق وأخذ المستندات المطلوبة وسلمها لعميل آخر كان ينتظر في الخارج. وعند الساعة الرابعة فجراً، كانت المستندات قد

أعيدت إلى مكانها، بعد تصويرها، ولم يكن بإمكان أحد أن يلاحظ أنها تحركت من مكانها.

لم تفد هذه العملية قضية مدغشقر في شيء. ذلك أنها عندما تمت، كانت الجزيرة قد احتلت لكنها ساعدت الحلفاء، قبل الإنزال على الشاطئ الافريقي الشمالي على مراقبة تحركات - أو بالأحرى غياب تحركات - قطعات الأسطول الفرنسي في كل من تولون وكازابلانكا والإسكندرية.

في هذا السباق المهووس وراء المعلومات التي ترسلها مختلف رسائل الاتصالات، والذي كان المتحاربون والحياديون على السواء يشتركون فيه، لم يكن الأميركيون في المؤخرة. في الأساس انصبت جهودهم على أنظمة الشيفرة اليابانية. والنتائج المذهلة التي استطاعوا الحصول عليها في هذا النطاق وصل أثرها إلى مسرح العمليات الأوروبي نفسه. وبينهما كان الألمان يعتمدون في اتصالاتهم، بصورة خاصة، على الشبكات السلكية التي لا تعطي مجالاً كبيراً للتصدي، كان الدبلوماسيون اليابانيون المعتمدون في برلين وروما وموسكو وليشبونة مقيدين باستعمال الراديو، وسيلتهم الوحيدة، لإيصال رسائلهم إلى طوكيو. وهذا ما كان يتيح للحلفاء التقاطها.

لقد قدمت الرسائل البرقية التي كان يبثها الملحقون العسكريون الألمان، معلومات قيمة إلى الحلفاء ومنهم الولايات المتحدة الأميركية. لكن هذا النبع جف إثر حادثة دلت، بشكل واضح، على أن سرقة المستندات لا يمكن ولا يجوز أن تحل محل التقاط الرسائل كمصدر للمعلومات الاستخبارية. فقد أرسلت المخابرات الأميركية عملاء لها إلى السفارة اليابانية في ليشبونة لسرقة أسرار شيفرتها. دون أن تعلم مسبقاً أجهزة الجيش المختصة، التي كانت حتماً ستحذرها من القيام بعمل كهذا من شأنه أن يفسد المكاسب التي حققتها المخابرات العسكرية في كشفها لأسرار الشيفرة التي يستعملها اليابانيون. كانت نتيجة هذه العملية أن اكتشف اليابانيون بعض الآثار لدخول الجواسيس الأميركيين، واستنتجوا أن شيفرتهم قد تكون تعرضت للانكشاف، فسارعوا إلى تبديلها وحرموا أعداءهم من الاطمئنان الذي كانوا ينعمون به لفترة طويلة. وقد بقي الحلفاء حتى نهاية عام ١٩٤٤ يجهدون أنفسهم دون جدوى في كشف رموز الشيفرة الجديدة.

في أواخر سنة ١٩٤٣ زار سفير اليابان في برلين، البارون هيروشي أوشيما، الذي كان يثق به الألمان كل الثقة، حائط الأطلنتيك وخط سيغفريد. ولما كان هذا السفير عسكرياً في الأساس، فقد كتب في تلك الزيارة تقريراً مفصلاً وقع في حوالي ألفي كلمة. وعندما بث التقرير بواسطة جهاز إرسال ألماني بعيد المدى، في مدينة أسمرة، على شاطئ البحر الأحمر، تمكن الحلفاء من التقاط الرسالة قبل أن تصل إلى طوكيو قاطعة مسافة ثمانية آلاف كيلو متراً على الأقل. ساعدت هذه الرسالة، التي نقلت ترجمتها إلى الجنرال أيزنهاور، على وضع الخطط الخاصة بهجوم الأميركيين عى أوروبا. من هذه الخطط، تضليل الألمان عن طريق إيهامهم بأن الإنزال المزمع اجراؤه سيتم على شاطئ مدينة با - دي - كاليه الفرنسية بدلاً من شاطئ النورمندي، المكان الحقيقي في الخطة للإنزال. وقد اعترف هتلر في ما بعد بأنه خدع، كما كتب تشرشل أن النتيجة كانت رائعة.

لا ريب في أن أي تمويه عسكري يستلزم، لكي ينجح، تنسيقاً مرصوصاً بين مختلف الأجهزة صاحبة الشأن، كما يستلزم، وهذا هوالأهم، نظاماً محكماً للشيفرة.

كان الأميركيون في الخطة المذكورة يستخدمون جهازاً اسمه سيفانا شبيهاً بالأنيغما ولكن بشكل أكثر تطوراً. وقد انتهت الحرب دون أن يتمكن الألمان من الوقوف على أسرار تلك الآلة. ويروى أن هذه الآلة كانت تحفظ، في أوقات راحتها، مجزأة، كل جزء في صندوق حديدي مع صندوق حديدي خاص بالمفاتيح. وذلك كله بالإضافة إلى الحراسة المشددة في الداخل والخارج.

في ليلة الثالث من شباط - فبراير من عام ١٩٤٥، أوقف عسكريان أميركيان من الفرقة٢٨ الشاحنة التي كانا في داخلها أمام أحد البيوت في مدينة كولمار الفرنسية، وأمضيا جزءاً كبيراً من تلك الليلة في أحضان بنات البيت. وعندما عادا إلى الشارع، لم يجدا الشاحنة التي كانت تحوي آلة سيغابا كاملة مع ملحقاتها وخرائطها في صناديق حديدية.

كان وقع الحادثة مريعاً أنبئ الرئيس أيزنهاور فوراً بالخبر. لقد أحس الجميع بالخطورة ليس فقط من كشف أسرار صناعة الآلة، بل، بصورة خاصة، من كشف أسرار الرسائل التي تبودلت قبل السرقة. فالعدو أصبح بإمكانه، إذا ما فك رموز تلك الرسائل، أن يقف على نوايا الحلفاء الخاصة بخططهم الحربية في أوروبا.

بعد ثلاثة أسابيع من البحث المكلف والعقيم، جرى تشكيل فريق فرنسي - أميركي من المختصين بالتجسس المضاد، مهمته الانكباب فقط على هذه القضية، وذلك بقيادة الملازم غرانت هيلمن. لم تكن بداية المهمة مشجعة، فقد اختفت أيضاً سيارتان عسكريتان واقفتان أمام مكتب هيلمن بشكل مريب كاختفاء الشاحنة. لكن الصورة بدأت في التحسن عندما أرسل أيزنهاور أحد جنرالاته للاهتمام بالموضوع. ضاعف هيلمن جهوده وتحقيقاته، ولكن دون جدوى. أخيراً تلقى ذات يوم من مصدر فرنسي معلومات تفيد بوجود صندوقين من الصناديق الثلاثة المختفية في مجرى ماء بالقرب من سيليستا. وبعد جهود حثيثة، سد المجرى المائي، وأمكن انتشالهما كما أمكن انتشال الصندوق الثالث الذي وجد غارقاً في الوحل وسط المجرى. وهكذا، انتهت ستة أسابيع من التحريات المهووسة. لكن التحقيق استمر. وقد توصل إلى معرفة الحقيقة بعد إعلان الأجهزة المختصة عن عدم معاقبة أي من المشتركين في العملية. عندها، وبفضل تعاون السلطات الفرنسية، اعترف سائق عسكري فرنسي أنه «استعار» الشاحنة بعد أن فقد شاحنته. وخوفاً من اتهامه بسرقة الصناديق، بعد أن علم بالضجة حولها، رمى بها في المجرى المائي من على جسر فوقه. هذه الحقيقة أثلجت صدر الحلفاء، فتنفسوا الصعداء بعد أن تأكدوا أن شيئاً لم يصل إلى أيدي الألمان.

بالنتيجة، يمكن التأكيد أن المخابرات الحليفة سبقت مثيلتها في دول المحور. وأسباب ذلك متعددة، منها ما يعود للعنصر البشري، ومنها ما يعود للتقنية. ويجدر أن لا نغفل أيضاً العنصر السياسي. ولكن، كيف يمكن تعريف أهمية الدور الذي لعبته الاستخبارات في تلك الحرب؟ أحد المؤرخين قال إنها قصرت أمد الحرب لأشهر وربما لسنة كاملة. هذا القول وجد الكثيرين من المعارضين. ومهما يكن من أمر، فإن الاستخبارات، على أهميتها ليست سوى عنصر مساعد في الحروب. ذلك أن المعارك على الطبيعة هي التي تقرر مصير المتحاربين.

غير أنه ما من شك في أن المخابرات كانت، طوال سنوات الحرب، أهم مصدر من مصادر المعلومات. كانت نسبة مصداقيتها أرفع من التجسس المباشر. كما كانت بعيدة النظر أكثر من الطيران، ومعلوماتها أهم مما كان يمكن الحصول عليه من أسرى الحرب.

والحقيقة التي أقر بها قادة كبار من كلا الطرفين، هي أن المخابرات أنقذت حياة الكثيرين، ليس فقط من الحلفاء، بل أيضاً من دول المحور، وذلك عن طريق اختصارها للحرب وضمن ذلك، عن طريق إجهاض العديد من المعارك قبل وقوعها. هنا يكمن الفضل، ومن هنا على العالم أن يعترف بالفضل لأعمال المخابرات التقنية والفنية والوطنية في كل زمان ومكان.

الفصل السادس

الجاسوسية والحرب الباردة

* جاسوس للكي. جي. بي. بين رواد الفضاء

في الولايات المتحدة كان الصحفي البلجيكي (جويدو كيندت) المتمرس في شؤون الفضاء حاضراً في مدينة هيوستن حيث مركز جونسون لأبحاث الفضاء وشارك هذا الصحفي في الترحيب بالرواد الأمريكيين السبعة. كما يستقبل الأبطال. وهو كان هناك متظاهراً بإتمام صفقة لكتابة سيرة رائد الفضاء البلجيكي ضمن طاقم الرحلة، لكن اتضح في ما بعد أنه كان مكلفاً بمهمة أخرى. وكانت غايته الحقيقية رصد التطور في البرنامج الفضائي الأمريكي لحساب سادته في موسكو. فحالما رجع إلى بلجيكا القي القبض عليه مع خمسة آخرين بتهمة التجسس. ومنذ ذلك الحين اعترف كيندت بأنه كان قد تلقى نحو ١٤٠ ألف دولار عن ٢٥ عاماً قضاها في خدمة المخابرات السوفيتية «كي. جي. بي» ثم في جهاز الاستخبارات الخارجية الروسية (أس في آر» الذي خلف الجهاز السوفييتي بعد سقوط النظام الشيوعي.

ومهما يكن بن طفرة التحول التي شهدتها البلاد. فإن روسيا ما زالت تمارس التجسس وهو موضوع حساس لا بد أنه كان مدار بحث أثناء اللقاء الأخير الذي تم بين الرئيسين بوريس يلتسين وجورج بوش. وفي وقت تعول موسكو إلى حد بعيد على كسب ودّ الغرب ومعوناته المالية، ويبدو أن الوتيرة التي يعمل بها جواسيس روسيا قد غدت مثار قلق خطير بين الحكومة الروسية من جهة وبين الولايات المتحدة وبعض حلفاء واشنطن من جهة أخرى. ومع أنه من المستبعد أن يؤدي استمرار التجسس إلى انقطاع المباحثات حول قضايا هامة كمسألة الحد من التسلح، لكنه يهدد بتقويض أسس التأييد الذي تبديه الولايات المتحدة نحو زيادة تخفيض القيود على بيع موسكو الوسائل التقنية الغربية المتطورة بعد انتهاء الحرب الباردة.

كما يمكنه أن يعيق الانفراج الذي تسعى إليه حكومة يلتسين في العلاقات بين جهاز استخباراتها الخارجية وبين وكالة المخابرات المركزية الأمريكية «سي. آي. إيه».

وفي محاولة لنزع فتيل التوتر حول هذا الموضوع قبل لقاء القمة الأخير بين الجانبين، كان فلاديمير لوكين سفير روسيا في واشنطن يدعو إلى عقد ما سماه اتفاقية «لعبة الصفر» لحظر التجسس المتبادل، وأثناء عشاء حضره في الآونة الأخيرة التفت لوكين إلى مدير المخابرات المركزية روبرت جيتس وسأله: «إذن، متى نلتقي للاتفاق على قواعد جديدة للتجسس على بعضنا البعض؟» وبينما تشجب واشنطن نشاط الجاسوسية الروسية فإن الولايات المتحدة نفسها مستمرة على هذا الصعيد، وقد أنفقت على الجاسوسية في العام الماضي ٣٠ مليار دولار، ومنذ فترة قريبة أحرجت موسكو كثيراً لدى رسوّ غواصة التنصت الهجومية الأميريكية «بباتون روج» بالقرب من قواعد بحرية روسية مهمة.

وفي موسكو، أعلنت إدارة المخابرات الخارجية الروسية أن عدد عملائها الأجانب وموظفيها المحليين سوف يخفض ٣٠٪ وأنه من الآن فصاعداً سوف تتركز مهمة الباقين منهم على إجراء الدراسات الاقتصادية والتحري عن خلفية المستثمرين الغربيين، وما أشبه ذلك من أعمال عادية، ويقول الجنرال فاديم كيربيتشينكو أحد قدامى «كي. جي. بي» وهو الآن من كبار المستشارين لرئيس المخابرات الخارجية الروسية، إن هذا الجهاز الجديد يعتزم اتباع سلوكٍ أكثر تحضراً وإن عملاءه سينبذون اللجوء إلى وسائل الابتزاز بالتهديد والوعيد واستعمال المخدرات وغيرها من الطرق التقليدية المتبعة في تجنيد العملاء الأجانب عن طريق توريطهم في مواقف محرجة أو مشينة.

فهل يعني هذا الموقف بداية عهد جديد يتسم بالجاسوسية «المهذبة»؟ إنه احتمال بعيد وحلقة التجسس البلجيكية التابعة لموسكو كشفها ديبلوماسي روسي رفيع المستوى في بروكسل ظل يعري خيوطها لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية بلا انقطاع منذ أن تحول إلى الغرب في العام الماضي. وقد أدلى بمعلومات مفصلة عن شبكة روسية معقدة، مستمرة في التوسع تتخذ من العاصمة البلجيكية قاعدة لها. وتظهر هذه القضية مدى تعطش الكرملين للأسرار العسكرية والاقتصادية الأجنبية رغم انتهاء الحرب الباردة.

وإذا كانت دوائر الاستخبارات الغربية الحريصة على تبرير زيادة ميزانياتها تتعمد تهويل حجم الأخطار خدمة لمصالحها الخاصة، فليس ثمة دليل يذكر على أن المخابرات الروسية بدأت تخفيف اندفاعها نحو ميدان الجاسوسية. فمصادر مكتب التحقيقات الاتحادي «أف. بي. آي» الأمريكي تشير إلي أن العملاء الروس حاولوا خلال هذا العام وحده تجنيد مواطنين أمريكيين عدة كجواسيس، ومنهم بحار يعمل في مؤسسة بحرية أمريكية ضخمة في ولاية فرجينيا.

ويعرب وين جيلبرت رئيس مكتب شؤون مكافحة الجاسوسية عن تذمره من استمرار تدفق الجواسيس الروس ممن ينتحلون صفة رجال الأعمال والسياح. وفي الحلقة البلجيكية كان هدف عملاء المخابرات الروسية الحصول على أسرار منظومة حساسة من وسائل الاتصالات التابعة للحلف الأطلسي، وفي أماكن أخرى من أوروبا أبدى الروس اهتماماً شديداً بكل أمر. ابتداء من الأجهزة المصرفية الالكترونية وصولاً إلى برامج الكمبيوتر المدنية الممكن تحويلها إلى الأغراض العسكرية.

وانهيار الاتحاد السوفييتي إنما زاد أهمية التجسس في ما يتعلق بأمن روسيا، فربما قل اهتمام موسكو بإثارة الانقلابات في العالم الثالث، لكنها تشعر بقلق متزايد حيال الأخطار الكامنة في الجمهوريات التي باتت الآن مستقلة ويمكن أن تنقلب إلى خصوم لها. وهناك مخاوف من تسلل الجواسيس الأجانب عبر دول البلطيق وآسيا الوسطى مما حدا بالرئيس يلتسين إلى المطالبة بتشديد الرقابة على الحدود.

ومن جهة أخرى باتت روسيا بحاجة إلى رفع مستوى كفاءة صناعتها المتخلفة عن طريق الحصول على التقنية الأجنبية. وفيما تحاول بناء اقتصادها بإمكانات مادية أقل مما كان متاحاً لها من قبل، تزداد أهمية اكتساب المعلومات بالمجان بدلاً من دفع ثمنها، كما يشير مايكل كيرز مدير معهد أوكسفورد للدراسات الروسية والأوروبية الشرقية، فروسيا تستهدف معرفة منظومات الأسلحة الغربية مثلاً، من أجل إدخال تحسينات على فائض أسلحتها الخاصة ويمكن بالتالي بيعها في الخارج مقابل عملات صعبة هي في أمسّ الحاجة إليه.

ونتيجة لذلك، تمتد أذرع أخطبوط المخابرات الروسية إلى أماكن كثيرة. ففي وقت مبكر من هذا العام اعتقلت السلطات الإيطالية ٢٨ جاسوساً من المتهمين بسرقة

الأسرار الصناعية في ما وصفه الرئيس الإيطالي السابق فرانشيسكو كوسيجا بأنه أوسع شبكة سوفيتية تم اكتشافها في أوروبا في أيّ وقت مضى. وبعد القبض على الخلية الروسية في بلجيكا عمدت الحكومة الهولندية من جهتها إلى طرد أربعة من الروس بتهمة القيام بنشاط سري غير مشروع، بينما تلقت فرنسا معلومات من المخابرات المركزية الأمريكية أدت إلى الكشف عن خمسة آخرين يبدو أنهم متورطون من حيث لا يدرون في ممارسات خلية الجواسيس التي كانت تدير عملياتها من بروكسل.

ومنذ توحيد ألمانيا، كشف النقاب عن العشرات من الجواسيس التابعين لجهاز المخابرات الألمانية الشرقية المعروف باسم «شتاسي» لكن رئيس النيابة العامة في المانية الاتحادية يقول إن عدداً يقدر بنحو ١٠٠٠ جاسوس آخرين ما زالوا في مواقعهم وإن البعض منهم قد انضموا إلى دوائر الجاسوسية في رابطة الدول المستقلة «كومونولث» التي انبثقت عن الاتحاد السوفييتي سابقاً. وفي فترة مبكرة من هذا العام قبض على موظف الماني لدى بعثة الولايات المتحدة في برلين واثنين من ضباط «شتاسي» السابقين فيما كان الثلاثة ينتمون إلى حلقة للتجسس على عناصر سلاح الجو الأمريكي في أوروبا. والجدير بالإشارة، كما ذكر المدعي العام الاتحادي الكسندر فون شتال، أن أحد الضابطين كان قد بدأ عمله لحساب الكرملين.

وفي بريطانيا يقول مسؤولون كبار أن هناك ما لا يقل عن ٥٠ جاسوساً روسياً يمارسون نشاطهم في لندن وحدها. وتدرس الحكومة البريطانية إمكان طرد عدد من الديبلوماسيين الروس.

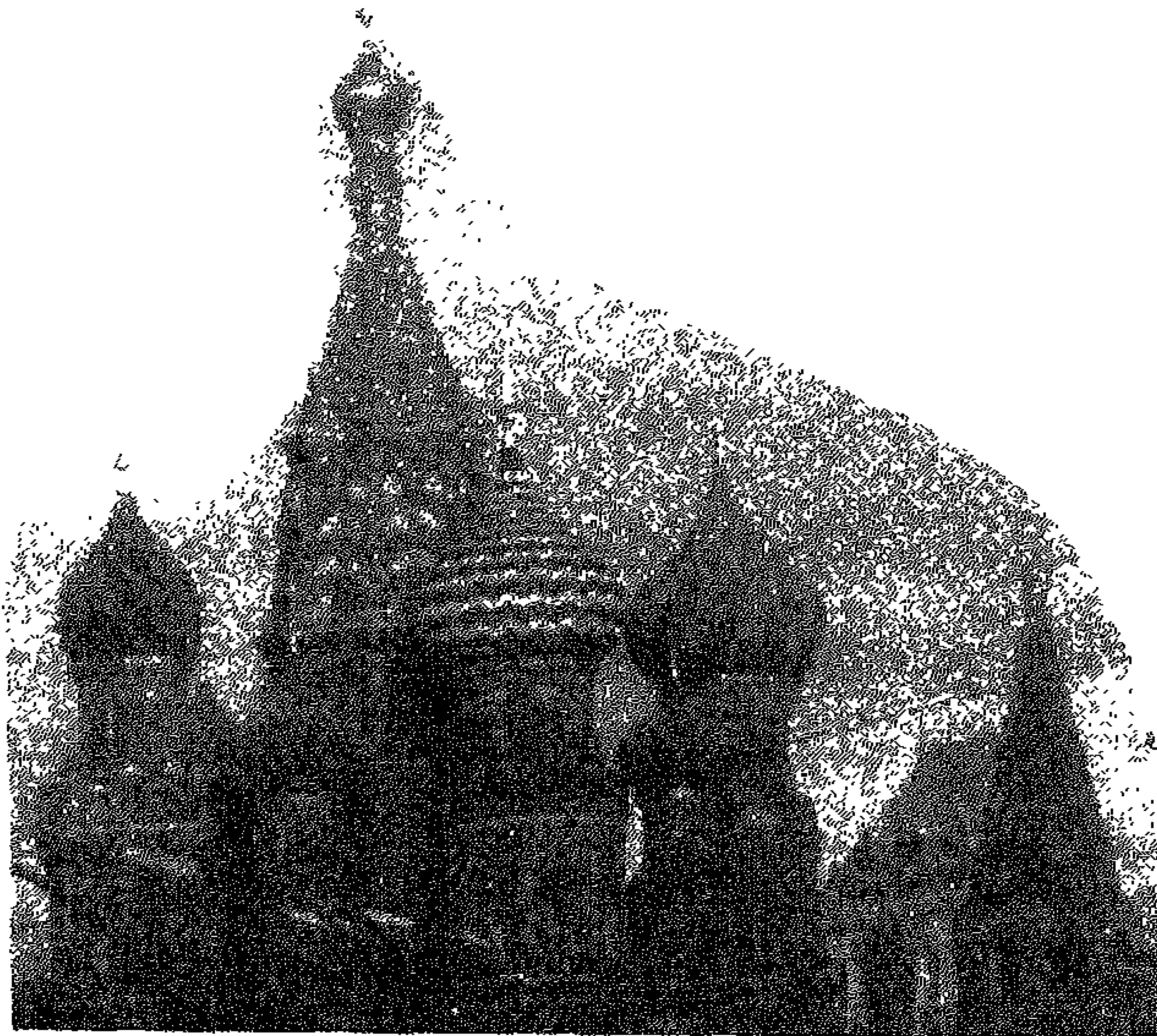
أهداف جاسوسية مشتركة

* وفيما تستمر لعبة الجاسوسية، تتطلع كل من موسكو وواشنطن بحذر الى تعاون مشترك في مجالات شتى. فالولايات المتحدة تنوي الحصول على معلومات عن الجماعات المتطرفة التي كانت في وقت مضى تحظى برعاية الاتحاد السوفييتي القديم، والروس من جانبهم يمكن أن يستفيدوا من المساعدة الأمريكية في استعداداتهم لمواجهة الأخطار المحتملة من جانب الفئات العرقية المتزايدة الحدة داخل الإمبراطورية السوفيتية السابقة.

وترغب موسكو من جهة أخرى طلب المشهور حول كيفية فرض الرقابة المدنية على أجهزة المخابرات في دولة ديموقراطية. وقد بدأت في هذا الإطار وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تقديم النصح إلى عدد من بلدان الكتلة السوفيتية سابقاً في أوروبا الشرقية.

فهل يمكن للجواسيس الروس والأمريكيين أن يرفعوا أقنعتهم حقاً ويتعاونوا مع بعضهم البعض؟ يقول مدير المخابرات المركزية الأسبق وليم كولبي «إننا نشترك في مواجهة أعداء كثيرين كالإرهابيين والمصابين بهوس التعصب القومي أو الديني وصانعي أسلحة الدمار الشامل». ومع ذلك فالأعداء السابقون قد يجدون مشقة كبيرة في توحيد جهودهم وقواهم حتى لو التقت المصالح. وكثيرون في واشنطن يشجبون فكرة التحالف مع جهاز استخبارات لا يزال يسعى باندفاع ملحوظ نحو السطو على أسرار الصناعة الغربية. ويعرف الجواسيس المدربون أن غطاء الصداقة والتعاون قد يخفي بين طياته خنجر الخطر والخديعة.

لذلك تستمر المخابرات الروسية بعد تفكيك الإتحاد السوفييتي والمخابرات الأمريكية بعد نجاحها في هذا التفكيك الذي صرفت عليه مليارات الدولارات من أموال دافعي الضرائب من الشعب الأمريكي المغلوب على أمره، في عدم الثقة فيما بينهما لفترة انتهاء القرن العشرين على الأقل.



الفصل السابع

المخابرات واكتشاف الراديو في الحرب العالمية الأولى

* اكتشاف الراديو عام ١٨٩٥ كان وسيلة للمساهمة في خير البشرية، حتى تلقفه العسكريون وسخروه لأغراض آلتهم الحربية. لقد وجدوا فيه وسيلة مثلى للاتصال البعيد المدى، ووسيلة وفرت المال والمحاذير خلافاً لما كان متبعاً من قبل من وسائل اتصال تعتمد الأسلاك والكابلات وأنماط البريد.

ولما كان لكل ميدالية وجه آخر، فإن الراديو سلاح ذو حدين. فكما أن من السهل الاتصال بواسطة موجات الأثير تلف العالم بأكمله، فإن من السهل أيضاً الدخول في أية موجة من أي مكان لالتقاط أية مراسلة. هنا، تكشفت أهمية علم الرموز وتحليل الشيفرة كسلاح ماضٍ لا يقل أهمية عن سائر أسلحة الحرب بل يفوقها ويتعداها إلى نطاق السلم.

وحدها فرنسا كانت مهيأة بأجهزة مخابرات لضخامة المهمات المستجدة. جندت خبراتها التي كونتها قبل الحرب بشكل منتج، بعد أن دعمت دوائر الشيفرة فيها بالعنصر البشري الكفء، وبالتجهيزات الملائمة، ويذكر أن ما التقطته أجهزتها من رسائل سرية، ترجمت وصنفت بشكل متطور، بلغ أكثر من مئة مليون كلمة، أي ما يعادل مكتب من ألف مجلد من الحجم الوسط.

بالإضافة إلى المتطلبات العسكرية في هذا المضمار، كان على كارتييه ورجاله أن لا يغفلوا المخابرات الديبلوماسية، الضخمة، هي الأخرى. ولكثرة ما كانت ألسن العسكريين تلوك أخبار الشيفرة الألمانية وسرعة تفكيكها من قبل الأجهزة الفرنسية، اضطرت القيادة العليا للجيش الفرنسي أن تصدر أمراً بمنع التحدث بمثل هذه الأمور. لكن الأمر ظل حبراً على ورق. وقد وصلت أخبار ما تتوصل إليه أجهزة المخابرات العسكرية إلى الصحف. فقد نشرت جريدة «لوماتين» الباريسية كيف أن

الفرنسيين قصفوا موقع ثابت في بلجيكا بعدما علموا، بواسطة استخباراتهم، أن غليوم الثاني موجود هناك في استعراض للقوات. كان بنتيجة ذلك أن ضاعف الألمان تغيير مفاتيح الشيفرة الخاصة بهم، مما ضاعف معه المجهود المضني أصلاً بسبب التغييرات المتوالية لهذه المفاتيح.

إلى جانب كارتييه، لمع اسم آخر، هو الملازم أول بان فين، الذي كان متفانياً في مهنته، حتى كسب ثقة رؤسائه، بحيث طالب به وزير الحرب إلى جانبه ليضمه بتصرف قسم الشيفرة في وزارته.

كان حجم العمل في دوائر المخابرات العسكرية الفرنسية يتراوح بين زيادة ونقصان تبعاً لحجم الاتصال بالراديو من الجانب الألماني.

فبعدما كان الراديو أهم وسيلة ألمانية لإجراء الاتصالات السرية بالشيفرة في بداية الحرب خف استعماله بشكل ملحوظ خلال عام ١٩١٥ ليعود إلى ازدهاره الأول مع بداية عام ١٩١٦، وتعود معه أكوام الرسائل المضبوطة على مكاتب كارتييه وأعوانه. وكلما تزايد العمل، تبلورت إمكانيات بان فين الهائلة.

إن تغيير بعض أنظمة الشيفرة حيناً وتعديلها حيناً آخر من قبل الألمان لم يتيحا المجال أمام الفرنسيين لأي قسط من الراحة. يضاف إلى ذلك ما كان العدو يتوسله من بث رسائل مضللة إن في محتواها أو في شيفرتها. لكن الفرنسيين لم يكونوا يوماً متخلفين في هذا السباق المضني، ساعدهم على ذلك، كما ذكر، طول باعهم في المهنة قبل الحرب، خلافاً للإنكليز الذين أخذتهم الحرب، في مضمار المخابرات، على حين غرة، علماً بأنهم لم يلبثوا أن ضيقوا المسافة بينهم وبين من سبقهم، بل ربما جعلوا المسافة خلفهم في بعض المراحل. وقد ساعدهم في ذلك ما أسداه لهم الفرنسيون من خدمات ومعلومات.

لمع عند الإنكليز اسم هو بروك ـ هانت، الذي استطاع فك رموز الرسائل الموجهة من القيادة الألمانية إلى عملاء لها في أفريقيا الشمالية لإثارة القلاقل ضد الفرنسيين خاصة والحلفاء بصورة عامة في هذا القطاع. كان بعض تلك الرسائل يفيد أيضاً عن الخسائر الجسيمة في الأرواح، التي كان يتكبدها المجندون العرب في جيوش الحلفاء، والناتجة بصورة رئيسية عن وضعهم في الأماكن الساخنة وزجهم في

الصفوف الأمامية، وكان هدف الألمان من تلك الأخبار، التي كانوا ينشرونها بواسطة عملائهم في أوساط شعوب شمال إفريقيا، إثارة النقمة وخلق المتاعب للحلفاء.

بالإضافة إلى الراديو كوسيلة الاتصال المختلف الأنواع، كان هناك الهاتف، فعلى الرغم من التعليمات المشددة للعسكريين باختصار استعمال هذه الوسيلة، وأحياناً بعدم استعمالها بتاتاً إذا كان الأمر يتعلق بمعلومات عسكرية، فقد ظل الهاتف يستعمل بكثافة وخلافاً للتعليمات. ويروى أن أحد الضباط الذين اقتحموا مقراً ألمانياً في فرنسا واحتلوه، وجد في المقر خريطة الخطة الخاصة بالاقتحام، فلم يستطع ضبط نفسه، وطلب القيادة هاتفياً ليخبرها بذلك ويقرأ لها محتويات مستندات أخرى عثر عليها في المقر الألماني، غير آبه بلفت نظر أحد أعوانه له لخطورة مثل هذا الاتصال.

وإمعاناً في الحذر، ابتدع ما سمي بالشيفرة الهاتفية. هذه الطريقة استطاع الألمان، بعد سنة من تطبيقها لدى الحلفاء من تبنيها والوصول بها إلى مستوى الآخرين. كانت المخابرة على أساس هذه الشيفرة تتم بتهجئة الكلمات أرقاماً وتسجيل تلك التهجئة على لوحة استقبال أمام المرسل إليه. استمرت هذه الطريقة عند جميع الفرقاء منذ عام ١٩١٦ حتى عام ١٩١٨ حيث غيرها الألمان في آذار ـ مارس، لكن الإنكليز والفرنسيين تنبهوا لذلك قبل حدوثه وهيأوا أنفسهم للمستجدات.

من ناحية أخرى، كان للمخابرات النمساوية ـ المجرية باع طويل وشهرة لا تنكر، منذ ما قبل الحرب وخلالها. كان جل نشاطهم على الجبهة الإيطالية. لم يكن الإيطاليون على شيء من البراعة في هذا المضمار. فالخبرة والكفاءة كانتا تعوزانهم. ابتدعوا أنواعاً متعددة من الشيفرات، سرعان ما كانت تكتشف، وفي أقل من ساعات، من قبل الآخرين. لمع عند الإيطاليين لويجي ساكو، الذي أصبح رئيساً لما سمي بمكتب المخابرات وفك الرموز. عام ١٩١٧ نجح فريق ساكو في أول عمليات فك للرموز كاملة، وذلك خلال معركة غوريسيا. بعد ذلك أنشأوا أنواعاً جديدة للشيفرة استخدموها بإيجابية في بعض المعارك. وفي نهاية عام ١٩١٧، أرسل الحلفاء إلى إيطاليا بعثة عسكرية تضمنت رجال المخابرات. وقد ساعد هؤلاء على

رفع مستوى الإيطاليين في هذا المضمار. يضاف إلى ذلك شعورهم بالمرارة إثر الهزيمة الساحقة التي لحقت بهم في معركة كابوريتو الشهيرة، والتي كان من أسبابها الرئيسية ضعف المخابرات مقابل المستوى الرفيع من كفاءة مخابرات العدو، وهذا ما أكدته لجنة تحقيق خاصة قامت، بعد الحرب، باستقصاء لأسباب الهزيمة في تلك المعركة.

أما الولايات المتحدة الأميركية، فقد بدأت رسمياً أولى خطواتها في حقل الشيفرة العسكرية عام ١٩١١، في فورت ليفن وورث بولاية كنساس. هناك كانت مدرسة الإشارة. في ذلك العام بدأت المدرسة سلسلة من المحاضرات التقنية حول الموضوع ألقاها موراي مورعاد من سلاح المدفعية الملكية البريطانية وقد بدأ، إثر ذلك، بعض الأميركيين من ضباط الجيش بالاهتمام بعلم الشيفرة. وكانت أول دراسة لهم تلك التي قدمها موبورن عام ١٩١٤.

لكن الحصاد الخصب نبت في رأس النقيب في سلاح المشاة باركرهيت. اكتشف هذا الشاب ذاته إبان ارتفاع الضغط مع المكسيك، وذلك بعد أن استطاع حل الرموز التي كان يستعملها المكسيكيون في مراسلاتهم السرية.

بدأ هيت بنظام الإطار المزدوج الذي استعمله بورتا منذ ثلاثة قرون. وباستعماله هذا الإطار يسجل أكبر تراجع علمي في تاريخ الشيفرة. غير أن هذه البداية الهزيلة لم تدم طويلاً، فقد استطاع هيت وأعوانه ابتداع أنظمة عدة عرضها عام ١٩١٤ على مدير مدرسة الإشارة لدرسها وتقويمها. وكانت إحدى وسائل فك الرموز التي ابتدعها وعرضها «مبنية على أفكار بازاري، من الجيش الفرنسي»، كما ذكر هيت في كتاب التقديم. في عام ١٩٢٢ تبنى الجيش الأميركي جهازاً من خمس وعشرين أسطوانة من الألمنيوم بحجم القطعة النقدية، وظل يستخدمه في فك الرموز حتى أوائل الحرب العالمية الثانية. في الثلاثينات عاد الجيش لطريقة هيت مع بعض التعديلات. وقد بقي ذلك حتى أوائل الأربعينات. يضاف إلى ذلك أن البحرية ظلت تستعمله على نطاق واسع خلال الحرب العالمية الثانية.

عام ١٩١٧، حضر هيت إلى فرنسا كمعاون لضابط الإشارة في الجيش الأميركي هناك. وعندما دخلت الولايات المتحدة الحرب، لم يكن لدى الجيش

الأميركي أي جهاز للترميز. غير أن ذلك عولج بسرعة، فأنشىء جهازان، الأول للمخابرات بواسطة الراديو والثاني للمخابرات العسكرية. كانت البداية صعبة. فالعبء ثقيل والإمكانات محدودة. لكن الاقتباس من سائر الحلفاء، على شحه، سد بعضاً من الثغرات. وبغية التخفيف من تخلفهم في مضمار الشيفرة، عمد الأميركيون إلى الإكثار من الأنظمة واستبدالها بسرعة كبيرة، حتى لا يتسنى للعدو الاستفادة منها. وهناك أنظمة لم تعمر لديهم أكثر من ثلاثة أيام. لكن ذلك لم يعط الثمار المرجوة. فأفضل الأنظمة، وإن تبدلت بسرعة كبيرة، لا يمكن أن تكون نافعة إن هي لم تُبْنَ أصلاً على قواعد صلبة.

ضاعف الأميركيون جهودهم في هذا النطاق للحاق بالركب. أنشأوا جهازاً للمخابرات الهاتفية وآخر لجمع وتحليل ما يرسله المراقبون الجويون. كان أول انتصار لهم في الحرب في مضمار المخابرات في ١١ آذار ـ مارس من عام ١٩١٨. كشفوا رسالة ألمانية تنبئ بهجوم كبير على الشاطئ الإنكليزي. أبلغ الأمر إلى الحلفاء، الذين سرعان ما استفادوا من هذا الاكتشاف وأجهضوا الهجوم مكبدين العدو الآلاف من الضحايا.

منذ بداية الحرب حتى آخر دقيقة منها، والصراع بين أنظمة الشيفرة وأجهزة المخابرات على أشده. لم يتوقف لحظة. كيف يتوقف وقد تكشف على أنه يشكل سلاحاً أمضى من الحديد والنار؟ كيف يتوقف والمعارك تتلوها معارك والخطط تعقبها خطط؟ في كثير من اللحظات، ولدى كل من الجانبين المتحاربين، كانت الأنظار تتجه نحو أجهزة المخابرات وتستجدي الإنقاذ. هدوء قد يكون سابقاً للعاصفة، تحركات مشبوهة، والجواب اليقين لدى المخابرات. لكن هذه المخابرات ـ لم تكن دائماً في وضع تحسد عليه. مرت في تاريخها العصيب خلال الحرب لحظات حرجه وضحلة. فاستبدال الأنظمة المفاجئ بهدف التضليل، وابتداع أنظمة جديدة أكثر تعقيداً وتمويها على الدوام، كانا يجعلان المهمة شائكة والنتائج شحيحة وأحياناً غير أكيدة.

إن اجتياح الألمان لفرنسا في بداية الحرب كان، في جزء منه ومن زاوية محددة، بسبب عدم تمكن مخابرات الحلفاء من كشفه قبل أوانه، على الرغم من تفوقهم المبكر في هذا المضمار.

تشكل الحرب العالمية الأولى نقطة تحول بارزة في تاريخ المخابرات. قبلها، كان هذا العلم ذا أهمية ثانوية، في حين أصبح بعدها يشكل دعامة في مقدمة الدعامات، في الحرب كما في السلم. لم تعد المخابرات وفنونها المختلفة، كما كانت قبل الحرب، طفلاً يحبو متلمساً طريقه. أصبحت مكتملة النمو، شديدة البأس، تعتمد على نفسها ويعتمد عليها الآخرون. وهذا ما أدى في ما بعد، إلى التفاعل المستمر بينها وبين المعلوماتية. هذا التفاعل لا يزال موضع جدل في الأوساط السياسية وأوساط المفكرين، في العالم المتحضر خاصة، لما له من علاقة وثيقة بالحريات الشخصية وحقوق المواطن. ولا شك في أن هذه المشكلة المستجدة في عصرنا الحديث، ستظل مجالاً لأخذ ورد مستمرين طالما أنها تمس ما يعتبره الإنسان من خصوصياته الحميمة. وقد يكون هذا التعدي «المشروع» على حقوق المواطن نتيجة للانفلاش الكبير في عناصر الحياة الاجتماعية والاقتصادية. وما رافق ذلك من تعقيدات في العلاقة بين المواطن والدولة، مع كل ما نراه من تجاذب متبادل هو في صميم طبيعة هذه العلاقة. ولم يكن ذلك ليحصل لولا التطور الهائل في وسائل المخابرات من تجميع للمعلومات وتخزينها وتحليلها إلى آخر ما هناك من عمليات تتم عليها وعلى أعمالها في سبيل الاطلاع على كل ما يجري في العالم لاستغلاله في مصالحها السياسية والتآمرية.

الفصل الثامن

من أعمال الجاسوسية العالمية تنصت هاتفي، رقابة، تجسس

* بقدر ما يكون الجاسوس متكتماً، بقدر ما يكون نجاحه مضموناً. وإرسال الرسائل بالشيفرة يستقطب الكثير من الانتباه، تماماً كما يحصل لو مشى امرؤ مقنعاً وسط شارع مزدحم بالمارة. ولكن، على الرغم من هذا، فإن على الجاسوس أن يؤمن اتصالاته بالجهات التي يعمل لحسابها. لذلك يلجأ إلى طرق تؤمن إخفاء رسائله، ككتابتها بواسطة لغة اصطلاحية، أو دسها في حاجيات الاستعمال الشخصي، أو كتابتها بواسطة حبر غير منظور، أو سوى ذلك من الوسائل التي تلقن للجواسيس. وبغية كشف هؤلاء، تعمد الحكومات إلى مراقبة المشبوهين، من رعاياها ورعايا الدول الأجنبية على السواء، وذلك عن طريق التدقيق في البريد الداخل والخارج، أو التقاط المخابرات السلكية واللاسلكية. هذه الوسائل تشكل ما يسمى بالرقابة.

انبثقت الرقابة عما كان يدعى في القرن الثامن عشر بالغرف السوداء كما ذكرنا. وقد ظهر في الأنظمة الديمقراطية أثناء الحرب، أما في الأنظمة الديكتاتوية، فهي بنت الطغيان. أخذت الرقابة حجماً كبيراً إبان الحرب العالمية الأولى. وكم كانت تجربة البريطانيين في هذا الصدد مفيدة حتى أنهم عادوا إليها بعد عشرين سنة. وقبل دخول الولايات المتحدة الحرب، سجلت أجهزة الرقابة فيها أول انتصار بارز لها عندما كشفت جاسوساً هاماً يعمل من أميركا وآخر يعمل من كوبا، التي كانت آنذاك أشبه ما تكون بمحمية أميركية (أي قبل ثورة فيديل كاسترو).

ففي شهر كانون الأول ـ ديسمبر من عام ١٩٤٠، لفتت إحدى الرسائل الموجهة من نيويورك إلى برلين انتباه واحد من المراقبين الإنكليز الألف ومئتين المتمركزين في برنسيس أوتيل في برمودا. كانت تلك الرسالة تتضمن معلومات عن التجارة البحرية. وقد استرعى انتباه ذلك المراقب ما قرأه فيها من عبارات توحي بأنها

كتبت بواسطة أحد الألمان بتوقيع جوك. بعد التدقيق، تبين أن هناك رسائل أخرى كتبت بالخط نفسه وأرسلت إلى إسبانيا أو البرتغال. لم يكن محتوى هذه الرسائل طبيعياً. مما حمل على تشكيل فريق لدراستها ومعرفة ما إذا كانت مكتوبة بلغة اصطلاحية، وفي حال الإيجاب، الوقوف على معانيها الحقيقية. كان أحد أعضاء هذا الفريق امرأة شابة تدعى ناديا غاردنر. وقد تكونت لدى ناديا هذه قناعة بأن هذه الرسائل تحوي نصوصاً مكتوبة بالحبر السري. مما حملها على إرسالها إلى المختبر، ولكن دون جدوى. أخيراً عمد الكيميائيون إلى تمريرها على أبخرة اليود، وهي طريقة اكتشفت في الحرب العالمية الأولى. وهذا ما أدى إلى ظهور كلمات على ظهرها. . إحدى هذه الرسائل، وهي مؤرخة في ١٥ نيسان ـ إبريل سنة ١٩٤١ ومرسلة إلى شخص يدعى مانويل ألونزو في مدريد، كانت تتضمن لائحة للسفن الراسية في مرفأ نيويورك. رسالة أخرى، موجهة إلى الآنسة إيزابيل ما شادو سانتوس في ليشبونة، كانت تتضمن ما يلي:

«لدى البريطانيين ما يقرب من سبعين ألف رجل في إيسلندا. . سفينة فيل دولياج أغرقت حوالي ١٤ نيسان ـ إبريل. . .» كانت هذه الرسائل مكتوبة بمحلول البيراميدون، وهو مسكن للآلام سهل التناول من الصيدليات بشكل عادي.

غير أنه لم يكن هناك ما يشير إلى المرسل. والمرجح أن التوقيع «جوك» لا يعود لشخص بهذا الاسم. أخيراً، تضمنت إحدى هذه الرسائل إشارة إلى أن «فيل» أصيب في ١٨ آذار ـ مارس في حادث سيارة وتوفي في مستشفى سان فانسان. بعد التدقيق من قبل المخابرات الفدرالية، تبين أن الضحية كان معروفاً باسم خوليو لوبيز ليدو وأن شهوداً رأوا رجلاً كان يصحبه وقد انتشل منه منديله واختفى. لقد أظهرت التحقيقات أن الاسم الحقيقي لليدو هذا هو أولتريش فون دير أوستن. وأن كاتب الرسائل يدعى كورت فريدريك لودويغ، المولود في ولاية أوهايو الأميركية. وقد عاد إلى أميركا، بعد أن تربى في ألمانيا، في آذار ـ مارس سنة ١٩٤٠ لينشئ فيها شبكة تجسس. لكن هذه الشبكة لم تصل إلى المستوى المطلوب.

لقد ضبطت مع لودويغ هذا، ساعة القبض عليه، عدة علب من البيراميدون. ولعل أسلوبه الركيك في الكتابة هو الذي أثار انتباه المراقبين وأوصله إلى هذا المصير.

الجاسوس الثاني الذي كشفه مكتب المراقبة في برمودا دفع حياته ثمنا لما له من نشاط. ففي أحد أيام تشرين الثاني - نوفمبر من عام ١٩٤١، لاحظ أحد المراقبين لكنة ألمانية في رسالة مكتوبة بالاسبانية آتية من هافانا إلى ليشبونة. ما كان من هذا المراقب إلا أن أخضع الرسالة للتحقق من الأحبار السرية. وقد أدى هذا إلى إظهار نص يحوي لائحة بالسفن التي تفرغ حمولتها في ميناء هافانا، كما يحوي تفاصيل عن بناء إحدى المحطات الجوية. أعطيت على الفور الأوامر للتفتيش عن مراسلات أخرى بالخط نفسه، فضبطت رسائل عدة كانت كلها تعالج موضوع حركة السفن في المياه الكوبية وتوسيع قاعدة غوانتانامو الأميركية. وبعد أن اكتشف صاحب هذه الرسائل وتبين أن اسمه الحقيقي هو هانز أوغوست لونينغ، ألقي القبض عليه في ٥ أيلول - سبتمبر من عام ١٩٤٢. وقد أعدم رمياً بالرصاص في ٩ تشرين الثاني - نوفمبر من العام نفسه، فكان أول جاسوس يعدم في كوبا.

بعد فترة من بيرل هاربور، أنشأت الولايات المتحدة دائرة للمراقبة ما لبثت أن نمت وأصبحت جهازاً يعمل فيه أكثر من أربعة عشر ألفاً من الموظفين يشغلون تسعين بناء موزعة على كامل الأرض الأميركية. وقد توصلت هذه الدائرة لأن تفتح يومياً أكثر من مليون رسالة، وأن تستمع إلى آلاف المخابرات الهاتفية. كما كانت تتصفح عشرات المجلات وتشاهد العديد من الأفلام. حتى أن الملايين من الناس في أميركا ألِفوا تلقي رسائلهم وعليها آثار الفتح ظاهرة، كذلك عبارة «فتحت بواسطة الرقابة».

وبغية وضع حد لأعمال الجاسوسية ورسائلها المختلفة، عمدت دائرة الرقابة الأميركية إلى وضع لائحة بالمحظورات كانت تضيق وتتسع حسب مقتضى الحال.

فلعب الشطرنج بالمراسلة وتبادل الكلمات المتقاطعة وأمور عديدة أخرى كلها منعت بواسطة البريد. حتى قصاصات الجرائد والمجلات والورق الأبيض ورسوم الأطفال كانت تستبدل بمثيلاتها تحاشياً لكل مراسلة تجسسية مكتوبة بحبر سري.

في دوائر البرق، كانت القواعد تقضي بأن يمتنع الموظفون المختصون عن إرسال أية برقية لا تكون مكتوبة بلغة واضحة أو لا يكون مضمونها مفهوماً. وقد قضت هذه القواعد بأن لا يسمح إلاّ بالبرقيات المرسلة باللغات الإنكليزية أو الفرنسية أو الإسبانية أو البرتغالية دون سواها من اللغات. حتى أن الموظفين في دوائر البرق أعطوا صلاحية تنقيح أو تصويب نصوص البرقيات كلما رأوا ذلك مناسباً.

بلغت الاحتياطات التي اتخذتها دائرة الرقابة الأميركية حد الوسواس. لقد توصلت إلى منع أية رسالة أو برقية تتضمن إشارة إلى عدد أو نوع من الأزهار، وذلك بين الولايات المتحدة، وانكلترا. كان يفرض على كل رسالة مكتوبة بالشيفرة أن تكون مقترنة بإشارة إلى المستند الذي اعتمدته هذه الشيفرة مع كامل التوضيحات التي من شأنها أن تلقي الأضواء على الرسالة. وإذا رغبت مؤسسة من المؤسسات في أن يكون لها نظام سري خاص بها، عليها أن تودع دائرة الرقابة مسبقاً خمس عشرة نسخة من هذا النظام وأن تحصل على إذن يسمح لها باستخدامه (حتى ولو كانت شركة طيران).

واحتياطات الرقابة هذه تناولت حقولاً أخرى من حقول النشاطات المختلفة. كان على الصحف والمجلات وسائر وسائل الإعلام المكتوبة أن تكون حذرة في نشرها الإعلانات الخاصة. ولكن الاهتمام الرئيسي تركز على الإذاعات الخاصة التي كان بمقدورها أن تبث، وبلغة متفق عليها، رسائل إلى العاملين في أعماق البحار. وفي هذا تسهيل لا مثيل له لمهمات العملاء التجسسية. ومثل بطل الملاكمة ماكس باير ماثل في الأذهان، لقد استطاع هذا الرياضي أن ينجح في بث رسالة مدسوسة في مقابلة إذاعية له تفيد بأن «الباخرة كوين اليزابيت ستبحر هذه الليلة باتجاه هاليفاكس وعلى متنها عدة مئات من الطائرات». كانت هذه الإذاعات الخاصة وسيلة سهلة ومضمونة لرسائل العملاء. كانوا يتفننون في دس رسائلهم في نصوص الإعلانات الشخصية كالبحث عن كلب ضائع أو الترويج لسلعة معينة أو الدعاية لهدايا الميلاد.

كانت دائرة الرقابة تعمل بتنسيق مستمر مع مختلف الأجهزة الأمنية لا سيّما مع مكتب المعلومات الاتحادي. وفي أيار ـ مايو من عام ١٩٤٣، أنشيء جهاز آخر ملحق هو عبارة عن مختبر فني مهمته كشف مختلف الوسائل التي يستخدمها العملاء في إيصال رسائلهم. وكم من الأسرار كشفت وألقي القبض على أصحابها بفضل الأعمال التي قامت بها الأجهزة العاملة في مضمار الرقابة. وقد اقتضت الضرورات إلى التوسع في هذه الأجهزة وإنشاء أقسام فيها تتولى نشاطات متخصصة فرضتها مستجدات اقتصادية أو سياسية. أنشيء قسم للمؤشرات التي تؤدي إلى تحديد مواطن المواد الأولية ليصار إلى العمل على امتلاكها وحرمان الآخرين منها. كما أنشيء قسم مهمته جمع المعلومات عن الأزمات الاقتصادية وفقدان بعض المواد والسلع من

السوق ليصار إلى تحليل الأسباب والعمل على تطويقها. حتى الرسائل المكتوبة بلغات غير مألوفة أو بلهجات محلية نادرة، كانت تجد في مكاتب أجهزة الرقابة من ينكب على ترجمتها وإخراج المعاني التي تتضمنها.

تتوزع الوسائل اللغوية للتجسس على أنواع عدة: اللغة الاصطلاحية، والرسائل المتضمنة اصطلاحات معينة، والأشكال الهندسية في اللغة الاصطلاحية، تخفي الكلمات البريئة والنصوص السخيفة معاني غاية في الأهمية والسرية. كل كلمة بل وحتى كل نقطة أو فاصلة يمكن أن تؤدي مدلولا لا يتبادر لذهن أي إنسان عادي أنه هو المقصود. هذه الوسيلة استخدمت في فجر تاريخ المخابرات.

ليس من السهل على المراقب أن يكشف خفايا رسالة مكتوبة بلغة اصطلاحية، ويروى أن عدداً كبيراً من طلبات السيكار تبودل بين تاجرين هولانديين مزعومين أثناء الحرب العالمية الأولى. هذه الطلبات أدت، دون قصد، إلى ترويج أنواع السيكار المطلوبة. وقد تبين في ما بعد أن التاجرين ليسا سوى جاسوسين ألمانيين وأن طلباتهما للسيكار ليست إلا تمويها لمعلومات يريدان إيصالها إلى جهات معينة في دوائر المخابرات الألمانية. مثل ذلك: «خمسة آلاف كورون إلى نيوكاستل» كانت تعني «خمس مدمرات راسية في المرفأ». وفي ٣٠ تموز - يوليو من عام ١٩١٥ نفذ حكم الإعدام بالجاسوسين على برج لندن، بعد محاكمة جرت لهما في تلك المدينة.

خلال الحرب العالمية الثانية، كادت إحدى الرسائل المموهة تفلت من قبضة رجال دائرة الرقابة. غير أن الشكوك أثيرت عندما رجعت هذه الرسالة من بيونس آيرس وعليها الإشارة المألوفة «مجهول العنوان». أودعت الرسالة الشخص المرسل وهي سيدة تقيم في بورت لاند. لكن هذه المرأة، بعد ما تبين لها أنها تجهل كل شيء عن الرسالة ومحتواها، أودعتها مكتب المخابرات الاتحادي الذي قرأ فيها ما يلي:

«استلمت لتوي دمية جميلة هي عبارة عن راقصة سيامية. تبين أن فيها بعض الخدوش في الوسط لكنها أصلحت...» ثم جاءت رسالتان أخريان تعالجان الموضوع نفسه. وفيهما: «سيجري إصلاح دمية مكسورة تلبس ثوباً من الرافيا في

الأسبوع الأول من شباط ـ فبراير». «ستقيم الدمى الإنكليزية في المستشفى لمدة أشهر حتى استكمال إصلاحها. إن مستشفى الدمى يعمل ليل ـ نهار».

انكب رجال مكتب المخابرات الاتحادي على كشف مداليل ما جاء في الرسالة من تمويه. وبعد جهد واستقصاء، تبين أن ما جاء فيها يعني فعلاً ما يلي: علمت أن حاملة الطائرات قد أصيبت في وسطها بقذيفة طوربيد، لكنها أصلحت الآن «سيجري وضع الطراد الخفيف هونولولو في العمل خلال الأسبوع الأول من شباط ـ فبراير»، «ستبقى المدمرات البريطانية في المرفأ لمدة شهر حتى استكمال إصلاحها. إن ورشة الإصلاح تعمل ليل، نهار». غير أنه لم يتبين لرجال المخابرات مصدر المراسلة، فعادوا إلى السيدة التي أعيدت الرسالة الأولى إليها وبعد استجوابها، ذكرت أن هناك بائعة للدمى تدعى مسز ديكنسون، ربما كانت هي التي انتحلت اسمها. بعد التحقيق مع هذه السيدة، اعترفت بأنها مرتبطة بصداقة مع شخصيات يابانية هامة وأنها تلقت من السلطات اليابانية مبالغ كبيرة لقاء خدمات تجسسية. ألقي القبض عليها وحكمت بالسجن لمدة عشر سنوات وبغرامة مقدارها عشرة آلاف دولار بموجب قانون حماية أعمال المخابرات.

الطريقة الأخرى التي تستعمل لتمرير معلومات مموهة هي الرسائل المتضمنة اصطلاحات معينة، كأن يتفق المرسل والمرسل إليه على ألا يعتمد إلا ببعض أحرف النص أو ببعض كلماته: مثلاً الحرف الأول من كل كلمة، أو الحرف الذي يلي كل فاصلة، أو الكلمة الخامسة من كل سطر، الخ. . . أما باقي النص فليس لغير التضليل. هنا أيضاً، تدل هذه الرسائل على نفسها بنفسها من خلال سخافة معانيها وعدم ائتلاف هذه المعاني، شأنها في ذلك شأن الرسائل المكتوبة بلغة اصطلاحية.

حوالي منتصف القرن السابع عشر ألقى رجال كروموييل القبض على السير جون تريفانيون، أحد أتباع شارل الأول، وزجوا به في قلعة كولشتر. وبينما هو قابع في زنزانته ينتظر الحكم بالموت، إذ برسالة تصله، بعد أن مرت على رقابة رجال السجن دون أن يجدوا في عباراتها ما يثير أي شك. قرأ السير جون الرسالة فوجد أن مواقع الفواصل غير طبيعية. بعد محاولات عديدة لاكتشاف حقيقة مضمون الرسالة، تبين له أن الحرف الثالث بعد كل فاصلة أو نقطة هو الأساس في الرسالة. قام بجمع

هذه الأحرف فتكونت لديه الجملة التالية: «في طرف الكنيسة عمود أملس للهروب». وفي المساء وبعد أن اقتيد وحيداً إلى الكنيسة للصلاة في ليلته الأخيرة، استطاع الهرب بواسطة هذا العمود ونجا.

إبان الحرب العالمية الأولى، أرسل عميلان المانيان رسالتين على أساس هذه الطريقة. في الأولى منهما، يعتمد بالحرف الأول من كل كلمة، وفي الثانية بالحرف الثاني، تبين من الرسالتين معاً أن الموضوع يتعلق بالمدمرة الأميركية برشينغ وبتاريخ مغادرتها مرفأ نيويورك، لكن المؤسف أن الوقت المحدد في الرسالتين، وهو الأول من حزيران - يونيو، لم يراع. فالمدمرة غادرت الميناء في (٢٨) أيار - مايو.

وفي الحرب العالمية الثانية، انتشر استعمال هذه الطريقة في المراسلات الخاصة، لا سيما العائلية منها. وكانت كلها بريئة لا تحتوي على شيء. لكن كثرة استعمالها أدى إلى منعها من قبل البحرية الأميركية عام ١٩٤٣.

الطريقة الثالثة التي يواجهها رجال الرقابة تكمن في الأشكال الهندسية. في هذه الطريقة، توزع الكلمات التي تشكل نص الرسالة الحقيقي على أماكن محددة من الشكل الهندسي، في حين تكون الكلمات الموضوعة في الأماكن الأخرى الباقية للتضليل.

إن معاناة رجال المخابرات في موضوع الرقابة على الرسائل بهدف اكتشاف السري منها كبيرة. فالأمر غاية في الصعوبة وغاية في الدقة. ومهما جهد هؤلاء الرجال، فإن الكثير من الرسائل الخطيرة تفلت من بين أيديهم.

في بداية الحرب العالمية الثانية، كانت الوسيلة الأكثر استعمالاً هي الحبر السري. وهي الوسيلة الأكثر قدماً في تاريخ سرية الرسائل ونقل المعلومات. ذكرها بلين في كتابه «التاريخ الطبيعي» في القرن الأول من عصرنا. كما أتى على ذكرها أوفيد في كتابه «فن الحب». وفي عصر النهضة كثر استخدام الحبر السري في المراسلات الديبلوماسية.

هناك نوعان من الأخبار السرية: الوسائل العضوية والمحاليل الكيميائية.

الأولى: كالحليب والخل والبول وعصير الفاكهة، سهلة الانكشاف بمجرد

تسخينها. لكنها على الرغم من ضماناتها الضعيفة، كثيرة الاستعمال. حتى أنها استعملت في الحرب العالمية الثانية. ويقال إن الكونت فون روتر، وهو الماني اكتسب الجنسية الأميركية وعمل في الجاسوسية لحساب بلده الأم، لجأ إلى استعمال البول بعد أن نفذ الحبر السري لديه.

أما النوع الثاني فهوعبارة عن محاليل كيميائية لا لون لها عندما تكون جافة، وتظهر بألوان مختلفة إذا ما عولجت بمحلول مساعد آخر. مثال ذلك أن كبريتات النحاس تتفاعل مع الأبخرة الأمونية. ومن المحتمل أن يكون هذا المحلول هو الذي استعمل لكتابة بعض العناوين المفيدة على منديل جورج داش، رئيس فريق من ثمانية مخبرين نازيين اعتقلتهم الولايات المتحدة عام ١٩٤٢ ونقلتهم ضمن غواصة إلى لونغ أيلند، بعد أن اكتشفت أنهم يخططون لنسف بعض المنشآت الأميركية. إن أهم عنصر في الحبر السري هو عصيانه على أكبر عدد من المحاليل الكاشفة.

لقد لجأ الألمان إلى وسائل عدة لتفويت الفرصة على أبخرة اليود، وهي كاشف ممتاز، في أن تلعب دورها بفعالية. في إحدى هذه الوسائل، كانوا يشقون ورقة الرسالة طولياً إلى نصفين. بعدما يقومون بكتابة الرسالة بالحبر السري من الجهة الداخلية لأحد النصفين، ثم يلصقون النصفين بحيث تكون الكتابة في الداخل بمنأى عن مفعول المحاليل الكاشفة. لكن الصدفة أرادت أن ينفذ الحبر لكثرته إلى سطح الورقة وتنكشف الطريقة. بعد هذا الاكتشاف، لجأت السلطات الأميركية إلى اثنين من الجواسيس الألمان الموقوفين لديها لتتعرف منهما على الطريقة المستخدمة في شق الورقة نصفين متساويين في الكثافة. هذه الطريقة استخدمها بعض مروجي العملات بأن قاموا بشق أوراق نقدية من فئة الدولار والعشر دولارات وإلصاق وجه من هذه على وجه من تلك. حتى إذا تمت العملية، قاموا بترويج الملصقات على الوجه المتضمن رسم الورقة من فئة العشر دولارات.

استخدم الألمان كذلك ما سماه ادغار هوفر، مدير مكتب المخابرات الاتحادي، «قمة التجسس عند العدو»، أعني به الميكرو نقطة، وهو عبارة عن صورة بحجم النقطة التي تنهي الجملة. هذه النقطة هي عبارة عن صورة تكبر فتصبح بعد تظهيرها بحجم الورقة. وهذا يعني أن كل ميكرو نقطة يمكن أن تشكل صفحة كاملة

من رسالة سرية. هذه الطريقة استخدمت، بمعدل تصغير أقل عام ١٨٧٠ لإيصال رسائل سرية إلى داخل باريس المحاصرة. ولكن، على الرغم من قدم عهد هذه الطريقة نسبياً، فإن مكتب المخابرات الاتحادي لم يكتشفها إلاّ عام ١٩٤١ بناء على تحذير من عميل مزدوج، في رسالة كان ينقلها عميل ألماني، وقد تضمنت ميكرو نقطة واحدة وضعت على المغلف. بعد ذلك، توالت الميكرو نقاط المكتشفة وتوالى معها كشف أسرار العدو. وهذا ما دعا دول المحورفي الحرب العالمية الثانية، وعلى رأسها ألمانيا، إلى التقليل من اللجوء إلى هذه الوسيلة، والتوجه أكثر فأكثر إلى الراديو. لكن هنا أيضاً، لم تنج الأسرار من آذان الرقباء.

ولم يقتصر نشاط المراقبين الأميركيين على الأرض الأميركية، بل تعداه إلى القارات الخمس. كانت محطات استماعهم تلف القارات الخمس. حتى أن الهمسة التي يبثها أحد أجهزة مورس كانت تلتقط وتترجم وتحال على المراجع المختصة فوراً.

في شهر نيسان - إبريل من عام ١٩٤١، أبحر إلى ريودي جانيرو المدعو جوزيف ستارزيزني باسم مستعار هو نيالس كريستيانسن، حاملاً معه بشكل سري جهاز إرسال من أربعة أنظمة مع تعليمات مكتوبة على ميكرو فيلم. بعد شهر من ذلك، بدأ الجهاز بالبث. وفي آذار - مارس من عام ١٩٤٢ وصلت الباخرة كوين ماري إلى الريو وعلى متنها عشرة آلاف من الجنود. أن إغراق باخرة كهذه يعتبر (ضربة موجعة للحلفاء) ففيه خسارة مادية كبرى بالرجال والعتاد، كما فيه خسارة معنوية من شأنها أن تؤثر على الروح العالية التي كان يتمتع بها الأسطول الإنكليزي آنذاك. لم تكن هذه الباخرة تحتاج لمواكبة بسبب سرعتها. ومنذ أن أبحرت، والعملاء النازيون يبثون الرسالة تلو الأخرى لتوجيه غواصاتهم وراءها. وفي ٦ آذار - مارس بثت إحدى الرسائل أن كوين ماري ستصل هذا اليوم وأنه يجب إغراقها. بعد يومين، انطلقت رسالة أخرى تقول إن كوين ماري توجهت إلى عرض البحر الساعة الثامنة عشرة.

في ١٣ من الشهر نفسه، بثت رسالة ثالثة وفيها أن كوين ماري شوهدت قرب شاطئ الرصيف. جميع هذه الرسائل جرى التقاطها بواسطة أجهزة المراقبة الحليفة.

وصلت الباخرة إلى هدفها الآمن بعد أن اجتازت المحيط الأطلسي. أما الجواسيس النازيون، فقد كانت تلك رسائلهم الأخيرة.

لقد ألقى البوليس البرازيلي القبض على ستارزيزني وأعوانه البالغ عددهم حوالي المئتين، وذلك بناء على معلومات تلقاها من مكتب المخابرات الاتحادي.

كانت هناك محطتان للتجسس تعملان لحساب الألمان على الأرض الأميركية. إحداهما تقع في سانتربورت، وقد بدأت بالبث للمرة الأولى في ١٥ أيار - مايو سنة ١٩٤٠. وكانت أول رسالة تلقتها تتضمن طلب معلومات عن الإنتاج الأميركي الشهري للطائرات مع وجهة تصديرها وطرق شحنها وشروط دفع ثمنها.

رئيس تلك المحطة كان يدعى وليم سيبولد، وهو مواطن أميركي من أصل ألماني، وعميل سري لمكتب المخابرات الاتحادي. خلال صيف ١٩٣٩. توجه في زيارة إلى مسقط رأسه في مولهايم في ألمانيا. وهناك، صادر الغستابو جواز سفره وهدده بالانتقام من جده إن هو لم يقبل بالعمل لحساب المخابرات الألمانية في الولايات المتحدة. قبل سيبولد العرض بعد أن اتصل بالسلطات الأميركية في كولونيا. إثر ذلك، تابع دورة تجسس في مدرسة هاربورغ وعاد إلى الولايات المتحدة في ٨ شباط فبراير سنة ١٩٤٠. وهناك، اتصل بالعملاء النازيين حسب لائحة أعطيت له في ألمانيا، وركّز جهاز البث ليبدأ بإرسال المعلومات.

خصصت وكالة المخابرات الاتحادية عنصرين من عناصرها لالتقاط رسائل هذه المحطة، وكانت على اتصال مستمر بسيبولد. ولم تمض فترة إلا وكانت أجهزة الأمن تنقض على أوسع شبكة تجسس جرى اكتشافها في الولايات المتحدة قبل بيرل هاربور. كان ذلك يوم ٢٨ حزيران - يونيو من عام ١٩٤١.

وهناك عميل مزدوج آخر كان يعرف بالرمز ن. د./٩٨/ . عمل فترة طويلة لحساب الأميركيين قبل أن تنتهي مهمته في أيار سنة ١٩٤٥، في نهاية الحرب. وقد كان للمعلومات المغلوطة التي كان يرسلها للألمان آثار كبرى في تضليلهم وتشتيت قواهم وإجهاض مخططاتهم.

غير أن كل ما ذكر ليس سوى العاب صبيانة بالمقارنة مع أكبر مناروة تضليل سجلتها أحداث الحرب العالمية الثانية. تمت العملية من قبل أجهزة التجسس

الألمانية عن طريق إقامتها قواعد لعملاء لها في كل من هولنده وفرنسا وانكلترة بوجه خاص، وكانت من الإحكام بحيث استطاعت أن تؤدي إلى إجهاض وسحق:

١ـ مائة وتسعين عملية إنزال مظلي خلف الخطوط.

٢ـ مصادرة خمسة عشر طناً من المتفجرات

٣ـ مصادرة ثلاثة آلاف بندقية أوتوماتيكية

٤ـ مصادرة خمسة آلاف مسدس

٥ـ مصادرة الفي قنبلة يدوية

٦ـ مصادرة خمس وسبعين جهاز بث (لاسلكي)

٧ـ مصادرة خمسمائة ألف قذيفة

٨ـ مصادرة نصف مليون فلورين(أوراق نقدية).

هذا بالإضافة إلى اعتقال أربعة وخمسين عميلاً أعدم منهم سبعة وأربعون دون محاكمة في معسكر موتهاوزن. لم يكن لأية عملية عسكرية أو غير عسكرية وقع تلك العملية العملاقة طوال سنوات الحرب بكاملها. لقد اعتبرت أكبر هزيمة استخبارية في تاريخ التجسس الحليف في الحرب العالمية الثانية.

الإذاعة البريطانية تعمل للمخابرات البريطانية.

* ابتدع الفكر البشري ألف وسيلة ووسيلة للتجسس ومنها المخابرات عبر التاريخ. كانت هذه الوسائل تنشط وتتكاثر في زمن الأزمات، لا سيما في الحروب. ولا يمكن المفاضلة أحياناً بين وسيلة وأخرى. فما ينفع في مجال قد لا يكون ملائماً في مجال آخر. أكثر ما استعمل إبان الحرب العالمية الثانية لإعطاء التعليمات كان «الرسائل الشخصية» التي كانت تبثها هيئة الإذاعة البريطانية. وقد روى بيتر تومكينز، الجاسوس الإنكليزي، كيف أنه كان، مع الفريق العامل تحت إمرته، يتسمر ذات ليلة أمام المذياع منتظراً سماع رسالته المتفق عليها، وذلك في روما حيث أرسل عام ١٩٤٤ في مهمة خاصة. بعد نشرة الأخبار باللغة الإيطالية، بدأت الرسائل الشخصية: «كاترين تنتظر بالقرب من البئر»، «ستشرق الشمس عند الفجر»، «جان بحاجة لأحذية»، ثم فجأة، يقول تومكينز، أذيعت رسالتنا: «غليوم ينتظر ماري»،

كان هذا يعني أن الإنزال المظلي سيحصل هذه الليلة. وذات مرة كان على شبكة ماركو بولو التجسسية أن ترسل رسالة من ثلاثين صفحة إلى لندن. ولما كان هذا الإرسال يستغرق وقتاً طويلاً إذا ما جرى بالشيفرة بواسطة الراديو، فقد فضل المسؤول عن الشبكة إيداع الرسالة باليد، على أن يأتي الإشعار بالاستلام عبر الإذاعة البريطانية ومن خلال بث رسالة شخصية اتفق عليها بالرموز.

اثنتان من تلك الرسائل التي كانت تبثّها الإذاعة البريطانية ارتدتا طابعاً خاصاً على قدر كبير من الأهمية: «الجو حار في السويس» أعطت الأوامر للمقاومة الفرنسية بنسف سكك الحديد، و «النرد على الطاولة» أطلقت الخطة الحمراء، أي قطع خطوط الهاتف والبرق. كانت عناصر المقاومة تتحلق دوماً حول المذياع لتستمع إلى رسائلها الشخصية. وفي ٥ حزيران من عام ١٩٤٤ الساعة الثامنة عشر والنصف، أذيعت رسالتان فهم منهما أن ساعة التحرير قد اقتربت. ولا يزال الكثيرون يتذكرون تلك اللحظة بدفق من الحنين. إن أشهر رسالة أذيعت من بين الرسائل الشخصية كانت تلك التي أعلنت نزول الحلفاء على شواطئ النورماندي. وعلى الرغم من أن النازيين التقطوها وفهموها، فإنهم لم يتمكنوا من الإفادة منها. وبعد ثلاث ساعات، كان ثمانية عشر ألفاً من المظليين يهبطون في الحقول على شواطئ النورماندي. جميع القيادات الألمانية أخطرت بالأمر إلاّ واحدة هي قيادة الجيش السابع الذي كان عليه أن يجابه هو الموجة الأولى من المهاجمين. ولا يزال سبب عدم إخطارها مجهولاً.

في هذا الوقت، كانت الولايات المتحدة الأمريكية تضاعف الجهود للوصول إلى استخدام فعال للذرّة في الحرب، وذلك في إطار مشروع منهاتن، الذي أحيط بسرية لم يسبق لها مثيل في تاريخ المخابرات. لقد صمم من أجله نظام خاص للشيفرة لم يكن يعرف كنهه إلاّ نفر قليل من العاملين في المشروع. ولم يتضح حتى الآن أن الألمان تمكنوا من كشف هذا النظام أو معرفة بعض أسراره.

نصل الآن إلى الهاتف كوسيلة اتصال سهلة زهيدة التكاليف. إن الكثيرين يجهلون أن الهاتف كاتم جيد للسرية، وأن الهاتف بواسطة الراديو يبزه في مضمار التكتم، وأفضل وسيلة لتأمين أكبر قدر من السرية، هو استعمال لغة اصطلاحية.

كما أن استخدام الشيفرة ممكن، وقد استخدمت فعلاً في مشروع منهاتن. أخيراً، يمكن اللجوء، في المخابرات الهاتفية، إلى لغة أجنبية.

هذه الطريقة الأخيرة مارستها الولايات المتحدة في الحربين العالميتين على نطاق واسع. فقد كان لديها مجموعة من اللهجات المعقدة التي يندر أن يفهمها أحد في العالم. تلك اللهجات اشتُقت من اللغات الهندية المختلفة حتى أن وجود عناصر من قبائل الشوكتاوس والنافاجوس ذوي اللحى السوداء والبشرة السمراء أصبح مألوفا في دوائر المخابرات الأميركية، لا سيّما بعد أن تكاثروا فيها بسبب الحاجة إليهم. ويذكر أن عددهم ناهز في دوائر الهاتف وحدها الأربعمئة. كانوا يقومون بتأمين نقل الأوامر بكل دقة وسرية. وقد اعتبر هذا من العناصر الهامة التي ساعدت على نقل القوات الأميركية من جزر سليمان في الباسيفيك إلى أوكيناوا.

تستخدم في هذا المضمار تقنيات عدة. منها التسجيل بصورة عكسية وتقطيع شريط التسجيل ووصل قطعه بشكل غير منتظم. بعد ذلك، يعاد تركيب أجزاء الشريط بشكل صحيح ويسجل الشريط ثانية بالاتجاه الصحيح على شريط آخر بواسطة أجهزة خاصة. طريقة أخرى توصل إلى التضليل عن طريق إضافة أصوات أخرى وحشرها بين كلمات وأحرف المخابرة. بعد ذلك، تقوم آلات متخصصة بغرز الزيادات بغية استخراج النص الأساسي خالياً من كل شائبة. كانت طريقة التسجيل المعكوس والتقطيع هي المفضلة لدى تشرشل في مخابراته الهاتفية الهامة. كما يذكر أن سفير الولايات المتحدة في باريس، وليم باليت، استخدم هذه الطريقة عندما أنبأ الرئيس تشرشل عن إعلان الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا.

أدركت أجهزة المخابرات الألمانية أهمية الهاتف كوسيلة فضلى في نقل المعلومات بسرعة ودقة متناهيتين. لذلك عكفت لسنوات على التصدي لها وكشف أسرارها. وبعد جهود حثيثة، وصلت في أيلول ـ سبتمبر من عام ١٩٤١ إلى حل اللغز. وقد أقامت لهذه الغاية محطة التقاط متطورة على الشاطئ الهولندي. ولما كان الحدث على قدر كبير من الأهمية، فقد أحيط هتلر نفسه علماً به بالرسالة التالية: «لقد حققت المخابرات الألمانية خطوة بارزة بإنشائها محطة التقاط هاتفي للمخابرات المتبادلة بين الولايات المتحدة وانكلترا، وذلك على أحدث الطرق. وبفضل الجهود

الحثيثة لعلمائنا، أصبح بإمكاننا ترجمة المخابرات هذه بصورة فورية بعد إزالة كل الإضافات التضليلية منها. ونظراً لأهمية هذا الإنجاز، فإن ما ستلتقطه هذه المحطة سوف يودع السيد هيملر نفسه دون سواه. ذلك أن الإنكليز سيغيّرون حتما نظام شيفرتهم بنظام أكثر تعقيداً وبالتالي، سيعودون إلى إرباكنا، إذا ما وصل إلى علمهم أننا كشفنا نظامهم».

من المخابرات الهاتفية التي التقطها الألمان بواسطة محطتهم الجديدة، تلك التي جرت في ٢٩ تموز - يوليو سنة ١٩٤٣ (بين تشرشل وروزفلت) بشأن الانقلاب الذي جرى في تلك الفترة في إيطاليا والذي أطاح بموسوليني. وهذه المخابرة هي التالية:

تشرشل: موضوع الهدنة ليس وارداً طالما أنّا لم نتلق ما يفيد بأن خطوات ملموسة قد اتخذت من قبل الطليان.

روزفلت: هذا صحيح.

تشرشل: بإمكاننا الانتظار بهدوء يوماً أو يومين.

روزفلت: هذا صحيح.

بعد ذلك أشار تشرشل إلى أنه قد يتصل بملك إيطاليا، فأجابه روزفلت بأنه، هو أيضاً، قد يتصل بعمانويل.

وجد الألمان في هذه المخابرة دليلاً على خيانة وازدواجية الطليان. فقد اعتبروها برهاناً قاطعاً على أن مفاوضات تجري بينهم وبين الأميركيين والإنكليز.

في بداية عام ١٩٤٤، التقطت المحطة الألمانية حواراً آخر (بين روزفلت وتشرشل) دام حوالي خمس دقائق وكشف النقاب عن نشاط عسكري متنام في بريطانيا، مؤكداً ما تجمع لدى الألمان من مؤشرات عن الاجتياح الذي تم في ما بعد.

الفصل التاسع

خطورة عمل الحقيبة السوداء

* يعالج هذا الفصل تجهيزات جيمس بوند، أي تكنولوجيا التجسس التي نعرفها من خلال روايات التجسس. إنها التكنولوجيا المثيرة. بعد التحقيقات التي طالت المخابرات الأميركية في السبعينات والتي كشفت تجاوزات خطيرة في الوطن وفي جميع أنحاء العالم كان من المتوقع أن يخف الإقبال على التطوع في المخابرات، ولكن في السنوات الثلاث التالية ازدادت طلبات التوظيف في الوكالة. ما السبب؟ كان الجمهور يعلم منذ سنوات عديدة أن الأدوات التي تستعمل في روايات جيمس بوند وأفلامه ليست واقعية، ولكن بعدما كشفت التحقيقات عن وجود أقلام حبر سامة خفيفة وصدف متفجر وسيكار مزيل للشعر (صمم هذا الاختراع لإزالة لحية كاسترو) وعندما أصبحت هذه المعلومات علنية، ذهل عدد كبير من الناس حول حياة الجاسوس، وأغراهم التشبه بالعميل رقم (007).

تستعمل تكنولوجيا الحقيبة السوداء في الواقع أقل مما يظهر في روايات وأفلام التجسس، وتستعمل أيضاً في العالم الرمادي وهو العالم الذي تكون فيه الفوارق ضبابية بين الإرهابي والمقاتل من أجل الحرية، وبين الجاسوس والخائن. يتضمن علم الحقيبة السوداء ثلاثة أنواع يعتبرها الإنسان العادي من أسوأ الأعمال المعادية للمجتمع وهي: السطو، وتدمير الممتلكات بواسطة المتفجرات، والاغتيال.

يلجأ العملاء إلى الحقيبة السوداء وذلك للاحتيال (إن سرقة كتاب الرموز أسهل من حل الرموز الصعبة، أي إن الحقيبة السوداء تستعمل عند فقدان الشعور بالأمن) عندما تكون الخيار الأخير. عدد كبير من العملاء يقلدون روايات التجسس ويرغبون في القيام بدور سيد الجواسيس إذا كان ذلك ممكناً. وهذا كالقول المأثور: «إن أكبر مشكلة للسياسيين هي أنهم يريدون أن يكونوا سياسيين»، وهكذا الجواسيس أيضاً.

تبدأ عمليات الحقيبة السوداء بالدخول السري (لسرقة الرموز أو لزرع أدوات استراق السمع أو المتفجرات)، لذا، سنعالج المبادئ الأساسية للسطو (فتح الأقفال، تجاوز أجهزة الإنذار وفتح الخزائن) تحت عنوان التخريب، سوف نبحث كيف تصنع بعض أنواع المتفجرات وأين توضع وكيف يتم تفجيرها. أخيراً نلقي نظرة على ما يسمى «العمل الرطب» للعملاء وهو القتل، وكذلك نعرض للأسلحة التقليدية وغير التقليدية ابتداء من المسدسات وكواتم الصوت إلى السكاكين الطويلة والمخنقات، ثم إلى الخدع القذرة (أدوات القتل السري من المسدسات الموضوعة داخل أقلام الحبر إلى السموم التي تقتل عند لمسها).

في هذا الكتاب لا يبحث في التفاصيل الدقيقة، ومع أن محتويات ت إن ت وطريقة صنعها موجودة داخله، فإن أحداً لن يقدر على صنعها بسهولة. على القارئ أن يحذر من أي كتاب يعرض لطرق التحضير وتعليمات الاختبار لأن ذلك قد يؤدي إلى خسارة يد أو رجل وربما إلى خسارة الحياة.

السطو في لغة التجسس

* من الضروري لجميع الذين يرغبون بحماية مؤسساتهم من أخطار الدخول السري، وللذين يريدون تجاوز هذه التدابير الوقائية. إجراء تقدير صحيح لمستوى التهديد. عندما يريد أحد العملاء أن يدخل إحدى البنايات ويسرق منها شيئاً ما أو يزرع جهاز تنصت أو متفجرات، فإنه يعتبر لصاً وعليه أن يدخل ويخرج دون أن يكشف ويلقى القبض عليه. تتم حماية المؤسسات حسب مستوى التهديد: إن منزلاً في الضاحية مثلاً، قليل التعرض وغير مهم، يحمى بواسطة أقفال على الأبواب والنوافذ، بينما تجهز السفارة الأجنبية بأجهزة إنذار تعمل بالأشعة فوق البنفسجية وبحرس مسلحين وكلاب بوليسية ونظام مراقبة شاملة بالكاميرات تشاهد فوق الرؤوس.

إن القاعدة العامة التي يتبعها لص يريد سرقة منزل، أو عميل في مهمة سرقة كتاب شيفرة، هي اتباع الممر الأقل مقاومة وخطراً. لا يجوز أن يمضي العميل ساعة يحاول فيها أن يفتح قفلاً صعباً في باب حديدي ثقيل، فبدلاً من ذلك يحدث ثغرة في الحائط على أحد جوانب الباب خلال ثلاث دقائق.

أجهزة الإنذار وأنواعها

* **يتألف نظام الإنذار من أربع مراحل أساسية هي:**

- الإحساس (إعداد جهاز الإنذار).
- إرسال الإشارة (كيفية إرسال إشارة الإنذار).
- استقبال الإشارة (كيفية استقبال إشارة الإنذار).
- الفعل (ردة الفعل على الإنذار).

إن أكثر أشكال الإحساس (لأجهزة الإنذار) شيوعاً هو الإحساس باللمس أي الإعداد للإنذار عندما تكون الدائرة الكهربائية مقطوعة أو مقفلة، بحسب شكل الإنذار، يستعمل النوع الذي يعد الإنذار عندما تكون الدائرة مقفلة قليلاً لأنه من السهل تجاوز أجهزة إحساسه. يجب أن نتأكد من أن الدائرة لن تقفل. أكثر أجهزة الإنذار استعمالاً هي التي تظهر في نوافذ المحلات (رقاقة معدنية متصلة بأسلاك. عندما تنقطع الرقاقة يعمل جهاز الإنذار).

حتى يتجاوز جهاز الإحساس هذا، يمكن للعميل أن يربط سلكاً طويلاً بطرفي الدائرة الكهربائية، وهكذا تبقى الدائرة مقفلة، ثم يكسر الرقاقة دون أن يعيق التيار الكهربائي. إلاّ أن بعض أجهزة الإنذار المعقدة تستطيع كشف التغيير في المقاومة الكهربائية مما يحرك جهاز الإنذار. في أجهزة إنذار الرقاقة يتبع العميل الممر الأقل مقاومة، أي إنه يكسر الزجاج حيث لا يعمل جهاز الإنذار، يمكن وضع أجهزة الإحساس باللمس، بحيث يعمل جهاز الإنذار عندما يفتح باب غرفة أو جارور مكتب أو عندما يضاء الضوء أو عندما يتحرك أي شيء.

إحدى نقاط ضعف أنظمة الإحساس باللمس هي سهولة التعرف إليها (رقاقات معدنية، أسلاك. .) لكنها تستعمل لإلهاء وخداع العملاء بإحساس خاطئ بالأمان بحيث يعتقدون أن عليهم أن يجاوزوا جهاز إنذار برقاقة معدنية، وينسون احتمال وجود جهاز إنذار يعمل على الضغط في فراش أو وسادة أو تحت سجادة داخل الغرفة.

هنا يمكن وصل أجهزة الإنذار بميكروفونات بحيث يحركها أقل صوت. يمكن وضع ميكروفونات اللمس على النوافذ أو الجدران أو الأرض لكشف أي ذبذبة.

يستعمل الضوء كجهاز إحساس في أنظمة الإنذار. يتألف جهاز الإحساس هذا من شعاع ضوء موجه عبر مدخل إلى خلية ضوئية كهربائية على الجانب الآخر. إذا حصل أن انكسر شعاع الضوء لأي سبب، عندها يعمل جهاز الإنذار (تستعمل هذه التكنولوجيا في أبواب المصاعد الكهربائية الحديثة التي لن تقفل إذا كان شعاع الضوء مكسوراً). إن شعاع الضوء بحد ذاته غير مرئي لكن يستطيع العميل أن يكشفه، وذلك بالقاء بعض العوامل العاكسة مثل بخار الماء. وإذا كان الضوء من أشعة غير مرئية أي دون الحمراء أو فوق البنفسجية، فحتى لو ألقي عليها بخار الماء أو الدخان يمكن للعميل أن يستعمل نظارات مع مرشح خاص بحيث يمكنه رؤية هذه الأشعة.

تستعمل بعض أجهزة الإنذار الموجات فوق الصوتية أو الرادار لكشف أي حركة في المنزل، أو الهوائيات التي تكشف تقارب الأجسام وتشغل جهاز الإنذار عند حدود معينة. وهناك أيضاً أجهزة إنذار حرارية بالأشعة دون الحمراء يشغّلها أقل تغيير في درجة حرارة الغرفة.

هناك بشكل عام نقاط ضعف في كل جهاز إنذار، مثلاً جهاز الإنذار الذي تشغله بعوضة لا يصلح للاستعمال، ولهذا يجري إعداده حتى مستوى معين. في بعض الأحيان يشغل السارق معرفته للمستوى ويتحرك بهدوء ويتجنب السطوح الحساسة تجاه الذبذبات ويتفادى التعرض لشعاع الضوء ويناور حتى لا ينكشف. في معظم الأحيان يحاول العميل أن يقطع جهاز الإنذار قبل دخوله أي بناء.

يمكن توصيل جهاز إحساس الإنذار إلى نظام إضاءة وأجراس أو خطوط هاتفية لإبلاغ الشرطة أو شركة الإنذار بالتسلل. تؤثر أصوات الإنذار وأضواؤه على السارق المبتدئ، أما الخبير المجرب، فإنه يعرف الوقت اللازم للشرطة كي تصل إلى المكان، ويتجاهل صوت الإنذار وضوءه. في الأنظمة المعقدة تكون أجهزة الإنذار صامتة بحيث أن المتسلل لا يدرك أنه انكشف، وهكذا يمكن للشرطة أن تلقي القبض عليه دون أن ينتبه. يدخل العملاء المجربون المبنى وبحوزتهم جهاز قياس يؤمن لهم التحذير عندما يحركون جهاز الإنذار.

يحتمل أن يقدم بعض السارقين على قطع جهاز الإنذار في الوصلة بين جهاز الإحساس والمستقبل، وفي هذه الحالة تضعف الإشارة المرسلة إلى شركة الإنذار أو الشرطة.

هكذا، وحتى لو انقطعت الدائرة، لن تتأثر إشارة الإنذار. هناك وسيلة أخرى معقدة، إذا أخطأ في استعمالها، فإن الإنذار يعمل فوراً.

يمكن قطع جهاز الإنذار في نقطة بين جهاز الإحساس وجهاز إرسال إشارة الإنذار. إذا استطاع العميل بطريقة ما وقف تدفق المعلومات من جهاز الإحساس إلى جهاز إرسال إشارة الإنذار دون إزعاج جهاز الإنذار، تستمر إشارة الإنذار في العمل كالمعتاد.

فتح الأقفال من قبل الخبراء

* يفتح العميل الأقفال بهدوء تام عندما يريد دخول منشأة ما دون أن يترك أي أثر يدلّ على أنه كان فيها. إن خبراء فتح الأقفال لهم معرفة واسعة بجميع أنواع الأقفال. من يصنعها؟ كيف تعمل؟ والخدع والأفخاخ التي يمكن وضعها، والوقت اللازم لفتحها. . . وغير ذلك. يطبق هؤلاء الخبراء تقنيات فتح الأقفال التي تتطلب لمسة ناعمة ورقيقة ولمسة الجراح. يحتاج فتح الأقفال إلى صبر كبير لأن هذه العملية تستلزم وقتاً قد يطول، القفل البسيط مثلاً يلزمه نصف دقيقة أو أكثر.

إن أبسط قفل هو القفل المسنن، والمفتاح هو عبارة عن وتد معدني مع قطعة مسطحة في طرفه. يدخل المفتاح في الثقب المخصص له ويدار، عندها تتعشق القطعة المسطحة مع لسان القفل وتنزلق عليه بحرية وتفتح القفل. يضع صانعو الأقفال القدامى مسننات وعوائق على فم ثقب المفتاح بحيث يستطيع المفتاح المجهز بالتقاطيع الصحيحة وحده أن يدخل الفعل. وفي داخل القفل وضعت عدة مسننات تمنع المفتاح من الدوران والانزلاق على اللسان إلا إذا كانت له التقاطيع الصحيحة. ولجعل هذه الأقفال أكثر تعقيداً، صنعت مفاتيح بعدة تقاطيع (تبدو مثل العمود الفقري). حتى يفتح القفل المسنن، يحتاج العميل إلى المفتاح المناسب الأملس مع التقاطيع المناسبة على جوانبه حتى يتجاوز المسننات على مدخل ثقب المفتاح الأملس. يمكن للعميل أن يغطي المفتاح الأملس بطبقة من الشمع ثم يدخله في القفل ويحركه إلى الأمام وإلى الوراء، وبعد نزع المفتاح سوف يرى أنّ المسننات أظهر علامة على طبقة الشمع. عندها تستعمل أدوات الخراطة لقطع الأقسام الملائمة للمسننات. إن الأقفال المسننة قليلة الاستعمال

ويسهل فتحها وتستعمل في المنازل القديمة وجوارير المكاتب والأصفاد.

إن أقفال الريشة والطرف موجودة في كل مكان، في المنازل والسيارات والمكاتب. لهذه الأقفال غلاف مثقوب بثقب اسطواني وقلب يطابق داخل الغلاف. يدخل المفتاح إلى القلب، وإذا كان هذا المفتاح صحيحاً، يدور القلب داخل الغلاف الذي يدع اللسان ينزلق داخل أو خارج مركز القفل. توقف القلب عن الدوران سلسلة من الأطراف تنزل من ثقب الغلاف إلى القلب، إن الأطراف التي توقف القلب عن الدوران مقطوعة في وسطها. القسم الأعلى يسمى الموجه، وعندما يدور القلب تلائم جميع الكوابح الموجودة بين الموجه والطرف خط القطع (وهو القسم بين الغلاف والقلب).

الكوابح بين الأطراف والموجهات ليست جميعها في نفس المكان، وهذا هو سبب وجود سلسلة من التقاطيع على شكل (٧) في قفل الريشة والطرف. كل تقطيع يلائم طرفاً، وعندما ينزلق المفتاح داخل القفل يرفع المفتاح كل طرف، حيث يتلاءم الكابح بينها وبين الموجه مع خط القطع.

حتى نفتح قفلا كهذا نستعمل آلة ضغط وعوداً، آلة الضغط هي عبارة عن قطعة من سلك معدني قاس بشكل L تنزلق إلى مؤخرة القفل وتدار بالاتجاه الذي يفتح فيه القفل (يعلم فاتح القفل ذلك من التجربة ومن أنواع الأقفال) بقساوة كافية حتى تدخل الأطراف عندما ترفع، ولكن ليس بقساوة بالغة خشية أن يتعطل.

أما العود فهو سلك قاس طويل وله عدة أشكال (معين، كروي، مربع، منحن). يضغط فاتح القفل ويزلق العود في الداخل بعناية ثم يرفع كل طرف نحو الأعلى حتى نقطة القطع، عندما يدخل كل طرف في مكانه يشعر بقفزة على آلة الضغط، وعندما يتم فتح كل الأطراف يجب أن يدور القلب بآلة الضغط.

هناك طريقة أسرع: وهي تقليب الأطراف. نضغط مرة ثانية، وعوضاً عن فتح كل طرف لوحده يدخل آلة تقليب (لها مثلث أو دائرة في نهايتها) تنزلق نحو الداخل والخارج بسرعة، وهذا ما يدفع كل الأطراف نحو الأعلى إلى خط القطع حيث تتوقف عندما يزداد الضغط. إذا لم ينجح الفاتح بعد عشر تقليبات أو أكثر، عليه أن يبدأ بالحك.

العود الأوتوماتيكي هو في الحقيقة عود تقليب فوري. إنه مسدس يتدلى منه عود مستقيم مع نبّاض العود منزلق داخل القفل، ولدى الضغط على الزناد يندفع العود المستقيم نحو الأعلى على جميع الأطراف وينقرها نحو خط القطع.

هناك مشكلة أخرى في أقفال الريشة والطرف وهي أنه من المحتمل أن لا تكون الأطراف بنفس القطر. يمكن لفاتح القفل أن يميز الأطراف السميكة عن الأطراف النحيفة وذلك بإجراء فتحة سريعة لكل منها ليرى كيف تتعلق بأسطواناتها. تعلق الأطراف السميكة بضغط قليل بينما تحتاج الأطراف الخفيفة إلى ضغط كبير. يفتح الفاتح الأطراف السميكة أولاً لأنه عندما يفتح يزداد الضغط لدرجة تكفي للإمساك بالأطراف النحيفة (إذا بدأ بالأطراف النحيفة فإن الأطراف البعيدة تتعرض للأعطال).

هناك عائق آخر أمام فاتح الأقفال هو الطرف الفطري، تحتوي الأطراف الفطرية على أسنان في موجهها، وتلتقي مع خط القطع، ويدور القلب بهدوء، ويبدو كأن الطرف قد فتح بينما يكون قد تعطل. أحد الحلول يقول بفتح جميع الأطراف المنظمة أولاً ثم فرض ضغط كبير على القلب، عندها يخفف العميل من ضغطه ويضغط على الأطراف الفطرية بالعود. عندما يخفف الضغط إلى المستوى الصحيح يندفع الطرف الفطري إلى مكانه. يجري تقليب الأطراف بهذا الأسلوب. هناك بديل آخر هو الفتح المعاكس. تدفع جميع الأطراف نحو الأعلى دون ضغط ثم يفرض ضغط قوى بقفل الأطراف نحو الأعلى. عندها يتم التقليب بعنف ثم يخفف الضغط تدريجبا وتتذبذب الأطراف نحو الأسفل إلى خط القطع.

وهناك مشكلة أخيرة هي ما يحصل عند فتح القفل في الاتجاه الخاطئ، أي عكس الاتجاه الذي يدور فيه القلب عندما يفتح القفل. في الواقع هذه هي الطريقة الوحيدة التي تفتح فيها الأقفال. عندما ترتفع جميع الأطراف نحو خط القطع يفرض فاتح الأقفال الضغط، وعندها يدخل سدادة دوارة مع نبّاض ويحركها. عندما تحرر هذه السدادة يدور القلب بسرعة لدرجة أنه لا يعود هناك وقت كاف للأطراف كي تسقط إلى أدنى من خط القطع. هناك شكل آخر من أشكال الحيطة في بعض الأقفال هو آلية معينة تنزع وتقفل جميع الأطراف بأي ضغط ممكن. والجواب هو إما أن يفرض العميل ضغطاً خفيفاً جداً، أو ببساطة يخلع القفل ويفتحه بعتلة أو مخل.

أقفال أخرى وطرق الفتح بالقوة لمصلحة الجواسيس

* القفل من نوع الريشة والصحن يشبه كثيراً القفل من نوع الريشة والطرف. بدلاً من الأطراف هناك سلسلة من الصحون وفي كل منها ثقب لمرور المفتاح، وكل ثقب يقع في مكان معين على الصحن. عندما نستعمل المفتاح الصحيح تتلاءم الصحون مع خط القطع ويمكن أن يدور القلب. حتى نفتح هذا القفل يجب أن نضغط حتى يصل الصحن إلى خط القطع.

الأقفال الدائرية هي مثل قفل الريشة والصحن، ولكن فتحها أسهل لأن التقاطيع في المفتاح هي بطولين فقط. وهناك أقفال الريشة والمخل، وهي بسيطة وتؤمن حيطة عالية، وتستعمل عادة في صناديق البريد وصناديق خزن الأموال. يوجد في داخلها مخل بدلاً من الطرف أو الصحن، ويلزمها وقت طويل حتى تفتح، وتكون عادة مثقوبة، وفي قفل الريشة ـ الأوتار الجانبية ـ من الضروري فتح كل الريشات مرة واحدة، بينما لا يفرض أي ضغط على الأطراف، يمكن فتح قفل كهذا بطريقة فتح قفل المخل، ويلزمه وقت طويل ومن الأسهل للعميل أن يخلعه بعتلة.

يمكن للعميل أن يصنع مفتاحاً للقفل وأن يستخدم الطريقة التي عرضناها في بند الأقفال المسننة (وضع طبقة شمع على مفتاح أملس ووضعه داخل القفل والتحقق من أثر المسننات على الشمع) لكنها بشكل عام تحتاج إلى تجارب كثيرة. وهناك تقنية أخرى هي تقنية الثقب، مع أنه لا توجد طريقة تخفي ما جرى للقفل: يستعمل السارق الثاقب الكبير ويدخله مباشرة إلى القلب أو يستعمل ثاقباً فولاذياً صغيراً ويدخله في خط القطع مما يؤدي إلى قطع الأطراف.

يمكن انتزاع الأبواب من إطاراتها بواسطة مخل طويل، ويمكن استعمال منشار معدني على اللسان، أو يكون المخل طويلاً جداً، فينزلق اللسان من المآخذ. يمكن فتح قفل الوسادة غالباً بعد قطع الأصفاد التي تنتزع أو تثقب أو تقطع بالمطرقة.

الخزنات وأقفالها وسرقتها

* يمكن إخفاء الخزنات في الجدران وفي الأرض، ويمكن أن تحتل غرفة

كاملة في الأقبية. معظم الخزنات لها على الأقل آلية تناسب واحدة للأرقام (combina) فيها من مليون إلى مليار ترتيب.

يبدأ الشكل الأساسي لأقفال التناسب بترقيمات خارج الخزنة وهي معلّمة ومعيّرة. في داخل الخزنة هناك سلسلة من الريشات (العجلات) لكل منها شق صغير. عندها يدار قرص الأرقام بالعدد الصحيح من التغييرات في الاتجاه الصحيح إلى أول رقم من مجموعة الأرقام بوضع شق العجلات في مكانه الصحيح، ويبقى في مكانه، وعندما يدار قرص الأرقام إلى الرقم الثاني تحدث نفس العملية... وأخيراً عندما تصبح جميع الشقوق في جميع العجلات على خط واحد، يسقط وتد في مكانه بين الشقوق ويحرر اللسان الذي يقفل الخزنة. عندها يمكن فتحها.

بالنسبة إلى الخزنات المصنوعة قبل أواسط الستينات كان العميل يستعمل طريقة بدائية، وهي أن يستخدم سماعة الطبيب ويصغي إلى الريشات وهي تسقط في أمكنتها، إلا أن هذه الطريقة تستغرق وقتاً طويلاً ومن الأسهل للعميل أن يثقب الخزنة.

حتى نثقب الخزنة علينا أن نتعرف إليها من الداخل لنعرف أين تثقب اللسان.

تستعمل الثاقبات المصنوعة من الألماس أو الكاربايد المقوى، وهي بعرض إنش واحد، وتعمل بسرعة عالية جداً. يمكن للعميل الذي يواجه صفيحة مقواة أن يسخن الصفيحة ثم يبردها بسهولة، وهذا يجعل الصفيحة أكثر هشاشة وأسهل للثقب. يمكن أيضاً نزع الخزنات من الخارج:

ويمكن شق قرص الترقيم بمخل ونزع عمود آلية الأقفال نحو الخارج بواسطة مطرقة. بعض الخزنات مجهزة بعواميد تقفل إذا تم العبث أو التلاعب بها.

يمكن فتح الخزنات بواسطة ثاقبة سريعة أو باستعمال اللحام. توضع الثاقبة على الخزنة أو على الجوار المحيط بها. يستعمل أنبوب اسيتلين لقطع آلية الترقيم حتى يصبح في الإمكان ترتيب الريشات باليد. لمواجهة اللحام، تجهز الخزنات بصفائح من النحاس تطرد حرارة مشعل اللحام بعيداً. بعض الخزنات لها أفخاخ تطلق غازات مسيلة للدموع إذا ثقبت أو قطعت أو حرقت.

يمكن نسف الخزنة بالديناميت، وهذه ليست مسألة بسيطة.

يمكن وضع أصبع ديناميت على باب الخزنة وتفجيره. عندها يحتمل أن ينعكس الانفجار من على الباب. يجب إحداث ثقوب في الخزنة في نقاط حساسة (قرب آلية الأقفال أو المفصلات) وإدخال المتفجرات في هذه الثقوب.

إن أغرب طريقة لفتح الخزانات هي استعمال الوتد الحارق أو اللهب الحراري. يستعمل فاتح الخزنة مواد حارقة بدرجة حرارة مرتفعة جداً، ويحرق الأقسام المقواة بسرعة وهدوء، يتألف اللهب الحراري من أوكسيد الباريوم أو المغنزيوم ويشعل هذا اللهب قضيباً مؤلفاً من اتحاد الألمنيوم مع أوكسيد الحديد، الذي يشتغل على درجة (٢٥٠٠) درجة مئوية ـ (٤٥٠٠٠ فهرنهايت)، يشعل اللهب المعدن ويحدث ثقوباً. يرتدي فاتحو الخزنات نظارات مع مرشح لحماية أعينهم من الضوء وقناع غاز إذا كانت الخزنة مفخخة بغاز مسيل للدموع.

إن تقنية الدخول السري هي الأساسية والمهمة في جميع عمليات الحقيبة السوداء. يدخل العميل خلسة لعدة أسباب: ليسرق شيئاً ما، أو ليصور وثيقة، أو ليزرع المتفجرات..

الفصل العاشر

معلومات مفصلة عن عملية بيرل هاربور تنشر لأول مرة

* في السابع من شهر كانون الأول ـ ديسمبر من عام ١٩٤١، الساعة الواحدة والدقيقة الثامنة والعشرين، التقطت محطة التنصت الأميركية في برندرج أيلند رسالة موجهة من قبل وزارة الخارجية اليابانية إلى سفيرها في واشنطن. كانت الرسالة مقتضبة ولم يستغرق بثها أكثر من دقائق. لذلك استطاعت الطابعة في قسم فك الرموز أن تترجمها في وقت قصير، وسرعان ما تبين محتواها.

كانت الرسالة تتضمن ما يلي:

«يرجى من السفير أن يودع جوابنا حكومة الولايات المتحدة (وزير خارجيتها إذا أمكن) بتاريخ السابع من الشهر الساعة الثالثة عشرة بالتوقيت المحلي» و«الجواب» المقصود كتب بالإنكيزية من قبل طوكيو وأودع على أربع عشرة دفعة خلال الثماني عشرة ساعة السابقة. كانت الجملة الأخيرة منه مقلقة بعض الشيء: «إن الحكومة اليابانية تأسف أن تعلم حكومة الولايات المتحدة أنها، بالنظر لموقف الأميركيين، لا يسعها إلا أن تلاحظ استحالة الوصول إلى إتفاق من خلال مفاوضات جديدة». وضع الموظف، الذي التقط الرسالة وترجمها، ملف الرسالة في البريد العاجل الموجه إلى كل من الرئيس ووزيري الحرب والبحرية وعدد من كبار العسكريين.

كان المقدم كرامر، من المخابرات الأميركية، مكلفاً بإيصال الرسالة إلى مراجعها. وبسبب فارق التوقيت البالغ ست ساعات بين موقع التقاط الرسالة ومكان إيداعها، وصلت الرسالة إلى السلطات في واشنطن قبل ساعة فقط من إقلاع الطائرات اليابانية من على حاملات الطائرات الخاصة بها. وقد دعت أهمية محتوى الرسالة كرامر إلى الهرولة في شوارع واشنطن المقفرة في الصباح الباكر والمؤدية إلى البيت الأبيض.

لم يمر على المخابرات الأميركية يوم كانت فيه أكثر وعياً ونشاطاً من ذلك اليوم. كانت تتسابق مع الزمن دون أن تعلم. ذلك أن التحركات اليابانية لم تلفت النظر إلى أمر غير عادي. وقعت الكارثة دون أن يكون على تلك المخابرات أي لوم لتقصير أو إهمال، بل على العكس، فقد أشادت اللجنة التي شكلها الكونغرس للتحقيق في الكارثة بجهود رجال المخابرات الذين «برهنوا عن جدارة أعظم الرجال».

عام ١٩٣١، كانت حكومة إمبراطورية الشمس المشرقة في قبضة العسكريين المشحونين بروح التسلط وبالرغبة بتأمين الموارد لأمتهم، وكذلك بحقدهم على المدنية الغربية. هذه المشاعر جعلتهم يسلكون سياسة عدوانية. احتلوا منشوريا حيث وضعوا امبراطوراً صوريا يأتمر بأمرهم. وانسحبوا من عصبة الأمم. عززوا قواتهم المسلحة واستنكروا معاهدات التسلح البحري في الوقت الذي كانوا فيه يباشرون تنفيذ خطة طموحة لمضاعفة قوتهم البحرية. ووسط هذا الاهتمام المتعاظم، يوماً بعد يوم، بالشؤون العسكرية، لم يهملوا شؤون المخابرات. فسنة ١٩٣٤، اشترت البحرية آلة للشيفرة التجارية من طراز أنيغما. وفي السنة نفسها، اعتمدتها وزارة الخارجية اليابانية. وفي ما بعد أصبحت هذه الآلة تمثل النظام الأكثر سرية في أنظمة الشيفرة في اليابان. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك نظام الهاتو المعتمد في مراسلات الخارجية مع سائر الوزارات، بالإضافة إلى نظام خاص بكل وزارة.

كانت الصورة التوسعية لليابان تتوضح يوماً بعد يوم. وكان من الواضح أن هذا المخطط لا بد وأن يصطدم بالمصالح الأميركية. لقد وضع اليابانيون الخطوط الكبرى لهجومهم على بيرل هاربور. واضع الخطة هو الأميرال (ايزورروكو ياماموتو) القائد الأعلى للبحرية. عام ١٩٤١ أعطى الأمر الأول لدراسة العملية مؤكداً أن الانتصار على الولايات المتحدة لا يمكن أن يتم إلا بتحطيم أسطولها في مياه جزر الهاواي. وفي أيار ـ مايو، تبين من الدراسات أن هجوماً جوياً مباغتاً ممكن.

مع هذا التوتر المتزايد في المنطقة، تلازم ازدياد نشاط أجهزة المخابرات الأميركية. في حزيران ـ يونيو من عام ١٩٤١، تسلم النقيب جوزيف روكفورت قيادة وحدة الراديو في القطاع البحري رقم (١٤) في هاواي. وكان من بين ضباط

البحرية الملم الوحيد بفك الشيفرة واستخدام الراديو باللغة اليابانية. لم يكن النفاذ لأعماق أسرار الشيفرة اليابانية المتنوعة الأنظمة بالأمر السهل. لكن الجهود الحثيثة أوصلت الأميركيين إلى كشف بعض الأنظمة كلياً أو جزئياً. وهذا ما أفاد به سفير ألمانيا في واشنطن وزير خارجيته في ٢٨ نيسان - إبريل سنة ١٩٤١، مما استدعى تحققاً ملحاً من صحة الخبر من قبل الأجهزة المختصة في طوكيو. وجاءت النتيجة تؤكد ما أفاد به السفير الألماني. وفي ٣٠ أيار - مايو، أعطت الحكومة اليابانية أمراً لجميع سفنها التجارية بأن تكف عن استعمال شيفرتها المعتمدة لأن شيفرة جديدة ستحل محلها.

هنا بدأ خوف الأميركيين من هذا التبدل المرتقب وبالتالي من العودة إلى الصعوبات التي سيلاقونها حتماً في فك رموز الشيفرة الجديدة. وبعد أيام من الانتظار المقلق، التقطوا رسالة موجهة من طوكيو إلى بعثتها في المكسيك تعلمها فيها أن الأميركيين يقرأون بعض رموزهم وأن الأمر يستدعي أقصى درجات الحذر. تساءل الأميركيون عما إذا كان الحذر وحده يمثل جميع الإجراءات اليابانية المرتقبة. وبعد التمحيص، وجدوا أن اليابانيين اكتفوا بذلك.

في تشرين الأول - أوكتوبر - سنة ١٩٤١- استقالت حكومة الأمير كونوي وتولى العسكريون السلطة بقيادة توجو، فتلاشى كل أمل بالسلام. وفي الرابع من تشرين الثاني - نوفمبر، أبلغ رئيس الوزراء الجديد ممثليه في واشنطن «اقتراحاته المهادة». وفي اليوم التالي، تلقى هؤلاء الممثلون رسالة أخرى تأمرهم باتخاذ كل الإجراءات للحصول على توقيع الاتفاق مع السلطات الأميركية قبل الخامس والعشرين من الشهر كحد أقصى.

في اليوم نفسه، أعطى الأميرال ياماموتو الأمر اليومي السري رقم (١): خطة الهجوم على بيرل هاربور. وفي السابع من الشهر المذكور، عين الأميرال المساعد كويشي ناغومو قائداً للأسطول الأول. وقد سارع هذا إلى توزيع سفنه الاثنتين والثلاثين على المراكز الحساسة طبقاً للخطة المرسومة. في العشرين من تشرين الثاني - نوفمبر، أودع السفير الياباني نومورا ومساعده سابورو وزير الخارجية الأميركي رسالة أشبه ما تكون بالإنذار. كانت طوكيو تطلب من واشنطن تغيير

سياستها الخارجية وقبولها بغزوات يابانية جديدة وتزويدها بالبترول اللازم ومغادرة الصين، أي بكلمة واحدة،القبول بمنطق القوة، وبينما كان وزير خارجية أميركا يحضر جوابه على هذه الرسالة، إذ برسالة أخرى موجهة هذه المرة إلى ممثلي اليابان في المحادثات مع واشنطن تأمرهم فيها ببذل أقصى الجهود لتسوية مسألة العلاقات اليابانية أميركية وتوقيع الإتفاقية قبل التاسع والعشرين من الشهر. وإلا، فالأحداث ستتسارع بشكل آلي. هنا، بدأ الجميع يشعرون أن الأيام أصبحت معدودة وأن العد العكسي قد بدأ بالفعل.

في الخامس والعشرين من الشهر نفسه. أعطى ياماوتو الأمر إلى الأسطول بالتحرك في اليوم التالي. ويوم السادس والعشرين، الساعة السادسة، رفعت السفن الاثنتان والثلاثون، بالإضافة إلى ست حاملات طائرات ومدمرتين، مراسيها وغادرت مياه خليج تونكين الهائجة للتتوجه شرقاً. لقد تلقت الأوامر بالعودة فوراً من حيث أتت إن هي شوهدت. كان القائد «كازويوشي» على ظهر المدمرة هابي. لم يستطع أحد مشاهدة الأسطول وهو يتوغل شرقاً في الضباب.

في هذا الوقت كان التوتر يتزايد. في ٢٩ تشرين الثاني ـ نوفمبر «نقل البارون أوشيما سفير اليابان في برلين، عن وزير خارجية ألمانيا قوله إن بلاده ستدخل حرباً ضد الولايات المتحدة إذا اشتبكت اليابان معها. في اليوم التالي، صرحت طوكيو أن الحرب بين اليابان وأميركا أقرب مما يتصوره البعض. وفي رسالة من الخارجية اليابانية إلى سفارتها في واشنطن، تبين أن الأوامر أعطيت للسفارة بإتلاف شيفرتها مع الآلات الخاصة بها إتلافاً تاماً وفوراً. وقد قال سمر ويلز، مساعد وزير الخارجية الأميركية، عندما علم بالرسالة: «هبطت نسبة إمكانية تجنب الحرب من واحد بالألف إلى واحد بالمليون. كما قال بيردال، مساعد روزفلت للشؤون الميدانية، عندما قرأ الرسالة: «سيدي الرئيس، الأمر واضح للغاية». وعندما سأله الرئيس عن تقديره لتاريخ بدء المعركة، أجابه بأن ذلك ممكن في أي لحظة.

كانت الساعة الثالثة عشرة في طوكيو، يوم السادس من كانون الأول ـ ديسمبر، عندما أودعت رسالة اليابان الجوابية بشأن توقيف المباحثات بين البلدين، مركز الإرسال التابع لوزارة الخارجية تمهيداً لإرسالها إلى السفارة في

واشنطن. فور ورودها إلى المركز قسمت أربعة عشر جزءاً متساوياً وبدئ بتشفيرها، فقد أرفق بالرسالة أمر مشدد إلى السفارة بإيداعها الخارجية الأميركية فور تلقيها لم تحن الساعة الرابعة عشرة، بالتوقيت المحلي، حتى كانت الرسالة بترجمتها الكاملة قد وصلت إلى الكولونيل باتون ومنه إلى جميع المراجع المختصة في الجيش الأميركي والمخابرات. مقابل ذلك، أرسل روزفلت إلى الميكادو رسالة كانت مهيأة سابقاً كمحاولة أخيرة في حال فشل المفاوضات، يدعوه فيها إلى إعطاء بعض الوقت للمفاوضات. لكن كل شيء كان قد انتهى.

على متن سفن الأسطول الياباني الراسي في عرض المحيط، قرأ الضباط أمام جنودهم نداء ياماموتو المؤثر التالي: «دقت الساعة. الإمبراطورية في خطر. فلا يدخرن أحدٌ منكم جهداً لإنقاذها». كما بدأت موسيقى «البانزاي» تتردد اصداؤها على سطح المياه الهائجة، ورفع العلم الذي سبق للأسطول الياباني أن رفعه أثناء انتصاره الكبير على الروس في معركة تسوشيما سنة ١٩٠٥.

في السادس من كانون الأول ـ ديسمبر من عام ١٩٤١، الساعة الثامنة عشرة، وصلت رسالة التقطت فور خروجها من قنصلية اليابان في هونولولو، إلى مكتب المخابرات الأميركية في الجزيرة. كان موقع الرسالة يوشيكاوا. أما محتواها فتفاصيل عن تحرك بعض السفن الأميركية في مياه الجزيرة.

في البيت الأبيض، استغرق الرئيس روزفلت عشر دقائق في قراءة رسالة ياماموتو الموقفة للمفاوضات. رفع رأسه بعد الانتهاء من القراءة وقال لهاري هوبكنز: «هذا يعين الحرب». فرد هوبكنز بالإيجاب. وطفق الرجلان يستعرضان الوضع من جميع جوانبه، لا سيما لناحية الاستعدادات والإمكانيات المتوافرة لمجابهة الموقف. خلال الحديث، اقترح الرئيس روزفلت رسالة إلى هيروهيتو. لكن هوبكنز كان مخالفاً لهذا الرأي باعتبار أن الحرب أصبحت أمراً واقعاً. وكان رأيه أن تبدأ أميركا بالضربة الأولى. رد الرئيس بأن ذلك مستحيل لأنه مسؤولية دولية وتاريخية كبرى.

طوال طريقه إلى هدفه المرسوم في مخطط المعركة، لم يلق الأسطول الياباني أي نوع من العوائق. فالاستكشاف الجوي منعدم والسفن الأميركية جاثمة تتثاءب في

مرافئها. وضع يثير العجب ويدفع على الريبة من أن يكون وضعاً تمويهياً للتضليل.

عندما وصلت عقارب الساعة إلى الخامسة والنصف بتوقيت هاواي، كانت القوة البحرية اليابانية الضاربة على بعد (٢٥٠) ميلاً من بيرل هاربور، كما كان أكثر من ألفي أميركي يغطون في نوم عميق، والبعض منهم يتسامر، دون أن يكونوا على علم بأن ساعات ثلاثة فقط تفصلهم عن الموت. كان كل شيء هادئاً في وزارة الخارجية اليابانية، كما في مكتب الشيفرة بسفارة اليابان في واشنطن، كذلك في وزارتي الحرب والبحرية. هدير واحد كان سمع فوق مياه الباسيفيك، هو هدير طائرتي استكشاف يابانيتين انطلقتا للتأكد من أن الأسطول الأميركي لا يزال غارقاً في سباته العميق.

كانت المخابرات بين مختلف الأجهزة العسكرية تسعى للتعرف على حقيقة الموقف. وهذا الأمر، مع كل اختصاره وسرعة إنجازه، يتطلب بعض الوقت. فالأمكنة بعيدة والحذر مطلوب والعوائق تبرز من هنا وهناك. وبينما أمواج الأثير تتناقل الرسائل ذهاباً وإياباً. طولاً وعرضاً، كانت الطائرات اليابانية التي انطلقت من على حاملاتها تتوجه بأعلى قدراتها نحو أهدافها. وفي الوقت الذي كانت فيه الطائرات تحلق فوق بيرل هاربور، كان الوزير الياباني توغو في حضرة الامبراطور يسلمه رسالة روزفلت، فيتلقى منه الجواب الفوري عليها وهو أن رسالة (قطع المفاوضات تكفي)، (٥١) قاذفة قنابل على انخفاض قليل،(٤٩) قاذفة قنابل على ارتفاع كبير، (٤٠) طائرة مقاتلة و(٤٣) طائرة معترضة وصلت فوق بيرل هاربور في تشكيلات محكمة وفقاً للخطة. أطلق القائد فوشيدا صاروخاً من نوع «التنين الأسود» مؤذناً ببداية المعركة. بعد دقائق فقط، تأكد من نجاح المباغتة وسارع إلى بث الرسالة التالية: «تورا! تورا!» أي نجاح المباغتة على متن المدمرة آكاجي، كان ناغومو يلتفت نحو الأميرال كوزاكا ويشد على يديه دون أية كلمة.

في واشنطن، كان أوكومورا، موظف الشيفرة في السفارة اليابانية، يضع اللمسات الأخيرة على الرسالة التي سبق لأجهزة المخابرات الأميركية أن التقطتها وترجمت محتواها وأوصلتها إلى المراجع المختصة. وهي رسالة قطع المفاوضات. وبينما كان السفير ومعاونه يدخلان البيت الأبيض لتسليم الرسالة إلى الرئيس

روزفلت، كان الرئيس يتصل هاتفياً بوزير خارجيته الموجود في مكتبه ينتظر السفير الياباني ليدخل معه مكتب الرئيس. كان صوت الرئيس هادئاً ومتشنجاً في آن واحد. قال: «تلقيت لتوي خبراً يفيد أن اليابانيين هاجموا بيرل هاربور». وعندما سأله الوزير ما إذا كان الخبر مؤكداً، أجاب الرئيس بالنفي.

أدى التأخير في إيداع الرسالة لأن لا يبقى سوى خمس وعشرين دقيقة بين تسلمها وبداية الهجوم. وهو وقت غير كاف لإجراء أية اتصالات من شأنها أن تمنع ما رسم. وهذا التأخير العائد إلى صعوبات في أجهزة البث والطبع اليابانية، كان في أساس إدانة اليابان في ما بعد والحكم على البعض بالإعدام وهذا لا يمنع من القول أن الجانب الأميركي يتحمل، هو أيضاً، بعض المآخذ في هذا الصدد.

لا يمكن للأميركيين أن ينسوا لحظة وقف رئيسهم في الكونغرس ليعلن ما يلي: «البارحة، ٧ كانون الأول - ديسمبر سنة ١٩٤١، كانت الولايات المتحدة الأميركية عرضة لهجوم مفاجئ وغير مبرر من قبل القوات البحرية والبرية اليابانية». وأضاف، مشيراً إلى التأخير في إيداعه رسالة الحكومة اليابانية المتعلقة بتوقيف المفاوضات، وإلى أن محتوى الرسالة لا يفيد إعلاناً للحرب قبل وقوعها، كما تنص معاهدة لاهاي.

نجح الهجوم. وتحطمت السفن وهي راسية في المرفأ وجرح الكبرياء الأميركي لم يكن الأمر بسبب خطأ المخابرات ورجالها. فهؤلاء جميعاً أدوا كامل واجبهم وكانوا في مستوى المسؤولية. والعالم اليوم، الذي لم ينس بيرل هاربور، لن ينسى كذلك أن عملية مضادة، جرت بعد ألف وثلاثمائة وخسمين يوماً، اختصرت الحرب بعد أن ساهمت في هزيمة الفريق الآخر. وهذه العملية الرهيبة هي القاء القنبلتين الذريتين الأميركيتين على مدينتي هيروشيما وناغازاكي (المرة الأولى في التاريخ) وكانت النتيجة مقتل مئات ألوف اليابانيين وتدمير المدينتين وبالتالي (استسلام) اليابان فوراً.

الفصل الحادي عشر

المخابرات الروسية قبل الشيوعية والكي.جي.بي

* على الرغم من أن الكتابة السرية ظهرت في روسيا في مخطوطات القرنين الثاني عشر والثالث عشر على شكل استبدالات شبيهة بتلك التي كانت تستعمل في فرنسا وألمانيا آنذاك، فإن المراسلات السرية السياسية بمعناها المألوف لم تدخل ذلك البلد إلا مع الحركة الإصلاحية التي قام بها بطرس الأكبر، والتي كان يهدف من ورائها إدخال النمط الغربي في الحياة الروسية.

حتى عام ١٧٢٨، كانت المراسلات المرمّزة، التي كان يستعملها السفراء الروس، بدائية، بحيث لا تحتاج إلى كبير عناء لفكها، وعندما اعتلت أليزابيت، ابنة بطرس الأكبر، العرش، وقفزت هذه البدائية قفزة جبارة أصبحت معها تضاهي ما لدى أكثر الدول تقدماً في هذا المضمار. في هذه المرحلة، أصبحت روسيا تملك شيفرة منظورة ومعقدة من ثلاثة آلاف وخمسمائة مجموعة باللغة الفرنسية، لغة الطبقة الراقية وكذلك لغة المراسلات آنذاك. بعد ذلك، وفي الفترة ما بين سنة ١٧٥٥ و١٧٦١ أضيفت شيفرتان أخريان، الأولى من تسعمائة مجموعة، والثانية من ألف.

من بين المستحدثات التي أدخلت من الغرب على روسيا، الغرف السوداء. كان مركزها مع البريد. وكانت تستخدم معظم الوسائل التقليدية من فتح الرسالة إلى تزوير الأختام إلى فك الرموز إلى الترجمة، أما العاملون، فكان معظمهم من الألمان الخبراء في هذا المجال.

ويروى كيف أن سفير فرنسا في عهد أليزابيت كان يستخف بالمخابرات الروسية. معتبراً أن الروس لم يصلوا إلى المستوى الذي يمكنهم من فك رموز رسائله. لذلك فقد كان يرسل رسائله إلى باريس مرتاحاً. معلومات عن الإمبراطورة لناحية سلوكها اللعوب وحياتها الخاصة المليئة بالاستهتار. لكن الموظفين الألمان في

الغرفة الروسية السوداء كانوا له بالمرصاد، وذات يوم، وكانت أليزابيت قد اطلعت على ما يكتب عنها هذا السفير إلى حكومته، فما كان من الخارجية الروسية إلا أن أرسلت إليه كتاباً طلبت مغادرته الأراضي الروسية خلال أربع وعشرين ساعة. وكانت تلك المهلة كافية لأن يحزم السفير حقائبه ويرحل.

ولا غرابة إذا قيل إن المخابرات الروسية لعبت دوراً بارزاً في هزيمة نابليون في الشتاء الروسي القاسي من عام ١٨١٢. بعد سنوات من الحملة، وأثناء مأدبة أقامها القيصر اسكندر الأول لكبار ضباط الجيش الفرنسي، كشف القيصر السر وهو يتحدث عن بعض ذكرياته عن الحملة الفرنسية الفاشلة. وعندما ردّ عليه أحد الحاضرين قائلاً إن كشف الرسائل السرية الفرنسية آنذاك قد يكون بفضل جنرال فرنسي خان بلده وانتقل إلى معسكر العدو. انتفض القيصر وأقسم بشرفه أن الحقيقة هي أن الفضل كل الفضل يعود إلى رجاله في المخابرات الروسية. وهكذا أعطيت هذه المخابرات شهادة استحقتها بجدارة في حينه.

غير أن ما حصل في ما بعد، خلال القرن التاسع عشر، لا سيما النصف الثاني منه، هو أن هذا الجهاز استخدم كفاءته لقمع الحركات السرية الداخلية، والتي انتشرت في صفوف العمال والفلاحين معارضة الحكم والنظام. فقد زرع البوليس السري الروسي، المعروف بالأوكرانا، غرفاً سوداء في كل مكان من البلاد، في موسكو وفرصوفيا كما في أوديسا وكييف، وفي فرخوف وريفا، كما في تومسك وتيفلس. كانت رسائل الثوار تفتح بكاملها. وكانت طرق الفتح مختلفة ومتنوعة، لكنها كانت جميعها متطورة ومتقنة بحيث لم تكن تترك أي أثر.

اشتهر من محللي الرموز في ذلك الحين زيبين، الذي كثيراً ما كان زافارين - مدير البوليس السري (الأوكرانا) يلجأ إليه. عام ١٩١١، التقطت رسالة لم يستطع أحد من العاملين في أجهزة المخابرات السرية فك رموزها. استدعي زيبين، وظل يعمل طوال الصباح دون جدوى. وبعد الظهر، استمر في العمل دون انقطاع. وفي المساء، اضطر زافارين إلى تكرار دعوته للعشاء مرتين قبل أن يسمع ضيفه ويجيب لقد استحوذت الرسالة على كل انتباه لما حوله. وعلى طاولة العشاء كان زيبين غارقاً في التفكير ويأكل كالآلة. كان بين لقمة وأخرى يمسك ويكتب على الطاولة،

وأحياناً، ودونما انتباه منه، على سوار قميصه أو كف يده. وفجأة، شُدِهَ الحاضرون عندما رأوه يقف منتصباً ويصرخ بالروسية: من تأنى وصل بعيداً. كانت هذه الجملة، التي اكتشفها زيبين بفضل تكرار أحرفها في الرسالة، هي المفتاح الذي بنيت الرسالة عليه. بعدها، عاد زيبين إلى صحنه يلتهم محتواه بنهم.

ازدهرت المخابرات الروسية بفنونها المتنوعة والمختلفة في سجون روسيا، بين المساجين السياسيين بصورة خاصة. كان كل شيء في السجن رمزاً: الثقوب، عدد القضبان الحديدية في أبواب الزنزانات، عدد الضربات على الحيطان المشتركة. وكم ساهمت الرسائل السرية هذه بهرب مسجون أو بعصيان من مساجين. والأغرب من ذلك أن المخابرات الروسية نفسها اقتبست من السجون أكثر من وسيلة وتبنت أكثر من نظام.

عام ١٩١٤، جرت معركة تانتبرغ بين الروس والألمان. كانت أكبر معركة شهدتها الحرب العالمية الأولى. فيها سحق الجيش الألماني الجيش الروسي مكبداً إياه ثلاثين ألفاً من الجنود بالإضافة إلى مئة ألف من الأسرى. لم تكن تلك الهزيمة، التي لم تسطر كتب الحروب الحديثة مثيلاً لها، بسبب نقص في توازن القوى أو ضعف في نوعية الجيش الروسي، إنما كانت، هذه هي الحقيقة بعينها، بسبب الضعف الرهيب في المخابرات العسكرية الروسية في هذه المعركة. فالتجهيزات كانت ضعيفة والرموز مكشوفة. حتى أن القيادة توصلت لأن تتصل بمختلف القطعات بواسطة الراديو وباللغة العادية. أمر يدعو إلى العجب، لكن هذا ما حصل بالفعل. وهذا ما قدم للجيش الألماني هدية ثمينة ومجانية على طبق من فضة. وفي تحليل للبعض، أن هذه الهزيمة عجلت في نمو بذور النقمة داخل روسيا، وبالتالي، في التعجيل بثورة أوكتوبر في ما بعد واستيلاء الشيوعيين على الحكم.

تلت هذه المعركة معارك أخرى كانت نتائجها دائماً تتوقف على ما تحققه المخابرات من تقدم في التمويه. ولما كانت مخابرات القيصر دون مستوى أعدائه، لا سيما الألمان منهم، فقد ظلت جيوشه تتخبط. تارة تتقدم إثر استعمالها شيفرة جديدة متطورة، وطوراً تندحر بعد أن تكتشف أسرار تلك الشيفرة.

غير أن الروس كانوا يعوضون بعض خساراتهم بالمد غير المنقطع من الرجال

الذين كان يدفع بهم إلى ساحات القتال. ويجب ألا نغفل النجاحات التي حققوها في عدم السماح للجيوش الألمانية بنقل المعارك إلى أراضيهم.

ظل الأمر كذلك إلى أن خُلع القيصر في آذار - مارس من عام ١٩١٧، وقام حكم البلاشفة إثر ثورة أوكتوبر الشهيرة، عندها انسحبت روسيا من الحرب فطويت صفحة مضطربة من تاريخ هذا البلد، ولا نكون بعيدين عن الحقيقة إذا قلنا إن الهزائم المتلاحقة، التي نزلت بالقوات القيصرية، كانت، بالإضافة طبعاً إلى عناصر عديدة أخرى، في أساس التعجيل بإنهاء حكم القياصرة وإن ضعف مخابرات هؤلاء القياصرة كان في أساس تلك الهزائم. وتعتبر إقامة النظام الشيوعي في تلك البلاد المترامية حدثاً من أهم الأحداث في التاريخ المعاصر.

اشترك الاتحاد السوفياتي بدعم الجمهوريين في الحرب الأهلية الإسبانية. ولكنه قبض ثمناً غالياً لهذا الدعم في حينه. فقد قامت المخابرات السوفياتية (بسرقة كنوز إسبانيا بحجة حمايتها من الملكيين[١].

كانت تلك الحرب مجالاً له ولغيره من الدول لاختبار الكثير من الأسلحة والخطط. من هذه الأسلحة المخابرات بفنونها المختلفة. وقد كانت هذه الاختبارات مقدمة أفادت كثيراً في الحرب العالمية الثانية في ما بعد.

وأعار الاتحاد السوفياتي اهتماماً مرصوصاً لتحسين أساليب المخابرات لتصبح في أقصى درجات الفعالية. وقد ركز، إلى جانب أنظمة الشيفرة المتطورة وطرق فكها، على المخابرات الميدانية أو التطبيقية بتعبير آخر. وهكذا زرع عملاءه من سوفيات ومحليين في مختلف أنحاء العالم. هذه الوسيلة يمكن أن تكون فعالة، على الرغم من نفقاتها الباهظة. لكنها تفقد فعاليتها فور اكتشافها.

واهتمام الاتحاد السوفياتي بأنظمة مخابرات الآخرين يتولاه جهازان: البوليس السري والمخابرات العسكرية. وللبوليس السري تاريخ مرتبك، بدليل التغييرات المتعددة التي طرأت على تسميته وعددها لا يقل عن الستة. وبعد ستالين، قسم هذا

---

(١) عملية (سرقة المخابرات السوفياتية) لكنوز اسبانيا نشرت في الجزء الأول من كتابي (المخابرات والعالم - الجزء الأول) من صفحة ١٦٦ حتى الصفحة ١٧٣ - من نشر وتوزيع دار الجيل - بيروت.

الجهاز إلى وكالتين: الـ .K.G.B أو لجنة أمن الدولة، وتهتم بالتجسس والتجسس المضاد. والـ .M.V.D أو وزارة الشؤون الداخلية، وتعالج الأمور العادية الخاصة بالنظام داخل البلاد. أما المخابرات العسكرية فقد كانت جزءاً من الجيش الأحمر. وتسميتها بعد ذلك الـ .G.R.U أو الإدارة المركزية للمخابرات.

كان البوليس السري قبل ستالين يغذي الوكالة الرئيسية للمخابرات. وهي جهاز شبه مستقل يهتم بصورة خاصة بفك رموز رسائل الدول الأجنبية، وقسم الشيفرة كان يقسم إلى فروع عدة: حرس الحدود، القوات الخاصة، إدارة السجون، العمالة السرية في الخارج، الإقامة الشرعية في الخارج.

مرت المخابرات السوفياتية بفترة ازدهار حقيقي بين العامين (١٩٢٩ و١٩٣٠)، كانت تقوم بعمليات تجميع أسبوعي للبرقيات الأجنبية وترسل نتائجها إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي. ومنذ عام ١٩٣٨، ازداد حجم العمل، فأصبح هذا التجميع يتم يومياً.

وإبان الحرب العالمية الثانية، توصلت المخابرات السوفياتية إلى درجة عليا من التطور والتعقيد. لكن هذا لم يمنع الفنلنديين من إحراز نصر كاسح على السوفيات في معركة سوموساطي في شتاء عام ١٩٤٠، حيث بلغت درجة الحرارة (٥٦) درجة مئوية تحت الصفر. ويعود الفضل في هذا النصر، بالإضافة لعنصر المقاومة العنيفة من قبل الفنلنديين، إلى كشف الرسائل السرية السوفياتية من قبل السويديين وتسريبها إلى فنلندا. وإحدى هذه الرسائل، وكانت استغاثة طلب فيها قائد سوفياتي مواد غذائية لأنه وجنوده «أكلوا آخر حصان عندهم»، وصلت إلى أيدي الفنلنديين، وفيها أن الفرقة السوفياتية ستضيء ناراً على شكل مثلث لإرشاد الطائرات إلى المكان الذي يجب عليها إلقاء المواد الغذائية فيه. فما كان من الفنلنديين إلا أن أضاؤوا هم هذه النار، والطائرات في طريقها إلى الفرقة المحاصرة، وتلقوا المآكل وسط صخبهم وقهقهاتهم. لكن فنلندا، على الرغم من كل هذا، لم تستطع وهي البلد الصغير، أن تستمر في مقاومة الجار الضخم. وهكذا، اضطرت إلى الاستسلام وتوقيع معاهدة سلام معه. وبعد سنة عندما بدأت المعارك بين الألمان والروس، دخلت فنلندا الحرب إلى جانب الرايخ الثالث وكانت فرصة لها لتبادل المعلومات عن الرسائل السرية بينها وبين حليفتها ألمانيا.

على صعيد تصدي الألمان للاتصالات السوفياتية ومحاولة فك رموزها، يقتضي التفريق بين أمرين اثنين: الأول يختص بالاتصالات الستراتيجية. وهنا فشل الألمان فشلاً ذريعاً، إذ لم يستطيعوا فك أي من الشيفرات المستعملة من الروس، وخاصة الشيفرة التي كانت تعتمدها القيادة العليا للجيش الأحمر. والثاني يختص بالاتصالات التكتيكية. هنا كان صيد الألمان ثميناً. فقد تمكنوا من التقاط معلومات عن تحركات وأحجام الجيوش العدوة غاية في الأهمية. وفي عام ١٩٤١. عندما بدأت المعركة، أسر الألمان أحد الطيارين الروس. وقد سلم هذا الطيار إلى العدو أسراراً مكنته من تدمير مئات الطائرات الجاثمة على الأرض وعدداً كبيراً من الطائرات المشاركة في معركة مينسك.

كل هذا، بالإضافة إلى عناصر أخرى، أمنت للطيران الألماني تفوقاً مكّن الألمان من التوغل في عمق الأراضي السوفياتية خلال العامين ١٩٤١ و١٩٤٢. لكن ستالينغراد صمدت. كانت الهجمة الألمانية شرسة. في البداية، تمكن الألمان من تحقيق انتصارات باهرة. وقد مرت فترة في بداية شتاء ١٩٤٣ كان فيها السوفيات على وشك التضعضع، غير أن الموقف ما لبث أن تبدل. انتقل الجيش الأحمر من الدفاع المرتبك إلى الهجوم المركز. وفي الميلاد اضطر الألمان إلى الانسحاب من أوكرانيا. وبعد ذلك دُفعوا إلى الوراء مسافة لا تقل عن ألف كيلو متر من آخر نقطة بلغوها في الأراضي السوفياتية.

وقد كتب مالنتين في ذلك يقول: «كم تبدلت الصورة بين جيش القيصر في الحرب العالمية الأولى والجيش الأحمر في الثانية». وكم تبدل اهتمام السوفيات والمخابرات. فبعد أن كانوا يعتمدون بصورة خاصة على كثافة القوات التي يدفعون بها إلى المعارك، أصبح لديهم، منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية، مخابرات فعالة، نوّه بقدرتها ومستواها العدو في كثير من المناسبات. وما يقال في المخابرات العسكرية يقال كذلك في المخابرات الديبلوماسية. لقد ظلت أنظمة الشيفرة السوفياتية لغزاً ليس فقط على الأعداء، بل حتى أيضاً على الحلفاء.

خلال الحرب العالمية الثانية، زرع السوفيات أعداداً هائلة من الجواسيس والعملاء في معظم أنحاء العالم. كان هؤلاء يشكلون فرقاً تعمل بإتقان وتوصل أهم

المعلومات إلى الكرملين. والجدير بالذكر، أن نظم العمل والشيفرات التي كانت تستعمل من قبلهم دللت على أنها غاية في التماسك والسرية والتعقيد، بحيث صعب كشفها على أبرع العاملين في هذا الحقل في سائر أنحاء المعسكرات المضادة. من بين الجواسيس الذين كانوا يعملون لحساب الاتحاد السوفياتي، نذكر الدكتور ريتشارد سورج، أحد المراسلين الصحفيين الألمان في اليابان[١].

* كان سورج صديقاً حميماً للسفير الألماني في طوكيو أوجين أوت، وكان الاثنان لا ينفكان يجتمعان معاً ويتحدثان في شؤون الساعة وبكثير من التعمق الكاشف. من خلال هذه اللقاءات ولقاءات أخرى، ومن خلال ما استقاه من عمله كصحفي، تمكن سورج من تجميع معلومات على قدر كبير من الأهمية ومن تحريرها طازجة إلى المخابرات السوفياتية. وعلى الرغم من كل الحذر، غاب عن ذهن المسؤولين الألمان أن جد سورج كان في وقت من الأوقات، أمين السر الخاص لكارل ماركس، وأنه كان شيوعياً متحمساً.

قاد سورج في الفترة ما بين ١٩٢٩ و١٩٣١ شبكة تجسس سوفياتي في شنغهاي، وبسبب معرفته العميقة بالشرق الأقصى، فقد أرسله السوفيات إلى اليابان، الخصم الوحيد لهم في غرب الباسيفيك، لينقل إليهم حقيقة نوايا هذا البلد تجاههم. وقد عقد لهذه الغاية صداقات مع كبار رجالات الدولة، وشكل من بينهم عملاء له، أشهر هؤلاء العملاء هو تسومي أوزاكي، الذي اعتلى منصب رئاسة الوزراء ثلاث مرات في اليابان.

لقد كان سورج ينقل معلوماته على شريط أو بالبريد، أو، بصورة خاصة على الراديو إلى محطة سوفياتية قريبة. وكان يعاونه في عمله ألماني آخر هو ماكس كلوسن، الذي عمل في مخابرات الجيش الألماني خلال الحرب العالمية الأولى، وعندما أصيب سورج عام ١٩٣٨، بحادث دراجة نارية، حل محله كلوسن بعد موافقة خاصة من موسكو.

---

(١) هذه المعلومات أحدث من المعلومات التي نشرتها في كتابي (المخابرات والعالم - الجزء الأول) في الصفحات من ٨٢ - إلى ١٠٥، كما حصلت على الترجمة الكاملة عن قصة هذا الجاسوس العالمي وسوف أقدمها إلى القرّاء قريباً إن شاء الله تعالى.

اكتشف سورج أن ألمانيا تنوي اجتياح الاتحاد السوفياتي. غير أن ستالين لم يأبه، كعادته، بمثل هذه المعلومات، وعندما نشبت الحرب، كان همّ سورج وهمّ السوفيات كذلك، هو معرفة ما إذا كانت اليابان ستستفيد من صعوبات الاتحاد السوفياتي وتهاجمه، أم أنها ستفضل الاستيلاء على الكاوتشوك والنفط في ماليزيا وأندونيسيا. بعد كثير من التحريات التي قام بها سورج والفرق العاملة تحت إمرته، استقرت القناعة على أن اليابان لن تهاجم، على الأقل قبل الربيع التالي. ركن السوفيات إلى هذا وقاموا بسحب جزء هام من عديدهم وعدتهم من الشرق الأقصى وألقو بهم في الجبهة الألمانية. مما ساعد على إيقاف تقدم الألمان، وبالتالي، على تجنب سقوط موسكو.

لكن قدر سورج كان محتوماً، ذات يوم، اعتقلت السلطات اليابانية شاباً يابانياً بتهمة انتمائه لخلية شيوعية. وبغية كسب عطف البوليس، كشف عن نشاطات مشبوهة تقوم بها معه امرأة في الخلية. هذه المرأة جعلت البوليس يمسك بطرف الخيط الذي يقع سورج في جزء منه. وفي ١٥ تشرين الأول ـ أكتوبر عام ١٩٤١، اعتقل كل من سوزاكي وسورج. وفي ١٨ منه، اعتقل كلوسن، هذا الأخير حكم بالسجن مدى الحياة. أما سوزاكي وسورج فقد أعدما شنقاً في ٧ تشرين الثاني ـ نوفمبر عام ١٩٤٤، بعد حياة ملأها بنشاط تجسسي غزير العطاء.

من أشهر شبكات التجسس السوفياتية، شبكة «الأركسترا الحمراء» التي كانت تغطي كل ألمانيا وأوروبا المحتلة مع تغلغل عميق توصل إلى أعلى المستويات. كان أبطال الفرقة هانز شولز ـ بويسن، أحد ضباط الجيش الألماني، وأرفيد هارتاك، وليوبولد تريبير. ظلت الفرقة تعمل ببطء حتى الهجوم الألماني في ٢٢ حزيران ـ يونيو عام ١٩٤١. منذ ذلك التاريخ، جاءتها الأوامر من موسكو بالتحرك بالسرعة القصوى.

تحركت الفرقة، فإذا بالأجواء تمتلئ بإشارات المورس، وإذا بالمحللين من الألمان، وسواهم يجهدون دون جدوى لفك الرموز. بقي تعيين أمكنة البث للانقضاض عليها. لكن ذلك لم يتم عملياً إلا في كانون الأول ـ ديسمبر، بسبب النقص في أجهزة الرصد لدى الألمان. لقد تنبهت المخابرات آنذاك، أن إشارات

تنطلق من فيلا تقع في ١٠١ شارع الأتريبات في بروكسل. حاصرت المكان وداهمته، فإذا هناك جهاز إرسال يعمل عليه ميخائيل ماكاروف، الملازم الأول في سلاح الجو السوفياتي وقريب وزير الخارجية السوفياتي في ذلك الحين مولوتوف. والطريف أن تريبير حضر إلى الفيلا بعد لحظات من مداهتمها مع صيد ثمين في جعبته. لكنه كان حاضر البديهة. فقد انتحل شخصية بائع أرانب واستطاع تضليل المداهمين ونجا بجلده كما يقولون.

وجد الألمان في مدخنة الفيلا قصاصة من الورق نصف محروقة عليها بعض الرموز. ولما استمر ماكاروف في رفضه الإفصاح عن أية معلومات. فقد انكبت أجهزة الألمان على تحليل ما كتب في هذه القصاصة. وبعد أسابيع، وجدوا أن فيها أحد أنظمة الشيفرة المعتمدة من المخابرات السوفياتية. بعد استجواب صاحبة الفيلا، وهي المرأة الساذجة، ذكرت أن مستأجريها قرأوا عدداً من الكتب. من هذه الكتب «معجزة الاستاذ فولمار» ويبحث في العلوم الوهمية وخصب الخيال. هذا الكتاب ساعد الأجهزة الألمانية على اكتشاف الكثير من رموز «الأركسترا الحمراء».

بعد أن تمكن تريبير من التملص من المأزق الذي وقع فيه على مدخل الفيلا، سارع إلى نقل خبر المداهمة إلى السوفيات. فما كان من هؤلاء إلا أن غيروا مفاتيح الشيفرة المكتشفة. وعاد العزف من جديد على أشده. وكم كان يطيب لموسكو سماع الألحان العذبة عن تحركات الجيوش الألمانية وخططها والروح المعنوية فيها وصعوباتها التموينية وسوى ذلك مما لم يكن ليتوافر لولا حذق ومهارة أعضاء الأركسترا المندسين في كل وزارة وإدارة ابتداءً من أجهزة المخابرات وانتهاء بأصغر بلدية، مروراً بوزارة الخارجية وإدارة الدعاية والمعنويات. أما الألمان، فقد كانوا يستمعون إلى أنغام الأركسترا دون أن يتمكنوا من الوقوف على حقيقتها. لكن أجهزة رصد أماكن البث ظلت تعمل دون كلل. وفي ٣٠ حزيران - يونيو من عام ١٩٤٢، ضبط فريق بلجيكي آخر في بروكسل، كان بإدارة جوهان وتزل، الملقب بالأستاذ لكفاءته العالية بالراديو. وضعت المخابرات الألمانية «الغستابو» يدها على القضية. واستطاعت بفضل وسائلها «المعهودة» أن تنتزع من وتزل معلومات ما كان ليستطيع أيّ عقل بشري، مهما بلغ من حدة ذكاء، انتزاعها. تمكنت المخابرات الألمانية من معرفة أسرار الشيفرة التي كان يستعملها السوفيات بمراسلتهم مع الفريق البلجيكي

المذكور. كما تمكنت، من خلال اعترافات وتزل، من معرفة عنوان كل من سولزر بويسن وهارناك.

* أهم مجموعات التجسس السوفياتية التي كانت تعمل إبان الحرب العالمية الثانية، مجموعة لوسي في سويسرا، فقد أتاح لها وجودها في بلد محايد العمل في جو بعيد نسبياً عن التجسس المضاد ومضايقاته. كان في عداد المجموعة رجل ألماني يدعى رودولف روسلر وهوجاسوس شهدت له أعماله بأنه الأشهر بين جميع جواسيس الحرب. كان يعمل ناشراً لكتب كاثوليكية تقدمية في العاصمة السويسرية لوسرن، ومن هنا أتت تسمية المجموعة بـ«لوسي» أما رئيس المجموعة فقد كان يدعى الكسندر رادو، راسم خرائط مشهور في الصحافة السويسرية. في أواسط حزيران ـ يونيو، تلقت موسكو بالراديو من عميلها في المجموعة، الإنكليزي الكسندر فوت، رسالة تحدد يوم الثاني والعشرين من الشهر نفسه موعد بدء الهجوم الألماني على الأراضي السوفياتية.

هذه الرسالة التي جاءت متوافقة مع رسالة أخرى أرسلها سورج بهذا المعنى، لم يأبه لها ستالين، الذي كان يعتقد بأن ألمانيا لا يمكنها، بما لها من مصلحة مشتركة مع الاتحاد السوفياتي بضرب بريطانيا العظمى، أن تترك تلك الأخيرة وتهاجمه. هذا النوع من التقديرات يبرز مشكلة من أهم المشكلات التي تعاني منها المخابرات عامة، أعني بها مشكلة الوثوق بالمعلومات. مثل المعلومات التي أجهد سورج نفسه وشبكته في طوكيو للحصول عليها حيث كان يعيش (على دمه) كما يقال، وعندما أرسلها إلى قيادة المخابرات السوفياتية في موسكو ورفعت إلى ستالين للتصرف استهان بها ولم يقدّرها.

بعد بدء الهجوم استمر فوت روسلر، بالإضافة طبعاً إلى الآخرين، في إعطاء المعلومات عن الألمان أولاً بأول. غير أنه في فترة من الفترات، لم تكن معلومات فوت دقيقة، بل وحتى صحيحة، كشف عن ذلك في ما بعد، مدير المجموعة عندما قال بعد الحرب: «لقد كلفنا ذلك مئة ألف رجل في خاركوف وأتاح للألمان إمكانية الوصول إلى ستالينغراد. .» هذا يعني أن الروس مدينون، إلى حد بعيد، في انتصاراتهم، إلى المعلومات التي كان يرسلها إليهم روسلر.

كما جهدت السلطات السويسرية وسواها من المخابرات العاملة على الأراضي السوفياتية في كشف ألغاز الرسائل التي كانت تبثها مجموعات التجسس السوفياتية إلى موسكو ولكن دون جدوى، إلى أن وصل الأمر بهذه السلطات، تحت ضغط النازيين إلى وقف نشاط تلك المجموعات اعتباراً من خريف عام ١٩٤٣.

طوال الحرب العالمية الثانية، لم ينفك حلفاء الاتحاد السوفياتي عن أن يكونوا أهدافاً لتجسسه. وقد أعطاه ذلك، بعد الحرب، ولا سيما خلال مرحلة الحرب الباردة، مواسم غنية حصد غلاّتها ووظفها لمصلحته. وعندما أسدل الستار الحديدي، كان العملاء السريون العاملون لمصلحته منتشرين في الكرة الأرضية بكاملها، خاصة في الدول الغربية ودول عدم الانحياز. ولكي تكون لهؤلاء العملاء إدارة وتوجيه فاعلان، كان لا بد من نظام جيد للاتصالات السرية. وقد جاء هذا النظام الأفضل في العالم، مما خلق اطمئناناً لدى جميع العاملين فيه والمتصلين به من جواسيس وعملاء بأنهم في منأى عن كل انكشاف. كانت الوسائل المستعملة في نقل المعلومات والشيفرات غاية في الحنكة. مثال ذلك دفتر بحجم طابع البريد مليء بالمعلومات المكتوبة بدقة متناهية، وجد في حوزة رودولف أبيل، الجاسوس السوفياتي الأشهر ممن اكتشفوا في الولايات المتحدة، وذلك عند إلقاء القبض عليه في نيويورك في ٢١ حزيران - يونيو من عام ١٩٥٧.

لكن صلابة أنماط المخابرات السوفياتية وفشل الكثيرين أمامها، لم يمنعا البعض في بعض الفترات من الفوز عليها. فسنة ١٩٥٥- لاحظت أجهزة التجسس المضاد السويدية أن أحد سائقي سفارة تشيكوسلوفاكيا يتردد كل مساء على محطة ستوكهولم. بعد مراقبة دقيقة، تبين لهذه الأجهزة أن هذا الرجل يتلقى معلومات من موسكو من خلال إعلانات تنشر في صحيفتين تصدران في كارسكوغا وهي مدينة صغيرة مشهورة بصنع الذخيرة الحربية. كان بنتيجة هذا الاكتشاف أن ضبطت شبكة تعمل في خمس مدن وأن يطلب إلى أربعة دبلوماسيين يعملون في سفارات تابعة للفلك السوفياتي مغادرة البلاد. هذا المثل يدل على أن بعض الضعف كان موجوداً في عدد من أجهزة المخابرات في الأحزاب الشيوعية المحلية، خلافاً للصورة في الحزب الشيوعي السوفياتي.

ومما يثبت هذه الحقيقة، ما حصل في إيران. في ١٦ آب ـ أوغسطس من عام ١٩٥٤ عندما ألقت سلطات الأمن الإيرانية القبض على الضابط المسرح علي عباسي لنشاطاته المشبوهة في حزب توده المعروف باتجاهاته الشيوعية. وقد عثر في الحقيبة التي كان يحملها على مصوّر مفصل لقصر الشاه الصيفي وعليه مختلف نقاط الحراسة وعدد عناصرها، وكذلك عثر معه على مستندات عسكرية إيرانية غاية في السرية، بالإضافة إلى تقرير عن مواقع المدفعية على طول الحدود الإيرانية السوفياتية. كان هناك أيضاً دفتران صغيران يتضمنان نصوصاً مرمزة ودفتر ثالث مليء بصيغ المثلثات وبأحرف يونانية من التي يستعملها علماء الرياضيات.

تصدى كل من الكولونيل مصطفى عمجدى، رئيس مكتب المخابرات التابع لحاكم طهران العسكري، وأحد زملائه من ضباط الجيش الإيراني للعملية. وفي ٣٠ آب ـ أوغسطس، كانا قد استطاعا فك رموز معظم هذه الدفاتر، ولكنهما وجداها دون فائدة تذكر. في هذه الأثناء، كان عباسي قد تكلم وكشف النقاب عن أن حزب توده دس حوالي أربعمائة عميل له في الجيش الإيراني. لكن المشكلة كانت في كشف أسماء هؤلاء العملاء. أعيد استجواب عباسي، فاعترف أن السر مع الكولونيل جمشيد مبشري، أحد ألمع ضباط المدفعية الإيرانية في الرياضيات، وكذلك أحد المتورطين في القضية. ألقي القبض على مبشري واستجوب فرفض الإفصاح وحاول، وهو في زنزانته، قطع شرايين يده بواسطة مسمار. بعد معالجته، أعيد استجوابه فأصر على الرفض. لكن فريقاً من رجال المخابرات الإيرانية بالتعاون مع خبراء من الخارج، تمكن من كشف أسماء الرجال الأربعمائة فألقي القبض عليهم وحوكموا. وقد أعدم منهم ستة وعشرون، من بينهم مبشري نفسه، كما زج مئات منهم في السجون.

من أخبار السرية المحكمة لوسائل المخابرات السوفياتية ما حصل للعميل هايهانن في أميركا. كان على هذا تسليم قطعة نقدية من فئة خمسين سنتيم. تحوي في تجويف فيها على ميكرو فيلم، إلى أحد العملاء من زملائه. لكن «هايهانن»، نتيجة غفلة منه، أنفق القطعة في مشترياته، فانتقلت من يد إلى يد وضاع أثرها. وذات يوم، وقعت القطعة من أحد بائعي الصحف في بروكلن وتدحرجت على السلم فانشطرت ووقع منها فيلم دقيق. حمل هذا الرجل ما وجده إلى الشرطة فنقلته إلى

أجهزة المخابرات. لم تستطع المخابرات الأميركية فك رموز الفيلم على الرغم من جهودها المضنية التي بذلتها في هذا الصدد. ولم تعرف حقيقة هذه الرسالة إلا بواسطة هايهانن نفسه بعدما ترك السوفيات ولجأ إلى السفارة الأميركية في واشنطن، تلك هي المخابرات. أنظمة يصعب النفاذ من بين أجزائها، وسرعة في التبديل تجعل الآخرين يلهثون باستمرار دون كبير جدوى. وهنا يحضر الذاكرة ما قاله تشرشل في هذه الأمة من أنها لغز يحيط به سر في داخل أحجية.

ولا ريب في أن كفاءة السوفيات في نطاق المخابرات هي في مستوى يحاكي المستوى الذي توصلوا إليه في غزو الفضاء. حتى جرى تفكيك الاتحاد السوفياتي العظيم على يد (ميخائيل غورباتشوف) في التسعينات، وانتهت مع التفكيك أسطورة المخابرات السوفياتية، مثلما انتهت قبلها المخابرات الملكية الإيرانية (السافاك) ومثلما انتهت مخابرات ألمانيا الشرقية (سابقاً) التي كانت تدعى حركياً باسم (شتازي). ومثلها كل مخابرات مماثلة.

الفصل الثاني عشر

المخابرات تجند وتستخدم المرتزقة الذين يبحثون عن الثراء والشذوذ

* المخابرات لها عالمها الخاص. والمرتزقة أيضاً لهم عالمهم الخاص: القتل مقابل المال. بمقدار ما يدفع تزهق أرواح وتدمر ممتلكات وتذرف دموع. ليس المهم كل ذلك، كل عملية لها سعرها، وكل روح لها ثمنها أيضاً حسب قدرها وأهميتها.

في أوكلاند بكاليفورنيا مركز لتجنيد المرتزقة سمي بمركز (عصفور الجو) يومياً يشهد المركز حشوداً من الشباب من كافة الأعمار، طالبين الانخراط في عالم المرتزقة. والإعلانات المتوالية في الصحف اليومية لطلب مرتزقة تترك القلق عند المواطنين وتثير عاصفة من التعليقات الصحافية المضادة.

جيش المرتزقة له أيضاً مجلته التي تغطي كافة نشاطاته وشعارها: في الحروب لا يوجد خير وشر، وعدل وظلم، بل هناك أبطال وجبناء، أولئك الذين يمتلكون الشجاعة أم لا؟ ومن بينهم جميعاً أولئك المرتزقة. في انغولا: حوكمت مجموعة من المرتزقة ذهبت إلى هناك من أجل الوقوف ضد الوطنيين والقيام بغزو عسكري مكشوف شاركت فيه أيضاً قوات من جنوب إفريقيا. خلال المحاكمة قال غوستافو مارسبللو غريللو من قوات المارينز الأمريكية سابقاً. ويبلغ السابعة والعشرين من العمر أنه من السهل أن يصبح الإنسان مرتزقاً بعد أن يشاهد فيلماً تلفزيونياً يصور شجاعة وبسالة المرتزقة مع إعلان صاحب الفيلم عن عنوان مراكز التجمع، كذلك الشروط والمرتب الشهري والبدلات المقابلة لهذا التطوع. أما عن التدريب

والإشراف على التسليح فهو يتم عن طريق خبراء الـ (سي آي إي) في منطقة فورت سنتغ في جورجيا حيث يدرسون تقنيات الاستجواب والتحقيق إضافة إلى تعلم اللغة البرتغالية وغيرها:

شركة خدمات الإرشاد الأمني ـ ساس: في شهر كانون الثاني ١٩٧٦ تم تأسيس هذه الشركة ومؤسّساها ليس أسبن وهو بريطاني ومهنته تاجر أسلحة، وجون بانكس جندي مظلي سابق. وحسب اعترافات بانكس فإن المخابرات المركزية الأميركية C.I.A قد مولت هذه الشركة بمبلغ تأسيس وقدره / ٥٦٠،٠٠٠/ دولار أميركي، وقد تم تسليم هذا المبلغ للمؤسسين بواسطة نورمانهول الضابط في C.I.A بموجب كشوفات مالية رسمية.

أما الراتب الذي يتقاضاه المرتزق فهو ١٥٠ جنيهاً استرلينياً كنفقات سفر و٢٠٠ جنيها استرلينيا بدل راتب أسبوعياً مع إجازة شهر، مدفوعة الأجر مضافاً بطاقة سفر إلى أي مكان في العالم للاستجمام مع تعهد بإيجاد عمل للمرتزق بعد انتهاء عقده معهم. أما الأجور الإضافية التي يستحقها المرتزق فهي:

- ٧٥٠ جنيهاً استرلينياً مقابل تدمير كل دبابة.
- ٨٠٠ جنيهاً استرلينياً مقابل تدمير كل ناقلة جنود دبابة. أو لوري.
- ٢٥٠ جنيهاً مقابل قتل كل جندي عدو (بالمفرد).
- ١٢٠٠ جنيهاً مقابل أسر كل ضابط من رتبة ملازم فما فوق.
- ٥٠٠ جنيهاً مقابل أسر كل ضابط صف عدو (سيرجنت ـ رقيب).
- ٣٠٠ جنيهاً مقابل أسر كل جندي.

وهذه الأسعار كانت قبل الغلاء الجنوني لذلك جرى التنويه. وأول مهمة لفريق المرتزقة الأول كانت في أنغولا حيث تم استئجار الفريق لصالح المخابرات الأميركية حسب التعرفة المعلنة التي لا تخضع لا للتموين ولا للسياحة.

خاضت المخابرات بهؤلاء المرتزقة حرباً غير مريحة إذ سقط لهم أكثر من أربعين قتيلاً وخمسة عشر جريحاً عدا أسر العديد منهم. فانتشرت أخبار فضيحة

التجنيد هذه وقامت مناقشات حامية في البرلمان البريطاني حول أخلاقية عمل المنظمة أمام إنكار المخابرات الأميركية أي علاقة لها بتجنيد المرتزقة.

١ـ عملية القمر: الهدف منها التخلص من تشي غيفارا اسم العملية التي قام بها رجال القبعات الخضر التابعة للـC.I.A بإنشاء جسر جوي لدعم القوات البوليفية المطاردة لتشي غيفارا في إقليم سانتا كروز (في حينه).

وقد ترأس هذه العملية رئيس محطة المخابرات في بوليفيا الميجور رالف شلتون وبالمشاركة المباشرة بالعمليات العسكرية بثلاثة آلاف رجل من القوات الخاصة الأميركية.

٢ـ عملية الذبابة السوداء: الهدف منها التخلص من العقيد معمر القذافي. خططت المخابرات المركزية الأميركية بالتسلل بواسطة أحد عملائها لمقر إقامة العقيد واستخدام سم قاتل للتخلص منه. وميزات هذا السم القاتل أن مفعوله بطيء وأن نتيجته المؤكدة تظهر بعد ثماني وأربعين ساعة من دس السم دون أن يترك أي أثر على حدوث التسمم. وستكون أسباب الوفاة من نوع الإصابات المرضية التي تسببها الفيروسات، وتم توكيل المهمة إلى إدوين ويلسون المتمرس في المتفجرات في أعمال المخابرات الأميركية. ومن أجل استخدام هذا السم تم تجهيز سهم صغير وخفيف على شكل الذبابات السوداء المنتشرة في الصحارى الليبية (لهذه الدرجة يجب الحذر). وأمام تسرب أنباء العملية للصحافة العالمية اتفق على إلغاء العملية بالكامل.

٣ـ أقلام ويلسون المؤقتة: اصطلاح مخابراتي، يعني تلك المتفجرات الإلكترونية التي تفجر عن بعد بواسطة جهاز تحكم لاسلكي. هذه الأقلام نسخة طبق الأصل بمظهرها الخارجي للأقلام العادية المستعملة.

٤ـ عملية الجواهر عام ١٩٧٣ـ أهدافها كما حددتها المخابرات المركزية الأميركية: التخلص من لومومبا (الكونغو)، والجنرال رينيه شنايدر (تشيلي) ونغودييين دييم (فيتنام الجنوبية) وفيدل كاسترو (كوبا)، ورفائيل تروخيللو (الدومينيكان)، وقد نجحت في التخلص منهم جميعاً (ما عدا كاسترو رئيس كوبا).

٥ـ عملية سير فيكال كاب: كلفت المخابرات أحد عملائها بغرس جهاز

الكتروني على شكل جذع شجرة صغير ضمن شجرة خارج قاعدة عسكرية جوية روسية في إحدى قواعدها بأوروبا الشرقية، ومهمة هذا الجهاز جمع المعلومات والبيانات عن طائرات الميغ الروسية وإداراتها. وكان على العميل أن يتسلق جدران إحدى الحدائق العامة الملاصقة للقاعدة العسكرية لغرس هذا الجهاز، لكن عدم وجود العميل الأوروبي المطلوب ألغى العملية خشية انكشافها بسهولة.

٦ـ عملية نيكاراغوا:

تم تجهيز فرق للتخريب دربت على أيدي الـ C.I.A. للإغارة قبل الفجر على مستودعات الوقود في كورينتو على ساحل المحيط الهادئ في نيكاراغوا، باستعمال زوارق سريعة لتنفيذ هذه الغارة. تم تفجير سبعة مستودعات تحتوي على كل احتياط النفط لنيكاراغوا مما أدى إلى إحداث دمار شامل بالمنطقة وأدى إلى إخلاء سكان مدينة كورينتو للمنطقة بسبب كثافة النيران والدمار، بعد أسبوع من هذه الإغارة شنت الزوارق ذاتها غارة على مرفأ ساندينوا المرفأ الرئيسي الثاني في نيكاراغوا وفيه أيضاً مستودعات للنفط وتم تدمير المستودعات.

كذلك في عملية أخرى للـ C.I.A تم تدمير أنابيب نقل النفط داخل نيكاراغوا. وليام كايسي مدير المخابرات المركزية اتصل خلال تنفيذ هذه العمليات التخريبية بجون هورتون الضابط المسؤول عن محطة أميركا الجنوبية متسائلاً: «ماذا نستطيع أن نفعل أكثر بالاقتصاد النيكاراغوي لنجعل هؤلاء الأوغاد (ويقصد الساندانيين) يكدحون ويعرقون».

وأقرت المخابرات المركزية الأميركية خطة تلغيم نيكاراغوا والمزيد من الحصار الاقتصادي على النظام الساندانى، وتم تجهيزمركب بحري ضخم انطلقت منه عدة طائرات هليكوبتر وزوارق سريعة لتزرع ألغاماً ذات قوة تفجير تصل قوتها إلى /٣٠٠/ طن من المتفجرات مما أدى إلى امتناع الدول المجاورة عن تزويد نيكاراغوا بالنفط وكذلك امتناع شركة لويدز للتأمين عن تأمين السفن المتجهة إلى المرافئ الملغمة.

عمليات الدعم الأمني لزعماء ورؤساء الدولة

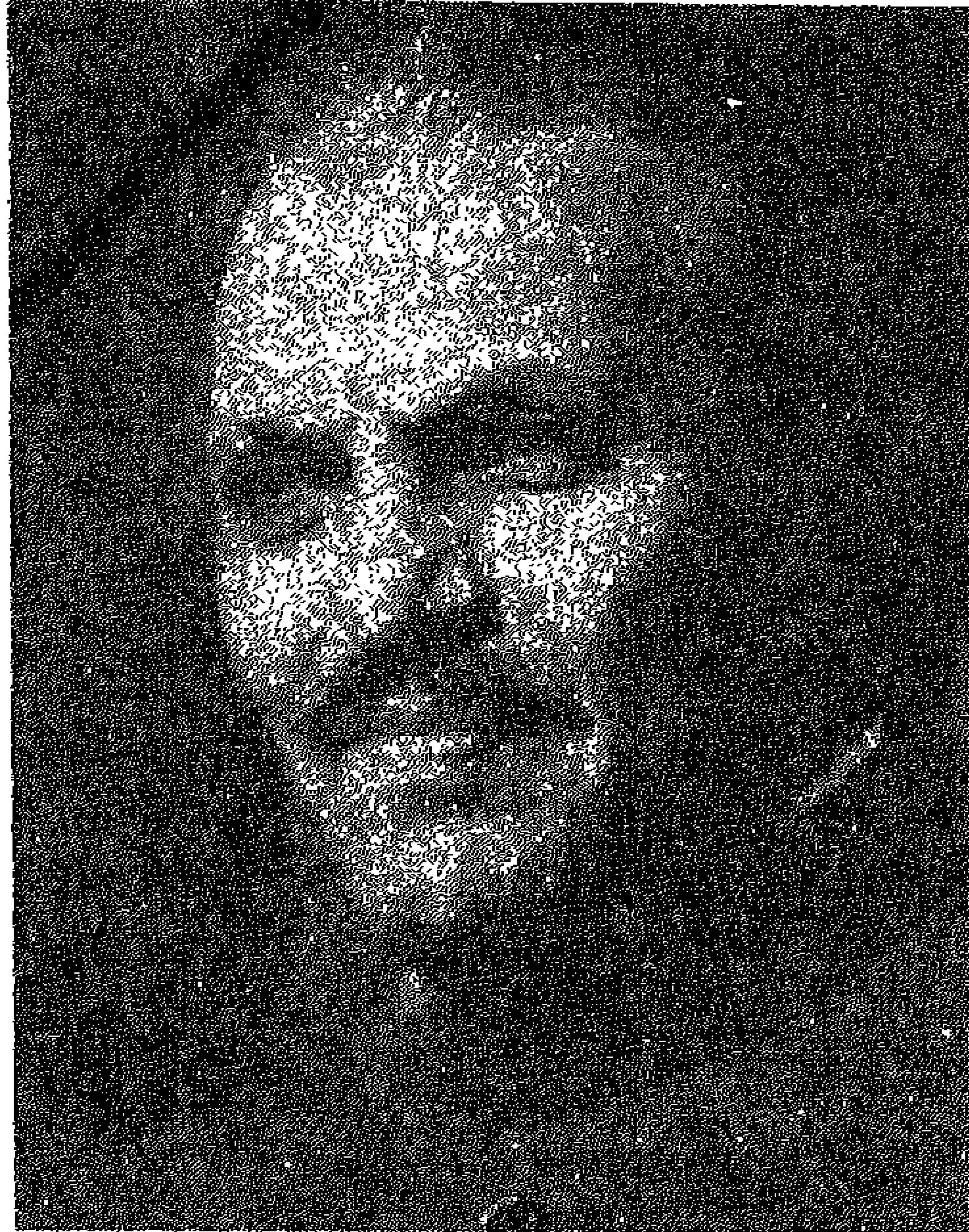
* يذكر وليام كايسي مدير المخابرات المركزية أنه كان للمخابرات العديد من

الأصدقاء من رؤساء دول وزعماء سياسيين، وقد تم تقديم مساعدات مختلفة لهؤلاء الأصدقاء منها مساعدات أمنية ومنها اقتصادية ومنها مخابراتية (معلومات).

ومن هؤلاء الأصدقاء على سبيل المثال:

- الرئيس حسين حبري: رئيس تشاد، حيث قدمت له مساعدات مادية وعسكرية ومخابراتية هامة كجزء من مشروع إدارة ريغان لمواجهة الرئيس الليبي العقيد معمر القذافي.

- الرئيس محمد ضياء الحق: رئيس باكستان[1]. اعتبرت باكستان الأولى باهتمامات الـC.I.A حيث أنها محاطة بدول غير صديقة، ولأهمية موقعها الاستراتيجي



رئيس الباكستان (محمد ضياء الحق) كان عميلاً للمخابرات الأمريكية وقاتلاً لعلي بوتو، قُتل أيضاً بحادث طائرة مروحية

(١) تمت تصفية الرئيس محمد ضياء الحق (قاتل بوتو) بتفجير طائرته المروحية وقتل معه صدفة رئيس محطة المخابرات الأميركية في باكستان.

بتلاصقها مع إحدى بؤر العالم المتوترة (كأفغانستان). ومكافأة لضياء الحق بالسماح للمخابرات بحرية الحركة دون إزعاج مما يجعل محطة إسلام أباد أكبر محطات مخابرات في العالم. كان يعتبر صديقاً لكايسي مدير المخابرات المركزية الأميركية بصفة شخصية مما عجل بتصفيته.

ـ الرئيس صمويل دو: زعيم ليبيريا:

" جندت المخابرات رئيس الحرس الخاص للزعيم الليبيري فلانزامانتون الذي حاول الإطاحة بالرئيس، لكن المحاولة فشلت. وأثناء محاكمة فلانزامانتون اعترف بعمالته للمخابرات وألقى عليها تهمة التحريض للقيام بانقلاب، تم إعدام فلانزامانتون وماتت التهمة معه.

تقربت المخابرات كثيراً من الرئيس، وبعد هذه الحادثة تثبت حسن النوايا والدعم له، وحصل خلال السنوات السابقة على الكثير من المساعدات الاقتصادية وتم تدريب قوات حرسه الخاص على أيدي ضباط المخابرات الأميركية.

الرئيس ماركوس: رئيس الفيليبين:

كان يعتبر من أقوى الحلفاء الأميركيين، وصديق هام للمخابرات نظراً للمخاطر الداخلية التي كانت تهدد حكمه باستمرار، سمح للأميركيين بإقامة أكبر قاعدتين عسكريتين خارج الولايات المتحدة على أراضيه، وهما قاعدة كلالاك الجوية وقاعدة خليج سابيك البحرية اللتان تتمتعان بأهمية استراتيجية بالغة.

كان دعم المخابرات له غير محدود، إذ أمنت له الكثير من المساعدة الأمنية والعسكرية وأصبحت الفيليبين في عهد ماركوس الدولة الأولى بالرعاية الأميركية (وقد أطيح بالرئيس ماركوس بالتآمر مع نفس المخابرات الأميركية التي ساعدته على الهرب مع زوجته أيميلدا خارج الفيليبين حيث المنفى حتى توفي فيه.

ـ في انغولا: تم دعم القوات الثائرة بقيادة جوناس سافيمبي على النظام الماركسي.

ـ في كمبوديا: تمت مساندة الثوار ضد الجيش الفيتنامي المتواجد في كمبوديا وكانت مساهمة الـ C.I.A تقدر بخمسة ملايين دولار سنوياً.

ـ في أثيوبيا: اقتصر دعم الـ C.I.A للمعارضين للنظام الماركسي على الدعم المعلوماتي وأنيط الدعم المادي بإحدى الدول العربية.

عمليات جبال هملايا

* جندت المخابرات الأميركية عدداً من متسلقي الجبال للصعود إلى جبال هملايا في الهند، والهدف تثبيت جهاز للتجسس على الصين. أخفى رجال المخابرات الجهاز في أحد منحدرات هذا الجبل لصعوبة تسلقه بسبب رداءة الأحوال الجوية في حينه.

بعد تحسن الطقس تم التفتيش على الجهاز دون جدوى إذ إن انهيارات جليدية محت مكان إخفاء هذا الجهاز.

في العام التالي جدد البحث عن هذا الجهاز لكن دون جدوى، وكذلك تكررت المحاولات سراً. الفضيحة الكبرى أن هذا الجهاز يعمل بموجب مولد نووي والخوف هو من تسرب النشاط الاشعاعي للبلوتونيوم الذي يحويه الجهاز إلى نهر الغانج والآثار العالمية التي من الممكن أن يتركها على صعيد العلاقات والاتفاقات الدولية.

دائرة علميات خاصة في المخابرات الأميركية

* من المعروف لقراء كتب المخابرات أنه يوجد في كل أجهزة مخابرات العالم أقسام متخصصة يشكل كل قسم منها عالماً مستقلاً بكل عناصره وموارده وأساليبه. وإذا كان العلم الحديث قد أوجد تقنية متقدمة في التعامل مع الترجمة الفعلية لتنفيذ مهام هذه الأقسام فإن دائرة العمليات الخاصة في C.I.A كمثيلها في كل دوائر المخابرات العالمية قد سخرت هذه التقنيات العلمية المتقدمة في سبيل تحقيق أهدافها ومرؤوسيها.

فكثير من الوسائل قد أبدلت. والعديد من حوادث القتل قد صيغت تقارير حوادثها بأنها حوادث انتحار أو قضاء وقدر أو مصادفة أو هبوط في القلب الخ.... وذلك لأن أصول اللعبة الحديثة في التخلص من الخصم تقتضي نظافة الأسلوب

والأداة، وإن كان بالنهاية القتل هو القتل، هذا فضلاً عن أن أصول اللعبة المخابراتية أضحت في العالم والعلم الحديث تقتضي أن يكون هناك اتفاق جنتلمان غير مكتوب بين أطراف الصراع الاستخباري للدول المتصارعة، ينص على وجوب الحفاظ على «شرف المهمة» وتجنب الأعمال القذرة كالاغتيال والتصفية الجسدية لأي منهما والرابح هو في النهاية من ينجح في إحراز أكبر قدر من الأهداف دون أن يدخل مرماه أي هدف.

دائرة العمليات الخاصة في المخابرات المركزية الأميركية تتلخص بكلمتين (التدريب والقتل).

التدريب عبر العديد من القواعد والمراكز والمعسكرات التي جهزت خصيصاً من أجل تدريب عملاء وجيوش المخابرات، وكذلك تدريب القوى الصديقة. ومراكز التدريب هذه منتشرة في العديد من المحطات في الدول الصديقة، وتشمل وسائل التدريب القدرة على تحمل الصعاب، وكذلك الوصول إلى لياقة بدنية عالية فضلاً عن تعلم واستيعاب كل أنواع الأسلحة الحديثة، الخفيفة منها والمتوسطة، والتي عادة تستعمل من أجل تحقيق المهام المختلفة للعناصر المدربة.

القتل بواسطة جهاز الدعم التقني، ومهمة هذا الجهاز تتلخص بالوصول لأفضل طرق القتل الفردية والجماعية دون ضجيج أو ترك أي أثر للفاعل.

من هنا أوجد داخل هذا الجهاز معاهد بحث علمية وكيماوية يعمل بها العديد من العلماء، وبصورة سرية مطلقة، مهامهم تنحصر بإعداد التجارب والوصول إلى اكتشافات حديثة لاستعمالات المواد الكيماوية للتخلص من الهدف بصورة متقدمة علمياً ودون أي إزعاج ممكن أن يسبب لهم.

ولإلقاء نظرة واضحة على حقيقة عمل هذا الجهاز، نشرت إحدى مجلات شيكاغو مقابلة أجرتها مع أحد هؤلاء العلماء الذي رفض بالطبع ذكر اسمه لخوفه على حياته. وهذه بعض أجوبته:

س ـ قلت إنك خبير في مجال (السموم) للمخابرات الأميركية فأي نوع من العمل كان ذلك؟

ج - بناء لأوامر المخابرات الأميركية تم ابتكار طرق ووسائل من أجل القيام بعمليات الإغتيال وبشكل عام فإن كل شيء عملته كان مخططاً لقتل الناس (أعداء المخابرات الأميركية حسب زعمهم).

أما التقنيات الرئيسية الثلاث التي عملت بها فقد كانت: السموم. المتفجرات الأسلحة النارية.

س - هل يمكنك أن تعطينا (مثالاً) على سلاح يستخدم فيه السم لصالح المخابرات الأمريكية؟

ج - نعم ففي وقت سابق، جاء الرجل الذي كان يعتبر بمثابة صلة الوصل بيني وبين المخابرات الأميركية وأخبرني أن لديه مشكله يريد حلاً لها.

وهم دائماً يضعون هذه الأمور بمثابة افتراضات كأن يقولون مثلاً: «لنفترض أنك تريد قتل إنسان ما، وهو على متن طائرة ركاب مدنية دون أن تلفت انتباه الآخرين فماذا تفعل..؟

حسناً في مثل هذه الحالة يكون الجواب: «بالسم. أعطيكم عند ذلك محلولاً يخترق جسم الإنسان. بإمكانك أن تخلط هذا المحلول بأي شيء تريد، وتكفي قطرة صغيرة من هذا المحلول السام توضع على ملابس أو حذاء الشخص المراد التخلص منه. وبعد ذلك تفعل المادة السامة مفعولها وتعتبر هذه الأداة الأساسية لهذا النوع من العمل.

س - هل قمت بتقديم هذه الخبرة للمخابرات الأميركية.

ج - لقد استخدمت لصالحهم ذلك، وفي البداية وضعت سم الأفعى المجفف. ولكن هناك أفعى أخرى تسمى الأفعى المجلجلة قمت في النهاية باستخدام سمومها التي تسبب نزفاً داخلياً، ولا تتم الوفاة النهائية إلا بعد عدة أيام. ومن الصعوبة بمكان الحديث عما تحدثه هذه السموم من الألم.

س - لقد قلت إن هذه الأعمال يعهد بها إليك على سبيل أنها مجرد افتراضات فهل حدث ذات مرة أن أعطيت لك مهمة محدّدة؟

ج - مرة واحدة لم يقل لي فيها مندوب المخابرات كلمته المألوفة (لنفترض)، وكان

ذلك حينما أراد أن يميت رجلاً أسود يقود سيارة من طراز جاغوار. فقد كان على هذا الرجل الأسود أن يموت في ساعة معينة. وذلك بعد مرور خمس دقائق على انطلاقه بسيارته. أما سبب ذلك فلم أكن أعرفه. وما كان يجب عليّ معرفته هو وزنه، وهل هو أعسر وأشياء أخرى من هذا القبيل. وبالفعل فإنهم احضروا لي مقود سيارة جاغوار، وصورة لا يبدو فيها إلا يدي الرجل الأسود وهما على المقود، ومن هنا علمت أنه رجل أسود، وأعددت لهم السم المناسب وطلبت منهم أن يدهنوا به مقود السيارة حيث يضع يديه عادة. وكنت حريصاً على أن يبدأ مفعول هذا السم، وأن يموت الرجل في الوقت المناسب، أي بعد مرور خمس دقائق على بدء سيره بالسيارة، وعلى ما يبدو فإنهم كانوا مسرورين من عملي.

س ـ لقد تحدثنا عن الأسلحة الكيميائية، فهل قمت بتصميم أدوات أو أسلحة تقذف هذا النوع من السموم؟

ج ـ ليس كذلك تماماً، وإنما صممت أشياء أخرى. جاء مندوب المخابرات المركزية الأميركية وقال لي: لنفترض أنك في وضع لا يمكنك من إدخال أي أسلحة نارية إلى غرفة مليئة بالرجال؟ كيف (ستعتني) بهم؟ فسألته: هل تريدهم أن يموتوا؟ هل تريدهم أن يصابوا بالعمى لفترة مؤقتة؟ هل تريد اعتداءً بيولوجيا؟

وهم دائماً يحبون هذا المصطلح، وهنا قال لي رجل المخابرات: إننا نريد أن يموتوا جميعاً بالتأكيد، لكن المشكلة هي أن عددهم كبير وهم في غرفة متوسطة الحجم. وشرعت بعد ذلك بالتخطيط لأقذر الأعمال التي قمت بها في حياتي والتي أسميتها بـ (طاقم الدناءات). وكان عملي هذه المرة يتلخص بابتكار قنبلة صغيرة جداً تكون بحجم خرطوشة من عيار / ١١،٤/ ملم، ومملوءة بمئات من القطع الفولاذية المغطاة بالسم، وما عليك إلا أن تلقي بهذه القنبلة ـ الخرطوشة حتى تنفجر. وقد نفذت لهم طلبهم كالعادة لأني قد انغمست كلياً في العمل الدنيء لصالحهم ولا أستطيع الانسحاب خوفاً من أن ينقلب السحر على الساحر، ويقتلوني بنفس الطريقة السامة التي أخدمهم بها.

الفصل الثالث عشر

الحرب المدمرة في الباسفيك وعمل المخابرات

* في ذات الوقت الذي أطلق فيه فوشيدا من على متن المدمرة - ٢ كاجي قرب بيرل هاربور برقيته الشهيرة تورا تورا تورا، ليعلن نجاح المباغتة، وإله الحرب يبتسم للقوات المسلحة اليابانية. لقد حطمت هذه القوات الاسطول الأميركي. وبعد ستة أشهر من الانتصارات الباهرة، كانت إمبراطورية الشمس المشرقة تشغل عشر مساحة الكرة الأرضية، وكانت أعداء اليابان قد استؤصلوا من البحار، من رانغون حتى جزر الجنوب. كانت تلك أسرع غزوة في تاريخ البشرية تقودها اليابان.

تحققت أهداف اليابانيين من الحرب. لم يكن وارداً اجتياح الولايات المتحدة، إنما الحصول على خيرات وموارد المناطق المحتلة والاحتماء وراءها، بحيث تكون خطاً عازلاً بينها وبين أي ضامر للشرّ. لكن القيادة العليا اليابانية، وقد أثملتها الانتصارات، طمعت بالمزيد، لا سيما بعد أن رأت أن ما كان متوقعاً أن تخسره من قواتها لم يحصل. فقد بقيت هذه القوات سليمة وبتزايد مستمر عدداً وعدّة. كما أنها فضلت توسيع عمق الحزام العازل على الإبقاء عليه وإن مدججاً بالسلاح. لذلك وضع القادة اليابانيون موضع التنفيذ مخططين طموحين. الأول: الهجوم على بورت مورسي، وهي مدينة تقع في الطرف الجنوبي الشرقي لغينيا الجديدة، على بعد ٦٥٠ كلم فقط من أوستراليا. والثاني يتركز على ميدواي وهي جزيرة مرجانية صغيرة تقع وسط الباسيفيك، وتصلح نقطة حراسة لجزر الهاواي.

المخطط الثاني هذا كان يحتوي على قسمين: الأول يرمي إلى الاستيلاء على ميدواي، ذات الموقع الستراتيجي، باعتبار أن من يحتلها يشرف على الباسيفيك الأوسط وبالتالي على طرفي حوض المحيط. والثاني: وهو الأهم، يقضي باجتذاب ما تبقى من الأسطول الأميركي إلى كمين بغية الإجهاز عليه. كان الأميريال أيزوروكو ياما موتو، القائد الأعلى للأسطول الياباني الموحد، يسعى لحرب خاطفة، مدركاً أن

الإطالة في أمد الحرب ليس في مصلحة اليابان لأن القوة الصناعية الأميركية تتعاظم باستمرار، ولا يجوز الانتظار حتى ترمي هذه القوة بثقلها في الحرب. كان يدرك أيضاً أن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تترك ميدواي لقدرها، كما فعلت بغويام وويك. وعندما خرج أسطول الباسيفيك الأميركي ليدافع عن ميدواي، انقض عليه ياما موتو وأباده. هذه الكارثة الجديدة أفقدت الأميركيين كل أمل بالانتصار. لذلك تخلوا عن المجابهة وتركوا اليابان سيدة الباسفيك الغربي.

كان اليابانيون يجهلون حتى تلك الساعة أن الولايات المتحدة تملك سلاحاً سرياً يمكنه أن يبدل في توازن القوى في الباسيفيك. كان هذا السلاح موضوعاً تحت الأرض في المبنى الإداري للوحدة البحرية الرابعة عشرة في بيرل هاربور. كان محمياً بأبواب مصفحة بالحديد من قبل وحدة المخابرات الميدانية التابعة لأسطول الباسفيك.

منذ شهر أيار - مايو ١٩٤١ والنقيب البحري جوزيف روشفورت على رأس هذه الوحدة، التي كانت مهمتها محصورة بالتقاط الرسائل السرية اليابانية وفك رموزها، وإرسال محتوياتها إلى قيادة الأسطول. ثلاثة رجال، بينهم روشفورت نفسه، كانوا يؤمنون العمل. أما الباقون، وعددهم يقارب الثلاثين، فكانوا يشكلون جماعات المتدربين والمعاونين والكتبة والمترجمين، ومنذ آب - أغسطس ١٩٤١ـ أصبح هذا المركز يعمل سبعة أيام في الأسبوع، كما إنه منذ تشرين الأول - أكتوبر أصبح يعمل (٢٤) ساعة على (٢٤).

بعد الهجوم الناجح على بيرل هاربور، تضاعف العمل في هذه الوحدة وأصبح عدد العاملين فيها يناهز مئة وعشرين. وقد اضطر عدد كبير منهم إلى البقاء ثلاثة أشهر متواصلة في الأقبية وذلك منذ بداية الهجوم، لم تكن نشاطات هذه الوحدة دون فائدة، حتى في أصعب الظروف. فقد ساهمت في المساعدة على توجيه الطيران الأميركي في عمليات استنزاف محدودة أدت إلى إغراق بعض قطعات الأسطول الياباني، كما ساهمت في وضع حد لغزو اليابانيين لأوستراليا، ولكن دون أي تأثير على الخطط اليابانية الموضوعة لكسر شوكة أميركا.

خلال تلك الأيام المحمومة من ربيع عام ١٩٤٢، كان على المخابرات بصورة

عامة، ووحدة المخابرات في بيرل هاربور بصورة خاصة، أن تقدم مجهودات مضاعفة، ولما كانت السرعة عنصراً أساسياً بالنظر لقبض الرسائل الغامر ولأهمية الظرف ودقته، كان روشفورت ومعاونه داير يعملان، كل منهما وبالتناوب، لمدة اثنتي عشرة ساعة متواصلة في اليوم، لم تكن كل الرسائل تحلل، بل البعض منها فقط. واختيار هذا البعض كان يتم بناء لعناصر عدة، منها عنصر الفراسة التي اكتسبها العاملون في الوحدة بالمراس والخبرة. بعد الانتهاء من فك الرموز والترجمة والتوضيب، كانت الرسائل تودع القيادة العليا دون إبطاء، والجدير بالذكر، أن الكشف لم يكن دوماً كاملاً. فقد كانت هناك ثغرات عصت على الجميع. هذه الثغرات، كان إملاؤها يتم من سياق المعنى.

في ٥ أيار ـ مايو سنة ١٩٤٢، صدر عن القيادة الإمبراطورية اليابانية العليا الأمر رقم (١٨) إلى البحرية، وهذا نصه: «سيهاجم القائد الأعلى للأسطول الموحد بالتنسيق مع الجيش، وسيحتل النقاط الاستراتيجية في الجزر الأوليوتية الغربية وجزيرة ميداواي». وعلى هذا، فإن أكثر من مئتي سفينة حربية ستشترك في المعركة، من بينها حاملات طائرات ومدمرات وغواصات وكاسحات الغام. لقد نشطت الاتصالات بالراديو، كلها تتعلق بالتحضير للمعركة، ومعظمها يصدر من قاعدة كور الكبرى ويصب فيها. كانت الخطة تقضي بالتجميع في خليج هيروشيما، وبالخروج في خمس مجموعات رئيسية خلال أربعة أيام وفي مواعيد محددة بدقة. وكلما اقترب الموعد، تزاحمت الرسائل في الجو، مطلقة الأوامر، لا سيما أوامر ياما موتو الذي اتخذ مقراً عاماً له السفينة ياماتو، أكبر قطعة بحرية في الحرب العالمية الثانية.

تأخر موعد وضع نظام الشيفرة الياباني الجديد موضع التنفيذ شهراً آخر، بعد أن كان قد أجل في السابق. فقد كان مقرراً له أول نيسان ـ إبريل ١٩٤٢. ويبدو أن ازدحام الغزوات وتلاحقها كانا في أساس هذا التأجيل. كما قد يكون اليابانيون قد اطمأنوا إلى عدم كشف نظامهم الراهن من قبل الأعداء، باعتبار ما حققوه من انتصارات لم يروا فيها أيّ تصدّ ينبئ بخلاف ذلك. والحقيقة أن الحلفاء تمكنوا من كشف معظم رموز الشيفرة اليابانية، وأن اليابانيين كانوا سيشلون حركتهم لو أنهم وضعوا شيفرتهم الجديدة في أول أيار ـ مايو في التداول. ولو تم هذا التبديل، لتغير مجرى الحرب وربما مجرى التاريخ. ذلك أن الأسابيع التي أبقى اليابانيون فيها على

شيفرتهم القديمة ولم يربكوا العدو بالتغير، كانت أسابيع حاسمة تقرر فيها الكثيرمن اتجاهات الخطط في هذه الفترة الأخيرة من سنوات الحرب.

بسبب هذا التأخير، الذي اعتبر نوعاً من العجز، تمكن الحلفاء من كشف كل ما وضعه اليابانيون وهيأوه لمعركة ميدواي، وهكذا، استدعى القائد الأعلى الأميركي لأسطول الباسيفيك حاملتي الطائرات هورنت وانتربرايز من رأس بحر المرجان، كما استدعى الحاملة بورك ـ تاون، وذلك عندما استنتج، من خلال الرسائل المتراكمة على مكتبه طوال الأسابيع الأولى من شهر أيار ـ مايو، أن هجوماً واسعاً يجري تحضيره. لكن أين ستكون المعركة وما هو هدفها؟ معلومات المخابرات. توقعت غارة يابانية، على دوتش هاربور في الفترة ما بين ٣٠ أيار ـ مايو و١٠ حزيران ـ يونيو. أما نيميتز، فكان يعتقد أن الهدف هو ميدواي، في حين أن الأميرال كينغ، قائد العمليات البحرية، كان يتوقع من واشنطن، هجوماً على أواهو.

كان ياما موتو يعي تماماً أهمية عنصر المباغتة، كان يعرف أن الولايات المتحدة لا يمكنها الدفاع بفعالية عن كل المواقع. يضاف إلى ذلك ما يعلمه من عدم تكافؤ ميزان القوى. فلدى اليابان إحدى عشرة مدمرة وخمس حاملات طائرات وستة عشر طراداً وتسع وأربعون مقاتلة، في حين لم يكن في الجانب الأميركي سوى ثلاث حاملات طائرات وثمانية طرادات وأربع عشرة مقاتلة، دون أي مدمرة.

يوم ٢٠ أيار ـ مايو، صدر عن ياما موتو أمر ميداني يوضح كل التفاصيل التكتيكية للهجوم على ميدواي. وقد تبين من هذا الأمر أن الهجوم سيبدأ في ٣ حزيران ـ يونيو بعملية إلهائية على الجزر الأليوتية بهدف اجتذاب جزء من القوة الأميركية المتمركزة في ميدواي. بعد ذلك، أي في السادس من الشهر، يبدأ عند الفجر الهجوم الكبير على ميدواي. عندها، تكون القطعات العائدة من الجزر الأليوتية هدفاً لصيد ياباني ثمين. وبعد الحصول على هذه الطرائد وإغراقها في مياه المحيط، تكمل القوة اليابانية المهاجمة طريقها لتجهز على ما تبقى من وحدات متمركزة في ميدواي. وبهذا تكون اليابان قد أنهت ما بدأته في ٧ كانون الأول ـ ديسمبر في بيرل هاربور، وأمنت إشرافاً كلياً على كامل الباسيفيك مهددة جزر الهاواي. كما تكون قد ربحت كامل الحرب بشكل سلمي.

لكن ما غاب عن بال ياماموتو هو أن أمره الميداني هذا قد كشف من قبل مخابرات الحلفاء. صحيح أنه كان طويلاً ومتضمناً بعض الثغرات، لكن أجزاءه المترجمة كانت تصل القيادة العليا الأميركية تباعاً وفور إنجازها.

غير أن مكان وزمان الهجوم ظلا موضع شك. فالواقع أن ذكر تاريخ وموقع الهجوم دوّن في الرسائل حسب نظام مخالف متعدد الأبجديات. ولم تفلح المحاولات الحثيثة في جلائهما، لذلك، فضل رجال المخابرات الأميركيون تجاوزهما، والتركيز على الجوهر. غير أن هذا الموقف اعتمد على القادة العسكريين الذين انكبوا على استنتاج توقيت المعركة ومكانها. بالنسبة للتوقيت فإن سرعة التحركات العسكرية اليابانية سواء على الصعيد البحري أو على الصعيد الجوي مكنت هؤلاء القادة من معرفته وإن على وجه التقريب.

أما بشأن السؤال أين ستكون المعركة، فإن الجواب عنه سرعان ما استنتج. لقد تضمنت الرسائل المتبادلة والعائدة لموضوع المعركة نقاط ارتكاز. هذه النقاط شكلت، عندما جمعت، خريطة واضحة. والخريطة هذه أظهرت أن الهدف الأول المقصود هو ميدواي.

لكن كبار القادة لم يكونوا مرتاحين كل الارتياح لمثل هذه الخريطة التي رسمت من خلال مثل هذه الاستنتاجات. ومرد هذا الشك وذلك هو أن مصير كل من الأسطول الأميركي والحرب بكاملها مرتبط بما يدبر في الخفاء لدى الطرف الآخر. لذلك كان اليقين هو المطلوب. وبغية الوصول إلى اليقين لا بدّ من حيلة، قرر روشفورك أن يلعب ورقة. أوعز إلى المخابرات الأميركية أن تبث رسالة مكشوفة إلى بيرل هاربور بأن مياه الشفة في ميدواي مقطوعة بسبب عطل أصاب محطة التكرير. انتظر رجال المخابرات ليروا ردّة الفعل اليابانية. بعد يومين، التقطوا، في جملة ما التقطوا من رسائل يابانية سرية، رسالة تفيد أن مياه ميدواي مقطوعة. هذه الرسالة فضحت نية اليابانيين في احتلال ميدواي، وإلا لما كانوا أوردوا نبأ انقطاع المياه فيها في رسالة لسفنهم المتحركة نحوها وسط المحيط.

في ٢٧ أيار ـ مايو، كان القائد الأميركي نيميتز يعرف عن العملية التي يزمع اليابانيون القيام بها بقدر ما يعرفه قادة السفن التي ستقوم بالهجوم. لكن النقطة المتبقية ظلت التحديد الدقيق لتاريخ البدء.

صحيح أن الاستنتاجات أجمعت على أن هذا التاريخ سيكون يوم ٣ حزيران ـ يونيو. لكن الاستنتاجات، وإن كانت ملامسة لليقين، فالتأكيد الجازم شيء آخر.

وهذا الآخر هو الآن المطلوب.

في مكاتب المخابرات الأميركية الواقعة تحت الأرض، أصبحت الرسائل الملتقطة نادرة بعد أن أسكت اليابانيون الراديو الخاص بهم، تمويهاً لتحرك أسطولهم وتضليلاً للعدو. هذا الانخفاض في عدد الرسائل أتاح لكل من روشفورت ورايت التفرغ بعض الشيء، غير أنهما، بدلاً من أن يرتاحا، عمدا إلى مراجعة ما استعصى عليهما من رموز في رسائل سبق وترجمت. وبينما هما في هذه الحال، إذ يأتي رايت إلى روشفورت مؤكداً له أنه وجد ما ينشد. أشار عليه روشفورت أن يبلغ رؤساءه، لا سيما نيميتز ففعل، وهكذا أصبح نيميتز يعرف أن اليابانيين سيهاجمون الجزر الأليوتية في ٢ حزيران ـ يونيو، ومن ثم سينتقلون إلى ميدواي في اليوم التالي. هنا حصل الارتياح. فالتاريخان لا يعترض صحتهما أيّ شك.

لم يعد يبقى أكثر من أيام على اليوم الموعود. لقد وصلت حاملتا الطائرات هورنت وانتربرايز إلى بيرل هاربور. وفي اليوم التالي، كانت يورك تاون تدخل متثاقلة إلى المرفأ. فقد أصيبت بقذيفة وهي بحاجة إلى إصلاح. وإصلاحها يحتاج، في الظروف العادية، إلى ثلاثة أشهر. لكن نيميتز أعطى الأوامر المشددة بأن يجري إصلاحها في أقصى سرعة ممكنة. وقد تم ذلك، بوقت لم يتعد يومين.

في ١٧ أيار ـ مايو، أبرق إلى الوحدات البحرية المختصة يعلمها بأن هجوماً على ميدواي يمكن أن يحصل في القريب العاجل، ويعطيها التعليمات اللازمة للتهيؤ للهجوم المضاد. ذلك أن عنصر المباغتة، الذي وضعه العدو في مقدمة اعتباراته، من شأنه أن يُجهض بهجوم مباغت سابق، تكون من نتائجه ضعضعة صفوف العدو عن طريق الضربه الأولى. هنا، يقتضي الاعتراف بفضل المخابرات، التي لولاها لما استطاعت القوات الأميركية التعرف على خطط اليابانيين وبالتالي، من وضع الخطط المضادة لإفشالها.

اتخذت حاملات الطائرات الثلاث مواقعها في ٢ حزيران. في هذا الوقت، كان

اليابانيون قد انتهوا من وضع النظام الجديد لشيفرتهم موضع التنفيذ. وبذلك أغلقوا أمام عدوهم النافذة التي كان يرى النور ويتنشق الهواء من خلالها. لكن ما كشف قد كشف وما وضع من خطط مضادة قد وضع.

بناء على الخطة المتوقعة، بدأ اليابانيون بالهجوم على الجزر الأليوتية، وبغية حماية قواته في ميدواي وكذلك مناوشة اليابانيين، أرسل نيميتز بعض قطعاته إلى موضع المعركة في تلك الجزر، وسلم قيادتها للأميرال روبرت روبرت ثيوبالد. كان هذا يظن، أنه شأنه شأن كثير من الضباط، أن اليابانيين ربما ضللوا الأميركيين برسائلهم التي ضمنوها خططاً مزعومة بهدف استجلاب قواهم لمواقع غير المواقع الفعلية للمعركة. وقد ساهم في هذا الظن ما التقطته أجهزة الراديو الأميركية، ذات يوم، من أوامر أعطاها أحد القادة اليابانيين إلى رجاله في رسالة مكشوفة بإرسال بَريده بعد (٥) حزيران - يونيو إلى ميدواي. يضاف إلى ذلك أن نيميتز نفسه حذر رجاله، في أحد اجتماعاته بهم، من أحابيل العدو قائلاً: «اليابانيون خبراء في ممارسة فنون التمويه والتضليل». كل هذا جعل ثيوبالد لا يأخذ في الاعتبار كل ما أعطته المخابرات من استنتاجات وتأكيدات. لقد وزع قواته بحيث يتصدى لإنزال توقعه في دوتش هاربور. لكن خيبة أمله كانت كبيرة كذلك خسائره. لم يصدق ظنه بل ظن المخابرات. ولم يجر اليابانيون عملية إنزال في دوتش هاربور، بل قصفوها من بعد. وبعد أن حطموه فيها ما حطموا، وكان جسيماً، انسحبوا دون أن يزعجهم أحد.

في صبيحة اليوم نفسه، انطلقت طائرة استكشاف أميركية من ميدواي لتفتش عن سفن العدو. لكن الضباب كان كثيفاً، مما حجب الرؤية عن الطائرة وجعل القصف المدفعي المنطلق من شواطئ ميدواي دون فاعلية، على الرغم من وجود حاملات الطائرات اليابانية الأربعة أكاجي، ركاغا، هيريو وسوريو قبالة الجزيرة وسط الضباب. في هذه الأثناء، انطلقت الطائرات اليابانية من على حاملاتها الأربع في غارة أولى على ميدواي. لم تحقق هذه الغارة هدفها. لذلك، أعطت إشارة إلى قواعدها في الحاملات، تبلغها أنها ستقوم بغارة ثانية.

حتى هذه اللحظة، لم يكن اليابانيون قد شاهدوا أية قطعة بحرية أميركية. ربما لأنهم لم يسعوا إلى ذلك ليقينهم بعدم وجودها. كان قائد الحملة الياباني، ناغومو،

قد قام بتجميع معظم طائراته في بيرل هاربور منتظراً المكان الذي سيتحرك إليه العدو لينقض عليه، بعد خمس عشرة دقيقة، تلقى معلومات جعلته مشدوهاً:

«شوهدت قطع بحرية للعدو في الطرف الشمالي الشرقي»، أمر غير متوقع، من شأنه تعديل الخطة. قام ناغومو فوراً بالغاء أمر أعطاه منذ دقائق لأسطوله بالتهيؤ للضرب. وأعطى أوامر أخرى عاجلة بإبدال القنابل الحارقة، التي وضعت لتوها في فوهات المدافع، بقنابل طوربيد وقنابل خارقة، سبق أن نزعت منذ قليل، لم يكن هذا العمل قد انتهى عندما كانت الطائرات العائدة من ميدواي تحط تمهيداً لإطلاق سواها.

في هذه اللحظة، وبينما الطائرات كلها جاثمة على الأرض تتزود بالوقود والقنابل وسط زحمة الأرصفة والمستودعات، إذ بالطائرات الأميركية تصل في دفعات ثلاث من على حاملات الطائرات هورنت وانتربرايز ويورك تاون، فاستقبلت على الفور بطائرات زيرو اليابانية وبالدفاعات الجوية. كانت الخسائر، خلافاً للمتوقع، جسيمة، لم تستطع طائرة منها تسجيل أية ضربة مباشرة. واعتبرت هذه اللحظة أعظم اللحظات في ما حققه اليابانيون من انتصارات طوال الحرب العالمية الثانية. حتى أن ضباطهم اعتبروها اللحظة الحاسمة في معركة ميدواي وبالتالي، في وضع حدّ للحرب.

لكن في غضون ست دقائق، انقلبت الموازين. لقد انقضت الطائرات العائدة من معركتها الفاشلة على حاملات الطائرات اليابانية أكاجي وكاغا وسوريو الجاثمة بأمان في عرض المحيط (أغرقتها كلها وأغرقت معها ما كان عليها من طائرات) واعتبرت هذه العملية ثأراً لبيرل هاربور.

غير أن الخسائر والحرب، كرّ وفرّ، عادت وتوازنت. أغرق اليابانيون حاملة الطائرات الأميركية يورك تاون، بعد أن كان الأميركيون قد أغرقوا الحاملة اليابانية الرابعة هيريو. كل ذلك في يوم واحد. في اليوم التالي، ألغى ياماموتو أوامره بالهجوم على ميدواي وانتقل إلى الدفاع. كانت تلك اللحظة تاريخية بالنسبة للقادة اليابانيين. فقد تراجعوا عن كل خططهم بالتوسع والغزو ووضعوا حداً لطموحاتهم المهووسة. وما قاله يوماً ياماموتو إلى الأمير كونوي بأن أمل اليابان بالانتصار يتلاشى

كلما طال أمد الحرب صحيح أمام قوة أميركا الصناعية المتعاظمة يوماً بعد يوم، إمكانيات صناعية يابانية يدبّ فيها الوهن يوماً بعد يوم. لذلك كله، يمكن القول إن قدر اليابان رسم في ٤حزيران يونيو، يوم معركة ميدواي الشهيرة.

«في ميدواي هذه، كانت المخابرات هي المنتصر الأكبر». هذا ما قاله نيميتز في ما بعد. وأضاف: «حاول اليابانيون مباغتتنا فبوغتوا هم». أما الجنرال مارشال فقد كان أكثر وضوحاً عندما قال: «بفضل المخابرات، تمكنت قواتنا من انتظار العدو في الموقع المناسب، ولولاها لبقيت هذه القوات غافلة على بعد مسافات شاسعة من الهدف المرسوم للضربة، كل هذا يعني أن رجال المخابرات كانوا الأدوات التي صنعت قدر أمة، لا في طرف واحد، بل في الطرفين معاً. كانت معركة ميدواي بداية لأفول نجم امبراطورية الشمس المشرقة.

كما كانت للبحرية مخابرات كذلك كان للجيش مخابراته الخاصة به، مع رجلها البارز سبنسراكين، الذي كان يعمل تحت إمرة ماك أرثر. عملت هذه المخابرات دون توقف طوال الحرب. لا سيما في سنواتها الأخيرة. وأحياناً كانت مراكزها المنتشرة في كثير من الأمكنة عرضة لهجمات من العدو. كما حصل في أواخر عام ١٩٤٤، عندما هاجمت قوة يابانية من المظليين مركزاً من هذه المراكز لاعتقادها أنه مركز قيادة، لكثرة ما رأت على سطح بنائه من هوائيات. ومرة أخرى، سمع بعض العاملين في مركز للمخابرات في كوخ منعزل طلقات نارية غزيرة ظنوا أنها تستهدفهم. حملوا بندقياتهم وتهيأوا للمعركة التي لم تجر، إلا أنهم تحسباً لكل مداهمة، قاموا بإحراق جميع المستندات الموجودة في حوزتهم.

المخابرات اليابانية

* أما عن المخابرات في الطرف الياباني، فتاريخها، هي أيضاً، حافل. لقد بدأت البحرية الامبراطورية بالاهتمام بها منذ عام ١٩٢٥، وذلك بإنشائها «القسم الخاص»، الشديد السرية، ضمن الفرقة الرابعة، فرقة الاتصالات، التابعة للقيادة العليا للبحرية. كان هذا القسم يضم ستة عناصر، وكان مركزه في وزارة البحرية في طوكيو. من ألمع العاملين فيه، لا يزال يذكر اثنان: ضابط البحرية هيدايا موريكاوا،

ابن أخت الأميرال كانجي كاتو، القائد العام، والملازم كامنسوجي، الذي كان ضابط الشيفرة في السفينة الحربية ناغاتو.

بدأ هذا الفريق الاهتمام بالشيفرة الصينية إثر حادثة منشوريا، بصورة خاصة، وبعد الاستيلاء على شانغهاي عام ١٩٣٢، عين موريكاوا رئيساً لوحدة استخبارات ملحقة بالأسطول الثالث. وقد بدأ عمله بفك شيفرة رسالة صينية تظهر نية الصينيين باستخدام قواتهم الجوية للهجوم على تجمعات عسكرية يابانية. لكن هؤلاء بدأوا الضربة الأولى محطمين معظم طائرات تشانغ ـ كاي ـ تشيك في هانغ ـ تشو.

لكن «القسم الخاص» لم يتوصل إلى اكتشاف أسرار شيفرة البحرية الأميركية ولا حتى شيفرة وزارة الخارجية الأميركية. كما لم يتوصل إلى فك رموز شيفرة ياردلي عندما عمل في خدمة تشانغ ـ كاي ـ تشيك، إلا في ظروف استثنائية ملائمة. وهذا ما جرى في ٢٦ شباط ـ فبراير سنة ١٩٣٦ عندما ثارت فرقتان عسكريتان في طوكيو واغتيل عدد من رجال الدولة في حركة انقلابية. في ذلك الظرف، كثرت الرسائل اليابانية واكتشف من خلالها بعض المفاتيح. كما حصل الشيء نفسه في الجانب الياباني، حيث استطاعت المخابرات قراءة معظم البرقيات الأميركية، بما فيها برقيات الملحق البحري في طوكيو. بعد ذلك بدلت أميركا أنظمة شيفرتها، وبدا، مرة أخرى، أن المخابرات اليابانية دون مستوى المهمات الملقاة على عاتقها. غير أن عملية تجسس خاصة عدلت الموقف بعض الشيء. ففي أواخر عام ١٩٣٧. قام موريكاوا، مصحوباً بفاتح أقفال ومصور وبعض المراقبين، بتصوير بعض هذه الأنظمة في القنصلية الأميركية في كوبا بعد عملية اقتحام للقنصلية.

خلافاً لرجال المخابرات الأميركيين الذين كشفوا معظم أنظمة الشيفرة اليابانية بما فيها «السرية جداً» فإن زملاءهم اليابانيين فشلوا فشلاً شبه تام في محاولاتهم كشف ما يمكن تنويرهم من الرسائل الأميركية. حتى أنهم لم يحاولوا قراءة البرقيات ذات الطابع المعقد والمتبادلة بين القيادات العليا.

لقد ركزوا جهودهم على ثلاثة أنظمة بسيطة، ومع ذلك، فإنهم لم يسجلوا، في هذا النطاق، إلا تقدماً محدوداً.

غير أن الجدير بالذكر هو أن «القسم الخاص» الياباني نجح في قراءة الشيفرة

المستعملة في البحرية التجارية للحلفاء. لقد توصل إلى كشف ما يقارب نصف الرسائل الملتقطة. وقد ساعده الألمان، من خلال ما إكتشفوه في الطراد أتلنتس، الذي سبق وأغرقوه، لهذا، تمكن اليابانيون من الحصول على نتائج جيدة في قراءتهم للنظام التجاري الحليف الذي كان يعتبر معقداً نسبياً. غير أن المعلومات المتبادلة بواسطة هذا النظام كانت شحيحة، كما كانت تصل متأخرة، مما قلل من أهميتها.

ركز «القسم الخاص» اهتمامه على «نظام الأشرطة» الذي كانت تستعمله البحرية الأميركية لمراسلاتها العادية. وقد استطاع هذا القسم كشف أسرار الجهاز الخاص بفك شيفرة هذا النظام. غير أن الصعوبة التي اصطدم بها كانت تكمن، كما ذكر في ما بعد ساتاك، في أن «كل تحليلنا كان يرتكز على فرضيات. لا شيء كان محدداً تحديداً دقيقاً». قد يكون في هذا بعض العذر. فالرسائل الأميركية المتبادلة في الجو وتحت الماء كانت غزيرة ومتنوعة، مما كان يربك أيّ جهاز مخابرات في أيّ مكان من العالم آنذاك. ناهيك عن الصمت المتعمد الذي كان كثيراً ما يلجأ إليه الراديو الأميركي بهدف التمويه. صحيح أن اليابانيين عرفوا مسبقاً أن الأميركيين يتهيأون لعملية إنزال في الفيليبين، لكنهم لم يستطيعوا تحديد الوقت ونقطة الإنزال. مرة واحدة خلال أربع سنوات، استطاعوا كشف معركة في جزر مارشال، مما أتاح لهم التصدي لها في الوقت المناسب.

لقد تهيأ اليابانيون للحرب مع أميركا، وجهزوا لها كل إمكانياتهم، من هنا، كان ينتظر منهم أن يحققوا نتائج باهرة. لكنهم، على الرغم من النجاحات البارزة في بعض المعارك، فإنهم لمسوا متأخرين نقطة ضعفهم التي عبّر عنها الجنرال سيزو أريسو ـ رئيس مخابرات الجيش الياباني ـ عندما قال للأميركيين في ما بعد: «لم نتوصل إلى معرفة أنظمة الشيفرة الخاصة بكم».

نظرياً، كانت وسائل الترميز اليابانية جيدة. لكنها عملياً كانت متخلفة تخلفها في فك الرموز. وقد يكون سوء التنظيم والتوزيع وإحكام السرية في أساس هذا الفشل.

* في ١٥ حزيران يونيو سنة ١٩٤٤، قامت البحرية اليابانية بعملية ضخمة ضد الأسطول الأميركي الذي كان يساند الإنزال في جزر ماريان. كانت حاملة الطائرات

اليابانية تايهو تحمل شيفرة غاية في السرية، مخصصة لحماية الاتصالات مع قيادة الأسطول الموحد العليا. بعد أربعة أيام من العملية. أصيبت بقذيفة طوربيد مزقت مستودعات الوقود فيها. بعد قليل حدث انفجار في داخلها سببته أبخرة البنزين، وكان من جرائه أن أتلفت جميع أجهزة الإرسال بما فيها الشيفرة نفسها. وقد تراكمت باتجاهها الرسائل المستعجلة الآتية من القيادة العليا، مما كشف سر ما حدث فيما من قبل جميع السفن المتواجدة في المحيط. من بين هذه الرسائل واحدة تشير إلى ملاحقتها من قطعة أميركية. نتج عن كل هذا أن هوجمت حاملة الطائرات المصابة وأغرقت، كما أغرقت معها حاملة طائرات أخرى. وهذا ما أدى إلى فشل اليابانيين في تلك المعركة وبالتالي، إلى فقدهم جزر ماريان.

على الرغم من كشف الحلفاء لأنظمة الشيفرة اليابانية، فإن هؤلاء ظلوا متعنتين في اعتقادهم بأن ذلك لا يمكنه أن يحصل. وتعنتهم هذا، عائد بنظرهم، إلى سببين اثنين: الأول هو صعوبة لغتهم بالنسبة للأجانب، والثاني رفضهم الاعتراف بأن أحداً يمكنه كشف أنظمتهم. كانت هنالك دلائل ميدانية عديدة بأن تصورهم هذا خاطئ، ولكن، وفي هذا بعض الغرابة، لم يتزحزحوا عن موقفهم، واستمروا فيه حتى نهاية الحرب.

سنة ١٩٤٣، حصل حادث أبرز عدم كفاءة المخابرات اليابانية. فقد انشطرت سفينة حربية كان على متنها اثنا عشر رجلاً من بينهم الملازم جون كينيدي، (الذي أصبح رئيساً للولايات المتحدة في ما بعد) سبب الانشطار اصطدامها بطراد ياباني على بعدٍ قليل من الشاطئ، حصل حريق بسبب الانشطار. وهذا ما أتاح لأحد المخبرين الأوستراليين التابعين للبحرية الملكية الأوسترالية، بأن يشاهد السفينة وهي تلتهب وسط الظلام الحالك في ليل الثاني من آب - أوغسطس من العام المذكور. سارع هذا المخبر إلى بث رسالة إلى مركز المخابرات يعلمه فيها بالنبأ. عند ذلك توالت الرسائل من كل الجهات المختصة، وكانت من الغزارة بحيث كان على اليابانيين أن يتنبهوا للأمر ويتعقبوا رجال السفينة الذين توجهوا سباحة إلى الشاطئ وتوغلوا خلف خطوط العدو. لكن الغريب أنهم لم يأبهوا للأمر. وكانت النتيجة أن أنقذ الرجال الاثنا عشر بواسطة فريق أميركي أرسل لنجدتهم وعاد معهم دون أن يشاهدهم أحد. كل ذلك يدل دلالة واضحة على أن المخابرات اليابانية لم تكن

بالمستوى المطلوب في حرب من وزن الحرب العالمية الثانية. ولو كانت خلاف ذلك. لتغير حتماً مجرى التاريخ المعاصر لهذه الحرب.

هذا الواقع، الذي كانت المخابرات اليابانية تتخبط فيه، هو بالمقارنة، عنصر من عناصر النجاحات التي حققتها مخابرات الحلفاء. لقد استطاعت الغواصات الحليفة إغراق ثلثي البضائع التي نقلتها الأساطيل التجارية اليابانية خلال الحرب، مما أدى إلى مضايقات جدية في المحروقات كانت نتائجها معيقة لتحرك العدو في البحر والجو والبر معاً. وبعد الحرب، صرح توجو أن تدمير الأسطول التجاري كان واحداً من أسباب الهزيمة الثلاثة، السببان الآخران هما: الأول استراتيجية قفزة الخروف، التي تقضي بالاستيلاء على بعض الجزر المتباعدة وقطع طرق المواصلات على الأخرى الواقعة بينها، والثاني سرعة العمليات من قبل حاملات الطائرات.

انتصار آخر سجلته المخابرات الأميركية. بعد قليل من وصول ماك آرثر إلى لايت، كشفت المخابرات عن أن أربعين ألف رجل هم في طريقهم لمساندة القوات اليابانية في الفيلبين. تحركت القوات البحرية والبرية، ولم يستطع رجل واحد الوصول إلى لايت. وخلال معركة أوكيناوا، التقطت رسالة تتضمن أمراً إلى المدمرة العملاقة ياماتو، التي كانت حمولتها تبلغ اثنين وسبعين ألف طن والتي يبلغ مدى مدافعها خمسة وثلاثين كيلو متراً، بالخروج لعملية دفاع ملحة، فما كان من السلطات العسكرية الأميركية إلا أن أعطت أوامرها لتحديد موقع المدمرة والانقضاض عليها. وهكذا، تتالت موجات الغارات، الواحدة تلو الأخرى، بدأت هذه الموجات تنقض على الهدف في ٧ نيسان إبريل سنة ١٩٤٥ الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثانية والثلاثين. وقد أغرقت في غضونها أكبر مدمرة في العالم بعد أن توالت فيها الانفجارات، وغرق معها (٢٤٨٨) ضابطاً وبحاراً من أصل (٢٧٦٧) كانوا يشكلون طاقمها.

خلال عام ١٩٤٣ حصلت عملية استخبارية، اعتبرت من العمليات البارزة في هذا المضمار. ففي ربيع هذا العام، توجه الأميرال ابزوروكو ياماموتو إلى رابول في جزر سليمان ليشرف بنفسه على الوضع الذي كان يسوء هناك. لم يكن قد مضى وقت طويل على دحر اليابانيين من غوادا لنكال، وخطوط تموينهم كانت تتعرض

باستمرار لغارات الطائرات الأميركية. جمع ياماموتو أكبر أسطول جوي عرفته الحرب وأطلقه ضد الحلفاء مسجلاً بذلك بعض النجاحات التكتيكية. وبغية التحضير لعمليات هجوم لاحقة. أجرى جولة في شمال الجزر ليرفع من الروح المعنوية وليطلع على حقائق الأمور في آن معاً. قد أخطرت هذه القواعد بالزيارة لتكون مستعدة لاستقبال القائد الأعلى للأسطول الموحد. وفي ١٣ نيسان ـ أبريل ـ الساعة السابعة عشرة والدقيقة الخامسة والخمسين، بثت قيادة الأسطول الثامن رسالة إلى جميع قادة الوحدات المعنية بالخط الذي سيسلكه ياماموتو، وذلك بواسطة الشيفرة التي تستعمل في الأمور السرية جداً.

لكن المؤسف هو أن اليابانيين لم يكونوا على علم بأن شيفرتهم هذه قد كشفتها المخابرات الأميركية منذ زمن. ساهم في ترجمة تلك الرسالة جهابذة المخابرات في ذلك الحين أمثال لاسويل وداير ورايت. . وبعد إتمام عملية الترجمة، اتضحت دقائق ياماموتو بالزمان والمكان بشكل لم يسبق لرسالة مماثلة أن فعلته. والمعروف عن ياماموتو أن مواعيده دقيقة للغاية. فقد كان يطبق برامجه آخذاً بالاعتبارالثواني قبل الدقائق. هذه الرسالة كانت أشبه شيء بإعلان (نعي) لأكبر قائد من قادة العدو. والمسألة التي طرحت هي ما إذا كان من الأنسب القضاء على ياماموتو أم لا، بعد أن هيئت الظروف الملائمة لذلك. لكن من سيخلف ياماموتو وهل سيكون خليفته أكثر صلابة وأعلى مقدرة منه؟.

كان ياماموتو، البالغ تسعاً وخمسين سنة، الشخصية المهيمنة في البحرية اليابانية. هو الذي صنع القوة الجوية الضاربة. وهو الذي يملك الخطط الجريئة للتصدي للعدو. كان في العشرينات يحب أن يقارع الأميركيين في لعبة البوكر. فقد في الحرب اثنين من أصابع إحدى يديه. كانت المخابرات الأميركية تصفه بالموهوب والحيوي والنبيه. أما رجاله فكانوا يحبونه لدرجة العبادة. وقد كتب في ذلك فوشيدا، قائد معركة بيرل هاربور، يقول: «لو أن انتخابات جرت في صفوف ضباط البحرية اليابانية في بداية الحرب لاختيار قائد أعلى للأسطول الموحد، لما اختاروا إلاّ الأميرال ياماموتو، وبأغلبية ساحقة».

استقر رأي لايتون على أن شخصية ياماموتو كانت استثنائية في كل نطاق،

وعلى هذا، فإن غيابه سيضعضع معنويات اليابانيين، سيما وأن هؤلاء يؤلهون قادتهم أكثر بكثير مما يفعله الغربيون. وكان نيميتز يرى الشيء نفسه وربما كان الحقد على (مخطط معركة بيرل هاربور) هو الذي دفعهما إلى مثل هذا الموقف، الذي يأتلف مع رغبة الأميركيين بالثأر للصفعة الموجعة التي تلقوها في تلك المعركة المشؤومة. وقد ساعد على هذه المشاعر السلبية المتأججة، ما قاله ياماموتو مرة بكل استعلاء وصلف من أنه سيذهب إلى البيت الأبيض ليملي على الأميركيين هناك سلاماً يريده هو. كان ياماموتو بالنسبة للأميرال وليم هالسي الشخصية رقم(٣) في لائحة أعداء الولايات المتحدة من اليابانيين، وذلك بعد هيروهيتو وتوجو.

ومن غريب الصدف أن المنطقة التي كان سيقطعها ياماموتو، حسب المخطط المرسوم في الرسالة، تقع في القطاع الذي يسيطر عليه هالسي، الذي وجّه إليه نيميتز رسالة شخصية سرية يعلمه فيها بخط سير ياماموتو ويأمره بإسقاط الطائرات اليابانية إن هو استطاع. كان هالسي وقت إرسال هذه الرسالة في أستراليا. إلا أن مساعده ويلكنسون كان على أتم الاستعداد لمثل هذا العمل، لكنه لفت نيميتز إلى أن تنفيذ هذه الأوامر يعني خلق الريبة في نفوس اليابانيين بأن شيفرتهم مكشوفة من قبل الحلفاء، مما يحرم هؤلاء في المستقبل من معلومات قد تكون أهم وأجدى. لكن نيميتز اعتبر أن عصفوراً في اليد خير من عشرة على الشجرة. ومع ذلك فقد أخذ في الاعتبار ما جال في ذهن ويلكنسون: لجأ إلى التمويه عن طريق التضليل بشأن مصدر معلوماته عن خط سير ياماموتو. فقد سبق للمخابرات الأوسترالية أن كشفت الرسالة اليابانية.

لذلك، أدخل ويلكنسون في روع الجميع أنه استقى معلوماته من الأوستراليين، كما جعل اليابانيين يفهمون ذلك. وزيادة في الاقتناع، وضع الأميركيون في اعتبارهم أن لا تنطلي الحيلة على اليابانيين وأن يلجأوا إلى تغيير شيفرتهم. وهنا لن يكون من الصعب كشف الشيفرة الجديدة. بعد كل هذه الحسابات، أكد نيميتز أوامره إلى ويلكنسون في رسالة ذيّلها بعبارة شخصية: «حظ سعيد وصيد ثمين».

وهكذا، جرى التصديق على حكم إعدام ياماموتو.

وبعد ظهر السابع عشر من شهر نيسان - إبريل من عام ١٩٤٣، بدأت

الاستعدادات العملية للتنفيذ، كانت دقة مواعيد ياماموتو عاملاً هاماً من عوامل النجاح. وعند الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، انطلقت الطائرات الأميركية المغيرة في تشكيلات مختلفة الأعداد والارتفاعات. كانت المعركة غاية في الدقة والتنظيم. كيف لا والهدف لا يقبل أي خطأ. كيف لا وأي خطأ يفوّت أكبر فرصة قد لا تعوض إطلاقاً.

بعد ساعات لم تطل، كانت فرقة من الكشافة اليابانيين تعثر على جثة ياماموتو محترقة في أدغال بوغانفيل ومحنية على سيف الساموراي. أعلن النبأ في ٢١ أيار - مايو من راديو طوكيو. كانت الصدمة مذهلة. وما جرى توقعه قد حصل. فاليابانيون خسروا في ياماموتو قائداً لم يستطيعوا تعويضه. كانت خسارتهم له بمثابة انتصار كبير للحلفاء. هنا أيضاً نتذكر فضل المخابرات الأميركية. وهذه المعلومات هي معلومات (جديدة) ومتممة للمعلومات التي سبق أن نشرت في الصفحات (٢٥٩- ٢٧٠) من كتابي (المخابرات) الجزء الأول - .

لكن تاريخ هذه المخابرات لم يكن دائم التألق. فكم من خطأ اقترفته كلف الكثير من الرجال والسلاح! وكم من إهمال وقعت به وكانت نتيجته خسارة معركة أو فقدان موقع! هل ينسى الأميركيون بحارة مدمرتهم أنديانا بوليس التسعمائة الذين هلكوا في مياه الباسيفيك بعد أن غرقت مدمرتهم دون أن تتنبه المخابرات لذلك. وبالتالي، دون أن تهب الأجهزة المختصة لإنقاذهم؟ وهذه الخسارة التي اعتُبرت المخابرات مسؤولة عنها، لم تعرف الولايات المتحدة لها مثيلا في تاريخ المعارك التي خاضتها.

لم تكن المعلومات التي كانت المخابرات الأميركية تلتقطها أو تنقلها، تساعد دائماً على الحرب، بل كان يحصل أن تتضمن سعياً وراء السلام. هذا ما حصل في نيسان - إبريل من عام ١٩٤٥، عندما نقلت هذه المخابرات معلومات عن رغبة اليابانيين في السلام، ودعموا رأيهم هذا بتأليف حكومة يابانية جديدة اعتبرت مؤشراً لهذه الرغبة. غير أن هذا الموقف لم يكن حائلاً دون كارثة هيروشيما وناكازاكي. فالآراء والتحليلات شيء والمواقف والممارسات شيء آخر.

ومهما يكن من أمر، لا يمكننا أن ننكر ما قامت به المخابرات في حرب

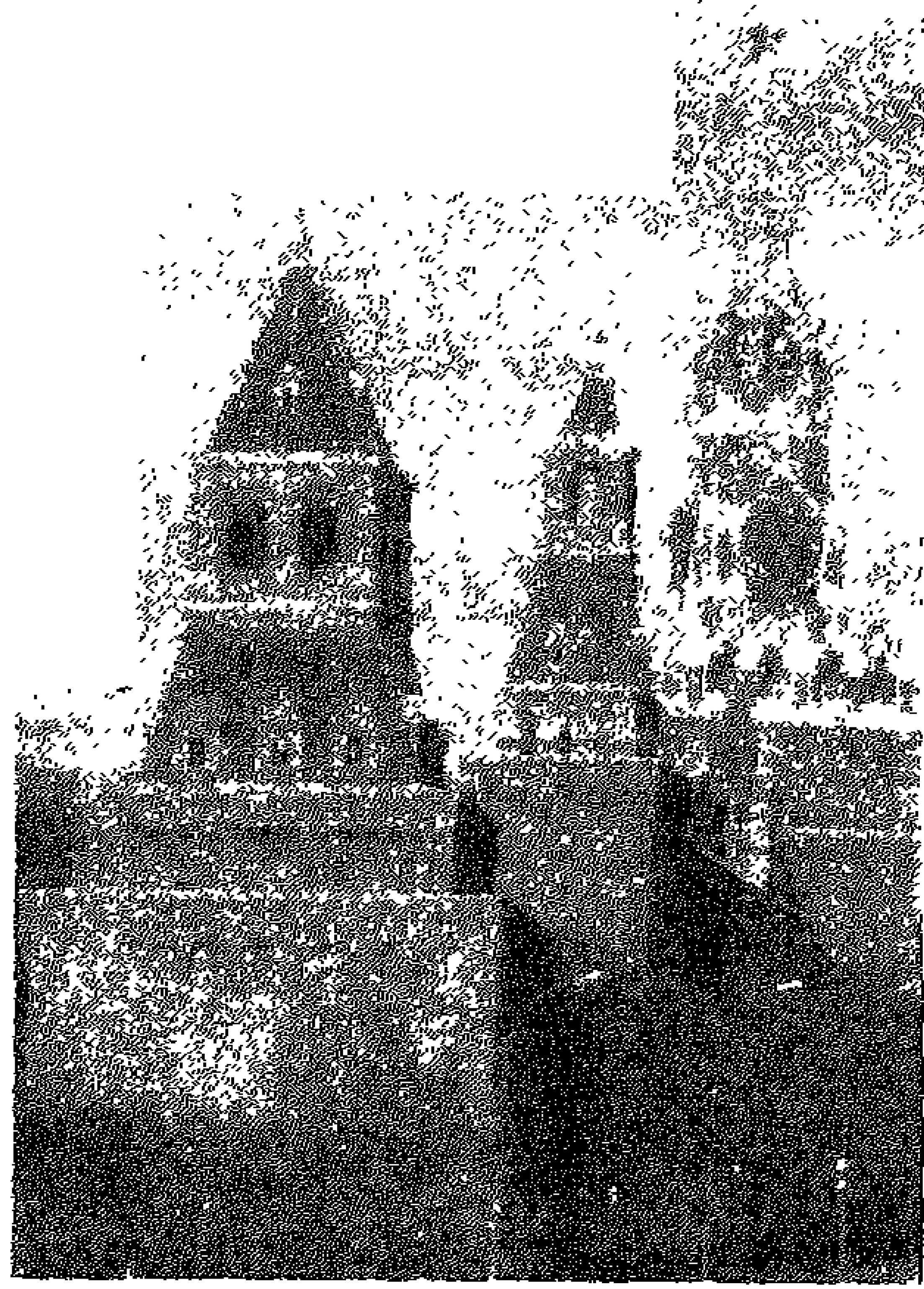
الباسفيك. يكفي أن نردد ما أكده الكثيرون وهو أن الجهود التي قام بها رجال المخابرات قد اختصرت الحرب لمدة لا تقل عن السنة. وفي هذا التأكيد الكثير من الفائدة على الرغم مما للبعض عليه من تحفظات على عمل المخابرات في كل زمان ومكان.

الفصل الرابع عشر

قصة حياة عميل (سابق) للمخابرات السوفياتية الـ K.G.B

جاسوس سوفياتي يعترف بأعماله المخابراتية

العميل يوري بريموف يهرب إلى الغرب



* الأسباب الهامة التي أدت إلى تفكيك دولة عظمى وانهيارها وهي (دولة الاتحاد السوفياتي العظيم) استغلها البعض للتشفي وهذا أكبر خطأ. لأن الولايات المتحدة نفسها معرضة للانهيار بسبب ما وصلت إليه من الترف الاستهلاكي الذي يبدد الموارد الطبيعية بصورة مفزعة لم تقتصر على موارد البترول أو الفحم أو الحديد أو المياه أو الطاقة، بل وصلت إلى السماء نتيجة السموم التي تنبعث من الولايات المتحدة كما نعلم ونخشى أيضاً أن يؤدي انطلاق هذه السموم إلى اتساع الخوف الكوني المعروف باسم (ثقب الأوزون). هذا علمياً، أما عملياً، فهذه إشارة واضحة لإمكانية حدوث الانهيار مثل الاتحاد السوفياتي. وهذه الإشارة هي أحداث مدينة لوس أنجلوس الدامية في نيسان ١٩٩٢، التي نتجت عن تبرئة المحكمة والمحكمين الذين كانوا أميركيين بيض لأربعة عناصر من شرطة المدينة قاموا بضرب أحد السائقين السود ضرباً مبرحاً بالأيدي

والأرجل، وقد صوّرت هذه الحادثة البشعة[1] على شريط فيديو تم عرضه في الولايات المتحدة والعالم، ومع ذلك قررت المحكمة والمحكمين تبرئة هؤلاء القساة مما نسب إليهم، مما كان له أسوأ الأثر لدى ملايين السود فانطلقوا بلا وعي للانتقام وكادت أميركا أن تنهار لولا تدارك الرئيس جورج بوش الأمر، وإرساله قوات الجيش الأميركي والحرس الوطني (لقمع) الأحداث بحوادث أقسى وأبشع من الحادثة المسببة حيث شاهدنا على شاشات التلفزيون لقطات من عمليات القمع قام بها خمسة رجال شرطة (وليس أربعة كما كان سبب الحادث) بضرب رجل أسود وإلقائه على الأرض واستعمال الجميع أي خمسة رجال شرطة ومعهم الهراوات (وهي عصي بلاستيكية مكهربة) والحبال لتقييده. والجامعات (تدعى في البلاد العربية كلبشة).

المهم من هذا السرد الموجز عما جرى في لوس أنجلوس عام ١٩٩٢، هو الدعوة إلى عدم الشماتة والتشفي، لما جرى في الاتحاد السوفياتي.

الاصطياد بالمياه العكرة

* نعرض هنا بعد المقدمة، قصة حياة رجل يمثل مأساة جيل بأكمله من أجيال بلده الذي كان يسمى في السابق (الإتحاد السوفياتي). هذا الرجل هو الضابط السابق والعميل والجاسوس للكي. جي. بي (المخابرات السوفياتية) المدعو (يوري بريموف) المواطن الروسي الأصل والمولد والنشأة والتعليم والتجنيد الذي عمل واشتغل باجتهاد لحساب المخابرات السوفيانية.

ولقد كانت قصة يوري جديرة بأن تنسى أو تندثر ضمن ملايين الملفات والأضابيرالتي احتوتها الكي. جي. بي لولا أن الأقدار أتاحت للرجل أن يقرر الذهاب إلى نهاية لعبة التجسس الكئيبة. قرر أن يلجأ إلى الولايات المتحدة ومعه أسرار الكي. جي. بي وتحوّل إلى لاجئ في أمريكا وبعدها إلى مواطن أمريكي، وكان طبيعياً أن يأسى عليه كثيراً الاتحاد السوفياتي لدرجة أن حكمت عليه موسكو بالإعدام.

وقد لا يعنينا بعد ذلك أن الرجل عاش سنوات رهين محابس كثيرة خوف

(١) طبق الأصل عن حادثة الاعتداء من قبل أربعة جنود إسرائيلين على مواطن فلسطيني بالضرب بالأرجل والأسلحة والعصي لدرجة كسر أضلاعه وقد صورت هذه الحادثة أيضاً وشاهدها الجميع، وكانت النتيجة نفس نتيجة اعتداء شرطة لوس أنجلوس على المواطن الزنجي. إنه الظلم..

الاغتيال والاختطاف، وقد لا يعنينا أن نصدر أو لا نصدر عليه حكماً أخلاقياً. . لكن الذي يعنينا في هذا المقام بالذات أن نطالع حكايته التي رواها في كتاب كان له دويّ وهدير عندما صدر منذ حوالي ٣ سنوات يعنينا أن نكشف مع سطور كتابه الستار عن دواخل الحياة السوفييتية وعن مصائر هؤلاء الذين يرهنون حياتهم بمغامرات قد تصيب وقد تخيب. في هذا الكتاب عبرة، وقد تكون فيه متعة.

وبادئ ذي بدء، ليس علينا من أسلوب تقديم أوراق الاعتماد الذي يسلكه مؤلف الكتاب إلا مقدمته حيث يقول: إنه يدلي باعترافات. . لأن «الاعتراف الصادق يسلّم الروح.

لا يهمنا تلك النزعة التفكيرية أو فلنقل التبريرية، التي يقول إنها دفعته إلى تأليف الكتاب. إنه بهذا يمارس نوعاً من التزلف إلى القراء على وجه العموم. مع هذا كله فالكتاب موضوع بأسلوب رفيع من حيث الصياغة وراقٍ من حيث السبك وصياغة الأفكار.

البداية

* موسكو - ١٩٤١- ١٩٦٤.

وتلك كانت سنوات حاسمة وفاصلة في تاريخ موسكو وتاريخ العالم المعاصر على السواء، وما ظنك بفكرة تبدأ عام ١٩٤١ بغزو هتلر النازي لروسيا وتنتهي بغروب حقبة الزعيم السوفياتي الأشهر نيكيتا خروشوف.

ولد المؤلف بعد شهر وستة أيام من غزو هتلر للإتحاد السوفياتي. في أيام مولده الأولى سادت العاصمة السوفياتية موسكو، فوضى بغير سوابق وأيضاً بغير حدود، لم يكن أحد يتوقع أن يحرك هتلر قواته شرقاً، إذ كان التصور الدائم أن جيوش النازيين كانت وجهتها الدائمة صوب لندن وانجلترا إلى الغرب. ولم يكن أحد يتصور أن يضرب هتلر حليفه بالأمس جوزيف ستالين، إذ كان ستالين في انتهازية سياسية نادرة قد أبرم مع هتلر معاهدة صداقة وعدم اعتداء قبل سنوات. كان أبوه ضابطاً، وقد نقلوه بعد الحرب ملحقاً عسكرياً في يوغسلافيا حيث حلا العيش لأسرته. وحيث قضت الأسرة أيامها في رحلات إلى الجبال والغابات إلى أن جاءت الأوامر صارمة قاطعة من الكرملين.

نظراً للأزمة الراهنة ينبغي إجلاء جميع الرعايا السوفيات من يوغسلافيا في غضون /٤٨/ ساعة وقد كان.

أما الأزمة فكانت تتمثل في اجتراء الزعيم الوطني تيتو على أن يمضي ببلاده يوغسلافيا في طريق مستقل بعيداً عن وصاية الكرملين وأبوية جوزيف ستالين.

وإذ عاد الطفل مع أسرته إلى موسكو. . كان يحلو له أن يتباهى بين الأقران بأنه عاش خارج بلاده، في كنف أبيه الضابط الكبير الذي كان معيناً في منصب كبير في يوغسلافيا. . يومها اقتاده أبوه إلى خلاء بالغابة ليقول. . يا ولدي إياك أن تذكر ثانية أننا كنا في يوغسلافيا، وإياك أن تعرض أمام الأنظار تلك الكتب القليلة التي أحضرناها من هناك.

مات ستالين عام ١٩٥٣ وتزاحم الناس. ومات العشرات كي يروا جثمانه. وما لبث الحزن أن تحول إلى سخط وحنق على ما لاقاه الناس من سوء العذاب في العهد الستاليني.

وعندما جاءت نهاية العقد الخامس كان المؤلف يوري، قد انتظم طالباً في معهد موسكو للدراسات الشرقية حيث درس اليابانية وتخصص في شؤون اليابان، وطالت الدراسة حتى عام١٩٦٤، عام التخرج واستقبال الحياة.

العميل يعترف

بعدها تحول الصبي الوحيد القادم من شوارع موسكو إلى رجل كامل النضج، وبعدها بدأت كل أجزاء حياتي تتداخل وتتشابك. وكل المؤثرات تتفاعل. ما بين الذكريات والأحزان وما بين العزلة والوحشة والدروس المستفادة.

كلها شاركت في صنع الإنسان الذي أصبحتُ في مستقبل الأيام، خبيراً في شؤون اليابان وضابطاً في مخابرات الكي.جي.بي، ثم جاسوساً محترفاً. ثم مواطناً من رعايا الولايات المتحدة الأميركية.

مضت سنتان أمضاهما يوري موظفاً فنياً في معهد علوم البحار في موسكو يترجم من الروسية والإنجليزية واليابانية. كان عملاً مريحاً ومضمونا وبغير مشاكل إلى أن جاءه رئيسه يوماً والقلق يعلو وجهه ليقول:

- ستانسي: جاءت مكالمة بشأنك من اللجنة المركزية للحزب (الشيوعي)

يريدونك أن تتصل بهم. وتسأل عن شخص اسمه «رومانوف». وبعد الاتصال استدعوه إلى مقر اللجنة المركزية المهيب الرهيب وبادره السيد رومانوف أثناء المقابلة الفاصلة قائلاً:

- كيف يا رجل ترتضي لنفسك أن تدفن مؤهلاتك في هذا المكان المسمى بعلوم البحار؟

- أنا في الحقيقة..

- الموضوع محسوم. لقد تم تعيينك مترجماً لمراسل صحيفة «أكاتا» اليابانية في موسكو، أتعرفها؟

- طبعاً هي صحيفة الحزب الشيوعي الياباني.

- تمام. لكن واجبك الأساسي هو تقديم تقرير عن كل سكنات وتحركات رئيس التحرير وعن كل اتصالاته سواء مع الأجانب أو مع المواطنين السوفيات.. مفهوم؟

علماً أن المقابلة انتهت - كما يضيف، بالاعتذار من جانبه عن هذه المهمة، وبدلاً منها رأى أن يتجه من جديد إلى معهد الدراسات الشرقية لتعميق خبرته بشؤون اليابان. هنالك واتته الفرصة من جديد.

رشحوه للسفر إلى اليابان مترجماً مرافقاً لوفد نقابي رفيع المستوى سافر من موسكو إلى طوكيو قالوا له:

- أيها الرفيق يوري: استعد من الآن للسفر مرافقاً للوفد الرسمي.

- حقائبي معدة وقواميسي حاضرة.

- لا شنط ولا قواميس.. الأهم أن تذهب إلى مقر المخابرات.. كي.جي.بي. للحصول على التصريح بالسفر.. الأمور ليست سائبة يا رفيق.

وعاد إلى دوامة المقابلات مع رجال الأمن من جديد واستطاع في سياقها أن يلمح اسمه مكتوباً على ملف يتكون من ٢٥٠ صفحة على الأقل.

وسافر إلى اليابان.. وتلقى مكافأة التخرج على شكل قرارات بالنقل إلى المنظمات العاملة في مجالات الدعوة إلى السلام العالمي وحركة التضامن الأفريقي الآسيوي. كانت هذه القرارات ظاهرها الثقة في مقدرته وخبرته بالشؤون الآسيوية، وخاصة باليابان البلد المنافس - العنيد لكتلتي الغرب - الأمريكي والشرق - الروسي

اللتين كانتا تحكمان مقاليد العالم في العقد السادس من القرن العشرين. . لكن القرارات كانت في باطنها أو جوهرها مجرد «طُعم» يهدف إلى إغرائه بالمواقع والرحلات وطبعاً المغانم والمزايا العينية والمادية.

وإذا كان المؤلف هو الذي استخدم تعبير «طعم» وكأنه يصور نفسه في صورة الضحية البريئة التي جرى استدراجها أو التغرير بها، فأحرى بنا ونحن نقرأ مثل هذه الكتب بعين مفتوحة ووجدان في غاية الانتباه، ألا نستدرج بدورنا ولا يغرر بنا. إن النوايا لا يعلم بها إلا الله. . ونحن نطالع في كتابنا شهادة من جانب واحد من جانبي الصورة، فيصل الأمر أنه قد تم جرّ رجله إلى حيث العمل مع المخابرات السوفياتية، إذ يبدو أن الشخص كان لذيذاً، وكان الطعم جذاباً لدرجة لا تقاوم.

وقد تجسد الطعم الجذاب في إتاحة فرص الحياة الدولية للرفيق يوري. جعلوه يقابل المراسلين الأجانب ويمضي السهرات معهم. بل وأحياناً يقابل زعماء وقيادات من العالم الثالث وقادة من حركات التحرير الوطنية في إطار نشاطه في لجان التضامن الأفريقي الآسيوي. وعندما أوشكت لحظة ضمه إلى صفوف مؤسسة التجسس السوفيتية الكبرى - كي. جي. بي - اختاروا لمسيرته منعطفاً يدور به حول أحد المنحنيات دون أن يختاروا له - كما يقول - طريقاً مباشراً نحو الهدف المنشود.

بل ويضيف قائلاً:

- يبدو أن كل منعطف في حياتي كان يبدأ دوماً بمكالمة هاتفية، وقد تلقيتها هذه المرة عام ١٩٦٦ وكانت تستدعيني للالتحاق بأحد مراكز التدريب العسكري.

وفي المركز المعين التقى به كولونيل من المخابرات العسكرية السوفيتية (الجرو) - كما كانت تسمى - وهي مؤسسة مؤلفة من كبار العسكريين المحترمين مهنياً.

قال له: لقد اختاروك لندربك هنا لكي تستطيع، إذا ما اقتضى الأمر يوماً أن نسقطك بالمظلات فوق أي موقع في غرب أوروبا في حال نشوب حرب بينها وبين الاتحاد السوفياتي، ولأنك تجيد الإنجليزية يمكن إسقاطك مثلاً فوق مدينة ليفربول الميناء الشهير في بريطانيا.

واستغرق التدريب أشهراً عدة بعدها عهدوا إليه وهو على طريق المخابرات بمهمة هي أقرب إلى مهمة نصف ـ جاسوس كما قد تقول:

ـ أن يكون مرافقاً للزوار اليابانيين ـ خاصة ذوي النفوذ أو المناصب ـ إلى الاتحاد السوفييتي يعكف في النهار على خدمتهم ويعرض عليهم ما يؤذن به من ضروب التقدم السوفييتي في المصانع والمزارع والمعاهد والمراكز المتقدمة.. ثم يسهر الليل في تدبيج التقارير عنهم: أقوالهم، تعليقاتهم، ملاحظاتهم، اتصالاتهم، خططهم، ما يعكسونه من أحوال بلادهم.

وثائق لذة «الدولتشي فيتا» أو هي الحياة المهنية الناعمة ـ سفرات على الدرجة الأولى، حضور مؤتمرات واجتماعات كلها خطب وكلمات تعكس مواقف مسبقة وتحوي كليشيهات محفوظة، وكان منها ـ كما يقول ـ رحلة في يناير ١٩٧١ إلى القاهرة لحضور مؤتر التضامن حيث نَعِمَ بأيام في شيراتون القاهرة على ضفاف النيل ـ وكأنما كانوا يجهزونه بعد ذلك للحظة الحاسمة الفاصلة التي جاءت في خريف نفس العام ١٩٧١، حين أوعزوا إليه أن يتوجه إلى الجناح رقم كذا في فندق برلين الملاصق لمبنى المخابرات السوفيتية في موسكو، حيث التقى بسيد مهذب يدخن الغليون الغربي ويرتدي ملابس في غاية الأناقة. وقبل أن يبدأ معه حديثه الفاتر القصير.. قدم نفسه في كلمات ثلاث:

ـ اسمي الكولونيل عزيزوف.

ثم قدموه لأخطر عميل سوفييتي في اليابان كلها. هو عميد سلك الجواسيس كما قدموه له، وكان اسمه برونيكوف.. كم حذروه في موسكو منه وكما توقعوا أن يشتد العداء بين الرجلين. بادره برونيكوف قائلاً:

ـ كيف إذن حال الآنسة «بيوتي»، وكان هذا اسم كلبة الأسرة ولم يكن يعرفه أحد في اليابان كلها.. وكانت الحركة مقصودة لكي يتحقق من أن برونيكوف ملم بكل صغيرة وكل.. صغيرة.. دقيقة.. أيضاً في حياة مجتمع الجواسيس في طوكيو.

ما هذا الهدوء المخيم على مبنى السفارة فيما تصخب شوارع المدينة في الخارج؟ هكذا سأله يوري: وفي ذهنه الضجة المتلاطمة التي جعلت فندقه الرخيص جحيماً لا يطاق. أجابوه: لأن حوائط السفارة وأسقف مبناها والأرضيات كلها

مزدوجة لكن ثمة فراغ بين الجدارين المزدوجين محشو بعشرات الأجهزة الالكترونية التي ترسل ومضات ونبضات كهربائية تحول دون أية محاولات للتنصّت على ما يجري في أروقة السفارة السوفيتية ومكاتبها.

وبعد أن انتقل إلى شقة مريحة وأنيقة بدأ العمل متلمساً طريقه في ساحة العمل الصحفي باليابان في منتصف السبعينات كانت مهمته تتلخص في هذه الكلمات.

أن يفرد شباكه كي «يصطاد العناصر الصالحة» من خلال اتصالات يقيمها مع العاملين في دوائر الإعلام والسياسة، بحيث يتم تجنيد تلك العناصر في المستقبل بوصفهم عملاء يتجسسون لصالح الاتحاد السوفيتي.

يستعرض المؤلف، وهذا هو المهم، الخطة التي تقول - والعهدة دائماً على ما يقول - إن الاتحاد السوفيتي كان يعدّها وقد نفذها فعلاً لتطويع اليابان والإفادة منها لصالح موسكو هذه الخطة بدأ تنفيذها عقب انكسار اليابان في الحرب العالمية الثانية وخروجها منذ الخمسينات مهزومة جريحة، مفلسة مدمرة المرافق والمنشآت.

وكانت الخطة السوفيتية تقضي في شمولها، بالعمل على تحويل اليابان إلى بلد اشتراكي من خلال إيجاد نوع من الطابور الخامس الياباني من المواطنين اليابانيين عملاء موسكو، ولهذا ركز السوفييت الاهتمام على أسرى الحرب اليابانيين في معسكرات سيبيريا والشرق الأقصى (السوفيتي) وأجري عليهم برنامج لغسيل المخ باللغة اليابانية لتحويلهم إلى الفكر الماركسي، والمذهب اللينيني. وعندما عاد هؤلاء الأسرى في أوائل الخمسينات إلى اليابان تصور السوفييت أن خطة العمل قد بدأت. وقامت مظاهرات لحساب السوفييت حطمت السيارات والمرافق وهتفت بشعارات معادية لطوكيو وواشنطن على السواء. لكن الحكومة اليابانية فرضت حظراً على الحزب الشيوعي الياباني مما ألجأ للنزول تحت الأرض ووضعه تحت حصار حديدي. وفشلت الخطة الموضوعة.

وما أن انتهى عقد الخمسينات حتى بدأت اليابان تسترد عافيتها وشرعت تدرج على طريق الانتعاش الاقتصادي، مما دفع موسكو إلى تغيير خططها من محاولة تحويل اليابان إلى بلد شيوعي إلى العمل على إنشاء علاقات طيبة بل وحميمة إن أمكن مع طوكيو؛ ذلك النجم البازغ في سماء الصناعة والإنتاج على مستوى العالم

كله. وكان الهدف الجديد هو إغراء اليابان بأن تساعد يوماً على تطوير الاقتصاد السوفييتي نفسه وتنمية المصالح السوفييتية الطموحة في سيبيريا ومناطق الشرق الأقصى.

ولما كان السوفييت قد أدركوا أن الحال قد آل بهم إلى التخلف بمقدار ١٥ سنة تزيد أو تقل، عن مستوى التقدم التقني في أميركا وأوربا، بل واليابان نفسها ـ فقد كان أولى بهم أن يشتروا من طوكيو مصانع ومعامل بقضها وقضيضها لينصبوها فوق أراضي الاتحاد السوفييتي.

واقتضى التكتيك الجديد محاولة النفاذ إلى صميم دوائر السياسة والمال والأعمال والثقافة في اليابان. وكان المنفذ في ذلك هوا الحزب الديمقراطي الليبرالي والحزب الاشتراكي ودوائر رجال الأعمال في اليابان.

وقد ازدهرت التجارة بين موسكو وطوكيو، وكانت عين موسكو على الصناعات اليابانية والتكنولوجيا اليابانية المتقدمة. فيما كانت عين طوكيو على الثروات المعدنية وخاصة في مجالات الطاقة التي يحفل بها الاتحاد السوفييتي.

يقول يوري بريموف:

في هذه الفترة من ازدهار العلاقات اليابانية ـ السوفييتية جئت إلى طوكيو جاسوساً لحساب الكي. جي. بي وبغطاء كمراسل صحفي مقيم فيها.

ومن واقع سطور الكتاب نتعرف أيضاً على أحد خطوط السياسات المهمة التي كانت تتبعها كي. جي. بي وربما تتبعها باستمرار أجهزة الاستخبارات العالمية.

لم تكن المسألة تقتصر على تجنيد عملاء فحسب، بل كان من الأمور الحيوية الحصول على معلومات عن الموقف المزمع أن يأخذه رجال الأعمال وأرباب التجارة اليابانيون وهم يدخلون في مفاوضات بالمليارات مع الاتحاد السوفييتي. وفي هذا السياق بالذات يقول يوري:

كلما كان رجال الأعمال اليابانيون أو ممثلوهم يدخلون في مفاوضات مع السوفييت، كانوا ينطلقون بداية من موقف الضعف أو القصور. وذلك لأن المخابرات السوفييتية كانت تجهد في أن تعرف مواقفهم مسبقاً وتسلح المفاوضين

السوفييت بهذه المعلومات. ولهذا السبب كانت موسكو تحتفظ بفيالق ضخمة حاشدة من العملاء لجمع كل صنوف المعلومات عن اليابان، علماً أن الحاجة الماسة التي كانت يستشعرها السوفييت كانت تتعلق أساسا بالمعلومات المتصلة بمجالات انتاجية اليابان وتفوّق اليابان في مجالات من قبيل الصناعة الكيماوية، الصناعات الثقيلة، الحاسبات الألكترونية، البصريات ومعدات الراديو والتليفزيون ثم كل ما يتعلق بخدمة أغراض الإنتاج العسكري المتقدم.

في إحدى المرات طلبت موسكو أن تشتري من اليابان حوضاً جافاً عملاقاً قالت إنها تود أن تصلح فيه سفن أسطولها لصيد الأسماك. لم يكن الغرض الحقيقي بخافٍ على اليابانيين وهم قوم أذكياء، لكنهم ما لبثوا أن سلموا الحوض الجاف المرتقب مزوداً بأحدث المعدات إلى ميناء فيلادفستوك الروسي، فما كان من السوفييت إلا أن بدأوا فيه بإصلاح حاملة طائراتهم «مينسك» ثم أتبعوا ذلك بإصلاح عدد من غواصاتهم النووية.

لهذا الغرض - أغراض التفاوض المعقد والخطير والمثمر أيضاً - كان السوفييت يوفدون أفضل كوادرهم العارفة والمدربة على أعلى المستويات إلى اليابان. ويذكر المؤلف أن حوالي نصف أفراد البعثاِت التجارية السوفييتية الموفدة إلى اليابان أو المقيمة على أرضها عبارة عن ضباط (جواسيس) في الكي.جي.بي - الاستخبارات السوفييتية وكثير منهم كانوا متخصصين في فنون الجاسوسية التكنولوجية والعلمية، بمعنى أن اليابان وجدت نفسها بين خيارين لا ثالث لهما.

- أن تدخل في مفاوضات مشروعة مع الطرف السوفييتي وينال منها السوفييت ما يريدون.

- فإن رفضت فهناك سلاح التجسس التكنولوجي العلمي. ينزح من أسرارها المكنونة والنفيسة (وكان حجم العملاء العاملين في هذه المجالات المتخصصة يصل إلى ١٠٠ كادر يشرف على كل اثنين أو ثلاثة منهم ضابط مسؤول كبير في المخابرات السوفييتية مقيم طبعاً في اليابان).

يقول مؤلفنا:

- أي شيء كان يحتاجه السوفييت كان يتولى سرقته هؤلاء العملاء اليابانيون.

وكانت مخابرات موسكو تدفع ما يكاد يصل أحياناً إلى ١٠٠ ألف دولار لسرقة تفاصيل عملية تكنولوجية ما.. وكانت تكاليف نسخ وتصوير وتجهيز العينات المسروقة قبل إعادتها تصل في بعض الأحيان إلى حوالي ٢٠٠ ألف دولار لكن العائد كان كبيراً ومجدياً بكل مقياس.

الطريف أن أجهزة التنصّت التي كان يستخدمها مندوب الكي.جي.بي الأول في طوكيو كانت بدورها معدات متقدمة ومسروقة أيضاً من اليابان.

ولأن التجسس التكنولوجي هو سمة العصر - وربما يفوق أو باتَ يفوق التجسس الإعلامي والعسكري والسياسي أيضاً - فإن مؤلفنا يوليه كتابه أهمية كبيرة. ويسوق في هذا الصدد حكاية طريفة تفاصيلها كما يلي:

جاء وفد سوفييتي يضم مديرَيْن من قطاعي الصناعة والتجارة لزيارة اليابان. واستقبلهم بالطبع الممثل التجاري السوفييتي في طوكيو وهو بالطبع أيضاً ضابط المخابرات السوفييتية المقيم في عاصمة اليابان.

أول خطوة اتخذها الضابط إياه هي اتصاله بالمسؤولين عن المصنع لكي «يزف» إليهم نبأ اشتياق الوفد السوفييتي الهام لزيارة المصنع وآلاته وأروقته ومواقعه. ربما ألقى الرجل في روعهم أن السوفييت جاءوا ليشتروا المصنع بأكمله وكانوا كذلك يفعلون.

وأثناء الزيارة دار بهم المرشد الياباني في أرجاء المصنع يشرح ويسهب في التفاصيل، وفي الساحة الرئيسية تطلع الضابط السوفييتي إلى أعلى من باب الصدفة أو بفعل التدريب أو حتى بسبب الملل.. فإذا به يجد عجباً:

خريطة كاملة مسهبة، مفصلة بتصميم المصنع. ولما كان من الحيوية بمكان نقل التصميم، همس الضابط في أذن رئيس الوفد بلهجة حازمة أو حتى آمرة:

- عليكم أن تمطروا المرشد والمسؤولين بأسئلة لا تنتهي حتى أفرغ من مهمتي.. أشغلوه تماماً، وفيما كان الوفد يطلق سهام أسئلته محاصراً المرشد الياباني، كان الضابط المدرب جَيّداً قد نقل على طريقة فعل المسطرة كل خريطة المصنع.

ويعلق المؤلف يوري على القصة بهذه العبارات:

ـ وعندما عاد الضابط إلى مسكنه بعث الخريطة على الفور إلى موسكو وجاءه تقويم العملية، بعد أسبوعين لا أكثر.. قالوا له إن هذا العمل المنفرد من الاستراق (أو التلصص) غطى ١٢ سنة من التكاليف التي ظلت موسكو تدفعها لقاء سكن هذا المندوب في عاصمة اليابان.

كيف كانت حركة التجسس التي مارسها المؤلف في طوكيو؟

كان أول اتصال للتجنيد قام به مع رجل ياباني رقيق الحاشية كانت عين الكي.جي.بي موضوعة عليه منذ زمن طويل. إذ كان يمثل قيادة لا يستهان بها في الحزب الاشتراكي الياباني. وكان الاهتمام محصوراً لا على تحويله إلى مؤيد للسوفييت. بل على استنزاف المعلومات الغزيرة والمهمة التي يكنها الرجل في صدره.

وقد شرع الجاسوس يوري في الاقتراب من «الهدف» الياباني. بدأ يراجع ـ كما يقول ـ المصطلح الأمريكي الشهير في أدبيات المخابرات.

هذه المصطلح هو: ميس في اللغةالإنجليزية وهي كلمة خرافية تستمد حروفها من أوائل الكلمات التالية:

* المال والإيديولوجية والتنازلات والغرور.

ويقال إن كل ضابط مخابرات يريد أن يقترب من هدفه المنشود. عليه أن يبدأ بهذه الكملة لكي يتعرف ومن ثم يعرف كوامن ضعف الفريسة ومواطن القصور في شخصيتها.

كان اسم الهدف الياباني وهو اسم مستعار أطلقه عليه الكي.جي.بي هو «كنج»، الملك في الأنجليزية، وكان الرجل من الوهلة الأولى محترماً مهذباً لا تبدو المعايب إياها في شخصيته. مع ذلك، فقد واصل مؤلفنا مسيرته مستخدماً هذه المرة سلاحاً خطيراً بدوره، بل سلاحاً قاتلاً في بعض الأحيان، هذ السلاح اسمه ببساطة النفاق، التملق، الرياء، المديح الزائف والإطراء المكتوب.

في إحدى دعوات الغداء والعشاء على شرف السيد «كنج» بادره مؤلفنا متباسطاً

أو متكلفاً لنوع من التباسط والشجوى والإفضاء الخصوصي الذي لا يحدث إلا بين أصدقاء حميمين قائلاً:

ـ بصراحة يا عزيزي كنج ـ أنا أود أن أستودعك سراً أرجو ألا تكرره لأي إنسان كان ـ إن المجلة التي أمثلها ـ نيونتايمز ـ هي أكثر من مجلة صادرة عن اتحاد العمال السوفييت إنها مشروع صادر في الأساس عن وزارة الخارجية، وتصدر مطبوعة خاصة جداً تحوي أسراراً لا يطلع عليها إلا أعضاء المكتب السياسي الحاكم فوق قمة الكرملين. ولهذا فكل المعلومات التي أطلعك عليها أيها العزيز الغالي «كنج» معلومات صادقة وخطيرة مائة في المائة. ذلك لأنني في موقع لا أستطيع فيه، بل ولا يجوز لي، أن أقترف خطأ واحداً ولو بسيطاً في مضمار المعلومات. أرأيت كيف أنك صديق حميم ومهم أيضاً؟ إنني اعتبرك خبيراً سياسياً من الدرجة الأولى. وأنت لا تتحدث مع صحفي قديم عادي. بل إن كل معلوماتك أنت أيضاً تصل إلى أعلى المستويات في الاتحاد السوفييتي من خلال محسوبك وصديقك الصدوق. أرأيت أنك تستطيع بما تقوله لي أن تؤثر على مستوى القمة الحاكمة في الكرملين؟ في زعماء الاتحاد السوفييتي شخصياً؟

وهنا يضيف يوري قائلاً:

ـ وأخيراً. وجدت نقطة الضعف القاتلة في شخصية صديقي الياباني المحترم. كان السيد «كنج» يريد إنشاء صحيفة ناطقة باسمه لكنه كان بحاجة إلى المال اللازم للتمويل.

ظل يوري يلاحقه ويسمعه مختلف أنواع المديح والإطراء ويكرر ذكر نقطة الضعف في شخصيته ثم في مسيرته العامة، حتى تأكد أن الرجل يريد أن يؤسس صحيفة ناطقة باسمه ومعبرة عن خطه السياسي، وأنه فعلاً بحاجة إلى تمويل المشروع.

ويضيف يوري:

ـ دعوته يوماً إلى الغداء، وفي سياق الحديث سألته عن أحوال صحيفته المرتقبة فأجاب في أسى:

- إنها في حكم المستحيل.

- لماذا يا صديقي العزيز؟

- لا أملك الموارد المالية اللازمة.

- لست أدري.. لكن.. ربما.. أقول ربما.. قالها بأقصى قدر ممكن من اصطناع العفوية (والتلقائية) - ربما يكون عندي جزء من الحل للمشكلة.. وأرجوك.. أن تقبل هذا بروح من الأخوة التي ربطت بيننا.

وكان هذا عبارة عن مظروف أصفر بداخله مليون ين ياباني. ثم انطلقت لكي أغطي حكاية «هذا» الموضوع على الطاولة فتحدثت بحماسة عما يمكن أن تشكله الصحيفة المنتظرة من إضافة لها قيمتها ولا شك إلى عالم السياسة والرأي والصراحة.. وطبعاً.. النزاهة و.. الاستقامة. وكم أنا سعيد بهذا كله و.. أخيراً مدّ السيد كنج أنامله اليابانية المصقولة.. التقط المظروف وبسرعة أخفاه في طيات سترته.. وبعد الغداء قلت له: كأنما بطريقة تلقائية أيضاً:.. أوه. على فكرة أنا بحاجة إلى إيصال بالاستلام. حتى أثبت أنني لم أسرق النقود وهنالك أخرج بطاقة من جيبه تحمل اسمه وبسرعة كتب الإيصال بالمبلغ ومَهَرَهُ بتوقيعه.. الكريم..

لم تمض إلا أيام ثلاثة حتى تلقيت مكالمة هاتفية من صديقي الياباني العزيز يدعوني إلى لقاء عاجل على الغداء، وحين لاقيته بادرته قائلاً:

- ما الخبر.. تبدو مريضاً للغاية؟

- لست مريضاً.. لكنها بطاقتي التي اعطيتها لك أنا أريد استردادها.. إنها تحمل توقيعي كما تعرف. وهذا كفيل بأن يدمرني. مستقبلي، وعائلتي، وحياتي السياسية.

- يمكن استخدامها فعلاً لهذا كله.

- يا نهارِ أسود؟

- لكن أعدك بعدم استغلالها.

- أين البطاقة.. الإيصال الآن في السفارة السوفييتية.

ـ بل هي في موسكو يا صاح.

ـ بهذه السرعة.

ـ أرسلناها مع مختص على الطائر الميمون.

وتهاوى الرجل في مقعده ولم أبذل أي جهد لرفع معنوياته.

ومضت أشهر تلقى فيها كنج ثلاثة ملايين لتنظيم ودعم أنشطته السياسية، وأصبح الرجل من يومها أطوع من خاتم رخيص في أصبعي وأصبع الكي. جي. بي. المخابرات السوفييتية في موسكو.

كثير من العملاء استطاع يوري أثناء حياته جاسوساً في خدمة مخابرات بلاده ـ السوفييتية سابقاً ـ أن يجندهم.. بعضهم لم يمض معه إلا جزءاً من السنة ثم أحجم «بهدف» عن الاستمرار عندما شعر أنه سوف يستخدم لحساب دولة أجنبية وبعضهم كلف السوفييتي الكثير دون أن يفيد إلا بأقل القليل.

لكن مؤلفنا يتحدث عن جاسوس نموذجي.. لم يتعب كثيراً في تجنيده ـ وقدم الكثير من الخدمات لموسكو إنها حالة «فاسين» وهو بدروه اسم كودي لجاسوس كان في شدة الاحتراف.

يقول يوري:

ـ كان أحد ضباطنا في طوكيو على صلة بعميل قديم يحمل الاسم الرمزي «رمسيس» ثم وعد الرفيق رمسيس بتقديم شخص مفيد جداً للمخابرات السوفييتية يرأس تحرير نشرة صغيرة تصدر بانتظام في عاصمة اليابان.

وعندما رتبوا لي موعداً مع فاسين، في نادي الصحافة في طوكيو، رأيته رجلاً في الخمسينات من عمره. لكن السنون نالت من وجهه وصحته فيما كان يرتدي سترة أوسع بكثير من حجمه. ويدقق في كل فرد، وكل شخص رآه من حوله ليعرف أين هو بالضبط ومع من يتكلم أو يختلط على وجه الدقة واليقين وتعددت لقاءاتنا وكانت ممتعة حقاً.

لماذا؟

لأن فاسين لم يكن مجرد ثمرة أحاول إنضاجها بل كان ثمرة نضجت من تلقاء نفسها واستوت تطلب القطاف وتريد السقوط سائغة شهية في يد آكلها.

والحقيقة أن «فريستنا» الجديدة كانت عبارة عن شيوعي مخضرم واقع أصلاً في غرام موسكو واستهوته أطروحاتها الأيديولوجية، وبات يتوق إلى الانخراط في سلك خدماتها السرية. كان فاسين قد طرد من الحزب الشيوعي الياباني لخلافات حول سياسة الحزب الخارجية لكنه ظل على ولائه لعقيدته الأولى. في كل حال، لقد آن لنا أن نتساءل بصدق وإخلاص:

- ترى من جند من؟

نكاد نتصور أن فاسين الصحافي الياباني المخضرم هو الذي جند من قبل يوري، لكي يبعث عن طريقه بما كان فاسين يجمعه من معلومات، طبعاً لقاء مبالغ سخية ومتواترة من عملة الين الياباني العتيد.

وكانت المعلومات غزيرة وافرة، ومتشعبة وحيوية أيضاً، دارت حول السياسة الخارجية والنشاط الدولي لحكومة اليابان، وحول ما يدور داخل جمهورية الصين الشعبية (وخاصة في فترة ما بعد رحيل زعيمها التاريخي ماو تسي تونج).

بلغ الحماس بالسيد «فاسين» أنه لم يكن يطيق انتظار التعليمات أو التكليفات، بل كان يعمد إلى تقديم المعلومات من تلقاء نفسه. يعني أنه كان يتحول أحياناً من عميل مجند إلى جاسوس متطوع. و.. كله بثوابه كما يقولون.. وكان الفضل في ذلك إلى تدريبه الأول. إذ كان عضواً ناشطاً وحركياً فعالاً في الحزب الشيوعي الياباني، يعمل تحت الأرض ويتوسل بكل أساليب السرية والتمويه منذ العقد الخامس من هذا القرن. وكان الرجل قد حفظ الدروس جيداً، ولم ينس منها حرفاً..

وإذ مضت الأيام ألفيت لدهشتي - عميلي النشط المتحمس - يقدم خدماته لقاء مبالغ من الأموال. تعتبر زهيدة ولم يكن يتردد في أن يؤدي أي مهمة معلومات يكلف بها. ولا تهمد له حركة أو يفتر له نشاط لدرجة أن تولد في داخلي انطباع يقول:

ـ هذا رجل يستمتع بلعبة الدهاء. باتت تستهويه متعة التجسس والسرية. ولعبة الخطر في حد ذاتها. ولهذا كان عميلاً ممتازاً واسع النفوذ. كم كان يسعده أن ينشر قصصاً وحكايات مثيرة لكنها تبدو في الظاهر مقنعة وكلها كانت تخدم قضايا ومصالح الاتحاد السوفييتي في اليابان ومنها إلى أنحاء العالم كله.

بيد أن نشاط مؤلف الكتاب ـ الجاسوس السوفييتي ـ السابق يوري، لم يكن كله على هذا المنوال من السهولة أو الفعلية.

في عام ١٩٧٨ كان قد رتب مقابلة سرية مع عميل يحمل الاسم الرمزي «أيدو» وكان يعمل في قسم إدارة إحدى الصحف اليابانية الكبرى وكان مؤلفنا قد ورثه «ضمن تركة ضابط استخبارات سوفييتي سابق، كثير الاختلاق والتباهي يقسم بالإيمان المغلظة أنه تغدى بالأمس مع زعيم الحزب الفلاني، وتعشى قبل أمس مع نائب رئيس الوزراء.. ويقدم طبعاً كشف المصاريف بالمطاعم الفاخرة والمقاصف العامرة بمئات الآلاف من عملة اليابان.

وأين تقرير المعلومات عن هذه المقابلات الباهظة الكلفة يا سيد أيدو؟..

فإذا بها قصاصات ورق تحوي معلومات هزيلة لا تسمن من جوع. وعندما توجه مؤلفنا إلى المقابلة السرية مع العميل اتبع خطته الموضوعة.. بالسيارة إلى محطة «يوجوي» ومنها بالقطار إلى محطة «شنجوكي» ومنها بالمترو تحت الأرض.. وقبل أن يعبر الشارع للقاء العميل، عرج مؤلفنا على دورة مياه عامة يقضي حاجة سريعة.. وإذ كان يغسل يديه شعر أن هناك من يراقبه وكان ذلك أمراً مقضياً. إذ لم يكن هناك مخلوق يعرف مسبقاً أي شيء عن هذه المقابلة ولا عن خط سيرها المعقد المستور.

وإذ عبر الشارع.. لمح من بعيد عميله أيدو، واقفاً ينتظر، فتجاهله متعمداً. واستطاع من ثم أن يلمح أن هناك حوالي ثلاثة رجال يراقبونه. فآثر أن يحمي العميل أيضاً وتوجه إلى كابينة الهاتف والتقط السماعة بعد أن أيقن أن مراقبيه قد اقتربوا يتسمعون ـ وطلب زوجته في البيت:

ـ أين أنت.. لماذا لم تأت بحق السماء.

أو نسيت أنني أنتظرك هنا كي نتناول العشاء.

- يا إلهي.. هل أنت في خطر؟

لا.. لا طبعاً لن انتظر بعد ذلك أمامك يا ست هانم ساعة ونصف. أراهن أنك لم ترتدي ملابسك بعد.. شوفي. تناولي أي طعام ولا تنتظري أما أنا فسآكل أي شيء.. مع السلامة. تباً للنساء ومواعيد النساء.. ودلع النساء.

ودلفت إلى المطعم. وتناولت أول وجبة صادفتني، وقفلت بعدها عائداً إلى بيتي. وكانت ليلة كتبت بعدها أنني أشك في «أيدو» وأنه عميل مزدوج. وتلقيت التعليمات أن أذهب للقائه ثم أواجهه وألقنه درساً مريراً. وذهبت ولم أحمل معي نقوداً له هذه المرة، وعندما لم يلمح المظروف الأصفر المعهود امتقع وجهه ثم اصفرت سحنته كمن أصيب بشلل مفاجئ وهتف بي.

- أيها الوغد اللعين.. الأحسن أن تدفع لي وإلا سويت فضيحة بجلاجل.

- هيا.. يا شاطر. أخرج واستدع الشرطة. قل لهم أن جنابك عميل. جاسوس لحساب السوفييت ولسوف ترى. لمن تكون الفضيحة. هيا.

ومن يومها لم أر وجه العميل (السابق) أيدو من قريب أو من بعيد.

شريط العملاء

* ثم حدَّث ولا حرج عن يوم خرجت فيه إلى لقاء عميل آخر.. ورأيت أن استقل قطار المترو إلى ضاحية مجاورة لطوكيو. وشعرت بعد مدة أن أنظار الركاب ترمقني. وتركز على ملابسي. ماذا في ملابسي؟ لا بقع. ولا أوساخ. دققت كل الأزرار. والأكمام. كل شيء في مكانه، لماذا تحدق الأبصار في هيئتي؟ وحين انحدرت نظراتي إلى أقدامي أحسست كمن تلقى سطلاً من الثلج فوق رأسه.

ساق البنطلون كان يتدلى منه سلك بطول عشرة بوصات. وكانت تلك توصيلة غريبة بعض الشيء بالنسبة لسيد محترم يستقل قطار المترو تحت الأرض في عاصمة اليابان.

أصل الحكاية أن موظف الأمن الالكتروني في السفارة زودني باحتياطات الأمن

خوفاً من أن يُكشف العميل في مثل هذه المقابلات. وكان الجهاز عبارة عن صندوق أسود صغير في حجم وشكل «البليب» واسمه (يانجان)، وهو محطة اتصال لاسلكية مع مركز المخابرات السوفييتي في طوكيو التي ما أن تشعر بأن عميلها أو مندوبها في خطر حتى ترسل له بواسطة الشبكة فوق سطح السفارة السوفييتية بإشارة تجعل الذبذبات تسري في أوصال جهاز اليانجان المخبأ في سراويل المندوب الهام الذي يفهم في لحظة أن الأوامر تقضي بأن ينهي المقابلة على الفور ويمشي. وكان الجهاز مزوداً بدبوس تثبيت لتأمينه في مكان. .

ويشاء السميع العليم أن يقع هذا الدبوس ويترك العنان لسلك الهوائي يتدلى لتلمحه عيون ركاب القطار. لهذا تدارك يوري الأمر وفي أول محطة دخل إلى دورة المياه وعكف على تعديل الأوضاع اللاسلكية داخل السروال.

يتابع يوري:

- طيلة السنوات التي عشتها في اليابان كانت حياتي مليئة بالتوتر والكد والمعاناة. كنت أعمل ١٢ أو ١٥ ساعة في كل يوم. وكنت أرتب لمثل هذه المقابلات العصيبة تحت طائلة الخطر بواقع ٢٠ أو ٢٥ مقابلة كل شهر. مثل هذا النشاط المحموم كان يخالف قواعد أمن الجواسيس - للمندوبين والعملاء على السواء - لكن رؤسائي في مقر كي. جي. بي في موسكو كانوا شرهين بحاجة إلى المزيد والمعلومات. لهذا كانت حياتي تشهد أياماً أحس فيها بالزهو من قيمة المعلومات التي أبعث بها وقدرة العملاء الذين أسهر على إدارتهم، بقدر ما كانت تشهد كوابيس من الإنهاك والتوتر والإحساس بأنني أؤدي دوراً لم أخلق له، وأنني استحق أفضل وأكرم من خدمة نظام الكرملين الذي طالما كنت أشعر بالرفض له، ويراودني إزاءه شعور بالإحباط والعقم ثم الاكتئاب المتواصل. ثم ترجم نفسه في إحباط وإنهاك وفتور جسماني جعلني أعيش بقلب متسارع الضربات وأنهض ماشياً من نومي.

وذات يوم كنت أشاهد مع وحيدي الكسندر، فيلماً عن الطبيعة وعالم الحيوان، ورنت في مسمعي كلمات المعلق يقول:

في الغابة يسود قانون الصائد والفريسة، وكل ما في الغابة صياد. وكل ما فيها أيضاً فريسة. وشعارها كن ذئباً وإلا أكلتك الذئاب.

وهذا فصل من حياتي يجب أن يكون له ختام وينبغي لي أن ألتمس طريقاً أفضل بعيداً عن الأدغال، وقوانين الغاب.

ومن وقتها ويوري يفكر بطريقة الخلاص ولكنه استمر في حياته وعمله الجاسوسي في طوكيو حتى يحين موعد القرار الحاسم حيث يقول:

كانت استمرارية حياتي في طوكيو مقسمة إلى أربعة أقسام:

أولاً: ساعات طويلة أقضيها في مقر المخابرات السوفييتية «بيت الكي. جي. بي» كما كانوا يسمونه فيما بينهم وكان هذا البيت الإقليمي في طوكيو، صورة طبق الأصل أو تكاد عن البيت الكبير في موسكو. نفس الأحابيل ونفس المؤامرات ونفس الصراعات الداخلية حيث يكاد المواطنون يفترس بعضهم بعضاً.

ثانياً: الوقت الذي كان مستغرقاً في تجنيد العملاء من أهل اليابان كي يتجسسوا لحساب موسكو وينقلبوا على وطنهم الياباني.

ثالثاً: العمل الصحفي، وهو الغطاء الظاهري لمهنة التجسس، وكان من اللازم بذل كل جهد ممكن لإنجاز الأعمال الصحفية بكل احتراف وكل دقة واجتهاد، خوفاً من الانكشاف.

رابعاً: ما تبقى من ساعات وهي قليلة جداً كان يقضيها في بيته مع زوجته «ناتاليا» وابنه الوحيد الكسندر. وبمناسبة حياته الأسرية يعترف المؤلف أن مهنته وتوزيع وقته وتشتيت جهده كل هذا خلّف تأثيراً سلبياً على عائلته وعلى الروابط التي جمعته يوماً مع زوجته الشابة الجميلة التي بدأت تشعر بالعزلة عن الناس. ثم تشعر بحائط من الوحشية وبرودة العواطف وانقطاع التواصل يرتفع بينها وبين زوجها، إلى أن جاء اليوم الذي لوحت به بطلب الطلاق، وكانوا ينصحونه أحياناً بالذهاب إلى موسكو للترويح عن النفس والتماس قدر من الاستجمام. وفي موسكو كانت كوابيس المهنة تعاوده إذ كان يذهب للزيارة والتحية إلى مقر المخابرات السوفييتية وهناك كان يسمع نفس التساؤلات ونفس النصائح.

- لماذا لا تجند المزيد من العملاء؟

- لماذا لا ترسل فيضاً أكثر من المعلومات؟

ـ عندما تعود إلى طوكيو عليك أن تفعل هذا وإياك أن تفعل ذاك. وهكذا..

ثم يحكي عما ألم بحياة الاتحاد السوفييتي الداخلية من جمود وتصلب (وليس الصلابة)، وما لبث الجمود أن تحول إلى فساد داخلي حيث مد الجميع أيديهم طلباً لأي رشوة يستوي في ذلك البائع في المتجر الحكومي، أو رجل المرور الذي كان يرمز إلى السلطة وهيبتها في شوارع موسكو. وكان الأدهى في رأيه هو ذلك النفاق المسموم الذي كان يشاهده على شاشات التلفزيون والأخبار والتعليقات التي كانت تتناول عظمة الاتحاد السوفييتي وتشيد بقدراته وبعظمة الإنجازات الداخلية التي يحققها، وتتغنى برضا شعبه واستقامة أموره وبعبقرية القادة والزعماء، وكيف أن الحزب الحاكم هو الحارس الأمين والساهر اليقظ على مصالح البلاد في طهارة لا تبارى وذمة لا يشق لها غبار.

كل هذا كان يصيب صاحبنا بكوابيس تجعل من لياليه قطعاً سوداء من العذاب. أما النهار فكان له شأن آخر ـ بدأت فكرة الفرار تساوره، عليه أن يترك هذا كله. لقد تحقق أنه أمضى سنوات عمره حتى بلغ السابعة والثلاثين وهو في الجانب الخطأ يخدم بيروقراطية حزبية منافقة وزعماء لا يعرفون ما يفعلون ودولة دب الفساد في أوصالها من صميم الصميم حسب رأيه.

ومن هنا نتساءل بكل أمانة مع الفكر والتحليل. هل كان صادقاً حقاً. وهل اتخذ القرار ـ كما يقول بدافع من حبه العميق لوطنه روسيا ـ الأم ـ المقدسة، ذلك البلد الشجاع الصامت أمام المحن الذي يستحق أكثر بكثير مما يقدمه له القادة والزعماء.

لا مفر من أن نأخذ كلامه على علاّته مكتفين بأن نسند إليه ما يقول على أساس أن العهدة عليه كما تعلمنا في تراثنا. ولا مفر أيضاً من أن نتابع باحتراس علمي وفكري عملية تحوله من خدمة مخابرات بلاده إلى عملية هروبه ولجوئه إلى الطرف الآخر ـ الولايات المتحدة الأمريكية ـ وكل ما يمكن أن نعطيه من مصداقية لكلماته سوف يتمثل في حقيقة أساسية تقول:

إن الجاسوس يوري لم يكن يعاني أي مشاكل في مهنته من ناحية الترقي ولا من ناحية الدخل والأموال. بل العكس، قد يكون صحيحاً أنه كان ينتظره مستقبل

مزدهر ومبشر بوصفه رجل مخابرات ناجحاً في خدمة الكي.جي.بي. كما كانت حياته، قياساً إلى مواطنيه ـ رضية ميسورة ـ إذ كان هو وزوجته ينعمان بعضوية الحزب الحاكم وكان هو من النوع المرشح دوماً لمناصب في مواقع حساسة من بيروقراطية جهاز الدولة السوفيتية.

هذه الحقائق قد تدفعنا إلى أن «نبتلع» ما يسوقه المؤلف من عذابات كان يتعرض لها ومعاناة كان يكابدها وهو يمارس مهنته التجسسية ويرفض الاستمرار فيها ويعرب عن عدم قناعته بها. تلك المعاناة التي أوصلته إلى خريف ١٩٧٩ حيث كانت فترة انتدابه إلى طوكيو سوف تنتهي رسمياً في شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٩.

وبدأت فكرة التحول إلى المعسكر الآخر ـ الأمريكي طبعاً ـ تراوده ثم تسيطر عليه ثم تبحث لنفسها عن القرار المنتظر اتخاذه بغية التنفيذ.

لقد أزمع أن يترك موقعه إلى الأمريكان وحيداً بغير عائلته ـ ابنه الكسندر طفل وهو لذلك في أمان فلن ينكل به أحد. وزوجته شبه منفصلة عنه وهما على وشك الطلاق، وهي عضو كامل وثابت الولاء للحزب وبالتالي لن ينالها شيء إذا ما هرب إلى الجانب الآخر.

من هذا المنظور بدأ يطل كل يوم على الجانب السلبي ـ الأسود من مهنته، رأى كيف استدعوا زميلاً له ذات ليلة من مكتبه إذ كان يعمل وقالوا له:

ـ يا رفيق جاءت إشارة لاستدعائك إلى المقر في موسكو، وثمة سيارة بانتظارك على الباب. ومنها إلى المطار. وهاك التليفون خابر زوجتك وقل لها إنك في مهمة عاجلة وسرية أيضاً هيا ـ الدقائق معدودة ـ وذهب الرجل، ولم يسمع عنه أحد شيئاً.

واستطاع هو تجنيد صحفي ياباني كبير حصل منه على أخطر معلومات حول رشاوى ضخمة بالملايين كانت شركة أمريكية كبرى تعطيها لكبار الساسة والمسؤولين في اليابان لقاء حصول الشركة الأمريكية على عقود بالمليارات.

وعندما طيّر مؤلفنا هذه المعلومات لم يصدقها الرؤساء القاعدون في موسكو. وهنا لاح شبح السيف المسلط على عنقه، سيف ديموقليس كما تسميه أساطير اليونان. ذلك التهديد الماثل الدائم الذي لا يشعر المرء معه أن رأسه آمن بين كتفيه

ولم ينقذه من المصير المجهول سوى أن انفجرت قضية الرشاوى التي أصبحت تعرف في السياسية الدولية باسم فضيحة رشاوى شركة لوكهيد.

يتابع يوري:

- كان الزمن يمضي لاهثاً بسرعة غير عادية، وكنت أعمل ساعات طويلة بغير انقطاع، ساعات في غاية الإنهاك.. أعود بعدها مرهقاً مشلولاً، مشفقاً كاسف البال. مما سبب لي إرهاقاً في القلب وإحباطاً في النفس.

ولست أعرف حتى الآن أن أحدد النقطة التي وصلت بعدها إلى قراري بطلب اللجوء السياسي إلى الولايات المتحدة. كل ما أعرفه أن الأمر بدا وكأن رغبتي أو طلبي هذا كان يراودني منذ وقت طويل، ربما أطول مما كنت أظن وأتصور. وما أن اتخذت هذا القرار حتى رأيتني أسترد عافيتي الجسمانية والنفسانية على السواء. بل ما أن استقر عزمي على طلب اللجوء حتى راودني فيض من النشاط عجيب وغمرني شعور من الصلابة والانتعاش في إطار عملية التخطيط والتحضير لخطوتي التي أقدمت على اتخاذها تجاه حكومة الولايات المتحدة. وقد راودتني ساعتها الكلمة السحرية التي سبق ورددتها في بداية كتابي هذا كلمة «ميس» التي تعد مفتاح دوافع كل من يقدم على العمل في أجهزة الاستخبار من حروف هذه الكلمة، حرف يرمز إلى العقيدة، إلى القناعة الداخلية للفرد مما يدفعه إلى اتخاذ أخطر القرارات. شعرت أن هذا الحزن يخصني أنا بالذات بمعنى أنني قررت الانحياز إلى الطرف الآخر الذي تمثله الولايات المتحدة من منطلق عقيدة أو قناعة صميمية داخلية، وهذا ما حفّزني إلى طلب اللجوء السياسي من واشنطن. ويومها أيضاً أقسمت أنه لو قبلت الولايات المتحدة طلبي باللجوء السياسي فلسوف أنذر نفسي وأبذل كل ما يسعني لمحاربة نظام الاتحاد السوفيتي على نحو ما كنت بقادر ما بوسعي عليه لو بقيت داخل ذلك النظام.

ملاحظة: من أين للمخابرات السوفياتية أو غيرها من مخابرات العالم أن تعرف أن مثل هذا الضابط أو العميل سوف ينقلب عليها ويتحول إلى الطرف الآخر. الطرف المعادي بلغة المخابرات.

ونعود إلى يوري الذي يخطط لخيانة مخابراته وبلده حيث يتابع قصة هروبه إلى الغرب كما يقولون:

ـ بمعنى أن أقاتل في سبيل حرية بلدي وشعبي.

ـ كنت أدرك أن تنفيذ الخطوة التي أقدمت عليها لا بد أن يكون في غاية السرعة والمفاجأة وإلا . . . وهكذا بدأت العملية:

في صباح أحد الأيام صحوت من نومي فأدركت أن هذا هو اليوم الموعود . . وكان اليوم هو ٢٤/ أكتوبر من عام ١٩٧٩.

ولم أكن قد نمت سوى سويعات، إذ بقيت ساهراً حتى الرابعة صباحاً، وحين نهضت في الثامنة والنصف لم أقرأ الصحف كعادتي كل صباح. بل استغرقت وقت القراءة الصباحية في التفكير في العواقب وتقليب التساؤلات والتماس الإجابات بيني وبين نفسي.

سوف ألجأ إلى الأمريكان. . فماذا لو أن الكي.جي.بي المخابرات السوفيتية قد اخترقت الخدمة السرية الأمريكية وأصبحت من ثم قادرة على استعادتي إلى عرينها في موسكو؟ لم أكن أخشى الموت لكن كنت أخشى ما تفعله سلطات موسكو بنفسي وجسدي قبل أن أصل إلى أعقاب الموت. اللذيذ؟ كنت أخشى عمليات نزع إنسانية الإنسان وتحويله إلى شيء آخر كما في سجن لفرتوفو، في موسكو. . ولم يكن ما أخشاه وهماً أو بغير أساس، إننا لم ننسَ الدرس الخطير الذي حدث منذ سنوات قليلة. كولونيل سوفييتي قرر الهرب إلى الغرب وقبيل تنفيذه خطته. أبلغ عنه كيم فيلبي. الصحفي البريطاني الشهير الذي تكشف الأمر عن كونه جاسوساً سوفيتياً خطيراً بعد اختفائه من بيروت واستطاعت موسكو أن تنقل الكولونيل التعيس على متن طائرة خاصة من إسطانبول محقوناً بالمخدرات وملفوفاً في قميص المجانين.

كانت خبرتي في طوكيو تقول:

المخابرات السوفيتية لم تستطع اختراق عناصر المخابرات الأمريكية العاملة في اليابان، لكن هناك في مقر المخابرات المركزية الأميركية في مبنى لانجلي الشهير

بولاية فرجينيا من يضمن أن المبنى لا يضم عملاء من الأمريكان يعملون لحساب موسكو؟

استقر عزمي على أن أرتاد فندق سانو، إذ كان المحل المختار الذي يغشاه رجال السفارة الأمريكية وضباطها وموظفوها وعملاؤها أيضاً.

أمضيت نهار ٢٤ أكتوبر كله في جولتي المعتادة بين عملي الصحفي ومكتبي ثم جولة بسيارتي في الضواحي.

في الثامنة مساء رأيتني أصعد الدرجات المفضية إلى ردهة فندق «سانو» في طوكيو، شعرت أن في أمعائي كتلة من الثلج وأنا أدلف الصالة في طريقي للسؤال عن موظف الاستقبال. وإذ اقتادوني إلى غرفة كبيرة لمحت في داخلها ضابطاً بحرياً أمريكياً كبيراً. أدخلني عليه حارسه المهذب ودار الحوار التالي:

ـ أي خدمة أؤديها؟

ـ أقدم لك نفسي (يوري بريموف) مراسل مجلة سوفييتية في طوكيو، أريد على الفور محادثة ضابط مخابرات أميركي.

مرت لحظات تردد بعدها قال الضابط الكبير:

ـ تفضل معي.

وبغير تفاصيل ـ دخل صاحبنا على ضابط تبدو عليه ملامح الأرستقراطية ودار الحديث من جديد:

ـ اسمي روبرت.. هل من خدمة؟

ـ عفوا إذا طلبت منك بطاقة هويتك لأعرف مع من أتكلم.

أخرج حافظته ولمحت هويته (وتحققت أنه ضابط مخابرات أمريكي) فشرعت على الفور في ترديد العبارات التي طالما دربت نفسي عليها وهي: أنا لست فقط مراسلاً صحفياً سوفيتياً في طوكيو، ولكنني أيضاً ضابط برتبة مقدم في المخابرات السوفيتية اسمي يوري بريموف وأنا أطلب رسمياً اللجوء السياسي إلى الولايات المتحدة.

ـ يا إلهي، لقد سمعت باسمك طبعاً، لكن لم أكن أدري أنك تعمل في الكي.جي.بي اللعنة. وأنا الذي مفروض أن أعرف كل ضباط الاستخبارات السوفييت لكن يا سيد يوري هل يمكنك إثبات ما تقول؟

ـ لست أملك وثائق. ولا أملك وقتاً أيضاً، بل أنا في خطر داهم الآن. وكلانا يعرف أن الخطر يزداد مع كل ثانية تمر.

ولم يكن أمام ضابط المخابرات الأمريكي سوى أن يطرح أسئلة شفوية متلاحقة على صاحبنا المؤلف حول مقر المخابرات السوفيتية في طوكيو. ومن يديره وكم عدد ضباطه وما أسماؤهم وما اسم الرئيس الأكبر. بل ما هو لقب التدليل الحميم الذي يجب أن يناديه به أصدقاؤه الأقربون و. . . .

ـ سيد يوري. . أرجوك انتظرني حتى أعود.

اختفى روبرت ـ الأمريكي ٢٥ دقيقة كانت كالدهر كله. حافلة بالتوتر والترقب وأشباح الخطر المحدق الرهيب. وعاد روبرت وكان يرافقه ضابط آخر. . حاول مؤلفنا أن يقرأ في ملامح الرجلين أي أمارات بالأمل أوحتى القنوط. . لكن الملامح لم تبد شيئاً، أي شيء. ومرت لحظة صمت ثقيل. بعدها أمر روبرت الحراس بالخروج. وإحكام إغلاق الباب وبدت ملامحه في غاية الحدية وفتح فمه ليقول:

السيد المقدم يوري بريموف: (إن الولايات المتحدة الأميركية تمنحك رسمياً حق اللجوء السياسي).

لك أجزل الشكر على ما أبلغتني به لكنني أشعر ببالغ القلق. فأنت وأنا تعرف كيف يصيح اليابانيون إذا أرادوا أن يتسببوا في مشكلة ما، وإذا لم أخرج من اليابان قبل أن يكشف الكي.جي.بي أنني متغيب فإن الضغط الذي ستمارسه موسكو على حكومة اليابان سيكون من الشدة بمكان. لهذا فالسرعة في إخراجي من طوكيو أمر لازم، وكل ما أريده أن تتركوني أختفي. خذوني إلى قاعدتكم الجوية في آتسوجي. ضعوني على طائرة أي طائرة تذهب إلى أي مكان ما دام المكان خارج اليابان.

لقد كان الخروج من المطار الياباني في غاية الصعوبة، كان صاحبنا (الروسي سابقاً) يحمل جواز سفره الأمريكي الجديد لكن ضباط الجوازات اليابانيين استوقفوه

وبدأوا تحقيقاً معه على أرض المطار، وكلما طال الوقت، زاد عدد الضباط وتعمقت كثافة الاستجواب واقترب شبح التصفية من خواطره، فهو يعرف كم أن المخابرات السوفيتية لا تنسى ثأرها. ومع هذا كله كانت الاتصالات تجري لاهثة محمومة على أرفع المستويات بين الخارجية في واشنطن والخارجية في طوكيو. ومهما كانت التهديدات سترضخ طوكيو وتسمح لضابط المخابرات السوفييتي يوري بريموف بالخروج.

الطريف أن معظم رجال الشرطة اليابانيين لم يكونوا على علم بهوية ضابط المخابرات السوفييتي المجهول الذي يعمل ضد اليابان. وإنما كانت تعليماتهم أن يستوقفوا شخصاً للاستجواب يغادر على متن طائرة «بان أمريكان» المتجهة إلى كاليفورنيا غربي الولايات المتحدة.

الوصول الميمون إلى الولايات المتحدة

* في أول لقاء له في الولايات المتحدة مع مسؤول أمريكي رفيع المستوى في إدارة الأمن العام وليس المخابرات، هو المسؤول عن منحه الإقامة مبدئياً حيث دار هذا الحوار:

- لماذا لجأت إلى الولايات المتحدة؟

- طلبت اللجوء السياسي لأنني لم أعد أحتمل سياسات النظام السوفياتي، لكنني لست على استعداد لأن أخون الضباط الممتازين الروس الذين كنت أعمل معهم في المخابرات السوفيتية، ولا أنا على استعداد لأن أفشي أي شيء عن العملاء الذين جندتهم وتعاملت معهم في دار الكي.جي.بي في طوكيو كما أنني لن آخذ أي أموال من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

- هذا ولاء يدعو للإعجاب يا مستر يوري بريموف.

- أنا لا أزال ملتزماً أمام كل من ذكرت أخلاقياً وشخصياً وأريد تعهداً من المسؤولين بأن لا يكون في أي معلومات أدلي بها ما يضر بأي فرد ممن ذكرت.

- وتريد تعهداً أيضاً من حكومة أمريكا؟

- وإلا لجأت إلى الأمم المتحدة وطلبت مساعدتها كي تضعني في بلد غير شيوعي آخر.

- وتريد أي شيء آخر؟

- نعم. أريد مقابلة رجل دين من الكنيسة الروسية الأرثوذكسية.

كانت الأيام الطويلة مشحونة بالمهام الصعبة التي يواجهها عادة أي جاسوس سابق ترك خدمة وكالته الأصلية التماساً لخدمة نظام آخر جديد. شهدت تلك الأيام جلسات مطولة مشحونة بالتوتر وهي جلسات الإفضاء بالمعلومات والبوح بالأسرار. بدأت الجلسات بإخضاع مؤلف كتابنا لاثنين من أجهزة كشف الكذب، ثم مقابلات وجلسات مع أخصائي نفسي، ثم تحقيقات واستجوابات وفحوصات لا أول لها ولا آخر ولكنها ترمي إلى كشف نقطتين جوهريتين:

الأولى: مصداقية اللاجئ السياسي السوفييتي.

الثانية: كمية ونوعية المعلومات والأسرار التي أتى بها إلى أميركا.

أما صاحبنا فيقول إنه كان يشعر من حوله بهدير عجلة المخابرات الأمريكية وتروسها تدور من حوله تمحص ما يقول، وتقرره وتخضعه للبحث والمقارنة والتحقيق والتقديم. لكنه كان يتوق إلى إغلاق ذلك الملف الذي يحمل اسم يوري بريموف ومن ثم يخرج إلى الحياة باحثاً عن عمل جديد. لكن على من؟ لم تكن السفارة السوفيتية في أمريكا ساكتة على ما يجري. بل كانت اتصالاتها تدور من خلف الكواليس. ومن وراء الأبواب المغلقة بل دارت الاتصالات عند المستويات الأعلى، بين وزارة الخارجية والبيت الأبيض من جهة وبين الكرملين وقيادة الاتحاد السوفيتي من جهة أخرى. لقد فاتح السوفييت وزير خارجية أمريكا في ذلك الحين سايروس فانس في أمر جاسوسهم الهارب.

أرادوا أن يلتقوا به من خلال مندوبين خاصين، ولما لمسوا فتوراً من فانس. ألمحوا إلى أنهم سوف يرفعون الأمر إلى الرئيس جيمي كارتر شخصياً في البيت الأبيض. في ذلك الحين دار صراع خفي بين الأجهزة الأمريكية ذاتها.. كانت

الخارجية تحبذ لقاء يوري بالسوفييت بل وتقديم بعض التنازلات في موضوعه خوفاً من انتقام السوفييت وخشية على أرواح وسلامة الأمريكيين في الاتحاد السوفييتي.

وكانت المخابرات الأمريكية ترى في يوري رجلها الذي استطاعت أن تأتي به صيداً ثميناً وغنيمة سائغة من طوكيو إلى واشنطن، وأنه وافاها بفيض من المعلومات لا عن نشاط الاتحاد السوفييتي في طوكيو فقط. بل عن مؤسسة الاستخبارات السوفيتية بكل خطواتها. صحح معلومات وأضاف بيانات وقدم بروفيلات وتحليلات عن شخصية كبار العاملين في مخابرات موسكو وعن أساليب عملهم وطرائق تصرفهم والتكتيكات التي يستخدمونها في حرب الدهاء الخفية التي كانت مشتعلة بين الجانبين.

ربما من حسن حظ يوري أن انتصرت وجهة نظر (كارلوتشي) رئيس المخابرات في عهد كارتر الذي أصدر توجيهاً إدارياً ملزماً لتحصين يوري من أي ضغوط من هذا النوع بوصفه لاجئاً سياسياً.

لكن يوري جهد في أن يلتقي بممثلي سفارة بلاده. وفعل ذلك من تلقاء نفسه وكان الهدف هو الاطمئنان على زوجته ناتاليا ووحيده الصبي «الكسندر» وسلموه في أول لقاء خطاباً من زوجته تدعوه فيه إلى العودة.

وكان واضحاً أن الكلمات من إملاء المخابرات السوفييتية ثم تلقى خطاباً آخر بوسيلة التهريب أوضحت سطوره أن عائلته الصغيرة تعيش في الجحيم.

وتحت مراقبة مستمرة، وملاحقات لا تنتهي وإهانات. كل الناس تخلوا عنهم. ومواردهم أصحبت أقل من القليل.

هكذا تحقق الرجل من أن موسكو لا تزال تحتفظ بابنه وزوجته رهينة ولو على سبيل الرد أو حتى الانتقام. كيف لا ـ وقد عرض هو من جانبه سمعة موسكو وأجهزتها لضروب الكشف والهوان؟ لهذا كان منطقياً أن تعلن موسكو أيضاً محاكمته غيابياً بتهمة الخيانة العظمى. وصدر الحكم في عام ١٩٨٣.

وكان حكماً بالإعدام بطبيعة الحال وهو الحكم العادي لأمثاله من الهاربين.

أخذ بعد ذلك يعيش حزيناً على عائلته، وهو يأسى أكثر على ما سببه لهما من

شظف العيش وقسوة الحياة على مستوى الجسم والنفس على السواء، لا تزال ترن في أذنيه كلمات زوجته على الهاتف الدولي وهي تصف له ما آلت إليه أحوال أسرته الصغيرة التي سبب لها كل هذا الشقاء، لا يزال يشعر بحزن عامر إذ يتذكر أن ابنه هو على أبواب الجامعة يحال بينه وبين الدراسة لأن أباه محكوم عليه بالإعدام بسبب جريمة الخيانة العظمى.

من ناحية أخرى يشعر الرجل أحياناً بأنه «كسب» فضيحته ضد النظام السوفييتي بكل أجهزته ومؤسساته وإداراته والحزب المهيمن على أقداره. لقد استطاع أن يهرب ولكنه لم يركن إلى حياة من الدعة والخمول أو الخمود ـ بل رفض أصلاً أن يعيش حياة الاختباء أو التنكر ـ ظل ينتظر اليوم الذي يتاح له فيه الظهور علانية أمام الناس لكي يقول رأيه في النظام الذي خدمه أولاً. ثم اختار أن يناصبه ألدّ العداء.

وجاء ذلك اليوم عام ١٩٨٣ عندما دعوه للادلاء بشهادته أمام لجنة المخابرات في مجلس النواب الأمريكي حيث استغرقت الشهادة يومين كاملين، ثم نشروها في كراسة مفعمة بالمعلومات حول الإجراءات السرية التي يتخذها الاتحاد السوفييتي للحفاظ على مصالحه وخاصة الدائرة منها تحت الأرض. وكم كانت سعادته عندما تذكر القوم أنه صحافي محترف مع كونه كان جاسوساً محترفاً أيضاً. لهذا استدعته مجلة ريدرز دايجست، (المختار في طبعتها العربية المعروفة) لكي يزامل أحد كبار محرريها بهدف وضع كتاب شامل بعنوان المخابرات السوفييتية اليوم: اليد الخفية.

وعندما ظهر الكتاب ـ يقول المؤلف ـ إنه احتوى أوصافاً غاية في الدقة لعمليات المخابرات السوفياتية في جميع أنحاء العالم فقد تمت ترجمته إلى لغات كثيرة منها اللغة اليابانية. وكان في هذا يضيف المؤلف أيضاً ـ ما فتح أعين القوم في كل أنحاء الدنيا على ما كانت تمثله لهم مخابرات موسكو.

على أن الكتاب أحدث ما يشبه العاصفة في اليابان، ربما لأن المعلومات المباشرة وطبعاً الموثوقة، التي أدلى بها المؤلف من واقع خبرته السابقة في طوكيو ـ هذه المعلومات كشفت جوانب سلبية كثيرة في المجتمع السياسي الياباني ـ كشفت عن رشوة زعماء الأحزاب، وعن عمالة بعض كبار الصحافيين وعن الاختراق السوفييتي للبنيان الثقافي السياسي ـ الاجتماعي لليابان، ومن ثم استغلال هذا كله

لخدمة مصالح السوفيات الاقتصادية. لهذا اختلف الفرقاء اليابانيون إزاء استقبالهم الكتاب، منهم من احتفى به بوصفه وثيقة تحوي دروساً مستفادة من ضابط مخابرات سوفييتي سابق، ومنهم من عزت عليه نفسه وسمعة بلاده فانطلق يشهر بالضابط السوفياتي يوري الذي خان بلاده وانضم جهاراً ونهاراً إلى معسكر أعدائها.

وكان يوري بين هذا وذلك يتحرك ويخطب ويحاضر ويتكلم، ويدلي بالتصريحات والبيانات لكنه كان في لحظة يحسب حساب انتقام رجال الكي. جي. بي. سادته السابقين كان يعرف كم هي واسعة أحابيلهم، وكم هي طويلة أيدي شبكاتهم. وكم هو عدد عملائهم المنبثين في كل انحاء العالم، كان المثل أو بالأدق الأمثولة شاخصة دوما في خياله. في قصة اغتيال عميلهم السابق أيضاً، «ماركوف»، عند الظهر بأحد شوارع لندن. كان ماركوف قد فر إلى انجلترا في عام ١٩٦٩. وعمل هناك مذيعاً في الإذاعة البريطانية لمدة تسعة أعوام كاملة. وفي ٧/ سبتمبر/١٩٧٨ كان ماركوف ماشياً في أحد الشوارع المزدحمة في العاصمة البريطانية فاحتك بكتفه سيّد مهذب مست مظلته الأنيقة ساق ماركوف، واعتذر السيد المهذب بأدب وتحسس ماركوف خدشاً سطحياً على ساقه واختفى الاثنان في الزحام.

بعد يوم نقلوا ماركوف إلى المستشفى وبعد يوم آخر مات ماركوف مقتولاً بحقنة سم تلقاها في ساقه من مظلة سيد مهذب مجهول.

كم كان يوري يستعرض هذا كله وتتخايل أمامه الرؤى والأشباح والكوابيس أيضاً. هنا يمكن أن تكون نهايته. عند هذا الركن. ذلك المنعطف، تلك الزاوية، هذا الشارع المعتم.. ثم ماذا عساها تكون أداة الإعدام؟ مظلة بلغارية؟ أم سيارة هائمة؟ أم اختطاف وقتل يبدو وكأنه انتحار. وسط أخبار تصدر عمداً عن حالة الاكتئاب الشديد التي أصابت جاسوساً سوفياتياً سابقاً يعيش لاجئاً في الولايات المتحدة؟

ولم يكن الاكتئاب بعيداً عن المقدم يوري الهارب كيف لا وقد استدعوه ليعمل في شركة أبحاث حول السياسة الدولية. وشمّر صاحبنا عن ساعد الجد وشحذ قريحة المخابراتي السابق وكتب الدراسات والتحليلات والتقارير المستفيضة، ثم تبين أنها كلها حبيسة الأدراج وإذ واجه صاحبة الشركة في ثورة عارمة واجهته هي بكلمات ربما كان وقعها أمضى وأشد أيلاماً من نصل المظلة البلغارية إياها:

مستر يوري نحن لم نستخدمك لنفيد من عبقريتك. ولا مواهبك، وجدناك بلا عمل فرأينا أن نفيدك ببعض الأموال.

ـ أنا رجل محترم. وأنا كنت. .

ـ حسبك ولا تزد. ربما كنت وكنت في موسكو وطوكيو. لكنك بالنسبة لنا كنت مجرد واجهة. . بصراحة كنت طعماً نصطاد به الزبائن.

وطبعاً كانت القطيعة من غير عودة.

وبعد ذلك لعل أهم مهمة قام بها يوري كانت لحساب المركز الوطني الأمريكي للمعلومات الاستراتيجية وهو واحد من غابة المراكز البحثية العديدة المنبثة في أنحاء الولايات المتحدة، وكلها يستفيد منها عند اللزوم واضعو السياسات وصانعو القرارات.

كان المركز يعكف على دراسات حول المخابرات وأساليبها، لا في مجال العمليات السرية التي تسمى في أدبيات الاستخبار باسم «العباءة والخنجر» ولكن المعلومات الأمنية والرسالة الإعلامية والاتصال الجماهيري في دنيا المخابرات. من هنا عكف يوري على إصدار نشرة بعنوان «التعليم والتضليل الإعلامي» وكانت تركز على أساليب التعمية الإعلامية التي كانت تمارسها المخابرات السوفياتية في حربها السيكولوجية والإعلامية ضد الغرب

والآن ما هو الحساب الختامي لرحلته هذه المثيرة؟

هل هو سعيد بحياته في أمريكا؟ وهل؟ وهل؟. .

أبداً لم يكن الهارب كما يجب أن نسميه سعيداً في حياته، حيث يقول في نهاية كتابه: ـ طيلة سنوات اللجوء إلى الولايات المتحدة وحتى الآن (أي حين تحرير كتابه الذي قدمنا تفاصيله) عشت وعكفت على أشياء وعادات أوصلتني إلى التعب والإجهاد، حتى آمن على حياتي. . لقد مللت أن أسند ظهري إلى حائط أي مطعم أدخله خشية إطلاق النار عليّ من مسدس كاتم للصوت، وكم مللت من ألوان التنكر التي كنت ألجأ إليها حتى لا يتعرف أحد عليّ في المناسبات العامة التي كنت أضطر لحضورها.

وكم مللت تغيير سكني عدة مرات في كل سنه فلم أشعر يوماً بالاستقرار، وأيضاً مللت من لعبة القط والفأر التي ألهبها معهم وأتصور أن هناك من يلعبها معي . . لقد مللت من الملل نفسه.

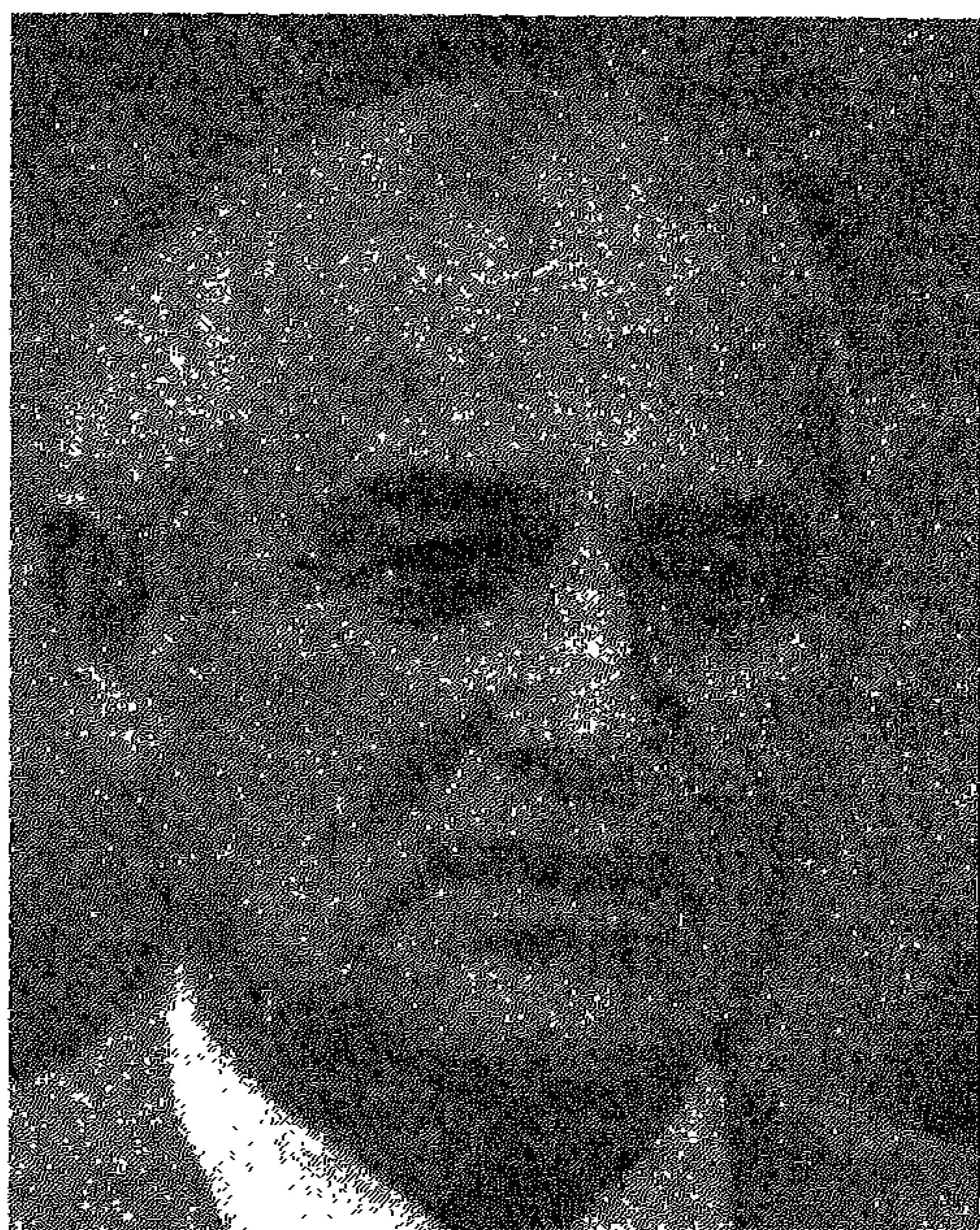
هكذا ينهي المقدم (يوري بريموف) قصته مع المخابرات الأمريكية التي لا يزال يعيش في حمايتها بطبيعة الحال لأن (العرف السائد) أن أي مخابرات في العالم لا تتخلى عن الهاربين أو اللاجئين إليها وفي هذا الكتاب أكثر من قصة وعبرة عن ذلك . .



بريجينيف استمد سلطته من الحرس القديم



أندروبوف من مدير الكي جي بي إلى
رئاسة الاتحاد السوفياتي باليد الحديدية



الرئيس غورباتشوف، وداعاً للاتحاد السوفياتي

الفصل الخامس عشر

المخابرات في الولايات المتحدة من أيام واشنطون

* إن الطابع الفردي التحرري للشعب الأميركي قد ساهم في صيغ المخابرات الأميركية بصيغة مميزة. فلا غرفة سوداء ولا أجهزة مختصة في المرحلة الأولى لهذه المخابرات (أيام تأسيسها في القرن الثامن عشر والتاسع عشر).

أول بداية لهذه المخابرات كانت في آب (أوغسطس) من عام ١٧٧٥، عندما تلقى صاحب فرن يدعى غودفرى ونود زيارة فتاة كان قد تعرف عليها في الماضي. طلبت هذه الفتاة من غود فرى أن يعرفها على بعض الضباط الإنكليز بغية إيداعهم رسالة كانت في جيبها. لكن صاحب الفرن أقنع الزائرة بتسليمه الرسالة بعد أن تعهد لها بإيصالهاإلى حيث تريد. وهكذا. لكن غود فرى، مدفوعاً بفضوله، فتح الرسالة بشكل دقيق. وكم كانت دهشته عندما رأى فيها رموزاً غريبة من أحرف يونانية وإشارات غير مفهومة وأرقام. وبعد خطوات عديدة ومتنوعة قام بها لدى الكثير من المراجع الرسمية، تمكن من الوصول إلى الرئيس جورج واشنطن وسلمه الرسالة.

لم يستطع واشنطن، هو الآخر، فهم شيء من الرسالة، فأمر بجلب الفتاة لاستجوابها. لم تكن المهمة سهلة. فقد أصرّت على الإنكار وكررت أنها لا تعلم شيئاً عمن كتب الرسالة أو سلمها إياها. غير أن تكثيف التحقيقات في ما بعد أدى بها إلى الاعتراف. كاتب الرسالة هوعشيقها الدكتور بنجامين تشارش. كان لهذا الاعتراف وقع الصاعقة على جورج واشنطن. إن تشارش هذا كان مديره الخاص لشؤون المستشفيات وهو طبيب في بوسطن وعضو في مجلس ماساشيوستس وزميل لكل من صمويل آدمس وجون هانكوك في مجلس المندوبين الجديد. فهل يعقل أن يكون رجل كهذا متورطاً في مخابرة سرية وربما في خيانة وطنية؟ مهما يكن من أمر، فقد أوقف تشارش وبدىء بالتحقيق معه.

اعترف بأنه كاتب الرسالة وأنها موجهة إلى أخيه فليمنغ، على الرغم من أنها كانت معنونة باسم الميجور موريس كان في جيش صاحبة الجلالة في بوسطن. لكنه أصرّ على رفض الإفصاح عن محتواها.

لجأ واشنطن إلى الأب صمويل وست لفك رموز الرسالة. ومن سخرية القدر أن يكون تشارش زميل دراسة لوست عندما كانا في هارفرد. من جهة ثانية، وبناء لطلبهما، كلف واشنطن جيري وبورتر، وهما ضابطان أميركيان، بفك رموز الرسالة ذاتها.

في الثالث من تشرين الأول - أوكتوبر، تلقى واشنطن الترجمتين، وكانتا مطابقتين الواحدة على الأخرى. كانت الرسالة تحوي معلومات لقائد القوات البريطانية عن (التموين الأميركي بالذخيرة وعن التجنيد وأسعار العملة ومشروع خطة لغزو كندا). كما كانت تحوي معلومات عن عدد المدافع في منطقة نيويورك وقوة حامية فيلادلفيا والجوّ المعنوي في المجلس القومي. وتنتهي الرسالة بهذه الجملة: «كن شديد الحذر وإلاّ فقدت حياتي».

بعد افتضاح أمر تشرش، طرد من المجلس التشريعي لولاية ماساشيوستس. كما رفض من قبل الكونغرس طلب باسترداده تقدم به الإنكليز. وفي عام ١٧٨٠، حكم عليه بالنفي، وبالإعدام في حال التكرار. غير أن السفينة الصغيرة، التي كانت تنقله، غرقت في ظروف لم يفصح عنها (الأصح أنّ المخابرات أغرقته وتخلصت منه) وهكذا كان تشرش أول ضحية أميركية في قافلة ضحايا المخابرات الأميركية.

حادثة أخرى من حوادث الخيانة في تاريخ المخابرات الأميركية قديمة، كان بطلاها الضابط الأميركي في وست بوينت بنديكت أرنولد والضابط البريطاني جون أندريه. كانت هذه مراسلات مرمزة اكتشفت، وكانت عبارة عن مساعدة أرنولد للبريطانيين على تسليمهم وست بوينت. أما النتيجة فكانت إعدام أرنولد شنقاً، في حين تمكن أندريه من إنقاذ حياته. لكنه جُرّد من حقوقه المدنية وعاش بقية عمره منبوذاً.

كان الأميركيون، خلال حرب التحرير في القرن الثامن عشر، على قدر كبير من التخلف بالنسبة للإنكليز، الذين كانوا قد قطعوا شوطاً كبيراً في مضمار المخابرات وفنونها. ومع ذلك، فقد لمع منهم نسبياً صمويل وودول وروبرت

تاونسند وجيمس لوفيل. هذا الأخير ساعد السلطات الوطنية مساعدة جلّى في إفشال الخطة التي كان اللورد كورنواليس قد وضعها للهجوم على الكارولين. في البداية، لم يستطع أحد في أجهزة الثورة من الأميركيين فك رموز الرسائل التي ضبطوها من بعض العملاء. وقد اشتكى من هذا الواقع قائد القطاع الجنوبي، الجنرال غرين، في رسالة إلى الكونغرس. غير أن لوفيل تمكن من كشف محتوى هذه الرسائل. ويعود له الفضل في لفت نظر جورج واشنطن إلى أهمية إنشاء جهاز المخابرات، لما في ذلك من فائدة لتقطيع الاتصالات التي يجريها العدو ما بين وحداته، وكذلك في تطويق خططه. ويروي تاريخ الثورة الأميركية كيف أن فك رموز رسالة، وجهها القائد الأعلى للقوات البريطانية في أميركا إلى أحد أعوانه عن خطة لسحق الثوار الوطنيين، عندما كان الإميركيون (ثواراً) ضد الإنكليز (في حينه) من قبل لوفيل بالتعاون مع بعض الاختصاصيين الفرنسيين، قد أتاح لقائد الأسطول الفرنسي في الشاطئ الأميركي، دي غراس، من أن يكون جاهزاً قبل الوقت المحدد لهجوم الأسطول الإنكليزي وبالتالي، من أن ينزل بالإنكليز هزيمة نكراء.

وأهم رسالة سرية سطرها تاريخ الاستقلال الأميركي وكان لها في حينها ضجة كبرى، كانت الرسالة التي أرسلها بير إلى ولكنسون. كان بير يزمع تأسيس إمبراطورية في الجنوب في المستعمرات الاسبانية، وقد تحالف في ذلك مع ولكنسون. وضع خطته وأرسل تفاصيلها إلى شريكه. غير أن هذا الشريك كان عميلاً للسلطة الثورية. لهذا، كشف الأمر للرئيس جيفرسون، بعد أن شوّه مقصد بير، ألا وهو ضم الأراضي العائدة لإسبانيا إلى الولايات المتحدة، ووضعها بالتالي تحت سيطرة السلطة الشرعية فيها. ألقى القبض على بير وحوكم كخائن. غير أن ولكنسون خلال إعادة المحاكمة، اعترف بما فعل وبرر ذلك بتخوفه من أن يتورط في خطة غير مضمونة الأهداف، وقد بُرِّئ بير. لكن الرأي العام استمر في إلقاء الظلال على إخلاصه، فكان حكمه أقسى من حكم المحكمة، وظل بير، الذي سبق أن كان نائباً للرئيس سنة ١٨٠٠ بعد أن هزم أمام جيفرسون، بقية حياته في الظل يلوك خيبته ويدفع ثمن مغامرته. وعلى ذكر الرئيس جيفرسون، تجدر الإشارة إلى أن هذا الرئيس وضع تصميماً لأسطوانة تستعمل لفك الرموز، لا يزال الجيش الأميركي حتى اليوم يستخدمها، كما يستخدمها عدد غير قليل من أجهزة المخابرات الأميركية.

بعد القصف التاريخي لفورت سامتر، والشعور بالحاجة إلى تنمية المخابرات، لمع اسم أنسون ستاجر، الذي ابتدع مع زملاء له نظاماً ترميزياً جديداً نال الإعجاب وكان مقتصراً على الاستعمال العسكري، وعام ١٨٦٣، أرسل الرئيس إبراهام لنكولن رسالة إلى مسؤول عسكري في إحدى الولايات، يطلب منه إطلاق سراح مراسلين صحفيين كانا قد أوقفا، وذلك باستخدامه نظام ستاجر.

وتدليلاً على شعور المسؤولين بأهمية المخابرات، فقد جعل الرئيس لنكولن مقره شبه الدائم، أثناء الأيام العصيبة، مركز شركة اتحاد البرق الغربية، التي كانت تتولى إرسال واستقبال الرسائل البرقية من عادية وسرية. كان يأتي كل يوم إلى هذا المقر القريب من البيت الأبيض، ولم يكن يترك خلال الحرب الأهلية، أية رسالة فيه إلا ويقرأها. وعندما ينتهي من قراءة كل الرسائل، كان يطيب له أن يدردش مع الفنيين الثلاثة في المركز هومر وتنكر وشندلر، الثالوث المقدس، كما كانوا يطلقون على أنفسهم.

في كانون الأول - ديسمبر من عام ١٨٦٣، وبينما كان أحد موظفي البريد يفرز الرسائل اليومية الواردة، وقع تحت نظره مغلف عليه عنوان واسم الكسندر كيث، المعروف باتصالاته بالثوار. نقل الموظف الرسالة إلى المخابرات، حيث جرت محاولات حثيثة لفك رموزها، ولكن دون جدوى. أخيراً، كلف الثالوث المقدس بالمهمة فنجحوا فيها. وقد تبين أن الرسالة تحوي معلومات هامة عن سفن بخارية تنقل أسلحة إلى الثوار، مع تفصيلات وافية عن خط إبحار هذه السفن وتواريخ وصولها والأشخاص المولجين بها وسوى ذلك من المعلومات المتعلقة بالموضوع.

هذه الرسالة استدعت اجتماعاً خاصاً للحكومة، وأرسل وزير الحرب إلى نيويورك لإجراء تحقيق بالموضوع. في هذه الأثناء، كانت رسالة سرية أخرى قد ضبطت، وفيها معلومات عن مركز لصك العملة مجهزاً تجهيزاً تاماً، يقع في نيويورك. جرت مداهمة المركز بحضور وزير الحرب وصودرت محتوياته. وبذلك حرم الثوار من عنصر هام بالنسبة إليهم للاستمرار بعملياتهم. أما الثالوث المقدس فقد تلقى كل منهم مكافأة سخية، وكانت عبارة عن (٢٥) دولاراً في الشهر علاوة على رواتبهم (في حينه).

في ٧ تشرين الأول ـ أوكتوبر ١٨٧٨، طلعت صحيفة نيويورك تريبيون قراءها بخبر اهتزت له الأمة بكاملها: «ضبط البرقيات السرية». هذه البرقيات تتعلق بأشهر حملة انتخابية في تاريخ الولايات المتحدة. وقد لعبت دوراً أساسياً في السياسة الأميركية. كانت نتائج انتخابات سنة ١٨٧٦ الرئاسية مرتكزة، في ترجيح الفائز، على الأصوات المتنازع حولها، العائدة لولايات فلوريدا ولويزيانا وكارولينا الجنوبية والأوريغون. وبغية حسم الموضوع، ألف الكونغرس لجنة خاصة درست الموضوع وصوّت أعضاؤها، كل حسب انتمائه السياسي، فكانت النتيجة أن أضيفت الأصوات الاثنان والعشرون إلى هايس، المرشح الجمهوري، الذي نجح بأغلبية صوت واحد في الاقتراع الأولي.

أمام الضجة والصخب اللذين عما الدورة التشريعية التالية للانتخابات. شكل الكونغرس لجنة للتأكيد في حقيقة الشائعات ذات المصدر الديموقراطي والدائرة حول شراء الأصوات من قبل الحزب الجمهوري. إثر المباشرة بالتحقيق، تلقت اللجنة (٦٤١) برقية متبادلة بين رجال السياسة وعملائهم في الولايات الأربع موضوع الجدل، مقابل ذلك، وصل إلى جريدة نيويورك تريبيون (٢٧) برقية سرية صادرة عن الحزب الديموقراطي.

قبل بضعة أسابيع، كان مانتن ماربل، أحد المستشارين السياسيين المقربين من المرشح الديموقراطي تيلدن، قد كتب رسالة إلى جريدة «صن» في نيويورك يكشف فيها ألاعيب الديمقراطيين ضد الحزب الجمهوري في الانتخابات الرئاسية. نتيجة لذلك، ما كان من وايتلوريد، رئيس تحرير التريبيون، إلا أن كتب سلسلة من الافتتاحيات التي ضمنها هجوماً عنيفاً على الديموقراطيين. ولم يكتف بهذا الحد، بل سعى، بواسطة محازبين جمهوريين، إلى الحصول على بعض مراسلات الحزب الديموقراطي السرية، بعد تفكيك رموز هذه الرسائل وترجمتها إلى اللغة العادية، تبين أن الديموقراطيين حاولوا، وبواسطة ماربل نفسه، شراء أصوات في الانتخابات. هذا السرّ الذي كشفته النيويورك تريبيون، كان كافياً لفوز الجمهوريين. وهذا ما حصل. ومعركة انتخابات الرئاسة عام ١٨٧٦ أصبحت أشهر انتخابات في تاريخ الانتخابات الرئاسية الأميركية الطويلة (وقد تكررت هذه السرقة أيام الرئيس نيكسون).

أشهر من عَمِل في الشيفرة من الأميركيين في المرحلة المتقدمة كان هربرت أوسبورن ياردلي. ولد في ١٣ نيسان - إبريل من عام ١٨٨٩ في ولاية أنديانا. في نيسان - إبريل من عام ١٩١٧. أي بعد قليل من دخول أميركا الحرب، وبعد أن اعتلى مناصب رفيعة في أجهزة المخابرات، اقترح على وزارة الحربية الأميركية إنشاء دائرة للمخابرات العسكرية، فقبل اقتراحه. وعين ياردلي نفسه رئيساً لهذه الدائرة (المخابرات العسكرية).

تحت وطأة الظروف وضغط الحاجات المستجدة، توسعت هذه الدائرة توسعاً أفقياً كبيراً بالإضافة إلى التوسع العمودي الناتج عن الخبرات التي تكونت لعناصرها بالممارسة المرصوصة والجدية. ويروى أن اكتشاف ورقة في حذاء امرأة مكسيكية عميلة للمخابرات الألمانية كان في أساس إنشاء قسم الحبر السري في المخابرات الأميركية. فقد كانت الورقة رسالة مكتوبة بهذا النوع من الحبر، وهذا الاكتشاف يتطلب حتماً عدم ترك الأمور تجري بحيث يسبقها الركب. لقد وصل هذا القسم إلى معالجة ألفي رسالة في الأسبوع، كان بعضها مكتوباً على القمصان أو السراويل، والبعض الآخر على الثياب الداخلية، أو الجوارب، بالإضافة إلى ما كتب منها على الورق.

وأشهر رسالة اكتشفت كانت تلك التي أدت إلى توقيف الجاسوس الأميركي لوثار ويزكي، الذي كان يعمل لحساب الألمان تحت اسم بابلو فايرسكي، والذي، كذلك، اشتبه به على أنه منفذ انفجار بلاك توم ايلند الشهير في ٣٠ تموز - يوليو سنة ١٩١٦، حيث انفجرت كمية من الديناميت قُدِّر وزنها بألف كلغ وضعت في شاحنات جرى إيقافها على أرصفة مرفأ نيويورك. وقد اتهمت الحكومة الأميركية آنذاك المخابرات الألمانية بهذه العملية.

لم يكن فك رموز رسالة فايرسكي بالأمر السهل، فقد حاول الكثيرون ذلك، إلى أن استطاع مانلي ما لم يستطعه الآخرون، اكشف على أثرها أن فايرسكي عميل ذو شأن من بين عملاء الألمانيا، وأنه ينتحل اسماً وشخصية روسيين. حكم عليه بالإعدام، غير أن الرئيس ويلسون خفض الحكم للمؤبد. لكن فايرسكي أخرج من السجن في سنة ١٩٢٣ بعد مرور سبع سنوات بعفو آخر.

في آب ـ أوغسطس سنة ١٩١٨، سافر ياردلي، المسؤول عن المخابرات الأميركية، إلى باريس ليقف على حقيقة الأوضاع الخاصة بالعلاقة بين الحلفاء والولايات المتحدة في موضوع التعاون العسكري. وبقي هناك إلى ما بعد إعلان الهدنة ليرأس مكتب الشيفرة الملحق بالوفد الأميركي إلى مؤتمر السلام. وبعد عودته إلى بلده، تقدم باقتراح متكامل لإنشاء «جهاز دائم للتوثيق والابحاث الخاصة بالرموز والشيفرة». بعد ثلاثة أيام فقط من تقديم الاقتراح، جرت الموافقة عليه من قبل وزير الخارجية آنذاك، فرتك بولك. بعد ذلك، وفي الأول من تشرين الأول ـ أوكتوبر، استقر هذا الجهاز، الذي أصبح يعرف في ما بعد بالفرقة السوداء الأميركية، في نيويورك، ٣ شارع ٣٨ الشرقي، ثم في بناية من أربعة طوابق ـ ١٤١ شارع ٣٧ الشرقي.

أولى مهمات هذا الجهاز كان التصدي للمراسلات السرية اليابانية، بعد أن تدهورت العلاقات بين البلدين. لم يكن الأمر سهلاً. لكن ياردلي تعهد بأن ينجح أو يستقيل. وقد أعطى لنفسه مهلة سنة واحدة. لم تمض المهلة إلا وكان ياردلي وفريقه قد توصلوا إلى كشف أسرار مخابرات اليابان. لقد استطاعت الغرفة السوداء الأميركية في الفترة ما بين عامي ١٩١٩ و١٩٢٩ أن تفك رموز أكثر من (٤٠،٠٠٠) رسالة وبرقية من دول عدة أهمها ألمانيا والأرجنتين والبرازيل وتشيلي والصين وكوستاريكا وكوبا وإسبانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى واليابان وليبيريا والمكسيك ونيكاراغوا وباناما والبيرو والسان سلفادور والسان دومنيك والاتحاد السوفييتي، كما وضعت دراسة أولية عن عديد من نظم المخابرات بما في ذلك مخابرات دولة الفاتيكان.

لكن الطريقة والسرعة اللتين انتهى بهما هذا الجهاز كانتا موضع استغراب من الجميع. فبعد أن كان ياردلي يلقى تعاوناً وثيقاً من شركة اتحاد البرق الغربية وشركة البرق البريدية، أصبح يلقى منهما الكثير من الصعوبات ويصطدم بالكثير من العقبات. لقد تسلم الرئيس الجديد هربرت هوفر مهام منصبه، فرأى ياردلي أن يكتب إليه مباشرة موضحاً له أهمية المخابرات والمنجزات التي قام بها في السابق. وبدلاً من أن يلقى تجاوباً من الإدارة الأميركية الجديدة، إذ به يفاجأ وهو جالس في أحد المقاهي، بأول خطاب يلقيه الرئيس الجديد بالراديو وفيه تلميح لموقفه من المخابرات، وهو موقف غير مشجع أساساً.

وعندما تسلم هنري ستيمسون وزارة الخارجية في حكومة هوفر، وبعد أشهر من هذا التسلّم، ظن ياردلي أنها كافية ليفهم الوزير الجديد أهمية المخابرات. إذ به يستشيط غيظاً وهو يتسلم رسالة سرية هامة فكت رموزها وقدمت إليه، ويتساءل باستغراب: هل عندنا غرفة سوداء؟.

لقد انطلق ستيمسون من مبدأ طالما آمن به وهو أن أميركا بلد حر وأنه لا يجوز أن يكون فيها جهاز للمخابرات، باعتبار أنه، بنظره، لا يجوز التجسس و«هتك حرمة الآخرين» حتى ولو كان ذلك لأهداف وطنية عليا. وهكذا منع ستيمسون عن الغرفة السوداء كل عون مالي، ولم يكن من بد إثر هذا الموقف الثابت والحاسم إلا أن تحل الغرفة.

قَبِل ياردلي بالقرار وهو مهيض الجناح، وعاد إلى بلدته في ورثتون. وهناك، عكف على كتابة أفضل ما كتب عن المخابرات الأميركية: «الغرفة الأميركية السوداء». نال هذا الكتاب نجاحاً كبيراً وأثار جدلاً في صفوف السياسيين والقادة والمفكرين.

ولما كان في الكتاب أمور تمس الكثيرين، فقد هاجمه البعض وأيده البعض الآخر. لكن الضجة الكبرى حصلت في اليابان بصورة خاصة، على الرغم من ترجمة الكتاب إلى لغات أوروبية عدة ونشره في جميع أنحاء أوروبا وسائر القارات. هناك، وعلى أثر كشف الكتاب لكثير من الأسرار التي وضعت الغرفة السوداء يدها عليها خلال ممارستها لمهامها. بدأت الأزمات السياسية تنفجر من كل حدب وصوب.

وعندما أزمع ياردلي على نشر كتابه الثاني «أسرار الديبلوماسية اليابانية»، هب ستانلي هورنبك، خبير الشرق الأقصى في الخارجية الأميركية، وأطلق إنذاراً، مؤرخاً في ١٢ أيلول ـ سبتمبر سنة ١٩٣٢ـ حذر فيه من انعكاس نشر الكتاب على العلاقات بين الولايات المتحدة واليابان، لاحتوائه على كشف خطير لعدد من البرقيات اليابانية المرسلة خلال مؤتمر عام ١٩٢١ الخاص بنزع السلاح البحري. وقد منع نشر الكتاب فعلاً وأحيل كل من الناشر والوكيل على المحكمة الفدرالية العليا. لكن القضية طمست ولم تصدر المحكمة أي حكم بشأنها (ولم ينشر الكتاب).

من جهة أخرى، تقدمت الحكومة من الكونغرس بمشروع قانون يحظر على أيّ من العاملين في الدولة نشر أيّ مستند يكون قد اطلع عليه بحكم عمله، وإلا فإنه يعاقب بغرامة مقدارها عشرة آلاف دولار على الأقل أو بالسجن لمدة عشر سنوات على الأكثر أو بالعقوبتين معاً. والواقع أن وزارة الخارجية، عندما تقدمت بمشروع القانون هذا، كانت تستهدف ياردلي بالذات. وقد صوت على القانون بمرحلته النهائية واقترن بتوقيع الرئيس روزفلت في ١٠ حزيران ـ يونيو ١٩٣٣ وقد بقي هذا القانون معمولاً به حتى الآن.

غير أن ياردلي لم يكن آبهاً بكل هذه الإجراءات، مع ما رافقها من ضجيج وما أثارت من غبار كان مأخوذاً باكتشاف حبر سري من نوع جديد. وقد كلفه هذا الاختراع أحد أصابع يده اليمنى. بعدها حاول ولوج نطاق الأدب، لكنه لم يكن موهوباً في مخيلته، فقد جاءت القصتان، «شمس اليابان الحمراء» و«الكونتيسة الشقراء» دون المستوى المطلوب شكلاً وأساساً. في هذه الأثناء، كان التجسس قد أصبح مادة لمواضيع سينمائية، بما يحويه من صورة لجاسوسة حسناء ورموز سرية وعالم بفك الرموز خارق في مهنته. فأنتجت شركة مترو غولدن ماير فيلم «موعد»، بطولة وليم باول وروزاليندا راسل والفيلم من تأليف ياردلي نفسه.

وعام ١٩٣٨، حصلت مفاجأة غير متوقعة. لقد عين ياردلي من قبل شان كاي شيك، رئيس جمهورية الصين الوطنية، ليتولى فك رموز الرسائل العائدة للقوات اليابانية التي كانت قد غزت الصين. في هذه المرحلة تكشف صاحب أنظمة الشيفرة الشهير ومؤسس الغرفة السوداء عن انتهازية غير متوقعة. وعندما تنبه أنه باع نفسه لقاء حفنة من الدولارات، غادر الصين سنة ١٩٤٠ واستقر في كندا حيث أسس مكتباً لفك رموز رسائل عملاء الأعداء. غير أن الكنديين منعوه آسفين من ممارسة أي عمل على الأرض الكندية وذلك بضغط من قبل وزير الحرب الأميركي، ستيمسون، وكذلك من قبل البريطانيين. بعد ذلك، عاش ياردلي سنواته الأخيرة في الظل والقنوط، إلى أن مات في ٧ آب ـ أوغسطس سنة ١٩٥٨ في الميري لاند. وقد ووري الثرى وسط مراسم عسكرية في المقبرة الوطنية في أرلينغتون. إن كتاب ياردلي، على الرغم مما احتواه من أخطاء وتلفيق، استأثر بلب الناس، ولا يمكن لأحد أن ينكر كم من الهواة قد اجتذب إلى حقل الشيفرة وفك الرموز. ولئن استطاع

هؤلاء أن يبتدعوا جديداً في هذا النطاق، فهذا، لا شك، عائد إلى ما غرسه ياردلي في نفوسهم، ربما دون أن يدري، من شغف بهذا الفن.

أشهر عالم أميركي في مهنة الشيفرة والرموز

* إذا كان ياردلي أشهر عالم أميركي في الشيفرة، فإن وليم فريدريك فريدمن هو الأعظم. الأول: سطحي، يهتم بالمظاهر وبنفسه، والثاني خجول وعميق وذو ضمير حيّ. الأول يلمع كالأسهم النارية، والثاني يضيء كأشعة الشمس.

ولد فريدمن في الرابع والعشرين من أيلول ـ سبتمبر عام ١٨٩١ في كيشينيف في روسيا. في السنة التالية لولادته، هاجر أبواه إلى بتسبرغ. عام ١٩٠٩، أنهى دراسته وبدأ العمل في شركة لبيع الآلات البخارية، وفي نهاية عام ١٩١٠، دخل كلية الزراعة المجانية في ميشيغان. ولم يمض وقت طويل حتى اكتشف أنه غير مؤهل للزراعة. لذلك، انتقل إلى جامعة كورنيل ليدرس علم الوراثة. وبينما هو يدرس هناك، إذ بأحد كبار تجار النسيج، ويدعى جورج فابيان، يبحث عن متخصص في الوراثة ليحسن محاصيل مزرعته. وقد وقع اختياره على فريدمن وعينه لديه في أول حزيران ـ يونيو عام ١٩١٥.

عكف فريدمن على العمل في مزرعة فابيان. لكنه في الوقت نفسه كان يهتم بالتصوير الفوتوغرافي. وقد قويت هذه الهواية لديه من خلال بحثه في المستندات والوثائق الخاصة بأعمال شيكسبير، ليتبين فيها ـ ما يقال عن بصمات للأديب فرانسيس باكون. وأثناء هذا العمل، تعرف على أليزابيت سميث، التي أصبحت في أيار ـ مايو عام ١٩١٧ زوجته.

بعد فترة، وجد فريدمن نفسه على رأس قسمين، الأول لعلم الوراثة والآخر للشيفرة وفك الرموز. هنا اكتشف ميله نحو طبيعة العلم في القسم الأخير. ومنذ ذلك التاريخ، بدأ العمل مع زوجته في هذا الحقل إلى أن أصبحا الأشهر في تاريخ علم الشيفرة الأميركية.

في هذا الوقت، كانت أميركا قد دخلت الحرب إلى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، وأول ما قام به فريدمن وزوجته هو اكتشاف حقيقة مراسلات كانت

تجري بين عناصر فريق من الهندوس، يعملون في الولايات المتحدة وخارجها على تحرير الهند من الإنكليز. ويروى في هذا السياق، أن أحد الهندوس أطلق النار على مواطن له شهد ضده في قاعة المحكمة أثناء محاكمة الفريق الذي انكشف أمره، فأرداه قتيلاً، لكنه قتل، هو أيضاً، برصاص الشرطة الأميركية وهم يطوقونه في القاعة.

بعد أن تنقل فريدمن في عدة مناصب، مدنية وعسكرية، في نطاق المخابرات، عين رئيساً لدائرة الإشارة في الجيش، وقد ظل يشغل هذا المنصب بتألق وجدارة حتى عام ١٩٤٠. في هذا العام، بلغ فريدمن الثامنة والأربعين، كما بلغ قمة مجده. بعد ذلك، أصيب بانهيار عصبي وأدخل المستشفى. لم يعد يتمكن، بعد هذه الضربة، من متابعة عمله، باستثناء استشارات كان يكلف بها من وقت لآخر. عام ١٩٥٥، أحيل على التقاعد، لكنه استمر في تقديم استشاراته كلما طلب إليه ذلك. واليوم، يمكن القول إن المخابرات الأميركية بأجهزتها المختلفة وفعاليتها العميقة مدينة لهذا الجهد الذي قام به فريدمن وزوجته وسط ظروف صعبة وتجهيزات بدائية، وأنها لم تكن لتصل إلى ما وصلت إليه، لولا ما قام به هذا الثاني من أعمال وإبداعات.

يقال إن تسعين بالمئة من علماء كل الأزمنة يعيشون في هذا الزمن وحده. وما يصح في هذا يصح، وبشكل ربما أكبر، في علماء الاتصالات. فالعالم اليوم يعتمد اعتماداً وثيقاً وأساسياً على ما يتلقاه من معلومات في جميع المجالات. وما يصدره من تعليمات. وهذه الشبكات العملاقة من الاتصالات تتيح للعاملين في الترميز وفك الرموز إمكانيات تفوق كل ما كان يمكن أن يحلموا هم أنفسهم به. ولا شك أن الأجواء المتشنجة تدفع هؤلاء إلى مضاعفة جهودهم والتوسع في نشاطاتهم أفقياً وعمودياً. وخير شاهد على ذلك ما نراه من حجم وكالة الأمن القومي الأميركية.

قد تكون معركة بيرل هاربور الشهيرة، التي كبّدت الأميركيين خسائر فادحة، في أساس إنشاء الوكالة. فعام ١٩٥٢ جاء ذكر المخابرات لأول مرة وبشكل غامض في «دليل التنظيم الحكومي للولايات المتحدة».

* اختير للمخابرات مقر في فورث ميد بولاية ماريلند، في بناء عملاق ورحب

أشبه ما يكون بكاتدرائية. واليوم يعتبر هذا الجهاز أضخم جهاز مخابرات في العالم الغربي. ولوكالة الأمن القومي ميزانية تفوق ضعفي ميزانية الشي - آي - إي. أما مهامها، فتقسم إلى اثنتين: الأولى: جمع المعلومات من جميع شبكات الاتصالات في العالم وتحليلها. والثانية أمنية تقضي بمراجعة مستمرة للوسائل السرية المعتمدة من قبل أجهزة الدولة بكامها.

إلى جانب المخابرات هناك «المجلس العلمي الاستشاري» وهو مجلس يرتبط بالمخابرات ويتألف من شخصيات مرموقة في كل الحقول، لا سيما الرياضيات والالكترونيك، ممن يهتمون بعلم الشيفرة. ويأتي هؤلاء بصورة خاصة، من عالم الأعمال والوسط الجامعي. فوق هذا، هناك «مؤسسات الدراسات من أجل الدفاع»، التي تأسست عام ١٩٥٦، بالتعاون بين خمس جامعات، والتي تقدم الخدمات في حقل التقديم النظري لمشاريع الدفاع.

سنة ١٩٥٦، بلغت ميزانية وكالة الأمن القومي مليار دولار، أي نسبة اثنين بالمئة من ميزانية الدفاع بكاملها. هذا الرقم وحده يعطي صورة عن اهتمام الدولة بالمخابرت. والأمر يبدو طبيعياً أمام التحدي الذي أبداه الاتحاد السوفياتي لا سيما خلال سنوات الحرب الباردة.

في عام ١٩٤٦، استطاع عملاء روس الحصول، من إحدى العاملات في الشيفرة، «إيما ويكن»، على ترجمة للرموز التي تستخدمها وزارة الخارجية الكندية، وكذلك على أهم برقيات هذه الوزارة المرمزة. وفي عيد الميلاد عام ١٩٥٢، تورط روي رودس، الموظف في مرآب السفارة الأميركية في موسكو، مع فتاة بصحبة بعض فنيي السيارات الروس، وكان ثملاً. ادعت الفتاة بأنها حامل من روي. ولما هدد المسكين بكشف الأمر أمام زوجته، انصاع للابتزاز وقبل بتسليم الروس بعض أسرار المخابرات الأميركية التي سبق له أن مارس العمل فيها.

في نطاق الجهود التي بذلها الاتحاد السوفياتي سابقاً للحصول على المعلومات عن الغرب، خلال فترة الحرب الباردة، حاولوا التغرير بإحدى سكرتيرات السفارة الفرنسية في أوستراليا، وهي تعمل بقسم الشيفرة في السفارة المذكورة. لكن تقدمهم ظل محدوداً. وفي الثاني من كانون الثاني - يناير ١٩٥٢، جاء في رسالة لأحد

أجهزة المخابرات السوفياتية بعض التعلميات لعميلهم باخموف، وهي تحدد له أصول وعناصر مراقبة تلك السكرتيرة إن لجهة كيفية قضاء أوقاتها داخل وخارج مكتبها، أولجهة إعطاء صورة عن تفاصيل المكتب من مكان الملفات ونوعها فيه وكذلك المكان الذي تضع فيه مفاتيح الخزائن، وغير ذلك من المعلومات.

لم يفلح باخموف في مهمته، فاستبدل بفلاديمير بتروف الذي لم يوفق، هو الآخر، ولو نجح، لكان وضع أمام خطر محدق، ليس أمن فرنسا وحدها، بل أمن الغرب بكامله. غير أن الروس أنفسهم، الذين فشلوا في أوستراليا، نجحوا في عملية أخرى، في عام ١٩٥٤، في باريس نفسها إذ تمكنوا من سرقة أسرار التعليمات التي كانت تعطيها باريس إلى القادة العسكريين في الهند الصينية إبان معركة «ديان بيان فو» المعروفة.

والبولونيون أيضاً أدلوا بدلوهم، عندما التقط عملاء لهم صورة للسكرتير الثاني في السفارة الأميركية في فرصوفيا، أيروين سكاربك، وهو عار في السرير مع عشيقته البولونية، ولما مارسوا معه عملية ابتزاز ليسلمهم معلومات عن مخابرات بلده، رفض وانتهى الأمر عند هذا الحد بسبب جرأته.

هذا النوع من التجسس الميداني، كما يحب البعض أن يسميه، مارسه كل من الشرق والغرب على السواء، فكم من مرة، لجأت الولايات المتحدة إليه، سواء عن طريق شراء بعض العملاء من المعسكرين المعادي والحليف معاً. وكم مرة، لجأت إلى بيع الآخرين آلات للشيفرة، تعرف هي أسرارها. وتستخدم هذه المعلومات لحسابها، بغفلة عن الشاري.

خلال زيارته للولايات المتحدة سنة ١٩٥٩، اعترف خروتشوف بممارسة الاتحاد السوفياتي هذا النوع من التجسس، وذلك عندما كشف النقاب عن معرفة بلده بالرسالة التي وجهها أيزنهاور إلى نهرو إبان النزاع الذي نشب بين الهند والصين. وكذلك عندما أعلن عن رسالة بعث بها شاه إيران إلى الرئيس الأمريكي أيزنهاور. وخلص خروتشوف لاقتراح يقضي بحل أجهزة المخابرات في كلا البلدين توفيراً للمال والجهد معاً.

إن السرية التي تحاط بها الوكالة الأميركية للأمن القومي، لا مثيل لها لأي من

أجهزة الأمن الأميركية. سرية في الخارج وسرية في الداخل وسرية للعاملين فيها بعضهم تجاه البعض الآخر. هذه الاحتياطات المشددة لا وجود لها في الـ «سي.آي.إي»، حيث يمكن لأعضائها الظهور أحياناً وإعطاء التصريحات للصحف أو إعلان بعض التوضيحات للرأي العام. أما انتقاء عناصر الجهاز البشري في المخابرات، فأمر غاية في الدقة. يمر المرشح بمراحل عدة من الاختبارات، كما أن الاستقصاءات حوله تتناول كل الأمور، حتى ما يتعلق منها بعلاقاته الجنسية ومدى تأثير هذا النوع من العلاقات على شخصيته وسلوكه، وبعد قبوله، يعين لمدة معينة على سبيل الاختبار حتى إذا أمضى بنجاح هذه الفترة، عين بشكل نهائي. لكن هذا لا يمنع من وضعه في الاختبار كل أربع سنوات وبتطبيق جهاز كشف الكذب عليه.

جميع هذه الاحتياطات لم تمنع البعض من الوقوع في التجربة، وبالتالي من إلحاق أفدح الاضرار بأمن أميركا بصورة خاصة والغرب بصورة أعم وأشمل. وقصة الجاسوسين الأميركيين العاملين لحساب الاتحاد السوفياتي عام ١٩٦٠، مارتن وميتشل، أشهر من أن تنسى. لقد أفرغا ما في جعبتيهما، بكرم لا مثيل له، في دهاليز الكرملين. والأنكى من كل ذلك، هو أنهما عقدا مؤتمراً صحفياً شهّرا فيه ببلدهما، كما لم يفعل جاسوس خائن آخر قبلهما.

سر عمالة هذين الرجلين لا يزال لغزاً من الألغاز. لقد عيّنا في فترات متفاوتة في المخابرات بعد أن مرا بالتجارب والمراحل الضرورية لهذا التعيين، وأثبتا جدارتهما علماً وخلقاً. كان ذلك خلال عام ١٩٥٧. وفي حزيران ـ يونيو من عام ١٩٦٠، طلبا معاً إجازة سنوية لمدة أسبوعين، وسمح لهما، بناء لطلبهما، بقضائها غرب البلاد، حيث أهل كل منهما، وبدلاً من الذهاب حيث طلبا، توجها جواً إلى المكسيك.

وفي الأول من تموز ـ يوليو، توجها إلى هافانا، ويقدر أنهما ركبا من هناك سفينة سوفياتية أقلتهما إلى الاتحاد السوفياتي. بعد انتهاء إجازتهما، حاول رؤساؤهما سؤال الأهل والأصدقاء عنهما، كما كلفوا الأجهزة الأمنية المختصة بذلك، ولكن دون جدوى.

وأمام دهشة وألم الجميع، ظهرا في موسكو على مسرح بيت الصحفيين،

المضاء بشكل مثير، وأعلنا، دون تلعثم أو ارتباك أنهما تنازلا عن جنسيتهما الأميركية ليصبحا مواطنين سوفياتيين. كما ذكرا أن قرارهما هذا، اتخذاه بعد أن شاهدا من خلال عملهما كيف أن الولايات المتحدة تخرق فضاء الدول الأخرى وتكذب على الرأي العام فيها، وكذلك بعد أن رأيا كيف أن الولايات المتحدة تتجسس حتى على حلفائها، وتستخدم عملاء لها من رعايا دول هؤلاء الحلفاء. لم يستطع أحد تفسير تصرف هذين الرجلين تفسيراً مقنعاً (قيل إنهما مصابان بالشذوذ) لكن، هل كانا مضطرين للذهاب بعيداً آلاف الكيلو مترات حتى موسكو لممارسة انحرافهما؟

بالتأكيد كان هذا الادعاء كذباً وافتراء لتلطيخ سمعتهما بسبب هروبهما للاتحاد السوفييتي. عام ١٩٦٤ خُوّل رئيس المخابرات صلاحية صرف أي عامل فيها لمجرد أنه ارتأى عدم صلاحه لسبب أو لآخر. هذه الصلاحية أقرت في مجلسي النواب والشيوخ بأغلبية ساحقة على الرغم من معارضة البعض. كان المعارضون يدافعون عن موقفهم قائلين إنه لا يجوز تجريد أي مواطن، مهما كان موقعه أو التهمة الموجهة إليه، من حق الدفاع عن نفسه، لكن التخوف من الوقوع في المحظور الذي وقع فيه أناس ضعفت نفوسهم فباعوها للشيطان، جعل المشترعين يضحون بمبادئ حقوق الإنسان ويخرجون إلى النور تشريعاً من هذا النوع.

يوجد في نطاق المخابرات جهاز واحد للإدارة وثلاثة أقسام فاعلة هي: مكتب الأبحاث والتنمية ويحوي حوالي ألفين من الموظفين، ومكتب الأمن والاتصالات، ويحوي حوالي ألفاً وخمسمائة من الموظفين، ومكتب الإنتاج، ويحوي أكثر من سبعة آلاف من الموظفين. مكتب الأبحاث والتنمية هو رأس الحربة بالنسبة للبحث عن فنون وأنظمة جديدة للمخابرات، وعلى هذا، فهو القسم الأهم في جملة أقسام الوكالة وتشعباتها.

إثر أزمة الصواريخ الروسية في كوبا عام ١٩٦٢، تبين أن وسائل الاتصالات الأميركية متخلفة. فقد ظلت الرسائل المتبادلة بين واشنطن وموسكو تنتقل من محطة ترانزيت إلى أخرى على طول الطريق لمدة ساعات ذهاباً وإياباً. وهذا ما لا يمكن التسامح به، في أزمة خطيرة كتلك. لهذا، أمر الرئيس كينيدي بإنشاء ماسمي بـ«نظام الاتصالات الوطني» الذي جرى، من خلاله، تحديث كامل لجميع التجهيزات والمعدات في وكالة الأمن القومي.

نتيجة أخرى من نتائج أزمة الصواريخ في خليج الخنازير، كانت إقامة خط اتصال مباشر بين واشنطن وموسكو: الخط الأحمر، وهو عبارة عن جهاز للاتصال البرقي بواسطة طابعة. وقد بدأ هذا الخط بالعمل في ٣٠ آب أوغسطس سنة ١٩٦٣.

أما اليوم، فتعتبر الأجهزة الالكترونية للاتصال والاستقبال خير ما توصل إليه العلم في خدمة المخابرات. وتملك الولايات المتحدة أكثر من ألفي نقطة التقاط منتشرة في أنحاء الكرة الأرضية بكاملها. واحدة من تلك النقاط كانت السفينة بوابلو التي استولت عليها البحرية الكورية ـ الشمالية عام ١٩٦٨ ولم تكن طائرة الـ«يو ـ ٢» التي أسقطها الروس فوق أراضيهم في سنة ١٩٦٠، سوى واحدة من نقاط التجسس الأميركية.

والأقمار الصناعية هي الوسائل الأكثر تطوراً للتجسس والاتصالات. وهذه كنقاط الالتقاط، مشتركة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة على السواء. غير أن جميع هذه الاكتشافات مع دقتها، لم تستطع الحلول محل الإنسان، الذي يبقى العنصر الأساسي في حقل الاتصالات والشيفرة في المخابرات كما أكدنا في جميع الكتب.

والولايات المتحدة تملك اليوم أكبر ترسانة من أجهزة الاتصال والتصدي لاتصالات الآخرين والتقاطها وترجمتها. يليها الاتحاد السوفياتي سابقاً فبريطانيا ففرنسا.

بعد حملة السويس عام ١٩٥٦ بقليل، أكد جورج ويغ، النائب العمالي، للصحفيين أن الولايات المتحدة قد التقطت الرسائل السرية الإنكليزية والفرنسية والإسرائيلية، وأنها بالتالي كانت على علم بالهجوم المحتمل على مصر. من جهته، كتب ألن دالس، مدير الـ«سي. آي. إي» مؤكداً ذلك. لماذا إذاً لم تتحرك أميركا لمنع الغزو؟

يقول ويغ: «لا أعتقد أن حكومة بريطانيا جنّت لدرجة تجعلها تندفع في مغامرة مقدر لها الفشل». لقد صرح وزير خارجية أميركا آنذاك، جون فوستر دالس، أنه لم يكن بتاتاً على علم مسبق بالحملة. لكن أخاه ألفن ناقضه بما قاله أعلاه. قيل إن حملة السويس كانت علامة سيئة للمخابرات الأميركية. غير أن الحقيقة، كما

اتضحت في ما بعد، هي أن اللوم لا يقع على المخابرات، بل على السلطة السياسية التي تلقت المعلومات ولم تستخدمها.

لا تخلو بلدان أخرى، أقل أهمية من الولايات المتحدة من أجهزة للمخابرات، خاصة بها، في بريطانيا وألمانيا الغربية وفرنسا أجهزة مخابرات على قدر جيد من التطور. هناك أيضاً بالإضافة إلى اليابان، بعض الدول في أميركا اللاتينية وفي العالم العربي. وقد نشرنا الكثير عن ذلك في الكتب السابقة.

لكن حقيقة الأمر هو أن وكالة الأمن القومي الأميركية لا مثيل لها لناحية الحجم والإمكانيات في العالم أجمع. صحيح أن العلم يمكن أن يكون متوافراً لدى الجميع، لكن الإمكانيات المادية، عند توافرها، هي التي تجعل هذا العلم فاعلاً ومنتجاً في آن معاً. وهذان العنصران توافرا للولايات المتحدة الأميركية، مما جعلها تتصدر العالم لفترة زمنية محددة.

الفصل السادس عشر

الأسلحة المزوّرة والإخفاء والتمويه في الحرب الحديثة

المخابرات تتبنى الإخفاء والتمويه للأسلحة.

* الحاجة في الحرب الحديثة ضرورية لإخفاء المعالم الهامة والعسكرية، والإخفاء والتمويه فن حذقته مخلوقات شتى تمارسه في حياتها العادية لتكيف نفسها وطبيعة الوسط الذي تعيش فيه هادفة بذلك لاستمرار بقائها عن طريق التغيير، وهذه المخلوقات تتشكل وتتلون حسب طبيعة البيئة التي تعيش فيها مما يكفل لها خداع اعدائها بعدم اكتشاف مكانها، علاوة على أن ذلك يوفر لها ضمان اقتناص فريستها دون إتاحة الفرصة الأخيرة للهروب والنجاة. والأمثلة على هذا كثيرة في عالم الزواحف والطيور والحشرات والأسماك وغيرها. ويسوق علم البيولوجيا العديد منها كالحشرات التي تتشكل وتتلون حسب ألوان الأشجار والنباتات التي تعيش عليها كالحرباء التي تتلون تارة باللون الأصفر لون الرمال وتارة أخرى باللون الأخضر لون المزروعات حسب طبيعة البيئة التي تعيش فيها صحراوية كانت أم زراعية، وقد اقتبس الإنسان كثيراً من وسائل وطرق الإخفاء والتمويه المعروفة منذ زمن بعيد والتي أطلق عليها اسم كاموفلاج Camouflage فقد منح الله سبحانه وتعالى مخلوقاته خصائص وصفات ووسائل تمكنها من الاختفاء وخداع أعدائها حتى يمكنها التعايش في بيئتها والاستمرار في حياتها دون أن تتعرض للمخاطر... ونجد النمور والفهود والزرافات والثعابين وأنواعاً كثيرة ومختلفة من الزواحف تتميز بجلد مخطط أو مزركش بألوان وأشكال مع بيئتها التي تعيش فيها ولذلك نجدها تربض ساكنة بين غصون الأشجار أو في وسط الأحراش الكثيفة كما لو كانت قطعة جامدة من هذه البيئة لا تختلف في مظهرها عما حولها، ويصعب علينا التعرف على مكانها بسهولة.

نبذة تاريخية عن الإخفاء والتمويه

* فن الإخفاء والتمويه، هذا الفن الذي حذقته المخلوفات لتعالج تكييف حياتها والمحيط الذي تعيش فيه كما سبق أن أشرنا من قبل، عرفه الإنسان الأول ومارسه ووجد فيه ضالته التي تكفل له خداع أعوانه من البشر. تؤمن له مرابضه ضد أي هجوم معاد كما تضمن له النصر عند قيامه بالهجوم وهو في هذا ينهج بالتقليد نفس نهج سائر المخلوقات. ولجأت الجيوش منذ القدم لفنّ الإخفاء والتمويه فأتقنت استخدامه لتضليل أعدائها، ويروي الرواة دلالة على هذا قصة زرقاء اليمامة التي أبصرت عن بعد تحرك أعداء قومها نحوهم تحت غطاء خادع من فروع الأشجار للتضليل فأبلغتهم ليأخذوا حذرهم.

هذه الوسيلة البدائية للإخفاء في الحرب على قدمها وبساطتها، لا زالت تمارس حتى يومنا هذا في الحرب الحديثة وسط أدغال وأحراش فيتنام وكمبوديا في الهند الصينية. وكان المحاربون من القبائل البدائية يطلون وجوههم بطلاءات ملونة ويرتدون جلود الحيوانات المفترسة مما يتيح لهم التخفي عن أعين الخصوم، كما تظهرهم بمظهر يثير الرعب والخوف فيبدون قوة وبأساً. وخلال معارك الحرب العالمية الثانية تسابقت قوات كل من الحلفاء ودول المحور في إنشاء المواقع والمطارات بل المدن الهيكلية أيضاً في أماكن قريبة من المواقع الحقيقية حتى تسلم من هذه الضربات وتحتفظ القوى المقاتلة بكامل قدرتها ومكوناتها وغالباً ما كانت تتصدى للقوات المغيرة وتوقعها في كمائن وشراك خداعية. وقد كانت الطائرات والمدافع والدبابات الخشبية تصنع مطابقة تماماً لنظائرها الحقيقية شكلاً وحجماً كما كانت مواقعها تُموّه أيضاً بشباك التمويه وتجعل حولها آثاراً تطل وتشير إلى حركة الأفراد والآليات في المنطقة فتظهرها كما لو كانت حية تماماً كما يتم تغيير أوضاعها من يوم لآخر حتى لا يكتشف العدو ثباتها وجمودها من خلال عملياته الاستطلاعية.

ولقد عانى الأمريكيون كثيراً من إجادة اليابانيين لأساليب وفنون الإخفاء والتمويه أثناء الحرب العالمية الثانية، كما كان الفيتناميون رغم قلة عددهم

وتسليحهم يجيدون الإخفاء والتمويه، لذا فقد نجحوا في كثير من المعارك من الإفلات من الضربات المضادة.

وفي الحرب الكورية أيضاً كان للإخفاء والتمويه أثر كبير في نتائج المعارك، فقد كان الجنود الأمريكيون يجدون صعوبة كبيرة في تمييز العدو المتخفي من مواد البيئة المحيطة فيجدونه في الغابات وكأنه شجيرة ضمن ما حوله من أشجار وشجيرات وأعشاب ونباتات وكذلك كانت الأسلحة تبدو منسجمة تماماً مع أشجار ونباتات البيئة.

ولقد اكتسب خبراء التمويه في أيامنا هذه مهارات وخبرات عملية واسعة وصلت إلى أبعد من مجرد طلاء المعدات والأسلحة واختيار الألوان المناسبة للملابس العسكرية بما يتفق ويتمشى مع الطبيعة المحيطة فقد أصبح من الممكن تغيير الشكل الخارجي بالكامل.

وقد تطورت مؤخراً أنواع من الطلاءات بحيث تتشكل وتتغير حسب الظروف والطبيعة المحيطة كما انتجت أيضاً دهانات تتأثر بالإضاءة بشكل يسبب خداع البصر وتضليله وباستخدام هذه التطورات أمكن إخضاع ما في الطبيعة من قوانين لتناسب الاستخدامات العسكرية الحديثة.

ولقد استحدثت أيضاً أنواع من الطلاءات القادرة على امتصاص الأشعة تحت الحمراء أو عكسها بلون آخر مخالف لطبيعتها ومشابه للطبيعة المحيطة. فمثلاً، في حالة وجود الجسم في أرض زراعية تنعكس هذه الأشعة بلون الكلوروفيل الأخضر وهذا ما يجهد عين المستطلع ولا يتمكن من تمييز الأهداف عما حولها. وقد أفادت هذه الطلاءات في تضليل الصواريخ الموجهة التي تعتمد في توجيهها على الأشعة تحت الحمراء.

وللتعرف على الأسلوب المتقدم هذا لكشف الأغراض المستترة بوسائل الكشف بالأشعة تحت الحمراء يجب التعرف على نوعية الأشعة تحت الحمراء ثم طريقة وأسلوب الكشف بهذه الأشعة.

وأخيراً للتعرف على وسيلة الاستكشاف بهذه الأشعة علاوة على ما يستتبعه

ذلك من تلمس الأسلوب المضاد الذي يضمن إخفاء الأغراض في البيئة ضد التعرف عليها بهذه الأشعة.



بعد عشر دقائق من النفخ يصبح لدينا دبابة جاهزة

نوعية الأشعة تحت الحمراء

اكتشف «هرشل Herscel» هذه الأشعة بادئ الأمر عام ١٨٠٠ كأشعة ذات تأثير حراري يحتويها الطيف الكهرومغناطيسي وذلك في الجزء المحصور بين الأشعة المرئية والأشعة قصيرة الموجة. ويمتد طيف الأشعة تحت الحمراء عبر منطقة تبدأ بالحد الأعلى لطول موجة الأشعة المرئية وهو ٧٥٠ ملليميكرون. وتنتهي بموجة طولها ٦١٠ ملليميكرون والأشعة تحت الحمراء بهذه الكيفية تغطي منطقة واسعة للطيف الكهرومغناطيسي وعليه فقد جرى تصنيف هذه الأشعة لأنواع ثلاثة هي:

- أشعة تحت الحمراء القريبة: Near IR Radiation
- أشعة تحت الحمراء المتوسطة: Inter Medial IR Radiation
- أشعة تحت الحمراء البعيدة: Far IR Radiation.

وذلك طبقاً لوضعها بالنسبة لمنطقة الأشعة المرئية وطبقاً للأسلوب المتبع في الكشف والقياس.

أولاً: الأشعة تحت الحمراء القريبة، وهذه تمتد عبر نطاق طول موجته ينحصر بين ٧٥٠ ملليميكرون حتى ١٥٠ ملليميكرون، ولهذه الأشعة كل الخصائص الطبيعية للضوء إلا أنها فقط لا ترى بالعين المجردة، يتبع ذلك أن استكشاف هذه الأشعة وقياسها يتم بالأسلوب النمطي المستخدم والضوء العادي.

ثانياً: الأشعة تحت الحمراء المتوسطة، وهذه تقع عبر نطاق طول موجته ينحصر بين ١٥٠٠ ملليميكرون حتى ٤١٠ ملليميكرون ولها بعض خصائص الضوء العادي.

ثالثاً: الأشعة تحت الحمراء البعيدة: وهذه تمتد عبر نطاق طول موجته ينحصر بين ٤١٠ ملليميكرون حتى ٦١٠ ملليميكرون والتأثير الطبيعي الوحيد الملحوظ لهذه الأشعة حتى الآن هو التأثير الحراري.

وكان التأثير الحراري للأشعة تحت الحمراء عموماً هو التأثير الملحوظ بادئ الأمر بالنسبة لهذه الأشعة ثم تبع ذلك اكتشاف خصائص وتأثيرات أخرى للأشعة تحت الحمراء حيث اكتشف «بكريل Becquerel» عام ١٨٤٢ التأثيرات الفوتوغرافية والفلورسية لهذه الأشعة في النطاق حتى طول الموجة ٩٠٠ ملليميكرون هذا ولم تتطرق الإشارة في مجال هذا لأبعد من الأشعة تحت الحمراء القريبة حتى طول الموجة ١٣٠٠ ملليميكرون لاعتبارات حدود ما تسمح به حساسية أسلوب الكشف والقياس المتيسرة حالياً. وعلى العموم فإنه يجب أن لا يخفى علينا ما ينشأ من صعوبات فنية عند التعرض للأشعة تحت الحمراء بشقيها المتوسط والبعيد التي تتلخص في الآتي:

- صعوبة الحصول على خامة مناسبة لتشكيل المخروطات والأجزاء البصرية الأخرى اللازمة لأجهزة الكشف والقياس.

- صعوبة التخلص كلية من تداخلات الأشعة قصيرة الموجة.

- صعوبة التفريغ الداخلي لأجهزة القياس للتخلص من بخار الماء الذي يتسبب وجوده في التشويش على القياس الأسبكتروفومتر.

الكشف بالأشعة تحت الحمراء Delection IR Radiation

يتعرض سطح الأرض لأشعة الشمس النافذة في الفضاء الخارجي حيث يتوالى امتصاص وإشعاع هذه الطاقة بفعل القشرة الأرضية، ويتأتى انعكاس هذه الأشعة من سطح الأرض للجو الخارجي باستثارة الشحنات الكهربية لمادة السطح علماً بأن سطوح المواد المختلفة على ظهر القشرة الأرضية تختلف عن بعضها البعض بالنسبة لانعكاس الأشعة الساقطة عليها تبعاً لطبيعة السطح وطبيعة المادة المكونة له.

ويوضح الجدول التالي خاصية انعكاس الأشعة تحت الحمراء بدرجاتها المختلفة قريبة - متوسطة - وبعيدة لبعض المواد السائدة في تركيب القشرة الأرضية.

عموماً فإن جميع الأغراض الأرضية عند اكتسابها حرارة تتعدى الصفر المطلق تبعث إشعاعاً حرارياً في صورة أشعة تحت الحمراء حيث ابتدعت في السنوات الأخيرة وسائل وأساليب متقدمة تساعد على اكتشاف انعكاس هذه الأشعة من سطوح الأغراض المختلفة على النحو التالي:

- أجهزة الكشف الحساس: Sensitive Detectors

تبين هذه الأجهزة وجود الأغراض عن طريق الاختلاف في انعكاس الأشعة تحت الحمراء بين هذه الأغراض وما يحيطها من خلفية، وقد ساهمت هذه الأجهزة في كشف وتتبع مرور القمر الصناعي سبوتنيك الثالث، عبر الولايات المتحدة الأميركية.

أجهزة الاستطلاع المرئي IR Sensitive Image Convertor

هذه الأجهزة شائعة الاستخدام وتعمل في نطاق الأشعة تحت الحمراء القريبة حتى طول الموجة ١٢٠٠ ملليميكرون وقد استخدمت الجيوش هذه الأجهزة في الاستطلاع الليلي بواسطة الجيشين الألماني والأميركي خلال الحرب العالمية الثانية ولا يزال استخدامها شائعاً وعلى نطاق واسع لذات الغرض حتى يومنا هذا.

- أفلام التصوير بالأشعة تحت الحمراء: IR Sensitive Photographic Films

شاع استخدام هذه الأفلام في الاستطلاع بالتصوير الجوي بالطائرات للأغراض

التي أحكم إخفاءها وتمويهها عند الكشف بالأشعة المرئية حيث تعطي هذه الأفلام بعد تحميضها صوراً واضحة وتفاصيل دقيقة لهذه الأغراض وتصل حساسية هذه الأفلام للأشعة تحت الحمراء حتى طول الموجة ١٢٠٠ ملليميكرون وتعطي دائماً صوراً واضحة بتفاصيل لا يمكن إدراكها بالرؤية العادية. ولا يتأثر التصوير بهذه الأفلام بظروف الغيوم والضباب الجوي.

ـ أجهزة التتبع الحساس للأشعة تحت الحمراء: Compact IR Equipments

هذه الأجهزة تزوّد بها رؤوس الصواريخ التي تتبع الأغراض المتحركة على الأرض أو في الجو وتصيبها في دقة متناهية وإحكام. وتعتمد هذه الأجهزة في توجيه الصواريخ على الأشعة الصادرة من الهدف نفسه.

ـ كاميرات التصوير بالأشعة تحت الحمراء: Themograph Radiation Camera

كاميرات التصوير هي عبارة عن أجهزة الكترونية بالغة التعقيد تقوم ببعث الأشعة تحت الحمراء نحو الغرض من ارتفاعات شاهقة ثم تستقبلها ثانية حيث تترجم تفاصيل مكونات الغرض في شكل صورة مرئية على فيلم تصوير عادي وهذه الكاميرات تزود بها أقمار التجسس الصناعية لمسح مختلف الأغراض الاستراتيجية على سطح الكرة الأرضية.

مما تقدم تظهر الفوائد الجمة للاستخدام التكنولوجي للأشعة تحت الحمراء خاصة في المجال الحربي حيث تؤدي تجهيزات هذه الأشعة خدمات جليلة سواء في الاستطلاع عن طريق أجهزة الكشف أم الاستطلاع بالتصوير الجوي حيث يتم الحصول على صور جوية بتفاصيل دقيقة عن المطارات والمصانع ومحطات القوى والمنشآت ومواقع الصواريخ والآليات.... الخ.

أضف إلى هذا ما تقوم به الصورايخ المزودة برؤوس للأشعة تحت الحمراء من مهام قتالية فعالة في إصابة الأهداف بدقة متناهية وتدميرها في الجو أو في البحر أو على الأرض.

الإخفاء والتمويه ضد الكشف الإشعاعي.

* الإخفاء والتمويه كما سبق وتبين من هذا العرض، هو أسلوب مخادع الغرض منه التضليل عن حقيقة تواجد ما في بيئة المحيط أدى ويؤدي للجيوش خدمات جليلة، كما أن الإخفاء والتمويه من الفنون التي لو تقنها الأعداء لأدى إلى نتائج باهرة، فالجيش في الدفاع إن استطاع إخفاء مواقعه بالتجهيز الهندسي المتقن وأجاد تمويهها بما يحوطها من أرض تسبب في إيقاع البلبلة بالعدو. ونتيجة لما يسببه ذلك من إرباك لفاعلية استطلاعه، وهذا سوف يجعل تدمير العدو للمواقع الدفاعية أمراً ليس بالسهل ولا بالهين، والجيش في الهجوم إن استطاع أن يتستر في حركته خلف غطاء متقن من الاختفاء وسط ميدان المعركة فإنه بهذا سوف تتحقق له مفاجأة عدوه ولا يخفى على أحد ما لعامل المفاجأة والمبادرة من دور حاسم في تحقيق النصر.

إن اختفاء وتمويه القوات وتحركاتها بالأسلوب السليم يتعذر معه اكتشاف مواطن السكون والحركة فيها بواسطة الكشف المرئي، إلا أن ذلك لا يجعل كشفها بالأشعة تحت الحمراء أمراً غير ممكن. وقد تضافرت الجهود لسد النقص في هذا المضمار حيث اثبتت الدراسات أن كشف مواقع الأغراض وسط بيئة المحيط بواسطة الأشعة تحت الحمراء إنما يرجع لاختلاف نسبة انعكاس هذه الأشعة من كل من سطوح الأغراض وخلفية الأرض المحيطة حتى لو كانت الأغراض وخلفية المحيط تتماثل في صبغة لونية واحدة يتعذر معها الكشف الظاهري للغرض وسط المحيط.

لقد دأبت الجيوش على إخفاء اللون الكاكي الذي تصبغ به ملبوسات أفرادها وأغطية معداتها وهي في هذا تمزج بين درجات اللون المختلفة بغرض تحقيق تمويه يناسب أرض العمليات ويتماشى مع خلفيتها صحراوية كانت أم زراعية. إلا أن الدراسات اثبتت كما سبق القول أن التماثل الظاهري في اللون بين الغرض والمحيط قد يحقق الإخفاء الظاهري له لكنه دون ذلك بالنسبة للكشف بالأشعة تحت الحمراء. ويبقى الأمر كله بعد ذلك صعباً بمعنى أنه يجب أن يتحقق في النهاية معالجة واحدة للأغراض تحقق إخفاءها وسط المحيط حيال الكشف بنوعي الأشعة المرئية وتحت الحمراء، وهذا ما هدفت إليه الدراسات التي تجري في هذا الشأن.

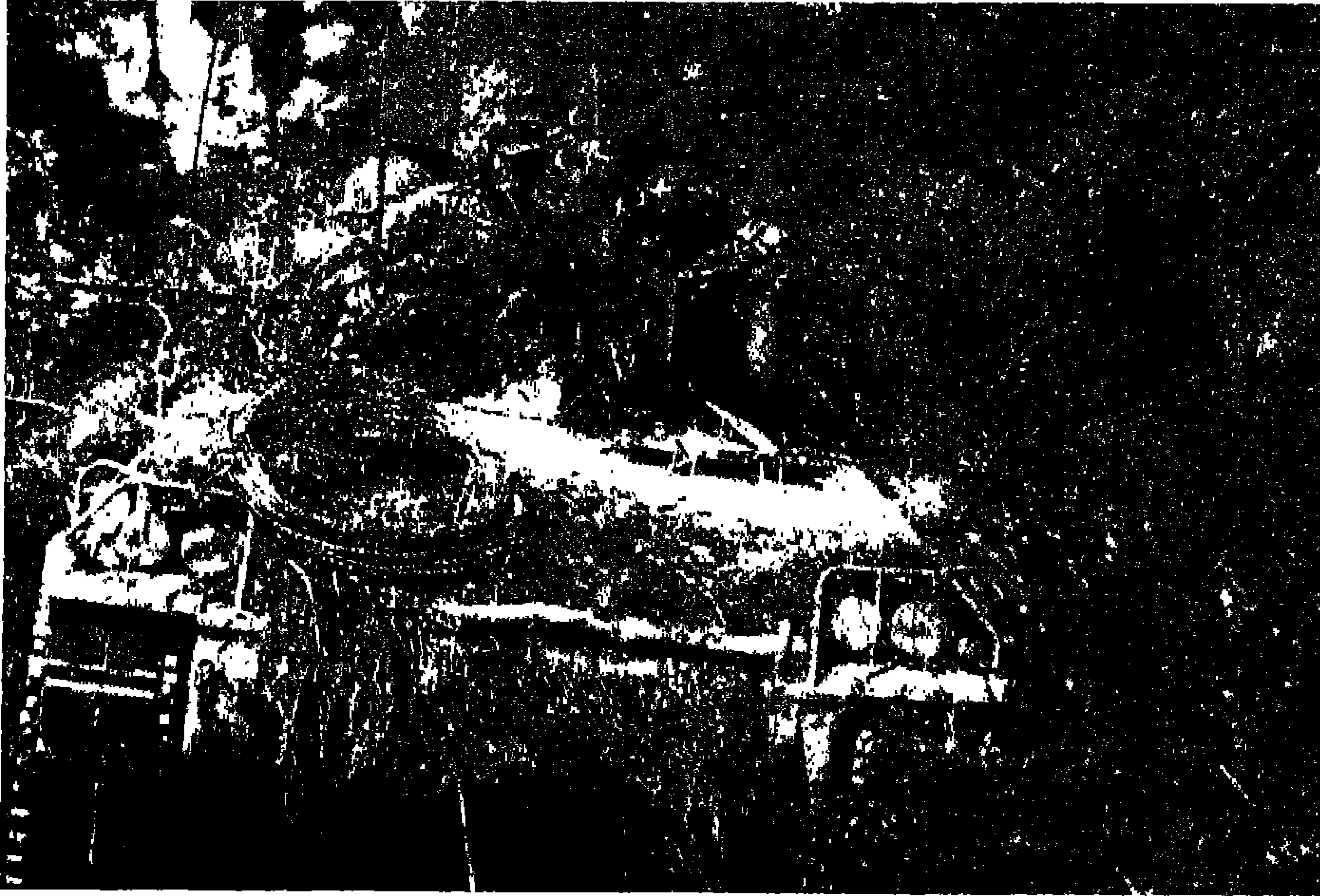
ولقد نهجت الدراسات إلى تحديد صفة انعكاس الأشعة تحت الحمراء لعينات مختلفة منتقاة تمثل خلفية المحيط زراعية كانت أم صحراوية، لذلك اشتملت هذه العينات على رمال وطمى، ومزروعات مختلفة تمثل تماماً خلفية البيئة بشقيها الزراعي والصحراوي، وتحددت طبقاً لذلك صفة الانعكاس للأشعة تحت الحمراء بالقياس الأسبكتروموتومتري، وذلك في الجزء الطيفي حتى طول الموجة ١٢٠٠ ملليميكرون الذي يضم المدى القريب للأشعة تحت الحمراء.

وأعقب تحديد صفة الانعكاس البيئي للأشعة تحت الحمراء هذه محاولات شتى لمعالجة الأغراض بهدف التوصل لإخفائها تحت غطاء لوني في دهان أو صبغة تتوفر لها صفة انعكاس الأشعة تحت الحمراء تماثل انعكاس خلفية محيط البيئة زراعية كانت أم صحراوية، كما تحدد من قبل وذلك مع الأخذ في الاعتبار أن هذه المعالجة تكسب الأغراض ظلاً لونياً يحقق إخفاءها ضمن الكشف المرئي أيضاً.

وقد أدت هذه الدراسات الحثيثة في النهاية لاستنباط وسيلة سهلة تحقق إخفاء الأغراض وسط البيئة ضد الكشف المرئي وضد الكشف بالأشعة تحت الحمراء وذلك عن طريق الاختبار المدقق لنقص ظلال اللون وهذه تصطنع بها الأغراض عن طريق الدهان أو الصبغة. وقد برهن الاستطلاع الميداني بالعين المجردة وبأجهزة الكشف الحساس للأشعة تحت الحمراء على أن الأغراض المعالجة بهذه الكيفية المقترحة يصعب التعرف على وجودها وسط إطار البيئة صحراوية كانت أم زراعية وهذا في حد ذاته يعد دلالة كافية على أن الأغراض المعالجة قد تحقق إخفاءها ضمن إطار البيئة ضد الكشف الإشعاعي بتوعية.



دبابة مزورة من النايلون بعد نفخها للخداع



دبابة حقيقية مع عسكرييها وفولاذها ولكنها مموهة بأغصان الشجر...

الفصل السابع عشر

التجار لهم مخابرات خاصة أيضاً

* منذ قديم الزمان والتجار يستخدمون المراسلات السرية ـ مثل المخابرات ـ لإخفاء أسرار مهنتهم. الكنيسة القديمة أيضاً لجأت إلى السرية تجنباً لكل مندس أو خائن، وإخفاءً للأحجام الحقيقية لممتلكاتها من أموال منقولة وغير منقولة. وهناك أيضاً المتشردون، الذين كانوا يرسمون لبعضهم البعض إشارات على الحيطان بالطبشور، وذلك لنقل معلومات عن سكان الأحياء التي تكون مرتع نشاطاتهم.

وقد أدى التطور الاجتماعي إلى انقراض مثل هذا النوع من الشيفرة.

منذ وقت ليس ببعيد، كان التجار يدونون على سلعهم سعر الشراء بشيفرة خاصة يختارونها، بينما يدونون سعر المبيع بالأرقام العادية. إلاّ أن هذه الشيفرة كثيراً ما كانت تكتشف من قبل مؤسسات تجارية خاصة بهدف كشف سعر الشراء، وبالتالي جعل المنافسة أكثر إيلاماً وفعالية. كما حدث لمحلات ماسترز الكبرى في نيويورك من قبل محلات ماسي. وهذا ما جعل هذه الطريقة تنقرض هي الأخرى، وقد ساعد في ذلك تطور التقنيات الحديثة كالاتصالات البرقية. واعتباراً من عام ١٨٤٤، انتشرت طريقة المراسلات بواسطة البرق الكهربائي في أوروبا لتنتقل عام ١٨٦٦ بواسطة الكابل العابر للمحيط إلى القارة الأميركية، ومن بعدها، لتلف العالم بأسره.

هناك حالات بلغ فيها الحذر التجاري درجة جعلت أصحاب بعض البيوتات المالية أو الصناعية الكبرى يلجأون إلى تكوين نظام شيفرة خاص بمراسلاتهم التجارية، كما فعل إيغاركروغر، ملك الكبريت السويدي، الذي تمادى في حذره بأن وظف لديه إيف غيلدن ليعلّم بعض موظفيه أصول هذا الفن.

وهكذا كانت وسائل الجاسوسية الخاصة في عالم التجارة والصناعة والكنائس. ولم تكن هذه الجاسوسية أقل شأناً من ناحية الوسائل الحديثة المستعملة فيها من

الجاسوسية بين الدول. فآلات التصوير الصغيرة وآلات التسجيل الدقيقة كان لها، هنا أيضاً، دور بارز وفعال. وهذا ما فعلته مؤسسة صناعية ضخمة في هونغ كونغ عندما اتفقت مع موظف في دائرة البرق على إطلاعها على برقيات مؤسسة منافسة أخرى. وكانت النتيجة أن استطاعت هذه المؤسسة عن إبعاد منافستها عن كل الالتزامات، وذلك عن طريق تقديم أسعارها أقل بقليل من أسعارها التي كشفت من خلال البرقيات.

وبغية تجنب حوادث وخيمة من هذا النوع، عمدت مؤسسات كثيرة إلى وضع أنظمة للشيفرة خاصة بها. وهذا أصبح مألوفاً بصورة خاصة في شركات البترول، سواء كانت شركات تنقيب أو شركات استخراج أو شركات تصنيع أو تسويق. ذلك أن الأمر بالنسبة لهذه المجموعات الاقتصادية الضخمة يستدعي السرية، باعتبار أن سراً واحداً من الأسرار يدر، إذا ما حفظ، مئات الملايين من الدولارات أرباحاً.

عقب الحرب العالمية الأولى، بدأت التجارة العالمية تزدهر، وبدأ مع هذا الازدهار، الشعور بالحاجة إلى السرية في المراسلات التجارية. لكن الأمر بلغ مدى أوسع بكثير بعيد الحرب العالمية الثانية، حيث لم يعد نظام الشيفرة التجارية العامة يفي بالغرض، وحيث أصبح لكل مؤسسة نظامها الخاص بها. حتى أن ازدهاراً كبيراً موازياً تناول صناعة آلات الترميز وفك الرموز باعتبار أن كثيراً من المؤسسات لجأ إلى اقتنائها إمعاناً في السرية. وهذا ما أدى إلى إدخال الكثير من التحسينات على تلك الآلات. وكذلك إلى اختراع أنماط أخرى منها تستطيع ترجمة الرسائل السرية، حال تلقيها، على أشرطة. أو مباشرة على الأوراق بواسطة طابعات الكترونية. ولا شك في أن التلازم بين الحاجة إلى تطوير أنظمة الشيفرة العسكرية والديبلوماسية وتطوير أنظمة الشيفرة التجارية، قد جعل الأمور تسير بسرعة أكبر، كما جعل صناعة الأجهزة بذلك تسير شوطاً بعيداً مستفيدة مما حققته تقنيات أخرى في مجالات كثيرة.

تاريخ العلوم حافل بالمطابقات. فقد اكتشف كل من جون أداس ولوفيرييه (وجود الكوكب نبتون في وقت واحد تقريباً) وبينما كان داروين يبلور نظرية النشوء، إذا بزميله يكتب له رسالة تتضمن الأفكار نفسها. بعد خمس سنوات من اختراع مورس للبرق، توصل وتستون إلى الاختراع نفسه ودون أي اتصال من أي نوع من

الاثنين. هذه الأمثال وغيرها تجعل من المألوف حصول ما يشبهها في علم الرموز. وهذا ما حصل فعلاً لأربعة رجال من أربعة بلدان مختلفة عندما صححوا، في فترات متقاربة بعد الحرب العالمية الأولى، الآلة الترميزية ذات الأسطوانة. هؤلاء الرجال هم: الأول إدوارد هابيرن المولود عام ١٨٦٩، والذي أنهى تصميم الآلة عام ١٩١٧، وهو أميركي. والثاني هوغوكوخ، الذي صمم آلة مماثلة عام ١٩١٩، وهو هولندي. وعام ١٩٢٧، جرى التنازل عن حقوق الاختراع إلى الألماني أرثر شاريبوس، الذي سبق له أن وضع تصحيحاً لجهاز، يعمل هو الآخر، على أساس أسطوانة ترميزية. أما الرابع، وهو السويدي آرفيد دام، فقد قام بتصميم آلة للترميز ذات أسطوانة مزدوجة عام ١٩١٩. بعد ثلاثة أيام فقط من انتهاء كوخ من تصميم آلته. وقد لمع اسمه، ليس فقط باعتباره مخترعاً لهذه الآلة، بل أيضاً بإنشائه شركة أصبحت في ما بعد من أكثر المؤسسات ازدهاراً في هذا المضمار. تطورت آلة دام كثيراً في الفترة ما بين الحربين العالميتين بفضل أحد عناصر الشركة النشيطين، بوريس هاجلين، حتى بلغت قياساتها في سنة (١٩٣٤) (١٨ x ١٣٫٥ x ٧)، وزنتها (١٫٢٥٠) كلغ. وهذا ما جعل الفرنسيين يتبنونها ويطلبون منها خمسة آلاف وحدة، مساهمين بذلك في إنعاش المؤسسة مالياً وبالتالي في إعطائها زخماً علمياً وتقنياً ملحوظاً..

أصبح العالم في سباق مع التسلح ومع الزمن، تنبه هاجلين إلى الفرصة الملائمة لترويج آلته. اتصل بالسلطات الأميركية التي تبنت اختراعه بعد أن طلبت إدخال بعض التعديلات عليه. وفي ٩ نيسان ـ إبريل سنة ١٩٤٠، كان هاجلين في السويد عندما علم من الإذاعة بغزو النرويج. فما كان منه إلا أن جمع تصاميمه وآلتين مفككتين من اختراعه واجتاز بهما ألمانيا إلى أن وصل إلى جنوى، ومنها أبحر إلى نيويورك على متن الباخرة كونتي دي سافويا. وكانت تلك آخر رحلة له إلى هناك.

أطلق الأميركيون على آلة دام اسم كونفرتر م ـ ٢٠٩. وقد قاموا بتوزيع وحدات منها على كل القطع، بحيث بلغ عدد ما وزع مئة وأربعين ألف آلة. وبهذا، أصبح هاجلين أكبر مليونير جمع ثروته من علم الشيفرة.

عام ١٩٤٤، عاد إلى السويد وفي اعتقاده أن تجارة آلات الترميز لا زالت رائجة هناك. لكنه سرعان ما وجد نفسه مخطئاً. لذلك، وإثر قانون أصدرته الحكومة

السويدية، يقضي بتملكها للاختراعات الضرورية للدفاع الوطني، نقل هاجلين مقر مؤسسته إلى سويسراً، وذلك بين عامي (١٩٤٨ و١٩٥٩). ومن هناك بدأ بتأمين طلبات الحكومات والأشخاص من حقيقيين ومعنويين في كلا القطاعين العام والخاص، وفي معظم أنحاء العالم.

مع دخول الحاسبات والأدمغة الالكترونية السوق، انطبعت المخابرات الخاصة، لا سيما التجارية منها، بطابع جديد اقتضته المستجدات بكل ما أدخلته إلى السرية وإلى الترميز من طرق وتقنيات جديدة.

وقد برزت في مضمار الأدمغة الالكترونية أبحاث مؤسسة (.I.B.M)، لا سيما تلك التي قام بها والتر تركمان وكارل ماير بالتعاون مع وكالة الفضاء الأميركية. والغريب أن هذه الأبحاث اعتمدت أبسط وسائل الترميز وهي الاستبدال الأبجدي البسيط. لكنها مع ذلك أدت بفضل تطويراتها إلى نتائج مرضية، وذلك على الرغم مما أثير حولها من تشكيك في سريتها. وممن شككوا بها المهندسان الالكترونيان في جامعة ستانفورد مارت هيلمن ووايتفيلد ديفي.

لم يكتف هذان المهندسان بالانتقاد، بل تعدياه إلى الإبداع، فهما أول من أنشأ نظام المفتاح المزدوج، الأول للترميز والثاني لفك الرموز. كذلك أقاما رابطاً رياضياً بين المفتاحين على خط واحد، بمعنى أن بالإمكان حساب مفتاح الترميز بالاستناد إلى مفتاح فك الرموز. غير أن العكس مستحيل عملياً، فهو يتطلب مئات من السنين لاستخراجه، حتى مع أكبر الحاسبات طاقة.

خلال السنوات الأخيرة، أطلقت طرق عدة لتطبيق ما جاء به هيلمان وديفي. أكثر تلك الطرق انتشاراً اليوم تلك التي أطلقت عام ١٩٧٧ من قبل ثلاثة مهندسين من مؤسسة مسشوستس للتكنولوجيا وهم ريفست وشامير وأدلمان. ومن الصعب التكهن بمستقبل ما جاء به ديفي وهيلمان، ومن بعدهما كثيرون، على صعيد المنجزات التجارية. لكن الثابت هو أن هؤلاء الرجال فتحوا باباً واسعاً لحقل لا حدود له. والمستقبل وحده سيقرر درجة خصوبة هذا الحقل.

وأخيراً إلى أين؟

* يشهد العصر الذي نعيشه انقلابات مستمرة في مختلف الحقول. هذا الواقع ينطبق على علم المخابرات بمختلف طرقه وتجهيزاته. ويرتبط التطور السريع لهذا العلم بعنصرين أساسيين اثنين. الأول هو هجمة الرياضيات والمعلوماتية، التي من دونها لا يمكن تصور قيام هذا العلم. أما العنصر الثاني، فيكمن في التطور الهائل لوسائل الاتصالات، تلك التي من شأنها أن تضاعف من نشاطات المخابرات. لقرون مضت، كان علم المخابرات يقتصر على التقاط الرسائل وحماية المراسلات. في حين أن أثرها امتد اليوم إلى قطاعات تتزايد باطراد وتمتد من الهاتف إلى الأقمار الصناعية مروراً بتخزين المعلومات ووصولها بسرعة عجيبة.

في نطاق الخصومة الأبدية بني الدفاع والهجوم، أي بين الشيفرة وفكها، يصعب تحديد أي من الفريقين أكبر حظاً من الآخر. وإذا جاز الحديث عن الاستغناء عن الشق العائد لفك الرموز، فهذا لا يمكن أن يتم إلا من خلال مفهوم جديد للعلاقات بين الأمم، وقد تنقضي أجيال وعصور قبل التوصل إلى هذا المفهوم المنتظر. وقد حلت الآلات التقنية الحديثة لدى جميع مخابرات العالم مكان الرموز والشيفرة بالإضافة إلى ظهور أجهزة الكمبيوتر وملحقاتها، تخزن وتنقل وتعيد المعلومات بشكل تعدى (عقل الإنسان الذي اخترعها) حتى أني شخصياً شاهدت كمبيوتر (تحدى) أحد المهندسين وغلبه في لعبة رياضية. وكان هذا الكمبيوتر يحزن فعلاً عندما كان هذا المهندس يقسو عليه أثناء اللعب.

إنها عجائب القرن العشرين التي أصبحت المخابرات تستفيد منها على أوسع نطاق.

الفصل الثامن عشر

لمحة تاريخية عن أقمار التجسس

* كان القادة العسكريون منذ هنيبعل حتى ماك أرثر يهتمون باحتلال الأراضي المرتفعة إذا أطلقت سهماً من قمة مكان مرتفع فإنه يصل إلى مسافة أبعد ويصيب هدفه بقوة أكبر مما لو أطلقته من قعر واد. حتى في الحرب الحديثة فإن الرماية من نقطة عالية إلى نقطة منخفضة أسهل من العكس. والإمساك بالأرض المرتفعة له حسنات أخرى لا علاقة لها بمسرى القذائف ودقّة الإصابة، فالمراقبة والتجسس من التلة أسهل منهما من الوادي.

للأرض العالية مهما كان شكلها قيمة استخباراتية عالية. وخلال الأعوام من ١٩٥٦ إلى ١٩٦٠ أمنت الطائرة يو ٢ حسنات الأرض المرتفعة، وعندما سقطت طائرة بورز فوق سفردلومنسك أجبر الأميركيون على مواجهة السوفيات في سهل مسطح. وكان السوفيات يتمتعون ببعض التفوق، لأن زرع الجواسيس في الولايات المتحدة كان أسهل من زرع العملاء داخل الاتحاد السوفياتي. هذا الوضع لم يستمر طويلاً لأن الولايات المتحدة كانت تحضر للوقت الذي تتوقف فيه يو ٢ عن العمل. وكان أحد الحلول صنع الطائرة س ر ـ ٧١ التي تستطيع الطيران أعلى وأسرع من يو ٢. أما الخيار الجريء فكان الانطلاق نحو الأعلى أي نحو الفضاء.

حتى نفهم سبب وجود أقمار التجسس في مداراتها اليوم وكيفية عملها، علينا أولاً أن نلقي نظرة على مبادئ التحليق في الفضاء وعلى تكنولوجيا الفضاء. والسلسلة الأولى من الأقمار الاصطناعية التي بدأ التخطيط لها منذ (٤٠) سنة. وسوف نعرض لزواج تكنولوجيا الفضاء بتكنولوجيا التجسس ونتكلم على الحياة المضطربة لذرية هذا الزواج الفاشل، بدءاً من أول قمرين اصطناعيين للتجسس ديسكوفورور (DISCOVERER) وساموس (Samos) إلى الأجيال اللاحقة من الأقمار الأميركية، حتى أحدث الأقمار فيما بعد وهو ك هـ ١١ (KH 11).

سنلقي نظرة على أقمار أخرى تستخدمها القوات المسلحة الأميركية وعلى أعمال التجسس السوفياتية في الفضاء، وأخيراً سنعطي لمحة عن مستقبل أقمار التجسس.

سوف أعيد إلى الأذهان في هذا الكتاب أياماً عظيمة، منها يوم إطلاق القمر ديسكوفورور ويوم انقاذ كبسولته وغيرهما مما كان له وقع حاسم في التاريخ.

ما هي مهمة تكنولوجيا الفضاء؟.

في أواخر الخمسينات قدرت المخابرات الأميركية أن السوفيات يتقدمون بسرعة في برنامج الصواريخ وأنه ستحدث «فجوة صواريخ» في الأعوام من ١٩٦٠ إلى ١٩٦١. وحاول خوروتشيف استعمال هذه الهوة كوسيلة ضغط لتحرير برلين من الغرب، كان الغرب عازماً لكنه كان أيضاً حذراً، وسرعان ما وجد خوروتشيف نفسه في صدام مع كينيدي، واتجهت القوتان العظيمتان إلى قاب قوسين أو أدنى من المواجهة الحقيقية التي لم يفكر أحد في أنها يمكن أن تحصل.

وفي تشرين الأول/ أوكتوبر ١٩٦١ بدت الولايات المتحدة وكأنها قليلة الاهتمام والقلق من التهديد السوفياتي مع أنها كانت مصممة على أن تحافظ على برلين وترفض تسليمها للسوفيات، وتراجع السوفيات في مسألة برلين وسحبوا طلبهم. لماذا حصل هذا التحول؟.

* في ٦ تشرين الأول/أوكتوبر عاد الرئيس كينيدي من عطلة عائلية وعقد اجتماعاً مع وزير الخارجية السوفياتي اندريه غروميكو، وخلال هذا الاجتماع فقد تبين لأجهزة الاستخبارات في الولايات المتحدة أن هناك فعلاً «فجوة صواريخ» لكنها لمصلحة الولايات المتحدة وليست لمصلحة الاتحاد السوفياتي. لم يكن هذا الموضع ادعاءً فارغاً من قبل كينيدي فإنه كان يعرف تماماً عدد الصواريخ التي يملكها السوفيات، وعنده دليل قوي على ذلك، ربما عرضه على غروميكو وهو الصور الفوتوغرافية لقواعد الصواريخ التي التقطتها الأقمار الاصطناعية.

تطور أقمار التجسس ابتداء من الصاروخ البدائي

* ارتبط تطوّر أقمار التجسس بالتطور المذهل للصواريخ المعدة للتجارب. بدأ

بتطوير الصاروخ البالستيكي العابر للقارات والذي يعتبر وسيلة الإطلاق الرئيسية لأسلحة التدمير الشامل منذ (٩٠٠) سنة في الصين. وكان في البدء لعبة. فعندما تشتعل المفرقعات النارية بدلاً من تفجيرها، ينبعث منها غاز يؤدي إلى دفعها. وإذا ربطنا المفرقعة بعصا أعطيناها ثباتاً واستقراراً في المسار، وعندما يكون الاتجاه نحو الأعلى تصعد هذه الصواريخ البدائية مئات الأقدام في الجو.

منذ قرون كانت الصواريخ تستعمل للترفيه وليس للحرب ثم أصبح إطلاق الصاروخ في أرض المعركة سلاحاً معنوياً فعّالاً. في نهاية القرن التاسع عشر ظهرت علامة مميزة في تاريخ الصواريخ وذلك عندما حلم حفنة من الرجال بالذهاب إلى الفضاء. استنتج الأستاذ الروسي قسطنطين تسيلكوفسكي «معادلة الصاروخ المثالي»، واستخدمها ليبرهن أن الصواريخ تستطيع أن تعمل في الفضاء. كما كان تسيلكوفسكي يعتقد ببناء الصواريخ على مراحل، وهذه فكرة حاسمة في برامج الصواريخ الأولى لأنها تسمح باستعمال أفضل للطاقة.

هناك رواد آخرون للصواريخ مثل روبرت غودارد وهرمان أوبرت. غودارد عالم فيزياء أميركي أطلق أول صاروخ يعمل بالوقود السائل في ١٦ آذار/مارس ١٩٢٦ في أوربون في ولاية ماساتشوستس، وأطلقت وكالة الفضاء القومية الأميركية اسمه على أحد مراكزها قرب واشنطن مع أنه لم يكن مهتماً باختراق الفضاء. كان غودارد يفكر في أن الصواريخ آلات تقوم بأبحاث الطقس. أما أوبرت، وهو مدرس ألماني، فكان نظرياً أكثر من غودارد، وكان لأعماله في الثلاثينات تأثير كبير على الذين صمموا وبنوا صواريخ هتلر، والذين ساعدوا فيما بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في برامج الصواريخ الخاصة بكل منهما.

يعتبر الصاروخ ف ١ (V 1) أول آلة ألمانية غير مأهولة تستعمل للتدمير البعيد المدى. إن قنبلة ف ١ وهي طائرة دون طيار أو صاروخ طواف يحلّق أيروديناميكيا طوال الطريق إلى هدفه. أما الصاروخ ف ٢ (V 2) فقد كان صاروخاً بالستيكياً: أي بعد احتراق محركه يسقط مثل قذيفة المدفعية. كان ف ٢ سلاحاً نفسياً أكثر منه عسكرياً لأنه في مسار (١٣٠) ميلاً كان معرضاً لأن يخطئ هدفه لمسافة (٥) أميال.

بعد الحرب اهتمت الولايات المتحدة ببناء الصواريخ، وقام العديد من العاملين

في وزارة الدفاع بصرف النظر عن الصواريخ بعيدة المدى بسبب افتقار الصاروخ ف ٢ للدقة. ولو تحسنت دقة ف ٢ عشر مرات وقوته سبع مرات فإنه على مسار (٥٥٠٠) ميل يخطئ هدفه لمسافة (٢٠) ميلاً. في نيسان/إبريل ١٩٤٦ تعاقدت الولايات المتحدة مع شركة جنرال ديناميك لدرس إمكانية إنتاج هذه الصواريخ إلا أن العقد ألغي بعد خمسة أشهر عندما اتخذ قرار بصرف النظر عن الصواريخ والتركيز على القاذفات والصواريخ الطوافة.

أظهر الجيش الأميركي اهتماماً أكبر بالفكرة وشعر بأن الصواريخ يمكن أن تكون ملائمة كأسلحة تكتيكية في أرض المعركة، لذلك قام برعاية برنامج أبحاث كانت تقوم به شركة جنرال الكتريك. اعتمدمشروع هرمز على صواريخ ف ٢ الالمانية التي كانت مخبأة ووقعت في أيدي الحلفاء، وكذلك على العلماء الألمان وقعوا في الأسر، ومن بين هؤلاء الدكتور ورنر فون براون الذي أصبح فيما بعد شخصية قيادية في برنامج الفضاء، الأميركي. كان فون براون مفتوناً بفكرة اجتياز الفضاء، ولم يكترث للجهة التي تمول أبحاثه. وفي الحرب العالمية الثانية ألقي القبض عليه وعلى بعض علماء الصواريخ الألمان لاتهامهم بأنهم مهتمون باجتياز الفضاء أكثر من اهتمامهم بالجهد الحربي الألماني، وأطلق سراحهم بفضل الرائد والتر دورنبرغر وهو المشرف عليهم في قاعدة ف ٢ والذي كان من المتحمسين لأبحاث الفضاء.

جرى أول اختبار للصاروخ ف ٢ على الأرض الأميركية في ١٦ نيسان/إبريل ١٩٤٦ في هوايت ساندرز في ولاية نيو مكسيكو، وأطلقت آخر مجموعة صواريخ ويبلغ عددها (٦٧) وهي من غنائم الحرب في ٣٠ حزيران/ يونيه ١٩٥١. كان الصاروخ ف ٢ كبيراً وضخما وغير عملي لكن اختباره أدى إلى تطوير أول صاروخ بالستيكي أمريكي وهو ردستون (Redstone) ويبلغ مداه (٢٠٠) ميل أي أكثر من مدى (ف ٢) ب (٧٠) ميلاً.

بعد الحرب العالمية الثانية غنم الاتحاد السوفياتي عدداً من صواريخ ف ٢ الألمانية، ووقع في الأسر بعض العلماء الألمان الذين عملوا بموازاة ما كان يقوم به زملاؤهم في الطرف الآخر من العالم أي في نيومكسيكو. وعندما أطلق السوفيات

سراح بعض العلماء سارع هؤلاء بالذهاب إلى الولايات المتحدة، وبعد استجوابهم هناك أفادوا بأن السوفيات كانوا يطوّرون صواريخ متوسطة المدى للاستعمال التكتيكي، ويركزون على أبحاث الصواريخ الطوافة، وهذا ما كانت تقوم به الولايات المتحدة. لقد خففت هذه المعلومات من مخاوف واشنطن، وخصوصاً لما ورد فيها من أن السوفيات لم يعملوا على تطوير الصواريخ البالستيكية العابرة للقارات، ولذا لم يمول الأميركيون الأبحاث حول هذه الصورايخ. ولكن تبين فيما بعد أن الأميركيين قد وقعوا في خطأ فادح. كان السوفيات أذكياء جداً لأنهم بنوا مركزاً لتطوير الصواريخ البالستيكية. لم يكن العلماء الألمان على علم به، وكان المركز المذكور تحت حراسة مشددة. ومع أن الألمان لم يكونوا على علم بهذا المركز، فقد اختبر السوفيات بعض الأفكار مع علماء ف ٢ بطريقة لا تثير الشك في أن هناك مركزاً لأبحاث الصواريخ البالستيكية.

في صيف ١٩٥٢ قدر محللو المخابرات في الولايات المتحدة أن الاتحاد السوفياتي سيكون بحلول عام ١٩٥٦ قادراً على ضرب شمال غرب المحيط الهادئ بحمولة تعادل (٢٠٠٠) رطل، وسيكون في عام ١٩٥٨ قادراً على ضرب جزء من الولايات المتحدة برأس حربي وزنه (٨٠٠٠) رطل. إلا أن الولايات المتحدة فجرت في خريف ١٩٥٢ أي في نفس العام قنبلتها الهيدروجينية، وبعد سنة أشارت مفوضية الطاقة النووية إلى أنه يمكن صنع قنابل هيدروجينية أصغر بقليل مما كان يعتقد، وهذا يعني أنه إذا كان هناك مجال لاستعمالها مع الصورايخ فستكون قوة الدفع أقل مما هو مطلوب حالياً. عام ١٩٥٤ اتخذت الولايات المتحدة قراراً بالمضي بسرعة في برنامج الصواريخ البالستيكية العابرة للقارات وذلك بعدما تبين أنه من الممكن استخدام الرؤوس الحربية الصغيرة.

وبينما كان العمل على أنواع الصواريخ المختلفة مثل أطلس وتيتان وجوبيتر وثور يجري بشكل متقدم، وردت معلومات مزعجة من الرادارات العملاقة المركزة خارج القرية التركية ديار بكر قرب البحر الأسود. فقد تبين بعد مراقبة اختبارات الصواريخ السوفياتية أن السوفيات تقدموا أكثر مما كان متوقعاً.

في ٢٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٦٧ وضع أول صاروخ بالستيكي أميركي متوسط

المدى على منصة الإطلاق في كاب كانافيرال في ولاية فلوريدا. يبلغ ارتفاعه حوالي (٧) طبقات ووزنه (١٠٠) ألف رطل، ومزود بمحركات تعطي قوة دفع تساوي (١٥٠) ألف رطل. وعندما وصل العد العكسي إلى الرقم صفر ضغط على زر الإطلاق فانفجر الصاروخ وتحول إلى لهب على قاعدة الإطلاق. وقد فشلت تجربتان تاليتان لصاروخي ثور أيضاً. ووردت تقارير من ديار بكر تشير إلى أن السوفيات نجحوا في إطلاق صاروخين بالستيكيين متوسطي المدى منذ الخريف الفائت.

كانت هذه الصواريخ متوسطة المدى، وما زال علماء الصورايخ الأميركيين واثقين في حينه من أنهم سيتقدمون على الاتحاد السوفياتي في سباق الصواريخ البالستيكية العابرة للقارات، وذلك من خلال العمل بمشروع أطلس. لكن هذه الثقة سرعان ما اهتزت، وفي آب/ أغسطس ١٩٥٧، أعلن الاتحاد السوفياتي عن إطلاق ناجح لصاروخ إلى مسافة بعيدة وأنه سقط في الهدف المحدد له. لم يكن هذا الإعلان مرفقاً بالدلائل إلا أنه كان مثيراً للقلق لأنه حصل قبل سنة من موعد الولايات المتحدة لإجراء اختبار ناجح لصاروخ أطلس. هذا القلق دفع الأميركيين إلى السرعة في أبحاثهم، وفي ٢٠/ أيلول سبتمبر ١٩٥٧ أطلق بنجاح صاروخ ثور.

أضفى إطلاق ثور حساً من التفاؤل. ولكن لمدة بسيطة. فبعد أسبوعين فقط، وفي ٤ تشرين الأول/ أكتوبر أطلق السوفيات سبوتنيك ١ (سبوتنيك معناها «وحدة» أو بمعنى آخر قمر اصطناعي). بلغ وزن سبوتنيك ١٨٤ رطلاً ويلزمه ٩٦٫٢ دقيقة حتى يدور حول الكرة الأرضية، وتبعد النقطة الأبعد من مداره (٥٨٨) ميلاً عن الأرض. كانت هذه إشارة بسيطة أعلنت أن عصر الفضاء قد بدأ.

استخدام الفضاء في القرن السابع عشر

* في أوائل القرن السابع عشر وضع عالم الرياضيات والفلك جوهان كيبلر لأول مرة قوانين الحركة الفلكية. فيما بعد وفي نفس القرن، افترض السير إسحق نيوتن أن قوانين كيبلر تتفرع جميعها من قانون كوني للجاذبية. لاحظ نيوتن في كتابه «برنسيبيا» أي المبادئ، ظاهرة مثيرة للاهتمام عن العلاقة بين الأرض الكروية والجاذبية، فإذا أطلقت قذيفة من كوكب وبسرعة كبيرة (حوالي ١٨ ألف ميل في الساعة أو أكثر) فإنها عندما تبدأ بالسقوط يشعر المرء بأن الأرض تتحرك من تحتها.

لذلك لا بد من وجود مدار. كانت فكرة نيوتن أن جهاز الإطلاق شبيه بمدفع على قمة جبل، وليس قاعدة إطلاق صلبة في آسيا الوسطى، أو مستنقع على ساحل فلوريدا. إلا أن فكرة وضع القمر الاصطناعي في مداره كانت في السابق كما هي اليوم، في قصة قصيرة عنوانها: «القمر القرميدي» نشرت عام ١٨٦٩ في مجلة «أتلانتيك الشهرية» كتبها أدوارد أفريت هايل عن قمر اصطناعي يمكن استخدامه كمحطة عسكرية مأهولة. كان الرائد والتر دورنبرغر قائد قاعدة ف ٢ في ألمانيا الغربية خلال الحرب العالمية الثانية، قد وضع اقتراحاً لقمر اصطناعي بدائي في كتابه ف ٢ وكانت له فكرة خرافية: «بصواريخنا الكبيرة والتي تعمل على عدة مراحل يمكننا بناء سفن فضائية تدور حول الأرض مثل القمر وعلى ارتفاع (٣٠٠) ميل وبسرعة (١٨) ألف ميل/س. يمكن وضع المحطات الفضائية وكرات الزجاج التي تحتوي على جثث مُحنّطة لرواد الصواريخ في مدارات دائمة حول الأرض للذكرى».

حلم العالم البريطاني والكاتب أرثر كلارك بأول قمر اصطناعي حقيقي. ففي عدد شباط/فبراير ١٩٤٥ من مجلة «العالم اللاسلكي» اقترح بناء مجموعة من ثلاثة أقمار اصطناعية توضع حول الأرض على ارتفاع حوالي (٢٢٣٠٠) ميل وهو الارتفاع الذي يكون فيه المدار على امتداد خط الاستواء، وتتحرك هذه الأقمار بسرعة دوران الأرض، وهكذا يبقى القمر ثابتاً فوق بقعة معينة على الأرض. اقترح كلارك استعمال هذه الأقمار كوسيط في الاتصالات البعدية (Telecommunications). واليوم وبعد (٤٠) سنة على هذا الاقتراح أثبتت أقمار الاتصالات أنها الاستعمال التجاري الوحيد لتكنولوجيا الفضاء.

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وافقت القوات الجوية على مشروع «راند» لدراسة إطلاق قمر اصطناعي ووضعه في مداره. في ٢ أيار/مايو ١٩٤٦ أصدرت قيادة هذه القوات تقريراً يتألف من (٣٢٤) صفحة ينص على أن قمراً بوزن (٥٠٠) رطل يمكن إطلاقه إلى مدار على مسافة (٣٠٠) ميل وذلك بحلول العام ١٩٥١. عرض التقرير احتمال استعمال هذه الأبحاث عسكرياً وحذر من أنه: «لن نرى بوضوح تجهيزات هذه السفن الفضائية أكثر مما يستطيع الإخوة رايت رؤية أسطول ب ٢٩ يقصف اليابان وطائرات النقل تدور حول العامل. ومع أن الصورة ضبابية يبدو أن هناك شيئين واضحين:

١ـ إن مركبة القمر الاصطناعي مع تجهيزاتها ستكون إحدى أكثر الآلات العملية تعقيداً في القرن العشرين.

٢ـ «إن إقدام الولايات المتحدة على وضع فكرة القمر الاصطناعي موضع التنفيذ سوف يلهب خيال الإنسان ويحتمل أن يؤدي إلى مضاعفات في العالم يمكن مقارنتها بمضاعفات انفجار القنبلة الذرية».

كما بشر هذا التقرير بإمكانية الاستطلاع من الأقمار الاصطناعية: «نلاحظ أن القمر الاصطناعي هو عبارة عن طائرة مراقبة لا يمكن لأي عدو إسقاطها. إن المراقبة التي يمكن تنفيذها من القمر الاصطناعي هي تحديد نقاط مآثر القنابل... ومراقبة الأحوال الجوية فوق المناطق العدوة». كان خبر «راندا» صادقاً لأن التفتيش عن نقاط مآثر القنابل والتنبؤ بالأحوال الجوية هي ما يمكن أن تقوم به الأقمار الاصطناعية المخصصة للاستطلاع. وفي السطر الأخير لتقرير «راندا»: «يلزم خمس سنوات و١٥٠ ميلون دولار لوضع قمر اصطناعي في مداره».

بعد الحرب العالمية الثانية سعت الولايات المتحدة إلى السلم والرخاء، وبدا أن إنفاق مبلغ كهذا صعب جداً، خصوصاً على مشاريع شبه عسكرية ومشكوك في نتائجها.

في حزيران/يونيه ١٩٥٤ قدم الدكتور ورنر فون تقريراً إلى الحكومة الأميركية يقترح فيه وضع معدات الصواريخ العسكرية بتصرّف فريق خاص يستعمله لإطلاق قمر اصطناعي إلى الفضاء. نظر بكل جدية إلى اقتراح فون براون وتقرر البدء بمشروع مشترك بين الجيش والبحرية أطلق عليه اسم «أوربيتر». في صيف عام ١٩٥٥ أوقفت الولايات المتحدة مشروع «أوربيتر» وقررت عوضاً عنه القيام بجهد مدني (مشروع فانغارد) لوضع جسم في الفضاء، وذلك كجزء من السنة الدولية الجيوفيزيائية (١٩٥٧ـ ١٩٥٨). وسبب تفضيل فانغارد على أوربيتر هو أن الأول لن يستخدم معدات عسكرية ولن تتعرض الأسرار العسكرية للبوح بها أمام الرأي العام.

أدى عدم استعمال تجهيزات الصواريخ العسكرية المعروفة إلى صعوبات في تنفيذ مشروع فانغارد، فعليه أن يبدأ من مراحل قديمة، ويعتبر هذا مثبطاً للعزيمة.

في ٦ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٧ جرت أول محاولة لإطلاق قمر اصطناعي،

أي بعد شهرين من إطلاق السوفيات لسبوتنيك. كانت المحاولة فاشلة واشتعلت محركات الصواريخ وأقلع الصاروخ قليلاً ثم انهار وانفجر على المنصة ونجت الكرة الفضية الصغيرة من هذا الحريق الهائل واستقرت على المنصة واستمرت بكل وضوح تبث إشاراتها البعدية. قال أحدهم في غرفة المراقبة مازحاً: «لماذا لا يرفسها أحد ويضعها خارج مأساتها». كان فانغارد كارثة.

في الحقيقة كان ينقص مشروع فانغارد التمويل الكافي. كان على مهندسي المشروع أن يعملوا في مصنع طائرات قديم في ولاية بالتيمور وهو غير مجهز بالتدفئة شتاء ولا بالتبريد صيفاً. كان المهندسون بضعة ساذجين سرعان ما يرتبكون ويفسدون تصميماتهم. على أي حال وضع فانغارد بعض الأفكار الجديدة في تصميم المركبات الفضائية.

بعد الإرباك الذي أحدثه فشل الإطلاق الأول عادت الولايات المتحدة إلى خطة فون براون «أوربيتر» ثم أعدت لإطلاق القمر الاصطناعي أكسبلورو ـ ١ (Explorer1) في ٣١ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٨. ساهمت الحمولة النافعة في القمر الاصطناعي والتي صممها الدكتور جيمس فال ألين في أول اكتشاف علمي بواسطة القمر الاصطناعي، وهو حزمات فان ألين المؤلفة من الجزئيات المشحونة جداً التي تحيط بالأرض على مسافات من (١٠٠) ميل إلى (٣٠)ألف ميل. شهد يوم ١٧ آذار/ مارس ١٩٥٨ أول نجاح بنجاح لفانغارد ووضع قمراً اصطناعياً صغيراً يبلغ وزنه (٣)أرطال وبحجم ليمونة كريب فروت في مداره. تبع ذلك (٤) محاولات فاشلة. وأخيراً في ١٧ شباط/ فبراير ١٩٥٩ أطلق قمر فانغارد بوزن (٢٢)رطلاً. بالمقارنة، كان السوفيات قد أطلقوا بنجاح قمرين من فئة سبوتنيك وذلك قبل محاولة إطلاق فانغارد: سبوتنيك ١ بوزن (١٨٤)رطلاً وسبوتنيك ٢ بوزن ١١٢٠ رطلاً. كان التفاوت ظاهراً وكانت المنافسة واضحة بين الدولتين، وبدأ سباق الفضاء.

كيف تعمل الأقمار الاصطناعية في المهمات الجاسوسية

* يتألف الصاروخ بشكل عام من قسمين أساسيين: مركبة الإطلاق ومركبة التحليق. تشمل مركبة الإطلاق القسم الأكبر من الصاروخ نظراً للحاجة إلى قوة كبيرة لتدفع هذا الجسم إلى سرعة مدارية (حوالي ١٨ ألف ميل في الساعة). يمكن تقدير

مركبة الإطلاق استناداً إلى «الدفع الخاص» وهو قوة الدفع التي يصدرها رطل من الوقود كل دقيقة.

هناك ثلاثة أنواع من وقود الدفع: سائل وصلب وهجين. تستعمل الصواريخ التي تعمل بالوقود السائل مجموعة من سائلين أو أكثر يشتعلان عندما يمتزجان مع بعضهما البعض. يوجه الغاز الساخن المنبعث من خلال فوهات في قعر الصاروخ ويعطي قوة الدفع اللازمة للصاروخ. تتمتع الصواريخ العاملة بالوقود السائل بتصميم معقد وهي عرضة للانفجار، وتستهلك كمية كبيرة من الوقود (تستهلك غرفة للاحتراق في محرك ف ١ في صاروخ ساتورن ٥، ٢٤٨١١ غالوناً من الأكسجين السائل و١٥٤٧١ غالوناً من الكيروسين وذلك لإنتاج ٥ر١مليون رطل من الدفع) أما الصواريخ التي تعمل بالوقود الصلب فتصميمها بسيط: غرفة مليئة بوقود الدفع الصلب مع نظام لإشعاله.

تعمل الصواريخ المستخدمة لدفع المكوك إلى مداره بالوقود الصلب. إن الصواريخ التي تعمل بالوقود السائل تتمتع بدفع أكبر من تلك التي تعمل بالوقود الصلب. أما الوسط بين الاثنين أي الهجين فهو الذي يستعمل وقوداً صلباً وآخر سائلاً يتأكسد كي ينتج الجهد اللازم.

في المرحلة الأولى، وبعد الإطلاق يبقى الصاروخ عامودياً حتى تبقى الحرارة الناتجة عن احتكاك الصاروخ بكتلة هوائية (تتناقص كثافتها وقوة مقاومتها مع صعود الصاروخ) أدنى ما يمكن، لكن على الصاروخ أن ينحرف إلى مسار أفقي وإلا فإنه لن يصل بحمولته الناقعة إلى المدار بل سيسير نحو الأعلى أو الأسفل فقط!.

خلال الدقائق الأولى يحترق الوقود ويقل وزن المركبة وتزيد سرعتها بشكل دراماتيكي حتى تصل إلى السرعة المدارية التي تبلغ حوالي (١٨) ألف ميل في الساعة (إذا أطلق صاروخ في اتجاه الشرق يمكن أن يستفيد من سرعة دوران الأرض مما يقلل السرعة المطلوبة إلى (١٧) ألف ميل في الساعة).

رأى تسيو لكوفسكي في أوائل القرن التاسع عشر أن استخدام الصورايخ متعددة المراحل مفيد جداً. فبعد أن تشتعل كل مرحلة ثم تقذف، يقل وزن الصاروخ في المرحلة التالية. وبذلك تزيد سرعته. وإذا كان المطلوب وضع القمر الاصطناعي في

مدار قريب (بارتفاع يقل عن ٦٠٠ ميل) تستعمل طريقة التسلق المباشر، أمّا إذا كان المطلوب ارتفاعاً أكثر، فعندما يوضع في مدار أقل ارتفاعاً يدعى «مدار التوقف» يبقى فيه لمدة دورة أو اثنتين وعندها تستعمل طريقة تحويل هوفمان، أي عندما يصل القمر إلى أبعد نقطة في مدار التوقف، وفي النقطة التي تكون القوة الطاردة المركزية (Centrifugal Force) أكبر ما يمكن ويكون كبح الجاذبية أضعف ما يمكن، يقذف القمر إلى مدار أعلى.

هناك أنواع عديدة من المدارات يعرف كل منها بالعناصر الأساسية للمدارات وهي:

- النقطة الأقرب إلى الأرض (Perigee).
- النقطة الأبعد عن الأرض (Apogee).
- مدة الدورة (Period).
- الانحناء (Inclination).

تحدد النقطة الأقرب والنقطة الأبعد ارتفاع مدار القمر الذي يكشف عن مهمة القمر وضعت أقام المراقبة النووية في مداراتها عام ١٩٦٠ على ارتفاع (٦٠) ألف ميل (أي ربع المسافة بين الأرض والقمر) حتى يمكن النظر نظرة واسعة إلى الفضاء والأرض. أما مدارات أقمار الاتصالات فتكون على الاتفاع (٢٣٠٠٠) ميل وهو الارتفاع المتزامن جغرافياً (geosynchronous height) حيث تبقى الأقمار فوق مكان محدد على الأرض بشكل دائم. ومدارات أقمار الأبحاث الجوية تقع على ارتفاع ما بين (٦٠٠) و(٨٠٠) ميل، وذلك لتغطية مساحات واسعة، أما مدارات التجسس فهي على ارتفاع ما بين (١٠٠) و(٣٠٠) ميل، وذلك لتأمين المراقبة القريبة.

يبلغ ارتفاع جميع مدارات أقمار الاتصالات (٢٢٣٠٠) ميل، فعلى هذا الارتفاع يلزم (٢٤) ساعة للقمر لإكمال مداره الواسع والدائري حول الأرض، أي بما يساوي مدة دوران الأرض حول نفسها وإذا كان مدار القمر الاصطناعي موازياً لخط الاستواء، يسمّى متزامناً جغرافياً لأنه يبقى فوق البقعة نفسها على الأرض. والاستثناء الوحيد هو مدار القمر مولنتا السوفياتي. يمكن للقمر أن يكون متزامناً

جغرافياً فقط فوق خط الاستواء، لكن الاتحاد السوفياتي يقع معظمه شمال خط الاستواء وعلى خطوط عرض عالية وهو بعيد جداً عن خط نظر الأقمار الاصطناعية المتزامنة جغرافياً. ومن أجل تأمين اتصالاتهم البعدية صمم السوفيات مداراً غريباً تبلغ النقطة الأبعد له (٢٥٠٠٠) ميل والنقطة الأقرب (٣٠٠) ميل، وهو ليس على امتداد خط الاستواء لكنه منحن بحيث أن القمر الاصطناعي يمر فوق الاتحاد السوفياتي في نصف الكرة الشمالي وفوق القطب الجنوبي أيضاً. تبلغ مدة دوران مولنتا ١٢ ساعة ومن ضمن هذه المدة يمضي ٨ ساعات أو أكثر فوق خط الاستواء وأقل من ٤ ساعات تحت خط الاستواء. وبينما يكون القمر عالياً فوق الإتحاد السوفياتي لمدة ثماني ساعات يستعمل كوسيط للاتصالات. وعندما توضع سلسلة من أربعة أقمار تعمل بشكل صحيح ويمضي كل منها ٨ ساعات فوق الاتحاد السوفياتي يمكن تأمين الاتصالات لمدة (٢٤) ساعة في اليوم دون انقطاع.

تعتمد مدة دوران القمر في مداره على ارتفاع المدار. وبما أن جميع الأقمار تسبح بنفس السرعة تقريباً، لذلك يلزم للأقمار التي تكون على ارتفاعات منخفضة وقت قليل نسبياً للدوران حول الأرض. وإذا كانت مدة دوران القمر قابلة للقسمة على (٢٤) فإنه يمر فوق نفس المنطقة كل يوم وإذا لم تكن كذلك فإنه يمر فوق أرض جديدة كل يوم وينحرف ببطء فوق سطح الأرض ويعود من حيث بدأ.

لا تكون المدارات دائرية ولا أهليليجية، وهي غير منتظمة تماماً بسبب الاضطرابات على حركة القمر التي تسببها الجاذبية الأرضية والكتلة الهوائية والحقول المغناطيسية وجاذبية القمر والرياح الشمسية. يجب مكافحة هذه الاضطرابات وذلك باستعمال نفاثات التثبيت التي تحفظ القمر في مساره. تستعمل بعض الأقمار تأثيرات تلك الاضطرابات حتى تبدل مداراتها بحيث لا تمر فوق نفس البقعة كل يوم فحسب، بل في نفس الوقت من نفس النهار على مدار السنة، ويدعى هذا المدار المتزامن شمسياً، ففيه يمر القمر فوق نفس البقعة (المرتفعات الأفغانية مثلاً) في نفس الوقت (الساعة ١٢٫٠٠ ظهراً) في كل يوم من أيام السنة، أما المدار غير المتزامن شمسياً فإنه يأتي بالقمر فوق نفس البقعة كل يوم ولكن على مرّ السنة يتغير الوقت الذي يمر فيه.

العنصر المداري الأخير هو زاوية الانحناء، وهي الزاوية بين المسطح المداري والمسطح الاستوائي وتتراوح بين الدرجة صفر والدرجة (١٨٠). يعبر الانحناء أيضاً عن مهمة القمر. يستخدم المدار بانحناء صفر أو القريب من خط الاستواء من قبل الأقمار المتزامنة جغرافياً أما الانحناء بزاوية (٩٠) درجة أي المدارات القطبية أو شبه القطبية فيستخدم من قبل أقمار الاستطلاع. يحدد انحناء المدار مساحة الأرض التي يطير فوقها القمر. في مدار بانحناء (٦٥) درجة يغطي القمر المنطقة بين خط عرض (٦٥) شمال وخط عرض (٦٥) جنوب، وإذا كان المدار بانحناء (٩٠) درجة، فإن القمر يحلّق فوق القطبين كليهما ويغطي الكرة الأرضية بكاملها.

يعتبر القمر الاصطناعي رقيقاً جداً بالمقارنة مع مركبة الإطلاق التي تدفعه إلى الفضاء. القسم الأول من القمر هو الهيكل الذي يجب أن يكون خفيف الوزن (من ١٥ إلى ٢٥٪) من الوزن الكامل للقمر حتى يكون معظم الوزن للحمولة النافعة وقوياً كي يتحمل الذبذبات التي يسببها التسارع عند الإطلاق وانفصال المراحل ويصنع الهيكل عادة من الألمنيوم والمغينزيوم.

إن الأنظمة الفرعية في القمر هي أنظمة الطاقة والاستقرار وتثبيت الارتفاع وأنظمة الجهد والاتصالات. تستخدم اللوحات الشمسية كمصدر أساسي للطاقة وتستعمل البطاريات والمولدات النووية عندما لا تؤمن اللوحات الشمسية الطاقة المطلوبة. يمكن التحكم باستقرار القمر في مداره وارتفاعه بواسطة دروانه حول نفسه مما يعطيه الاستقرار المماثل لكرة القدم التي تقذف وهي تدور أو طلقة البندقية عندما تخرج من سبطانة محلزنة. يجري التحكم بالارتفاع والاستقرار بواسطة جهاز استقرار يعمل بثلاثة محاور. وهي طريقة تستخدم عجلات تعمل بالقصور الذاتي وجيروسكوبات ودافعاً نفاثاً للمحافظة على استقرار القمر. زود القمر أيضاً بدافعات نفاثة كبيرة تستعمل للمناورة باتجاه مدار أعلى ولتصحيح أخطاء الإطلاق والقضاء على الاضطرابات.

يتألف نظام الاتصالات البعدية من الهوائي وجهاز التحكم عن بعد وجهاز قياس المسافات وتخزين المعلومات. يتم استقبال المعلومات وإرسالها من خلال

هوائي. تعمل التعليمات القادمة من خلال جهاز التحكم عن بعد للسيطرة على المركبة. تحول المعلومات المرسلة إلى أرقام ثم ترسل إلى الأرض. يحدد عدد وحدات المعلومات (الوحدة هي صفر أو ١ في النظام الثنائي وتماثل فتحة الكترونية مقفلة أو مفتوحة في الكومبيوتر) التي يمكن إرسالها بعرض الحزمة (كل وحدة في الثانية تحتاج إلى حزمة ترددات بعرض هورتز واحد) والارتفاع المداري (بينما تذوي الإشارة على المسافة البعيدة، لذلك كلما كان المدار عالياً أمكن توصيل عدد أقل من وحدات المعلومات في الثانية). وعلى الأرض تحول المسافات إلى المعلومات التي ترمز إليها والتي يمكن أن تكون أي شيء من صورة فوتوغرافية لموقع صاروخ صيني إلى قياس فيض مغناطيسي. تخزن المعلومات في قطع صغيرة جداً، وعندما يمر القمر فوق محطة أرضية ويكون على خط نظر معها لمدة عشر دقائق تقريباً تشع المعلومات نحو الأرض بتردد عال جداً.

أما الكومبيوترات الموجودة على متن القمر فهي تعادل القمر من حيث الأهمية، لأن المطلوب هو الحصول على معلومات دقيقة ونقية في الفضاء، وأن يكون الإرسال مختصراً جداً. الكومبيوتر ومعظم الأجهزة على متن القمر مثل المناظير وأجهزة الإحساس بالأشعة دون الحمراء حساسة جداً ويمكن أن تتعطل من جراء ضجة الإطلاق أو من الأحوال الصعبة في الفضاء، ولهذا السبب تشكل أنظمة الدعم (٢٠٪) من وزن القمر.

تتراوح المدة اللازمة لإنتاج القمر بين (٤و٨) سنوات. يستغرق تصميم واختبار المركبة والأنظمة الفرعية سنتين (سنة للتصميم وسنة الاختبار)، ويلزم ستة أشهر لجمع المركبة مع الأجهزة الفرعية وستة أشهر أخرى لصنع النموذج الأولي، ثم سنة للاختبارات تؤدي إلى صنع المركبة وأجهزة الإطلاق. ولهذا تكاليفه الباهظة، ونظراً لغلاء ثمن القطع وتعقد التصميم وكثرة عدد العاملين في الهندسة والصناعة وطبيعة الحمولة النافعة وطول فترة المهمة فإن كل رطل يطلق إلى الفضاء يكلف (١٠٠) ألف دولار، ولكن الكلفة ليست عائقاً أمام المخابرات التي تسعى دائماً للتفوق ومعرفة كل شيء عن الطرف الآخر.

الفصل التاسع عشر

مخابرات الهواة

* عام ١٩٦٢، أحدث التاجر النيويوركي هانز كروس ضجة كبرى عندما حدد بمئة وستين ألف دولار ثمن كتاب لا يمكن لأحد أن يقرأه. هذا الكتاب، الذي اعتبر لغزاً من الألغاز والمفتقر إلى عنوان وإلى اسم مؤلفه، يحوي مئتي وأربع صفحات من أصل مئتين واثنتين وثلاثين. أما الباقي وعدده ثمان وعشرون صفحة فمفقود. في طياته رسوم متعددة ملونة من بينها رسوم لنساء عاريات وأخرى لمواضيع فلكية وثالثة لنباتات عجيبة. للوهلة الأولى، يبدو أن كشف ألغاز هذا الكتاب أمر سهل. لكن الباحث فيه لا يلبث أن يكتشف بأن نصوصه لا تأتلف مع أية لغة أو لهجة معروفة. وقد باءت محاولات جهابذة المخابرات بالفشل ولم يستطع أحد منهم كشف أسراره.

منذ ظهوره والغموض يلفه، أول محاولة لترجمة ما احتواه جرت في عام ١٩٦٦، عندما أودع الأب اليسوعي آثاناس كيرشر من قبل جوهانس مارسي، رئيس جامعة براغ. لكن المحاولة، على الرغم من ضلوع الأب كيرشر بعلم الرموز، باءت بالفشل. يقول مارسي إن هذا المؤلف وضع من قبل روجيه باكون، الراهب الفرنسيسكاني الشهير، في القرن الثامن عشر، وإن الامبراطور الجرماني رودولف الثاني اشتراه بستمائة دوكا. ويضيف مارسي أنه من المحتمل أن يكون البائع جون دي، اللاهوتي والرياضي والفلكي الانكليزي. كما يقول إنه من المحتمل أن يكون دي قد حصل عليه من دوق نور ثمبرلند الذي قام بنهب العديد من الأديرة التي أغلقها هنري الثامن (مجرد فرضية) هذا الذي يقوله مارسي. لكن الثابت هو أن الأب كيرشر أودع المخطوط المجمع الكنسي الذي ينتمي هو إليه، وأن هذا المخطوط بيع سنة ١٩١٢ من مدرسة يسوعية من قبل صاحب مكتبة متخصصة بالمؤلفات النادرة ويدعى فوينيش. أراد هذا الأخير أن يكتشف أسراره فوزع صوراً منه على جميع

الاختصاصيين من علماء نبات إلى علماء فلك. ولكن محاولات الجميع ذهبت أدراج الرياح.

في سنة ١٩١٩، وقع بين يدي وليم نيوبولد، أحد أساتذة الفلسفة، وكان يهتم بكل ما هو غريب من الأمور، بعض من الصور التي سبق لفوينيش أن وزعها، انكب نيوبولد هذا على التمحيص والتحليل، إلى أن توصل عام ١٩٢١ إلى بعض الاستنتاجات في كشف مكنونات الكتاب. هذه الاستنتاجات، مع كونها جزئية، جعلت من روجيه باكون، بنظر نيوبولد، أعظم باحث في التاريخ. لقد استطاع بنظر نيوبولد أن يكتشف كيفية إخصاب البويضة من قبل الحيوان المنوي. كما استطاع اكتشاف الكوكب أندروماد الغارق في الأبخرة وقام بنفسه بصنع مجهر ومرصد.

أثارت ترجمات نيوبولد هذه ضجة كبرى بين العلماء والباحثين. آمن بها البعض ونقضها البعض الآخر. من بين الناقضين الصحفي بيرد الذي دحض في مجلة علمية أميركية الطريقة التي توصل من خلالها نيوبولد إلى استنتاج ما استنتجه بشأن مكتشفات باكون.

عام ١٩٢٦ مات نيوبولد، لكن أعماله ومؤلفاته لم تمت. فقد أعيد نشرها في سنة ١٩٢٨. وعام ١٩٣١، عكف جون مانلي، أحد مساعدي ياردلي، على تمحيص ما آلت إليه أعمال نيوبولد، فتوصل إلى دحض الكثير منها مؤكداً أنه لا يمكن لأحد في القرن الثالث عشر أن يكون قد اكتشف ما ألصق بباكون من منجزات.

هذا الانهيار المريع لنظرية نيوبولد لم يمنع باحثين آخرين عن العودة إلى الموضوع. في عام ١٩٤٥، خلص الطبيب الاختصاصي بالسرطان ليونيل سترونغ إلا أن المؤلف هو من وضع عالم من القرن السادس عشر يدعى أنطوني أشام. هذه النتيجة لاقت الكثيرين من المعارضين، مما أفقدها كل رونق، سيما وأنها كانت تفتقر، من الأساس، إلى البراهين العملية الداحضة. بعد ذلك، جرت محاولات أخرى من قبل البعض أصحابها أقروا بفشلها، مما جعلها غير جديرة بالنشر.

سنة ١٩٤٤، شكل فريد من واشنطن فريقاً من اللغويين والرياضيين والنباتيين والفلكيين ممن جمعتهم الحرب في أميركا، مهمته إعادة درس الموضوع. لكنهم، مع الأسف، ما أن انتهوا من وضع الرموز المناسبة للحاسبة الالكترونية، حتى انتهت

الحرب وتفرقوا كل في بلده أو في ناحيته. وقد أبرزت أعمالهم الابتدائية ما يحويه الكتاب من صعوبات هي أشبه ما تكون بألغاز يستحيل حلها.

مات فوينيش سنة ١٩٣٠. واحتفظت زوجته إيتيل بالمخطوط حتى سنة ١٩٦٠، حيث باعته إلى هانزكروس الذي حدد ثمنه، كما سبق ذكره، بمئة وستين ألف دولار. لقد قال كروس، عندما سئل، إن اليوم الذي سيأتي ويجد مليون دولار، قد يكون هذا صحيحاً. وحتى يأتي ذلك اليوم، يعتبر هذا الكتاب، الذي يرقد آمناً في عتمة الصندوق الحديدي في مكتبة كروس، قنبلة موقوتة لا يعرف أحد متى يحين وقت انفجارها.

ما أثاره مخطوط فوينيش كان على صعيد علمي متجرد. أما العوامل التي حركتها مخطوطات بيل السرية، فلم تكن بالسمو نفسه.

* تبدأ القصة سنة ١٨١٧، حين انطلق شخص يدعى توماس جفرسون بيل مع ثلاثين رجلاً في رحلة لصيد نوع من الثيران الأميركية، على بعد حوالي مئتين وخمسين ميلاً إلى الشمال من سانتا في. وذات ليلة، بينما كان الرجال متحلقين على ضفة جدول، إذ بهم يرون الصخور القريبة منهم تتوهج كلما انعكست عليها أشعة نار المخيم. إنه الذهب؟ ظل هؤلاء الرجال يعملون سراً في جميع ما في مقدورهم في هذا المنجم البكر حوالي ثمانية عشر شهراً، وفي شهر تشرين الثاني نوفمبر من عام ١٨١٩، عاد بيل وعشرة من رفاقه إلى فيرجينيا ليخبئوا في أرض فيها وعلى عمق ستة أقدام نصف طن من الذهب وحوالي طنين من الفضة. ثم بعد سنة، أضاف بيل طناً من الذهب ونصف طن من الفضة مع حجارة ثمينة بما يساوي ثلاثة عشر ألف دولار. أودع كل هذا وتوجه نحو الغرب ولم يعد إلى فيرجينيا. لكنه، قبل رحيله، أودع رجلاً يدعى روبيرت موريس صندوقاً مغلقاً، وطلب منه عدم فتحه إلا إذا مضى على غيابه سنوات.

انتظر موريس أكثر من عشرين سنة قبل أن يقوم بفتح الصندوق، حيث وجد عدداً من الأوراق التي كتب عليها بعض الرموز. من بين هذه الأوراق رسالتان تتحدثان عن اكتشاف الذهب وتعطيان تعليمات بتقسيم الكنز إلى واحد وثلاثين حصة، واحدة لموريس نفسه وحصة لورثة كل من الرجال الثلاثين، رفاق بيل.

ذكرت الرسالتان أيضاً أنه سيجري إيداع موريس مفاتيح الشيفرة التي كتبت بها الرسائل الأخرى والتي تعين مكان وجود الكنز وأسماء أصحاب الحق. لكن هذا لم يتم. ظل بيل محتفظاً بالسر إلى أن كشفه لجيمس وارد من مقاطعة كامبل في فيرجينيا.

استطاع جيمس هذا ترجمة الرسالة التي تحدد قيمة الكنز وتتحدث عن الظروف التي أدت إلى دفنه كما سبق وذكر. وقد ختمت الرسالة بالجملة التالية: «تحدد الرسالة الثانية على وجه الدقة مكان الكنز، بحيث لا تعود هناك أية صعوبة في إيجاده».

بذلت جهود حثيثة لفك رموز الرسالة الثانية وبالتالي، إيجاد الكنز، لكنها كلها باءت بالفشل. ولا تزال كميات هائلة من الذهب والفضة والحجارة الكريمة تنعم بالراحة والدفء في مكان ما من فيرجينيا.

* في نطاق مخابرات الهواة، كثرت المحاولات لمعرفة المؤلف الحقيقي لأعمال شكسبير. قيل الكثير من ذلك وكتب الكثير، البعض يعتقد أن المؤلف الحقيقي هو فرنسيس باكون. وقد أجريت دراسات عدة بهذا الخصوص نذكر منها دراسات اغناتيوس دونللي عام ١٨٧٨، وجوزيف بابل عام ١٨٩٩، والسيدة غالبو عام ١٨٩٩ أيضاً ووليم فريد من وزوجته.

* من الهواة الذين عملوا في المخابرات - الكولونيل الفرنسي ميزكوسكي والكومندان الفرنسي شنيدر، والكونت ميرابو، والجنرال برتران، مرافق نابليون إلى منفاه في جزيرة سانت إيلين. ولعل أشهر مؤلف في نطاق مخابرات الهواة هو «الصحيفة السرية» لصموئيل بابيس. هو المستند، الذي كتب بين عامي ١٦٦٠ و١٦٩٠، يقع في ثلاثة آلاف صفحة مكتوبة باللغات اللاتينية والفرنسية والإسبانية واليونانية. ومن مميزاته أنه يسرد بكل دقة وأمانة مجريات الأمور في عصره. لقد تم دفن رموز الكتاب بعد حوالي مئة سنة من كتابته، ولم ينشر إلا في عام ١٨٢٥.

* ظلت مخابرات الهواة عبارة عن إشارات سطحية في المضمار الأدبي، إلى أن تعمقت وتبلورت بفضل رابليه. هذا الأديب الفرنسي من عصر النهضة، كرّس

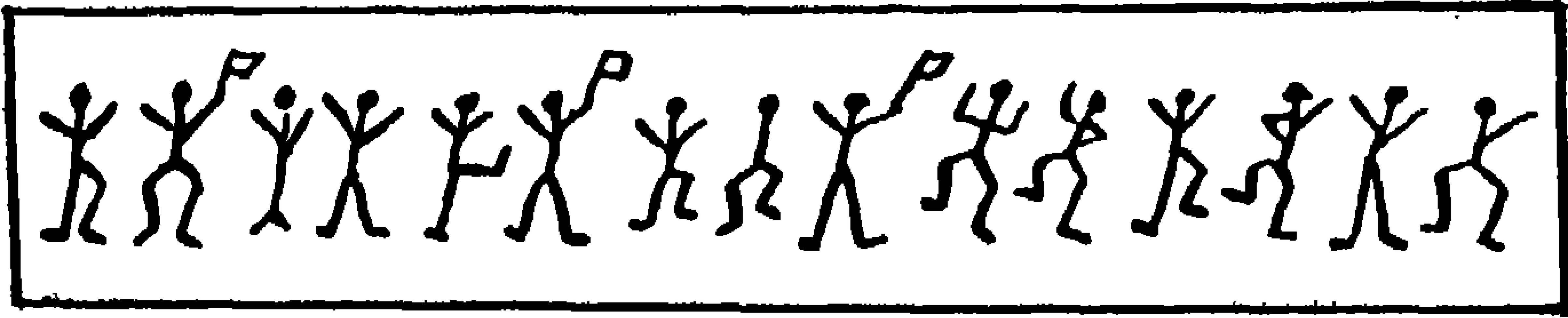
الكتابة السرية في أدبه. وليس أدل على ذلك مما حصل لبطله بانتاغرويل الذي تلقى يوماً ورقة صغيرة مربوطة بخاتم من ذهب، حاول بشتى الوسائل الكيميائية وغير الكيميائية، معرفة ما إذا كانت الورقة تحوي رسالة سرية فلم يفلح، أخيراً استدعى أمهر رجال عصره في هذا الشأن فتبين أن الرسالة تقتصر على الجملة التالية المكتوبة بالعبرية: «قل، أيها العاشق المزيف، لماذا غدرت بي؟ «هكذا يمكن القول إن رابليه فتح باب الأدب على مصراعيه وأدخل فنه الكتابات السرية.

* عام ١٨٢٩ نشر كتاب سيكولوجية الزواج لمؤلفه الكاتب الفرنسي الشهير بلزاك. في هذا الكتاب الطريف عن الحياة الزوجية أربع صفحات أشبه شيء بالشيفرة. وقد أشار الكاتب إلى أنه قصد أن يضمنها أفكاراً يعتبرها مهمة. حاول الكومندان بازيري أن ينفذ إلى ماهية محتوى هذه الصفحات فلم يفلح. ولعل الأمر لا يعدو كونه تسلية، خصوصاً، إذا لاحظنا أنها تتبدل من طبعة إلى أخرى من طبعات الكتاب المتعددة.

* بعد سنوات من ذلك، جرى نشر أهم عمل في نطاق التصورات التي ترتكز على فك رموز رسالة سرية: «الخنفساء الذهبية» لمؤلفه أدغار بو، الذي كان شغوفاً باللامعقول. في ١٨ كانون الأول ـ ديسمبر سنة ١٨٣٩ نشر في إحدى المجلات الأميركية مقالاً عن فن الترميز أكد فيه أن ما من رسالة مكتوبة بالشيفرة إلا ويمكن فكها وترجمتها. فبإمكان أيّ من الناس، حسب بو، أن يكون شيفرة خاصة به هي عبارة عن رموز تحل محل الأبجدية، وبإمكان بو أن يقرأها بعد كشف ألغازها. إثر هذا التأكيد المبالغ به حتماً، انهالت الطلبات على صاحب الادعاء. صحيح أنه نجح في بعض ما ادعاه، لكن نجاحه هذا لم يكن بالكامل ولا بالبارز. صحيح أن بو لم يقدم لهذا العلم الشيء الكثير، إلا أن الحق يقضي بالاعتراف له بفضل تشجيع الكثيرين على ولوج هذا الباب. وقد أقر فريدمن له بذلك في ما بعد.

* جول فرن، هو الآخر مارس فن الكتابة السرية في بعض مؤلفاته: «رحلة إلى مركز الأرض» و«جانغادا». ولا ننسى في هذا السياق بول فيفال في مؤلفه الشهير «رفاق الصمت» لكن الأشهر في هذا النطاق هم كاتبو القصة البوليسية الأنجلوسكسونية. وأولهم شرلوك هولمز، الذي بز الآخرين ممن سبقوه في مؤلفه

«مغامرة الراقصين من الرجال»، وفيه تؤلف رسوم الأشخاص أبجدية متكاملة من خلال أيديهم وأرجلهم.



إحدى الرسائل السرية في كتاب شرلوك هولمز
«مغامرات الرجال الراقصين»

في السينما، حاول البعض اللجوء إلى بعض الرموز، خاصة في أفلام الحركة والتجسس كما في فيلم جيمس بوند «قبلات لذيذة من روسيا».

إن التقدم الهائل في تكنولوجيا الشيفرة جعل من عالم الرموز نطاقاً معقداً يحتاج إلى كثير من المهارات والتجهيزات. وهذا ما جعل مخابرات الهواة تتجه لأن تصبح مجرد ألعاب صبيانية محدودة الفائدة، ضيقة المجال أمام المخابرات الرسمية والدولية.

الفصل العشرون

التجسس بالتخريب واستعمال المتفجرات

* جرت العادة أن يتمّ القيام بعمليات تخريب في زمن الحرب عندما يتسلّل عملاء المخابرات إلى خلف خطوط العدو ويزرعون المتفجرات التي تدمر مخزن وقود أو خط سكك حديد. . وفي أيامنا هذه اعتدنا على عمليات التخريب في ما يسمى بزمن السلم (مثل تلغيم موانئ نيكاراغوا الذي قامت به المخابرات المركزية، وإقدام إرهابيين مدعومين من الاتحاد السوفياتي على خطف قطارات في أوروبا، وقنابل تزرع في الباصات والسيارات من قبل منظمات إرهابية في سائر أنحاء العالم).

إن تعبير Sabotage مشتق من الكلمة الفرنسية Sabot التي تعني الحذاء الخشبي ومعناه التخريب وذلك لأنه في الحرب العالمية الثانية كان مقاتلو المقاومة الفرنسية يعطلون آلات المصانع بوضع أحذية خشبية فيها. وفي نفس المجال وضع سكر في خزان البنزين لتخريب محرّك السيارة.

إن تعبير التخريب على أي حال يعني اليوم تدمير شيء بالمتفجرات المتداولة.

أنواع المتفجرات المستعملة في التخريب

* هناك متفجرات شديدة الانفجار، ومتفجرات خفيفة. المتفجرات الشديدة هي المواد التي تولد انفجاراً قوياً عندما تشتعل إذا كانت محشورة في مجال ضيق. أمّا المتفجرات الخفيفة فهي مواد تشتعل، تحترق بسرعة بحيث تسبّب قوة الغاز المتمدد انفجار الوعاء. تتضمن المتفجرات الشديدة ت. ن. ت. ونيترو غليسرين وديناميت وبلاستيك وغيرها. . أمّا المتفجرات الخفيفة فتشمل الغازولين وحامض البيكريك Picric acid وبيروكسيد الاستون Acetone peroxide ونيترات البول Vrea nitrate والملح الصخري Saltpeter.

يمكن الحصول على المتفجرات بثلاث طرق: .

أولاً ـ يحصل العملاء والإرهابيون على المتفجرات من الدول التي ترعاهم (في الولايات المتحدة على كل شخص يرغب في شراء متفجرات أن يحصل على ترخيص من السلطات المختصة يحدد له الاستعمال المشروع كتفجير صخور في مزرعة مثلاً. . .) وتعطى موافقة الحصول على متفجرات قلع الأحجار من المخابرات.

ثانياً ـ تسرق المتفجرات من مخازن الحكومات أو من مصانع المتفجرات (في أوروبا تعلّم رزم المتفجرات بخيوط ملوّنة أو بمواد كيميائية تتيح معرفة مصدرها).

ثالثاً ـ هناك المتفجرات المصنوعة محلياً بإمكانيات عادية، إذ إنه من السهل شراء المواد الملتهبة الأساسية مثل الغازولين Gasoline والبارفين Paraffin والنافتا أسيتون Naphta Acetone وسماد النيتروجين Nitrogen Fertilizer.

منذ مدة، أدين أدوين ويلسون، وهو من العناصر السابقين في المخابرات الأمريكية، بجرم التآمر من أجل القتل، وجرم بيع متفجرات لليبيين. عندما بدأ ولسون بالتعامل مع رجال القذافي في طرابلس كان يحضر لهم متفجرات خفيفة هي عبارة عن مواد ملتهبة يشتريها من مخازن المواد الكيميائية والزراعية في أوروبا. كانت ضربته الكبيرة تزويد ليبيا بـ ٤٠ ألف رطل من متفجرات البلاستيك سي ٤، اشترى هذه المتفجرات من مصانع في الولايات المتحدة وكندا واستطاع تهريبها إلى ليبيا داخل طبول موسيقية. هذا وقد ساد الاعتقاد بأن متفجرات سي ٤ وصلت إلى أيدي الإهاربيين في أوروبا عبر ليبيا.

ويمكن أن يضطر العملاء إلى صنع المتفجرات وهم في الميدان. إن التجهيزات اللازمة لصنع هذه المتفجرات تتدرج من دلو مع ثقوب في قعره إلى مختبر مجهز بشكل كامل تتوفر فيه المواد الأولية اللازمة لصنع المتفجرات في الصيدليات ومخازن التموين الكيميائي والطبي. تبدو طريقة الصنع بسيطة، ولكنها في الحقيقة ليست كذلك، والقول القديم: «المعرفة القليلة خطر كبير» ينطبق على صنع المفتجرات. في العقود الماضية سمعنا عن صنع القنابل في المنازل وبأدوات محلية،

وهذا يعني بلغة الإرهابيين احتمال تدمير النفس (كثيراً ما نسمع عن انفجار القنابل المحلية بين يدي صانعيها وقتلهم).

المتفجرات الشديدة لأعمال المخابرات

* يعتبر النيتروغليسرين Nitroglycerine أحد العناصر الأساسية للعديد من المتفجرات الشديدة. ويرتكز على مبدأ النيترات Nitrate Princeple أي توليد نيترات أي مادة باتحادها مع حامض النيتريك Nitric acid أما متفجرات النيتريت الأخرى فهي تتضمن نيترات الزئبق Mercury Fulminate أو فولمينات الزئبق Mercury Nitrate الذي يستعمل في كبسولات التفجير وغبار النيترات الذي يولد النيترو سيللوز، وهي بودرة دون دخان يصنع منها النيتروغليسرين بطريقة كيميائية، وذلك باتحاد حامض النيتريك (المصنوع من ملح الصخور وأسيد الكبريتيك Sulfuric acid الذي يسّخن ويكثف في أبخرة صغيرة) وحامض الكبرتيك الصافي والغليسرين.

إن طريقة صنع النيترو غليسرين معقدة وخطرة، وإذا ارتكب العميل أي خطأ صغير، ينفجر المحلول في وجهه.

إن النيتروغليسرين بحد ذاته ليس مستقراً، وقد ظهر العديد من الأفلام السينمائية أنه قد يفجر أصغر وعاء. اخترع الفرد نوبل (صاحب جائزة نوبل) طريقة لاستقرار النيتروغليسرين بحيث يمكن نقله بأمان واستعماله دون الخوف من انفجاره قبل الأوان. عرف اختراع نوبل لسلسلة الديناميت المستقيم التي تتضمّن مزج النيترو غليسرين بعنصر ثانوي أقل لزاجة وبكميات مختلفة من المواد الملتهبة والعوامل الرابطة Binding agents يمكن مزج النيتروغليسرين مع نيترات البوتاسيوم والقطن المتفجر (مادة تستعمل لصنع البارود) وجيلاتين البترول ومسحوق الفحم. وهناك طريقة أخرى تتضمن مزج نيترو غليسرين وكلورايد البوتاسيوم والطبشور. مع أنه يمكن لهذا الديناميت أن يتفكك وأن ينفصل عنه النيتروغليسرين على مر الوقت وأن يصبح خطراً.

هناك متفجر شديد الانفجار أكثر استقراراً هو ترينيتروتولين T.N.T Trinitrotoluene ويجمع بين القوة التدميرية العالية (٢٥ ر٢ مليون رطل لكل إنش

مربع) والليونة. وهو يذوب على درجة حرارة ٨٥ فهرنهايت ويمكن وضعه بأي شكل. عندما يصنع تجارياً يظهر بشكل بطارية ناشفة مع توصيلات التفجير الكهربائي. يصنع من حامض النيتريك وحامض الكبريتيك والتولين في عملية تتطلب ضبطاً شديداً للحرارة والقياسات والأوزان.

يفضّل الإرهابيون والعملاء السريّون متفجرات البلاستيك لأنها تجمع بين استقرار الـ T.N.T وليونة علكة الأطفال. يتألف البلاستيك المعروف بسي٤ .C4 في الولايات المتحدة من سيكلو ترميثلين ترينيترامين Cyclotrimethyline Trinitramine وإيزوميثلين Isomethylene وزيت محرك، يمكن تداول المتفجرات بسهولة ونقلها في مجال واسع من الحرارة، عندما تكون جاهزة للاستعمال، ويمكن قولبتها حول الجسم المطلوب تدميره وإعطاؤها الشكل المناسب مما يؤدي إلى فعالية أكبر من الانفجار. أن كمية سي٤ بحجم حبة بطاطا تكفي لتدمير منزل من طبقة واحدة.

هناك أيضاً متفجرات شديدة R D X يمكن استخراجها من سي٤ (C4) وصنعها من خليط هكسامثلين أترامين Hexamethylenetramine وحامض النيتريك المصغر بالأستون. و RDX (ر.د.إكس) مادة متفجرة متعددة الاستعمال يمكن ترطيبها واستعمالها مثل البلاستيك، كما يمكن مزجها بالطحين وخزنها دون إثارة للشكوك. في الواقع يمكن مزج اتحاد ر.د.إكس مع الطحين مع البيض والحليب وصنع الكعك والبسكوت، وهذا طبعاً ليس معداً للأكل. يسهل نقل هذه الكعكات، فترطب بالماء لإزالة الجيوب الهوائية وتستعمل كمتفجرات شديدة. يمكن صنع البلاستيك المعدل بشكل ارتجالي، وذلك بمزج المتفجرات الشديدة بكلورات البوتاسيوم Potassium Chlorate وجيلاتين البترول فينتج ما يسمى بعجينة المتفجرات.

ويستخرج الملح الصخري وهو نيترات البوتاسيوم من أي تربة أو جثة حيوان معفنة أو كومة من أوراق الشجر الميتة أو من المدافن أو من أرض مخزن حبوب.. تتضمن العملية صب الماء المغلي على هذه الأرض ثمّ ترشيح الماء من خلال رماد الخشب. أخيراً يغلى المزيج وتنزع حبيبات الملح ويترك المزيج حتى التبخر، عندها تبقى حبيبات نيترات البوتاسيوم. يستعمل الملح الصخري كمادة متفجرة أساسية إذا وضع في وعاء، أو يستخدم كمادة متفجرة في بعض الشحنات الأخرى. عندما يمزج

مع الكبريت يصبح نيترات البوتاسيوم والنشارة والسناج مسحوقاً أسود يستعمل في صنع الخرطوش أو كحشوة متفجرة.

هناك ملح أرضي آخر يعد لإنتاج نيترات البول. تغلى كمية من بول الإنسان أو الحيوان حتى تنقص إلى العشر (١/١٠) ثم تمزج بحامض النيتريك ثمّ يرشح المزيج للحصول على حبيبات نيترات البول. تستعمل هذه الحبيبات، مثل الملح الصخري، في إنتاج القنابل الأنبوبية (ليتصور القارئ أن المخابرات تصنع متفجرات من بول الإنسان). ويستعمل حامض البيكريك كمتفجر خفيف أو دافع للمتفجرات الشديدة. يمكن صنعه من الاسبرين العادي الذي يسحق وينقى بالكحول ثمّ يمزج بحامض الكبريتيك والملح الصخري. تصنع فوليمنات الزئبق باتحاد الزئبق مع حامض النيتريك وكحول الأثيل Ethyle Alcohole أو بمزج أوكسيد الزئبق مع الأمونيا، ويستعمل في صنع القنابل الأنبوبية أو الكبسولات المتفجرة. إن استخدامه الخاص يعرض لخطر الانفجار من جراء الاهتزاز أو الاحتكاك.

يعتبر تري إيودايد النيتروجين Nitrogen Tri iodide أحد أخطر المتفجرات الخفيفة وأقلها استقراراً، وهو مادة يتعرف بها الطلبة في دروس الكيمياء بين وقت وآخر ويسهل صنعها. ترشح الأمونيا من حبيبات الأيودين، وعندما تخف الرواسب البنية اللون تنفجر بواسطة اللمس، وقد تؤدي إلى قطع اليد أو الاصبع.

يمكن العثور على بعض المتفجرات اللزجة في أي مخزن للخردوات أو للأدوات المنزلية. يسحق السماد الذي له نسبة ٣٢٪ من النيتروجين ويمزج مع الفيول أويل (أي مزيج من زيت المحرك والبنزين) ويوضع في أنبوب ويستعمل كقنبلة. تستعمل حقيبة تحتوي على ٥ أرطال من الطحين المنزلي مع كمية قليلة من المتفجرات الخفيفة والمواد الحارقة مثل مسحوق الألمنيوم لتوليد انفجار غباري يكفي لتدمير غرفة بأبعاد ١٠ـ ٢٠ـ ١٠ أقدام. عندما يمزج منظف حوض السباحة HTH مع نافتالين النفط يستعمل في الحشوات الأنبوبية. كما يتحد أيضاً الآستون وحامض الكبريتيك ومبيض الشعر لتشكيل مادة أساسية متفجرة.

يمكن مزج المتفجرات بالأستون Acetone وبعض الزيوت المعدنية. ينقع الورق (كتاب أو صحيفة) في الماء ثمّ ينشف لمدة ٢٤ ساعة، وعندما يجف، تظهر

الورقة (أو الكتاب) بشكل عادي لكنها في الحقيقة تصبح مادة متفجرة قوية يمكن تفجيرها بكبسولة. كثير من حشوات المتفجرات الخفيفة يصنع باتحاد أي مؤكسد Oxidizer (وهو العامل الذي يولد كمية كبيرة من الغاز المتمدد عندما يشتعل) مثل حامض النيتريك مع عامل مشعل Combustile (ليشعل العامل المؤكسد) مثل الصمغ أو الراتنج.

صنع القنابل الحارقة (كوكتيل مولوتوف)

* المواد الحارقة هي القنابل الحارقة. يصنع كوكتيل مولوتوف الشهير من مزيج من البنزين والزيت. ويوضع في قنينة (زجاجة) مقفلة. وتوضع خرقة مبلولة بالبنزين على القنينة كصمام تثبيت. تشعل الخرقة قبل رمي القنينة مباشرة وعندما تسقط وتنكسر تشعل الوقود (تستعمل زجاجات مولوتوف في الحروب الشعبية ضد المستعمرين).

هناك أداة حارقة مماثلة هي قنينة النار الكيميائية التي تحتوي على مزيج من البنزين وحامض الكبريتيك على الجانب الخارجي من القنينة المربوطة بورقة مبلولة بمزيج من كلورات البوتاسيوم والسكر والماء. ترمى القنينة وتكون الورقة رطبة أو جافة (عندما تكون جافة تحترق عند أي احتكاك) عندما تنكسر القنينة يحتك حامض الكبريتيك بورقة مبلولة كيميائياً، ويسبب التفاعل بين حامض الكبريتيك وكلورات البوتاسيوم والسكر انفجاراً يشعل البنزين.

وقود اللهب الهلامي Gelled Flame Fuel يصل إلى معظم المسطحات ويشتعل بشرارة عالية ويصعب إطفاؤه. يصنع هذا الوقود بمزج البنزين مع محلول القلي والشحم الحيواني وآح البيض والصابون والأسمنت المطاط والشمع أو الدم الحيواني. بعض المواد الحارقة الشائعة هي مزيج من الملح الصخري والنشارة أو البرافين، تحترق وتولد حرارة عالية.

يستعمل العملاء مسحوق الألمنيوم مع أنه من الصعب إشعاله كجزء من المواد الحارقة بسبب درجة اشتعاله العالي. يمكن مزجه بجفصين باريس وإخفاؤه في أي شيء (من التمثال الصغير إلى منفضة السجائر) يمكن صنع قرميده من الألمنيوم

الأسود وأوكسيد الحديد الأحمر وجفصين باريس. ينقع القرميد في زيت بذر الكتان لمنع الاحتراق في الخارج، ثم تثقب القرميدة لوضع شحنة الاشعال، وعندما تشتعل يولد القرميد لهباً ساخناً من ثقب الاحتراق يوجه نحو المعدن. يجب أن تثّبت القرميدة على قعرات لأنها عند الاشتعال تعمل كنفاث وتندفع بعيداً.

إعداد الشحنات المتفجرة من قبل العملاء

* يصنع المخربون متفجراتهم في نقاط حساسة في الهيكل عندما يفجرون بناية أو جسراً ولكن بما أن هذه النقاط هي عادة الأقوى في البنيان العام، لذلك يلزمها كمية كبيرة من المتفجرات، وإذا لم تتوفر الكمية الكافية يختار المخرب نقاطاً ضعيفة في البنيان من السهل تدميرها مع أن ذلك لن يحدث سوى أضرار قليلة.

تعتمد فعالية الانفجار على مركزه وتوجيهه. إذا انفجر أصبع ديناميت على طريق مسطح فإنه يولد حفرة بعمق أقل من قدم واحد لأن معظم قوة الانفجار ستنعكس على الطريق. وإذا دعمنا الشحنة بدعائم (مثل أكياس الرمل أو الصخور الثقيلة) يتجه الانفجار نحو الأسفل ويؤدي إلى إحداث حفرة أكبر من السابقة. تستعمل التقوية لتوجيه الشحنات المتفجرة لقطع الكوابل وخطوط سكك الحديد وللتفجر من خلال الجدران ولتفجير الصفائح المعدنية.

يمكن إعطاء شكل معين للمتفجرات بحد ذاتها، وذلك لزيادة قوتها الاتجاهية ففي شحنات زجاجة الشمبانيا يملأ نصف الزجاجة الأعلى بالبلاستيك أو TNT المذوب، وهكذا يحصل المخرب على متفجرة بشكل مخروط. توضع الشحنة فوق سطح الهدف (بـ ٣ أو ٤ إنشات) ثمّ تدك بأكياس الرمل. عندما تنفجر توجه قوة الانفجار داخلياً على المسطح نحو الأسفل. توضع قنينة داخل أسطوانة ثمّ يملأ الفراغ حول القنينة بالمتفجرات. في الواقع يمكن استعمال أي قمع أو مخروط لإعطاء شكل الشحنات. يمكن إعطاء الشحنات شكلاً مستقيماً بشكل ٧، إذا أراد المخرب أن يقطع خطاً مثل كابل أو جسر. بعض الشحنات المتفجرة يعدّ للقتل، كقنبلة المسمار التي هي عبارة عن شحنة تلتف حولها طبقتان من المسامير وتصبح مشابهه لقذيفة شرابنل.

إنّ قنبلة الأنبوب (أو طوربيد البنغالور) هي قنبلة مضادة للأشخاص، وتتألف من أنبوب مقفل في طرفيه ومليء بالمتفجرات. من أكثر الشحنات إيذاء صحن معدني مقعر يوضع في قعر علبة قهوة ويملأ بالمتفجرات. عندما تنفجر الشحنة تدفع الصحن خارج قعر العلبة فيدور بسرعة عالية جداً مما يؤدي إلى احتكاك يولّد حرارة عالية للمعدن. يستعمل هذا الصحن المعدني الطائر في تفجير مخازن المحروقات، أو كسلاح مضاد للأشخاص.

كيف يتم التفجير

* تحتاج معظم المتفجرات إلى كبسولة تتولى التفجير. تتألف الكبسولة من شحنة مفاجئة وسريعة، وشحنة تحضيرية وشحنة أساسية. كل شحنة ترفع درجة الحرارة بصورة كافية لإشعال الشحنة التي تليها. هناك نوعان من الكبسولات: الكبسولة الكهربائية والكبسولة العادية. تفجّر الكبسولة العادية بواسطة صمام في طرفها تلف عليه الكبسولة. يجب أن يتم اللف بأدوات خاصة خشبية أن تنفجر الشحنة المفاجئة من جرّاء الاحتكاك وتفجّر بقية الشحنات ممّا قد يؤدي إلى إصابة يد العامل. يمكن تفجير الكبسولة العادية أيضاً بضرب الحشوة المفاجئة بقوة وبحدة كافيتين كما تفجّر الحشوة الدافعة في طلقة البندقية. في الكبسولات الكهربائية تستعمل شحنة كهربائية لإشعال المسحوق المفاجئ. يمكن صنع الكبسولات المتفجرة والصمامات بوسائل ميدانية (يصنع الصمام من خيط وبارود أسود وغراء، وتصنع الكبسولات من ظروف فارغة عيار 0,22 أنش ولكن لا يعتمد عليها مثل الكبسولات والصمامات الجاهزة والمتوفرة في الأسواق).

توضع المتفجرة بطرق عديدة ومختلفة. في آلية حل الضغط يتم قطع سلك يحرر الناقر ونباضه فيقدم الناقر الكبسولة ويفجر الشحنة. أو عندما يشدّ السلك يتصل موصلاً فيما بينهما، ممّا يقفل دائرة كهربائية تفجر الكبسولة. بعض الشحنات تتضمّن ألغاماً أرضية مثل «بتي المنعكسة» التي استخدمت في حرب فيتنام إذ يرتفع اللغم ٣ أو ٤ أقدام ثمّ ينفجر. تتألف الألغام البحرية التي زرعتها المخابرات الأميركية في موانئ نيكاراغوا من مقطع من أنبوب البالوعة «أي القسطل» مليء بالمتفجرات ومفجّر خاص تؤمنه القوات البحرية.

يمكن إثارة المتفجرات بأي حركة مثل فتح جارور، فتح مسكة باب، الجلوس على كرسي، تدوير محرّك، الإضاءة بمفتاح. يمكن تعليق المتفجرات بمقياس الضغط الجوي حتى تنفجر على ارتفاع محدد، ويمكن تعليقها بميزان حرارة لتنفجر لدى تغيّر درجة الحرارة. وفي حالات عديدة تعدّ المتفجرات للتفجير في وقت محدد.

أن أبسط المؤقتات هي الصمامات التي صمّمت لتحرق عدداً معيناً من الإنشات في الدقيقة تستعمل الساعات الموصولة بجرس إنذار كمؤقتات. تبين أن ويلسون قد باع ليبيا أقلاماً مؤقتة رقمية يمكن إعدادها للتفجير في أي وقت (من دقيقة إلى سنة). تستعمل بعض المؤقتات لإعداد القنابل لأوقات غير محددة في المستقبل وذلك باستخدام العوامل الكيميائية مثل حامض الكبريتيك وكلورات البوتاسيوم والسكر، التي تنفجر عندما تتصل ببعضها البعض. يمكن إعداد شحنة TNT بوضع طبقة من كلورات البوتاسيوم على سطحها متصلة بصمّام إلى كبسولة. يمكن وضع كبسولات طبية مليئة بحامض الكبريتيك. عندما يتصل حامض الكبريتيك بكلورات البوتاسيوم تنفجر القنبلة.

يستعمل معدن الصوديوم في مجموعة من الكبسولات وكاربايد الكالسيوم في مجموعة أخرى. توضع المجموعتان في وعاء من الماء يصب بعد ذلك في خزان بنزين المركبة. عندما تذوب الكبسولات في الماء يتصل الصوديوم بالماء ويولد غاز الهيدروجين وعندما يحكم إغلاق القنينة تؤدي حرارة هذا التفاعل إلى إشعال الهيدروجين، وبعد برهة. يولد كاربايد الكالسيوم غاز الأستيلين عندما يجتمع مع الماء. يشعل لهيب الهيدروجين غاز الأستلين ويفجر الوعاء وخزان الوقود.

كل شيء يظهر التغييرات، يمكن قياسها، في برهة قصيرة من الزمن (مثل تفتح الأزهار، أو تمدد البذور المجففة في الماء) يمكن استعماله كمؤقت للتأخير.

إن طريقة التفجير التي يجتازها معظم الإرهابيين والعملاء هي التفجير بالإرسال الراديوي تماماً كما نضع آلات استراق سمع في غرفة، على مسافة بعيدة، وبمساعدة مرسل راديوي رقيق يمكن كذلك وضع قنبلة مع مستقبل راديوي متصل بها. وضع القتلة الذين كلفتهم الشرطة السرية التشيلية باغتيال الزعيم المنفي أورلاندو لتلير عام

١٩٧٥ قنبلة في راديو سيارته ثمّ فجروها بينما كان يقود سيارته في شوارع واشنطن. وضع فريق الانتقام التابع للموساد الإسرائيلي الذي كان متورطاً في الأخذ بالثأر لعملية الرياضيين الإسرائيليين في الألعاب الأولمبية قنبلة في هاتف محمود الهمشري ثم اتصلوا به هاتفياً، وعندما عرّف عن نفسه فجّروا القنبلة لاسلكياً من الشارع المقابل مما أدى إلى مقتله.

المشكلة الكبيرة في المتفجرات اللاسلكية هي أن أي إرسال على تردد المتفجرة يمكن أن يفجرها استغل البريطانيون ذلك أثناء عملياتهم ضد الجيش الجمهوري الإيرلندي وشغّلوا أجهزة إرسال راديوية قوية في مجال الترددات صعوداً ونزولاً في محاولة لإثارة القنابل قبل تفجيرها وكردّ على ذلك وضع صانعو القنابل أجهزة أمان مؤقتة تسمح بالانفجار بعد مرور وقت معين.

الأفخاخ لها دورها أيضاً في عالم التجسس

* الأفخاخ قنابل مخفيّة وصغيرة الحجم. يمكن إزالة خرطوشة قلم الحبر واستبدالها بمتفجرة شديدة تفجرها كبسولة حساسة تجاه اللمس بعد ضغط الكباس في طرف القلم. كذلك يمكن ملء ولاعة السجائر بمتفجرات شديدة واستبدال الفتيل بصمام سريع الاشتعال. يمكن إفراغ السيجار أو السيجارة من التبغ وملؤها بالمتفجرة والصاعق. يمكن للقنابل من هذا الحجم أن تقتل حاملها.

يملأ مصباح الكاز (الكيروسين) بمزيج من البنزين والفيول أويل (زيت الوقود)، وتستبدل فتيلته بصمام، ويعتبر عندها مادة حارقة مدمرة مضادة للأشخاص. كذلك قنبلة المصباح الزجاجي التي يثقب القسم المعدني منها ثمّ يملأ المصباح بمسحوق متفجر أو بالبنزين. يعاد بعدها المصباح الزجاجي إلى مكانه، وعندما يضيء أحد ما الضوء يشعل السلك المتوهج فتنفجر المتفجرة.

تستعمل المتفجرات الحساسة تجاه اللمس في صنع أفخاخ مميتة، توضع داخل السفارة مادة متفجرة إذا نفخ أحد فيها تضرب الكرة الصغيرة المادة المتفجرة وتفجرها تملأ زجاجة نبيذ بالبنزين عالي الأوكتان ثم تغمس فيها فلّينة مغطاة بمشعل حساس تجاه اللمس. تنفجر الزجاجة عندما تنزع الفلينة.

تصنع الرسائل المتفجرة والطرود البريدية المتفجرة عادة من البلاستيك أو من قطع رقيقة جداً من TNT ثم تفجر بطرق مختلفة. يوضع للبعض منها صمام تأخير حتى تنفجر في المنشأة الهدف عندما ينقضي الوقت المحدد. وبعضها له عروة أو لسان يفجّر المادة المتفجرة عندما تفتح الرسالة، وفي بعض الأحيان تنفجر عند تسليم الرسالة. في بعض قنابل الرسائل كبسولتان منفصلتان من المواد الكيميائية (قد تكون إحداها حامض الكبريتيك والأخرى إما السكر أو كلورات البوتاسيوم) عندما تفتح الرسالة تنكسر الكبسولات وتتصل المواد الكيميائية ببعضها البعض ويحدث الانفجار. يمكن أن تنفجر المواد من هذا النوع قبل الأوان. والطريقة الأبسط هي استخدام فخ الفأر الذي يفتح ويغلق، وعندما تفتح العلبة يقفل بسرعة وتنفجر المتفجرة.

تبلغ سماكة قنابل الرسائل عادة من ١/٤ إلى ١/٢ أنش، وهي تشبه الورقة أو الكتاب الرقيق، والواحدة أثقل من طرحية الورق العادية ذات السماكة نفسها، وأكثر صلابة من الورق العادي (إذا كانت متفجرات قاسية من نوع TNT) وتكون طريّة مثل البلاستيك، عندها تكون أكثر طراوة من الورق العادي.

يمكن أن نلاحظ أوساخاً من الشحم خارج العلبة، ويمكن أن تكون لها رائحة زكية شبيهة برائحة اللوز. المستهدف الذكي يستدعي فوراً خبراء نزع المتفجرات ليتعاملوا مع الرسالة. إذا حاول أحد نزع الصمام فإنه يلبي رغبات واضع القنبلة، ويفجر نفسه قطعاً متناثرة.

بشكل عام يستعمل العملاء المتفجرات في العمليات شبه العسكرية مثل تلغيم المرافئ ونسف القطارات في زمن السلم أو الحرب، كما يستعمل الرسائل المتفجرة. على أي حال العميل ليس جندياً ولا جاسوساً، إنه قاتل، وعمليات القتل «الرطبة» هذه هي موضوع الصفحات القادمة.

المخابرات تستعمل الأسلحة والخدعات القذرة

* الحرب الباردة هي حرب معلومات واتصالات وحيل، لكنها عادة ليست حرب قتل. مع ذلك يقتل أشخاص بين وقت وآخر. يختفي بعض العملاء أو

يصابون بانهيارات (نوبات قلبية مفاجئة) أو تطفو جثثهم على مياه الأنهار هنا أو هناك.

تم بحثنا لتكنولوجيا التعامل مع الموت في الرسائل المتفجرة والألغام الأرضية، كذلك الخدعات القذرة تتضمن تقنيات قريبة وسهلة التناول وأقل تعقيداً من تفجير الشحنة باللاسلكي هذه التكنولوجيا السرية ماكرة جداً، وعندما يستعملها العملاء فإنها تشكل بحد ذاتها إجازة في القتل.

في الحالات الطارئة يستعمل أي شيء كسلاح. أي شيء صغير وثقيل الورزن يمسك باليد فيزيد من وزن اللكمة وتأثيرها. يمكن كسر زجاجة واستعمالها لأحداث جراح مؤلمة، كما يمكن وضع مجموعة مفاتيح على الأصابع واللكم بها. يمكن صنع هراوة من حذاء بكعب قاس، ويمكن استعمال الطرف القاسي للكتاب كهراوة. كما تستعمل في حالات معينة أقلام الحبر وأقلام الرصاص والشمسيات والعصي وشريط الحذاء (يستعمل للخنق) والجوارب المملوءة بالرمال الرطبة. تقريباً يستعمل كل شيء في المواقف الصعبة (هذه الحقيقة ونتيجة الخبرة لمدربي الجواسيس).

من الأسلحة الجاهزة للاستعمال في القتال وجهاً لوجه السكين الذي يمكن أن يتخذ أشكالاً وأحجاماً مختلفة. هناك سكين مع نباض، وسكين يعمل بالجاذبية، وسكين سريع، وجميعها صممت لتؤمن امتداداً فورياً وسريعاً لشفرة مخبأة. هناك سكين مسنّن مع قبضة حديدية، وسكين مسطح متوازن للرمي، وسكين مجهّز بإبرة مسممة في رأسها، وسكين يخبأ في بكلات الأحزمة. هناك الفأس والهراوة والعصا المعقوفة وعصا نونشاكو المرعبة (عصوان من الخشب متصلتان بسلسلة من الحديد) والهراوة الصامتة والمدية الطويلة التي يستعملها سكان أميركا الجنوبية والسيف والعصا والشمسيات.. اللائحة لا تنتهي. ولكن الخطر في جميع أسلحة القتال وجهاً لوجه هو أن العميل إذا لم يكن خبيراً في استعمالها فإنه يؤذي نفسه أكثر مما يؤذي الخصم.

إذا كان العميل في وضع يفرض عليه القتال وجهاً لوجه، فالمسدس هو أفضل سلاح.

تستعمل البنادق في عمليات الاغتيال بالقنص من مسافات بعيدة وذلك بسبب

أحجامها الكبيرة في هذه الحالة يمكن استعمال البندقية السوفياتية أ ك ٤٧ المعروفة بكلاشنكوف أو البندقية الأميركية م ١٦ أو م ١٨ أو أي بندقية صيد يبلغ مداها الفعال ٣٠٠ يارده.

تعتمد دقة الرمي على جودة السبطانة وجهاز التسديد الذي يكون عادة منظاراً مركباً على البندقية مضبوطاً ومتوازناً مع مسرى القذيفة، كما تعتمد أيضاً على مهارة الرامي. وفي هذا المجال حدث تطور مهم يتمثل بمنظار اللايزر الذي يبث إشعاعاً نحيفاً أحمر ياقوتياً من اللايزر مباشرة إلى النقطة التي من المقرر أن تصل إليها الرصاصة. يسدد الرامي الشعاع إلى الهدف ويضغط على الزناد.

يحتاج العميل إلى سلاح صغير وخفيف الوزن للدفاع المفاجئ والأطباق السريع، ومن الأفضل أن يكون هذا السلاح سهل الإخفاء وأوتوماتيكياً (البنادق الآلية كبيرة جداً، فحتى الصغيرة منها كالرشاش الكلاشينكوف يعتبر كبيراً) أفضل هذه المسدسات وأشهرها أنغرام م ١٠ وأنغرام م ١١. صنع هذه المسدسات غوردون أنغرام في الستينات عندما كان يعمل في مركز ميتش وربل لمكافحة الثوار ومواجهة عمليات التخريب (بعد دمج هذا المركز مع شركة التسليح العسكري) يزن كل من انغرام م ١٠ وانغرام م ١١ أقل من ٤ أرطال، ويبلغ طوله أقل من ١٠ إنشات. يستطيع م ١٠ رماية ٧٠٠ طلقة في الدقيقة من عيار ٩ ملم، بينما يستطيع م ١١ رماية ٨٥٠ طلقة في الدقيقة من عيار ٣٨ ر. بوصة.

السرعة الابتدائية في كلّ من المسدسين أقل من سرعة الصوت ولذلك يمكن تجهيزه بكاتم للصوت. السلاح المقابل لأنغرام في دول الكتلة الشرقية هو التشيكي سكوربيون ف ز ٦١. وله خصائص مشابهة لأنغرام. لا يستطيع هذا المسدس الآلي أن يحمل أكثر من ٣٠ طلقة. إلا أنه يمكن إمداده بسرعة بالذخيرة اللازمة.

تمّ اعتماد المسدّس نظراً لحجمه الصغير ولفعاليته. يعتقد الكثيرون بأن مسدس العميل يجب أن يكون قوياً وبعيار كبير (أي مثل الماغنوم) لكن الموساد (المخابرات الإسرائيلية) مثلاً تزود عملاءها بمسدسات من عيار ٢٢ر. بوصة. إنها مسدسات صغيرة وخفيفة الوزن وسهلة الإخفاء وسهلة الاستعمال وتحدث صوتاً خفيفاً بحيث

أنه ليس من الضروري تركيب كواتم صوت لها، وهي دقيقة جداً في الرماية حتى مسافة ياردات لأخذ العلم بأسلحتهم.

الدفاع ضد المسدسات هو تدريع الجسم

* صنع قديماً درع من المعدن، أمّا اليوم فالدرع الشائع مصنوع من ألياف الزجاج أو من الكفلار Kevlar وهو نوع قوي وخفيف الوزن من ألياف الزجاج. إن تدريع الجسم بكامله غير عملي ومربك ويسبب حرارة لا تطاق. البديل هو البزة المضادة للرصاص التي تبدو كأنها لباس عادي له ألياف من نوع كفلار حيكت حوله. على أي حال لا يتحمل هذا اللباس طلقة مباشرة من مسافة قريبة جداً. هناك أيضاً حقائب صغيرة مضادة للرصاص وبطانة داخل الحقيبة وألواح يمكن استخدامها كدرع في حالة الطوارئ يجب أن يتذكر العملاء شيئين: أولاً، أن ما يظهر في الأفلام السينمائية من مظاهر الاختباء مثل قلب الطاولة والاختباء وراءها لا ينفع، إذيمكن لرصاصة من عيار ٢٢، ٠ بوصة أن تخرق ٧ إنشات من الخشب الناعم ولرصاصة من عيار ٤٥ر. أن تخرق السيارة بالطول وتتوقف في المحرك. ثانياً، أن ارتداء الدرع لا يعني أن العميل لن يصاب بأذى. إن قطعة معدنية صغيرة (الرصاصة) تسير بسرعة ٢٠٠٠ قدم في الثانية سوف ترمي الشخص الهدف إلى الأرض ويحتمل أن تكسر له ضلعاً أو اثنين إذا أصابت درع الصدر.

يجري دائماً تحسين الذخيرة وتطويرها حتى تصبح مميتة. إن رصاصة الدمدم Dumdum (وهو الممنوع في معاهدات جنيف) هي عبارة عن رصاصة مجوفة تسبب تشظي الرصاص عند المأثر تسبب رصاصة الدمدم ثقباً لدى دخولها الجسم لكن ثقب الخروج يكون ضخماً بسبب تشظي الرصاص وتبعثره. يستعمل حراس الجو الذين يعملون في الطائرات الأمريكية هذا النوع من الرصاص بهدف التصدي لخاطفي الطائرات. إن تبعثر الرصاصات حول المأثر يبقي الشظايا في الجسم، وإذا لم يصب الرامي، فإن الرصاصة تنفجر على مأثرها ولا تسبب ثقباً في جدار الطائرة.

إنّ ما يسمى عادة الرصاص المتفجر لا يحمل متفجرات، وإذا حمل متفجرات فإنها تنفجر فور إشعالها عوضاً عن ذلك هناك رصاصة فيها تجويف يحتوي على نقطة زئبق. عندما تنطلق الرصاصة من المسدس ينضغط الزئبق إلى مؤخرة التجويف،

وعندما يصيب الهدف يتبخر وينفجر من رأس الرصاصة. هذا الرصاص له مفعول أقوى من مفعول الدمدم.

هناك ثلاثة أنواع عجيبة من الطلقات هي: السموم واليورانيوم والرصاصات المكسوة بالتفلون Teflon.

اتهم السوڤيات باستعمال الرصاصات السامة (وهي ممنوعة أيضاً بموجب معاهدات جنيف) ضد الألمان في الحرب العالمية الثانية. عندما تكون الرصاصة مغطاة بطبقة من السيانيد Cyanide أو الأرسنيك Arsenicفإنها تقتل حتماً كل من يصاب بها ولو بجروح طفيفة. تستعمل في رصاصات اليورانيوم غير المشع بدلاً من معدن الرصاص.

تحدد قوة الرصاصة بحجم وكمية البارود المنفجر في الظرف، وبما أن اليورانيوم أثقل من الرصاص فيمكن استعمال كمية أكبر من البارود لإطلاق طلقة بسرعة أكبر (وبوزن أكبر من وزن طلقة معدن الرصاص) وتصل إلى مدى أبعد. يمكن للطلقات المكسوة بمادة تفلون أن تخترق درع الإنسان لأنها مضادة للاحتكاك، وتتأرجح بين ألياف الزجاج أو ألياف كفلار.

كاتم الصوت Silencer ومهمته

* عندما يطلق المسدس طلقة، فإنه يصدر ثلاثة أصوات: صوت آلية الإطلاق ودويّ الغاز المتمدد الذي يخرج في الفوهة، وأزيز الرصاصة وهي تسير بسرعة عالية جداً تتجاوز أحياناً سرعة الصوت. إذا كان المسدس يعطي صوتاً ميكانيكاً صاخباً، وإذا كانت الرصاصة تسير بأسرع من الصوت، فإنه لا يمكن كتم صوتها. يمكن ذلك إذا أعيد تجهيز المسدس حتى يكون أهدأ ويزود بكمية قليلة من المواد المتفجرة. إن مهمة كاتم الصوت هي احتواء الصوت الثاني وهو الأقوى، أي دويّ الغاز وهو يخرج من الفوهة.

اخترع كاتم الصوت جيرام مكسيم وهو كاتب سيناريو ومن عائلة تتعهد تقديم تجهيزات للجيوش. اخترع والده أول مسدس آلي حقيقي، واخترع شقيقه البارود الخالي من الدهان والطوربيد الذاتي الحركة. بدأ مكسيم العمل في إعداد كاتم

الصوت عام ١٩٠٦ ومنح براءة الاختراع عام ١٩١٠ وبما أن الدوي الذي نسمعه عند إطلاق النار ناتج عن التمدد السريع للغاز الذي يخرج من الفوهة فقد أدرك مكسيم أنه إذا خرج الغاز ببطء وتمّ احتواءه، فإن الضجة ستخف أو تنعدم.

إن عمل كاتم الصوت يشبه عمل قسطل التصريف[1] في محرك السيارة. ولكن إذا كان قسطل التصريف يحوّل خط سير الغاز المنبعث إلى دائرة جديدة فإن على كاتم الصوت أن يترك ممراً للرصاصة هناك نوعان من كواتم الصوت التي تستخدم حالياً: يستعمل الأول سلسلة من الجدران المانعة والغرف لالتقاط الغاز وتخفيف سرعته، ويستعمل الآخر طبقات من المواد الممتصة وهي عادة أسلاك مشبكة.

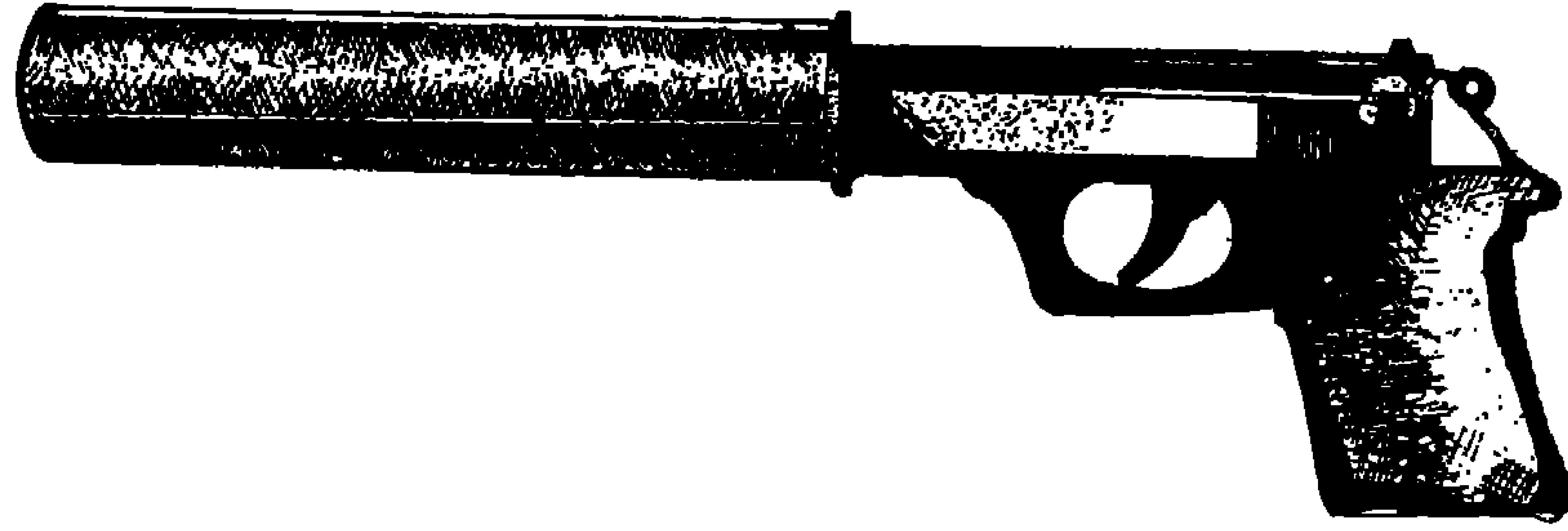
يعتبر ميتشل وربر الثالث ملك كواتم الصوت بعد مكسيم وقد كان أيضاً وراء المسدسات الآلية انغرام م١٠ وم ١١. طوّر وربر كاتم صوت يحتوي على سلسلة من الأسلاك الشبكية لها شكل كعكة موضوعة في أنبوب معدني يثبت على ظرف البندقية أو المسدس. هذا الكاتم يضغط الصوت حتى مستوى صوت بندقية الأطفال ويحتوي وميض الفوهة أيضاً، ويعتقد البعض بأنه أدى إلى تحسين البنادق والمسدسات وذلك بتقليل التراجع.

إن كواتم الصوت ملائمة جداً للعمل السري، ولهذا يمنع صنعها وبيعها واقتناؤها في معظم دول العالم ولكنها متوفرة للعملاء الحاقدين.

صنع المسدسات وكواتم الصوت بشكل ارتجالي

* إذا كان العميل في الميدان وأحس باقتراب العدو منه وليس معه سلاح، يمكنه صنع مسدس أو بندقية بشكل ارتجالي من أنبوب معدني ومسمار وقطعة من الخشب وسدادة مطاطية وبعض الربطات والوصلات المرنة. مشكلة هذه المسدسات المرتجلة أنها تعرض الشخص الذي يستعملها للخطر أكثر من الشخص الذي تطلق النار عليه.

(١) ويسميه العامة أشكمان أو أشطمان وهو يخرج الدخان من محرك السيارة ويخفف من صوته.



مسدس مع كاتم صوت موصول به

يصنع المسدس من أنبوب معدني، وإذا استعمل ذخيرة مرتجلة توضع في الفوهة، يمكن أن يتحول إلى قنبلة أنبوبية في يد صانعها.

هناك تصاميم عديدة لكواتم الصوت المحلية. يتضمّن التصميم الأول إحداث سلسلة من ١٢ ثقباً في سبطانة المسدس وتغطية الثقوب بطبقة من السلك المشبك والمواد الممتصة توضع جميعها في أنبوب خاص. تتضمن بعض التصاميم صنع أنبوب آخر مليء بالسلك المشبك أو سدادات الزجاجات مع ممر خاص للرصاصة. إن مشكلة هذه الكواتم هي أنها قد تعترض مسرى الرصاصات إذا انحرفت قليلاً.

صنعت أيضاً كواتم صوت من حلمات زجاجات الأطفال ومن البوالين، وتم تدبرها أحياناً بالرماية من خلال وسادة (لا تخفّف سرعة الرصاصة ولكنها تقلل الصوت كثيراً) أو بلفّ منشفة حول فوهة المسدس.

يمكن صنع قاذفة لهب من علبة معدنية للدخان المائع، بطريقة ارتجالية، إذ يمكن صنع قبضة وزناد ومجموعة أطلاق من سلك من تعليقة المعطف وتشغيلها على البطارية. عندما نضغط على الزناد ينضغط أعلى علبة الدخان ويندفع الغاز فوق الشرارة التي تشعله. يدعي مصممو قاذفة اللهب هذه أنه يمكنها أن تصدر قوساً من النار حتى مسافة ٥٠ قدماً إلا أن المدى المحتمل يتراوح بين ١٠ و٢٠ قدماً.

تاسر Taser هو مسدس كهربائي يطلق شوكتين متصلتين بأسلاك إلى المسدس (يحدد مدى المسدس بطول الأسلاك، حوالي ١٥ قدماً) عندما تستقر الشوكتان في

جسم الضحية يتولد جهد ٢٠٠٠ فولت في الأسلاك - يفترض أن ذلك لا يقتل بل يشل صمّمه تاسر ليشل لا ليقتل. يصعب علينا تحديد مستوى الجهد الكهربائي أو المخدر الذي يؤدي إلى مقتل الإنسان، وهذا فإن تاسر يعدّ من الأسلحة الممنوعة.

يمكن استعمال الصوت كسلاح. إن الصوت الذي يتجاوز قدرة الإنسان السمعية والذي يرسل على مستوى عال (١٠٠ ديسبل أو أكثر) بسبب الصداع والغثيان والارتباك دون أن يعرف الضحية لماذا يصيبه ذلك. والأصوات التي هي دون القدرة السمعية للإنسان، عندما ترسل على مستوى عال تسبّب كذلك فقدان التوازن والإزعاج والألم. إذا كان حجم الصوت عالياً والصوت منخفضاً يمكن استعمال الصوت لهزّ البنايات وتمزيق الأعضاء الداخلية لجسم الإنسان. إن مشكلة هذا السلاح أنه يعطي نفس المفعول لمن يستعمله.

«القوس والنشاب» آلة حربية منذ القدم وهي سلاح عجيب في هذه الأيام، بعدما أجريت تحسينات على القوس والنبال التي أصبحت سهلة الإطلاق، وأضيف إليها منظار يؤمن دقة التسديد والرمي يحتمل أن تكون آلة «القوس والنشاب» فعّالة مثل البندقية على المسافات المتوسطة. هذا السلاح صامت ولا يصدر عنه إلا صوت السهم وصوت الوتر. تستطيع الأسهم أن تخرق درعاً جسدياً بفضل أطرافها المروسة. وهناك بعض الأسلحة الغريبة الأخرى منها بندقية الرمح والمقلاع وبندقية النفخ يمكن أن نرى في المستقبل سلاحاً عجيباً هو بندقية اللايزر أو مسدس اللايزر، وذلك كما نشاهد في الأفلام السينمائية الخيالية. يستعمل اللايزر الصغير لإعماء الخصم فوراً، إلا أنّ تكنلوجياً صنع بنادق اللايزر لا تزال بعيدة جداً.

المخابرات تستعمل الخداع القذرة

* في ٧/ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٨ وعلى جسر واترلو في لندن شعر المنشق البلغاري جورجي ماركوف بوخزة في رجله سببت له ألماً بسيطاً، والتفت فرأى رجلاً ينحني ليلتقط شمسية ويعتذر لأنه وخزه عرضاً. ثم استقل الرجل سيارة تاكسي وانصرف. هزّ ماركوف كتفيه لا مبالياً، ولكنه توفي بعد أربعة أيام (مراجعة الجزء الأول من المخابرات والعالم) لقد قتل ذلك الرجل ماركوف على الجسر لأن الشمسية كانت تحتوي على بندقية هوائية صغيرة جداً انطلقت منها كرة صغيرة جداً

تحتوي على سياليد البوتاسيوم. هذه الكرة التي يبلغ قطرها أقل من ١٠/١ من الإنش شقت طريقها إلى الدم وأدت إلى مقتل ماركوف (كشف التشريح وجود سم ولم يعثر على الكرة إلا في ٢٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٨) كان هذا الاغتيال واحداً في سلسلة الأعمال الانتقامية التي قامت بها المخابرات البلغارية ضد المنشقين اللاجئين إلى الغرب. في نفس الوقت طعنوا فلاديمير كوشوف في باريس ولكن الكرة لم تقتله.

تعد طريقة قتل ماركوف من أقذر الخدعات الحاذقة والماكرة. ولهذه الطريقة تأثير نفسي كبير، إذ يتخوف اللاجئ من قتله في الليل مثلاً. وقد أرسل البلغاريون رسائل إلى المنشقين الآخرين تهددهم بالقتل بهذه الطريقة. تقول إحدى الرسائل: «لن تكون آمناً نحن نستطيع أن نحصل عليك في أي وقت وفي أي مكان ونقتلك».

نقل الأسلحة القذرة

* يمكن وضع المسدسات في الكتب وفي الأحذية وفي الأقلام وفي الأدوات الموسيقية والكاميرات مثلما يمكن وضع لعبة «سام السري» للأطفال في حقيبة صغيرة. عندما يكون المسدس في الحذاء يجب أن يكون العميل في موضع صحيح للرمي وظهره على الأرض ويسدّد مقدمة قدمه نحو المهاجم وأن لا ينتهي الأمر بإطلاق النار على نفسه أو على شخص آخر.

استعملت رصاصات مصنوعة من ألياف الزجاج أو البلاستيك تخفي السبب الحقيقي للموت لأنها لا تظهر على أشعة إكس (الأشعة السينية) يمكن إزالة الرصاصة من الظرف واستبدالها بالماء أو الثلج أو الملح الصخري وعندما تطلق من مكان قريب جداً تقتل ولا تترك أي دليل. تتضمن بعض الأسلحة الغادرة لعبة فريسبي مع شفرة حلاقة تخرج من الجانب الآخر وسلاحاً مصنوعاً من الاسمنت المقوى يستخدم كهراوة وطائرات يتم التحكم بها لاسلكياً وتحمل متفجرات ولعبة تسمى يويو تقذف أقراصاً معدنية ومسدسات من جميع الأشكال والأحجام.

يمكن استعمال الأسلحة في الأفخاخ. يمكن تجهيز الأبواب والجوارير لإطلاق الرصاص بدلاً من تفجير القنابل. يمكن إعداد سكين ووضعها في نافذة مقفلة بحيث أنها تنطلق إلى صدر الذي يحاول فتح النافذة. يمكن تفخيخ المسدس وذلك بسد السبطانة بحيث أنه ينفجر في يد كلّ من يحاول أن يطلق النار به.

السموم لها دورها أيضاً

* تكون السموم إما عضوية أو غير عضوية:

تتضمن السموم العضوية تلك المشتقة من حوالي ٢٠٠٠ نبتة سامة مثل نبات خانق الذئب Wolfsbane والشوكران Hombock والدفلي Oleander والبوينستيا Poinsettia المكسيكية وأوراق الراوند Rhybark وبراعم البطاطا وأوراق التبغ، يمكن أيضاً استخراجها من الحيوانات السامة مثل الأفاعي (خصوصاً الكوبرا) والسمك الصخري وبعض أنواع السمك الياباني أما السموم غير العضوية فهي كيميائيات ومعادن تتضمن الأرسنيك Arsenic والتاليوم Talium وسلسلة السيانيد Cyanide والغازات السامة مثل الفوسجين Phosgene.

يمكن تحضير السموم بطرق عديدة. توضع وتمزج بالطعام ويمكن وضعها في الحقن أو في الأفخاخ. إحدى هذه الطرق وضع خصلة تفلون Teflon في السيجارة. عندما تشتعل السيجارة يشتعل التفلون ويولد غاز الماتان Methane القاتل، أو تتراكليوريد الفحم Carbon Tetrachloride الذي يغلي' أو يحرق ليولد غاز الفوسجين السام، والذي له رائحة تشبه رائحة التبن المعفّن.

في أوائل أيام الحرب الباردة طوّر السوفيات طريقة لاستعمال حامض البروسيك Pryssic Acid (أحد السيانيد) الذي يسبب ما يشبه نوبة قلبية فورية. يستعمل عملاء الاستخبارات السوفياتية ك ج ب غبار حامض البروسيك وذلك بنفخه من خلال صحيفة إلى وجه الخصم الذي يستنشقه. وهناك مسدس غاز من نوع م ف د MVD يقوم بنفس العمل. قبل تنفيذ عملية الاغتيال بغبار حامض البروسيك يجب على العميل أن يتنشق نيترات الأميل Amyl nitrate (كعامل مضاد) حتى يتجنّب الإصابة بتوقف القلب.

إن أقذر طريقة للتسميم هي مسح الغطاء الذي غالباً ما يلمسه الشخص الهدف بمادة مثل النيكوتين المركّز الذي يدخل الجسم من خلال الجلد، أو بأيّ سم آخر يمكن مزجه بسهولة بسلفوكسايد دايمثل dimethyle Sylfoxide وهو عامل كيميائي يدخل الجسم عبر الجلد ويتغلب على أي شيء (إذا مزجنا سلفوكسايد دايمثل بعصير الليمون وحكّينا به فخذ شخص ما، فإنه بعد برهة سيحسّ بطعم الليمون في فمه).

* في خلال دراساته وأبحاثه عن «مخدر الحقيقة» اختبر مكتب الخدمات الاستراتيجية وهو الاسم السابق للمخابرات الأمريكية الكحول والكافيين والباربيتيورات Barbiturate وكل ما يتضمن السكوبولامين Scopolamine والبيوت Peyote (أي الصبار الأميركي) وقد توصل المكتب إلى استخراج الماريوانا (أي القنب) التي أطلق عليها اسم «مخدر الحقيقة» ولكن حتى لو كان مخدراً غير ملائم فيمكن أن يؤدي إلى ضحك مستمر تصعب السيطرة عليه بعد أخذ الجرعة وقد يؤدي أيضاً إلى الجنون.

في أواخر الأربعينات اختبروا في وكالة المخابرات المركزية المنوم المغناطيسي وجرّبوا اجتماع مخدرين مثل سيكونال Seconal وبنتوثال الصوديوم Sodium pentothal ويتبعهما أمفيتامين قوى Amphitamine مثل دكسدرين Dexdrine أو دوزوكسين Dosoxyn كانت الفكرة المحافظة على عالم متألف من الشعور واللاشعور. ثم تعليق زجاجات تحتوي على مخدرات تدخل عن طريق الأوردة، لها ساعد وصمامات للتحكم بالتدفق بحيث يمكن المحافظة على الشخص في الحالة المرغوبة والمطلوبة.

أدى هذا البحث في التحكم بالسلك إلى اختيار الهيروين Heroin والمورفين Morphin والميثادون Methadone والكوكايين Cocaine ول س د (L S D) (حامض اللسيرجيك Lysergic Acid).

قام أركان الخدمات التقنية في وكالة المخابرات المركزية بمشروع أبحاث. إذ جرّب مجموعة من العمال المخدر لبرهة حين فاجأوا بعضهم البعض بوضعه في القهوة أو في الحساء وذلك لمعرفة ردود الفعل. دعت إحدى الخطط إلى وضع مخدّر لمجموعة معينة في حفلة عيد الميلاد الخاصة بالوكالة ليرى كيف يتصرف الناس غير المشكوك فيهم عندما يتعرضون للمخدر.

ثبت أخيراً أن المخدّر ل س د L S D يتحكم بالعقل، ولا يوجد «مخدر الحقيقة» (أي المخدّر الذي يوصل إلى الحقيقة أو إلى اعتراف صريح من قبل

(المستجوب) تستعمل المخدرات مع التنويم المغناطيسي والإكراه، وعندها لم يحفظ الشخص المستجوب أيّ سرّ لفترة طويلة.

من الغريب فعلاً أن تمضي وكالة حكومية وقتاً طويلاً، وتبذل جهداً كبيراً، وتنفق مالاً في الأبحاث حول التطبيقات السرية للمخدرات. على أي حال إن المنظمات والوكالات العسكرية وغير العسكرية مثل المخابرات الأميركية تهتم بأي شيء يعطي خيطاً أو طرفاً للوصول إلى الحقيقة. لهذا تبحث القوات الجوية حول الصحون الطائرة. ويدرس السوفيات البارابسيكولوجيا Parapsychology هناك اهتمام متجدد بمسألة «مخدر الحقيقة» يرتكز على الأبحاث الحديثة التي تظهر أن دماغ الإنسان يصنع منبّهه الخاص ومسكّنه الخاص ومنشّطه الخاص وحتى عوامل الهلوسة.

وأخيراً

* عرضنا ثلاثة مجالات أساسية في ميدان عمل الحقيبة السوداء: السرقة، التخريب والتفجير، الأسلحة والخدعات القذرة.

السرقة هي الأكثر شيوعاً لأنها مثمرة وفعّالة ولا توجد فيها مخالفة أكثر من التنصت على المكالمات الهاتفية أو زرع أدوات استراق سمع في الغرف. في مجال التخريب يصعب الفصل بين النشاط العسكري والنشاط الاستخباراتي. وتبدو بعض التكتيكات عسكرية بطبيعتها إلا أنّ الذي ينفّذها هو العميل السري لأي مخابرات.

مع أن العملاء لا يقتلون بعضهم بعضاً كما كانوا يفعلون في بداية الحرب الباردة، فإن بعض الحوادث (كحادثة ماركوف مثلاً) تعيد إلى الأذهان أن العنف ما زال سائداً.

من الصعب التنبؤ بمستقبل الحقيبة السوداء. ستصبح أجهزة الإنذار أكثر تعقيداً والأقفال غير قابلة للفتح وكذلك الخزنات. وعلى الأرجح سيرافق هذه التعقيدات تصعيد في عمل اللصوص سوف يتقدم التخريب في مجال المتفجرات اللاسلكية التي سيزداد مدى عملها. ستبقى أسلحة الجواسيس والعملاء في العقد القادم كما هي، في ما عدا تطوير مسدسات أصغر وأهدأ. ستستمر الخدعات القذرة مثل شمسية ماركوف، وستكون ثمرة للعقول الملتوية أكثر منها ثمرة للتقدم التكنولوجي.

عرض واستنتاج

عرضنا في هذا الفصل عن أعمال التجسس بقسميها الأساسيين: التجسس الذي تنفذه الأقمار الاصطناعية والطائرات، والتجسس الذي يقوم به العملاء. في القسم الأول رأينا كيف تطورت أقمار التجسس وطائرات التجسس انطلاقاً من أعمال الاستطلاع البدئية، وكيف اجتاحت الاستخبارات التكتيكية لمعرفة ما يوجد وراء التلة، وكيف تطور ذلك إلى مخابرات استراتيجية تصل إلى عمق الدولة ـ الهدف.

من الملاحظ أن تكنولوجيا هذا التجسس الواسع النطاق تتصل بالتكنولوجيا المقابلة أي العدوة وتتأثر بها. لقد سدّت الطائرة «يو ٢» فجوة القاذفات، كما سدّ ديسكو فورر وساموس «فجوة الصواريخ» وقد يستعمل في المستقبل القريب «تيل روبي» و«هالو» لسد فجوة قواعد اللايزر الفضائية.

ومن الملاحظ أيضاً أن تكنولوجيا التجسس قد أحيطت بسرية مطلقة أكثر من السرية المحيطة بالأسلحة بحد ذاتها. الرأي العام يعرف الكثير من القاذفة ب ١ والصاروخ م أكس M X، ولكن يعرف القليل وربما لا يعرف شيئاً عن ك هـ ١١ وهالو وتيل روبي. وسبب ذلك هو أن كشف أسرار الآخرين يتطلب حماية شديدة للأسرار الخاصة.

ما تزال تكنولوجيا التجسس من الفضاء حيوية وهامة في التحقق من حسن تنفيذ المعاهدات وتخفيف التوتر الدولي، وذلك بالحد من إمكانية حدوث الضربة المفاجئة. لقد صممت هذه الآلات لجمع المعلومات وأصبحت مهمتها اليوم إعداد الخطط العسكرية في الحرب النووية والتقليدية وبدلاً من أن تكون هذه الآلات جزءاً من خطة القضاء على التهديد النووي، صارت الآن جزءاً من هذه المشكلة.

هناك توقعات قليلة حول تطورات تكنولوجيا التجسس في العقد القادم. ستشهد معدات المراقبة تطورات في أدوات استراق السمع وأجهزة الإرسال بالتردد الراديوي المعقدة. كما ستتأمن الحيطة في الاتصالات باستعمال الألياف البصرية. ستؤمن الشيفرة وسيلة حيطة لحماية تبادل المعلومات، وستصبح شائعة الاستعمال وذلك باعتمادها على الكومبيوتر.

تملك وكالة الأمن القومي الأميركية عدداً من الكومبيوترات السريعة جداً، ومن المحتمل أن تحصل على كومبيوتر يستطيع القيام بكوادر مليون عملية في الثانية، ويبدو أن تكنولوجيا «الحقيبة السوداء» لن تتغير كثيراً في العقد القادم.

بدأ التجسس بوصف لعبة أطفال في الستينات تسمّى «سام السري» وهي بندقية بلاستيك تستعمل من داخل حقيبة. إن التكنولوجيا المشابهة لعمل هذه اللعبة، والتي نراها في الأفلام السينمائية والكتب هي موجودة فعلاً، ومع أن بعضها ليس غريباً كما يبدو في روايات التجسس، إلا أنها متطورة جداً: مثلاً يستطيع قمر التجسس الرؤية من خلال السحب، وتستطيع أداة استراق السمع التي تعمل على اللايزر أن تلتقط المحادثة الجارية من خلال زجاج النافذة. وهذا بحد ذاته أغرب من الخيال، إنها المخابرات والتجسس في كل زمان ومكان.

الفصل الواحد والعشرون

التجسس في العالم بواسطة الفنانات

* في الأعوام التي تبدأ من عام ١٩٦٢ وحتى الثمانينات ظهرت حالات زواج كثير من الفنانات من مصر وغيرها، من مسؤولين كبار وضباط عظام في القوات المسلحة، وهذه الظاهرة كانت تخفي وراءها هدفاً سياسياً أو بمعنى أصح كان هدف هذه الزيجات هو الحصول على معلومات هامة من هؤلاء المسؤولين الذين كانوا في قمة الجهاز السياسي والعسكري.

والظاهرة التي نحن بصدد الحديث عنها هي زواج كبار المسؤولين في تلك الفترة من فنانات السينما والغناء.

وأن يرتبط مسؤول كبير بفنانة سواء بالصداقة أو الزواج فهذا أمر غير عادي.. ولا بد أن يكون وراءه صفقات ليست تجارية أو صناعية إنما صفقات أخطر وأعمق تمس الأمن القومي ذاته..

وإذا نظرنا إلى خريطة زيجات تلك الفترة لوجدنا أن المشير «عبد الحكيم عامر»، وهو قمة السلطة السياسية والعسكرية يرتبط «بوردة» في البداية ثم «ببرلنتي عبد الحميد».

و«سامي شرف» سكرتير الرئيس جمال عبد الناصر للمعلومات تنطلق الشائعات وتؤكد أنه تزوج «كريمة المعادي» و«علي شفيق» مدير مكتب المشير يتزوج، «مها صبري».. وعبد المنعم أبو زيد سكرتير المشير يتزوج «سهير فخري».. و«محمود الجيار» يرتبط بصداقة متينة مع «زبيدة ثروت» من خلال صداقته بزوجها المنتج السينمائي المعروف «صبحي فرحات» و«إبراهيم صادق» شقيق حاتم صادق زوج ابنة الرئيس جمال عبد الناصر يتزوج من الفنانة «نادية لطفي» في حينه.

أما في التفاصيل فلا بد أن نسبقها بالخريطة السياسية في مصر في تلك الفترة

حتى نستطيع أن نتبين من خلالها سبب انتشار تلك الظاهرة والتي صارت مرضاً لعيناً في تلك الفترة.

كانت مصر في تلك الفترة قد خرجت من محنة الانفصال مع سوريا، ودخلت بعدها في الحرب مع السعودية لحماية ثورة اليمن وكانت الولايات المتحدة الأمريكية تساند السعودية والاتحاد السوفييتي يساند اليمن وقواتنا المسلحة في تلك الحرب الرهيبة...

وانتهت بحرب يونية ١٩٦٧ والتي أدت إلى الهزيمة.

وكانت حركة المد الاشتراكي قد بدأت تزداد نمواً وبدأت التأميمات وتكوين شركات القطاع العام. وظهور الحركات النقابية العمالية بتشكيلاتها المؤثرة على الجماهير في الداخل.

في كل تلك الظروف استهدفت مصر وتسللت ظاهرة زواج كبار المسؤولين من الفنانات أو ارتباطهم معهن بصداقات قوية تجعلهن يعرفن أدق الأسرار سواء السياسية أو الاقتصادية.

وحتى تتبين خطورة هذه الظاهرة لا بد أن نعود للتاريخ.

فقد حدث في فترة ما بعد حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ الذي حاصرت فيه القوات الانجليزية قصر عابدين وكان هدفها إقصاء الملك فاروق عن الحكم وهو ما يزال صغيراً في سن الحادية والعشرين - لأنه تباطأ في إسناد الوزارة إلى مصطفى النحاس - رئيس حزب الوفد في ذلك الوقت - إذ أحس الملك أن الجميع قد تخلوا عنه فلم يلتفت إلى شيء، وظهرت ظاهرة مماثلة لما حدث في الفترة ما بين ٦٢ و٦٧ ولكن مع الفارق الشديد، هو أن أياً من المسؤولين في فترة ما بعد عام ١٩٤٢ لم يتزوج من فنانة أو مطربة أو خلاف ذلك وإنما كانت العلاقة تشبه المعاشرة الزوجية.

فقد أدخلت المخابرات الانجليزية «أسمهان» على «أحمد حسنين باشا»، رئيس الديوان الملكي، وكان هدفها معرفة أسرار السياسة في القصر من خلال تلك العلاقة. ومن ناحية أخرى نشب الخلاف بين أحمد حسنين والملكة «نازلي» أم الملك فاروق والتي تزوجها سراً بعد فترة من وفاة الملك فؤاد..

وعندما أحست المخابرات الانجليزية بانكشاف عميلتها «أسمهان» دبرت لها حادثة وغرقت بعربتها أثناء عودتها من «بور سعيد»[1].

وبعد «أسمهان» أدخلت المخابرات الانجليزية عن طريق «انطون بوللي» سكرتير خاص الملك فاروق «كاميليا» على الملك نفسه. وصارت تدخل القصر الملكي في أي وقت تشاء وتتعرف على الأحداث أولاً بأول. وعندما انتهت مهمتها سقطت بها الطائرة.

ولم تترك المخابرات الانجليزية الشاب الثائر «عزيز فهمي» ابن «عبد السلام فهمي جمعة»، رئيس مجلس الشيوخ والذي كوّن الطليعة الوفدية. فقد أدخلت عليه «ببا عز الدين» التي اشترت كازينو بديعة الكائن بجوار كوبري الجلاء والذي بني مكانه شيراتون القاهرة وعندما اكتشف الأمر، دبرت لهما حادثة العربة التي وقعت في النيل عند الكوبري...

وإذا كان التاريخ يظهر لنا بوضوح مدى تورط هؤلاء الفنانات مع المخابرات الانجليزية في الارتباط الشخصي بصداقات تصل إلى حد المعاشرة الزوجية مع كبار المسؤولين في ذلك الوقت.. فهل أعاد التاريخ نفسه وتكررت نفس الأحداث بنفس الأشخاص في فترة ما بين ١٩٦٢- ١٩٦٧ والتي انتهت في النهاية بهزيمة مرة لانزال نعاني من آثارها حتى اليوم..

كانت المخابرات الانجليزية وفترة ما بعد ١٩٤٢ تقرر مصير عملائها إذا انكشف الأمر... ولكن المرتبطين بأحداث ١٩٦٢- ١٩٦٧ كانوا يحددون الهدف الأكبر وهو الهزيمة المرة.. وقتل الحلم الكبير الذي كان يتمنى عبد الناصر أن يصير حقيقة وهو الوحدة العربية الكبرى.

لنعد للموضوع الأصلي لماذا..؟

يرتبط بعض كبار المسؤولين حتى بعض الضباط بعلاقات مع الفنانات بالذات.

---

(١) المصدر: مجلة روز اليوسف المصرية العدد (٣٣٤٣) والزميل خليل التقي مراسل الشرق القطرية بدمشق. وكتابي (أسهمان ضحية المخابرات) الذي صدر للأسواق العربية من دار رياض الريس للنشر في لندن.

قد يكون الجواب:

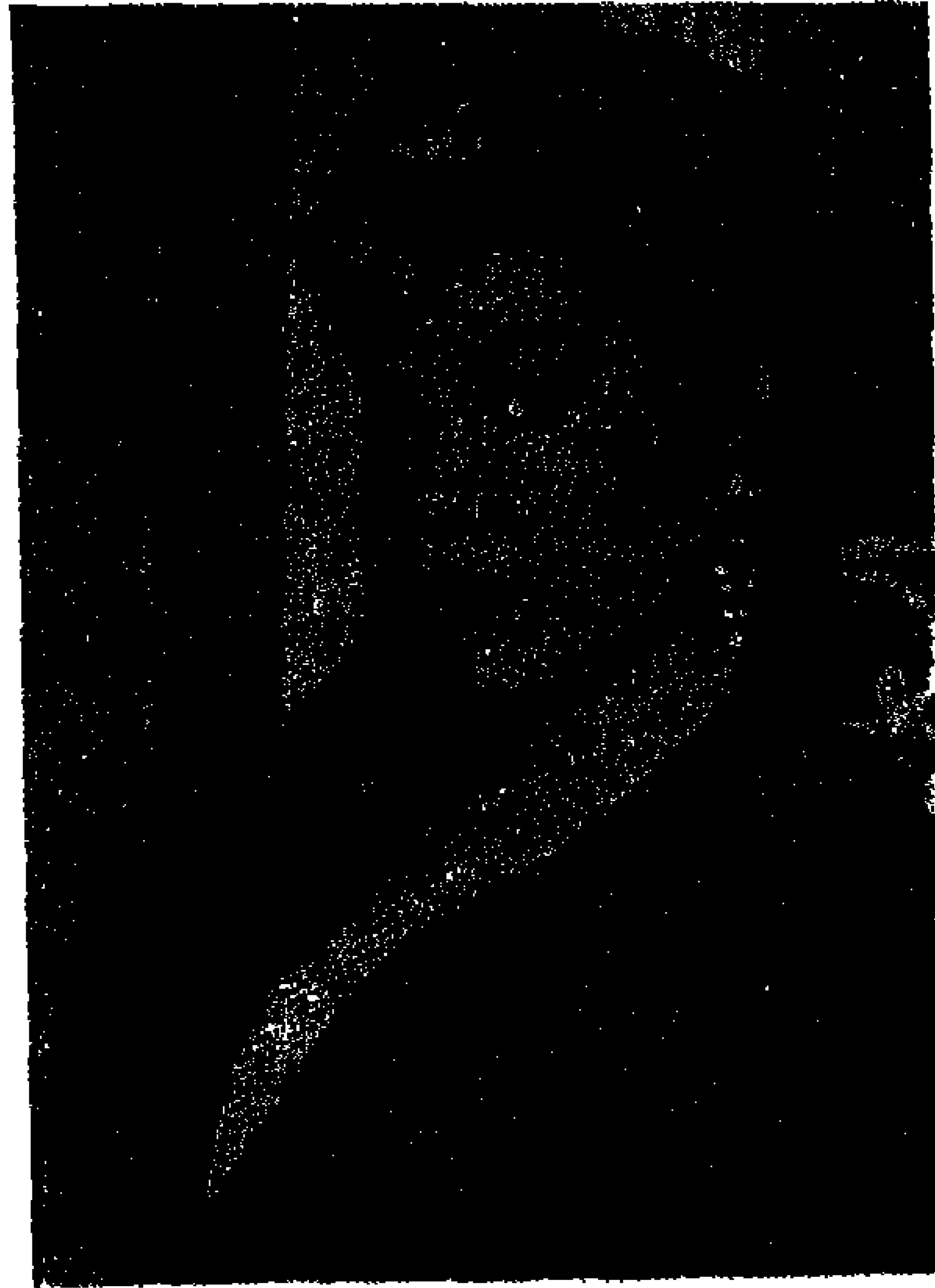
«الفراغ الذي يعيشون فيه» ونقول على صفحات هذا الكتاب الآن وعن السابق لهذه العلاقات المشهورة، أي فراغ وقد كنا ولا نزال نعيش أحداثاً لا يحتملها بشر والجواب الأصح هو وجود من يدفع بالفنانات في طريق هؤلاء بسبب وجودهم في مناصب رفيعة.

كان أول الأهداف المقصودة المشير «عبد الحكيم عامر» استغلوا فيه شهامته وعلاقته الطيبة برجال القوات المسلحة. واستغلوا علاقة الثقة المتبادلة بينه وبين الرئيس عبد الناصر.

في دمشق وأثناء الوحدة وكما قالت إذاعة دمشق يوم الانفصال أن «المشير عبد الحكيم» تربطه علاقة حبّ بالمطربة الجزائرية «وردة» والتي كانت موجودة في دمشق وقت الانفصال لتكون بجانبه في استراحته بشارع الروضة حينئذٍ.

الانفصاليون استغلوا إذاعة دمشق كمدخل للتشهير بالمشير الذي كان معروفاً عنه أنه من الأسر الريفية الطيبة الأخلاق والصفات.

استغلت بعض الجهات (أجهزة كما يقال عنها) خبر إذاعة دمشق وبدأت في



برلنتي عبد الحميد

وضع خطة محكمة حول المشير عبد الحكيم عامر. ولأن المشير كان قارئاً ممتازا فيقرأ كل ما يصدر عن المكتبات السياسية وعن الاقتصاد خاصة في التجارب الاشتراكية.

لذلك كان لا بد من اختيار فنانة مثقفة ومتحدثة لبقة ليضعوها في طريقه. وكانت حسناء الشاشة المصرية في حينه وبطلة الإغراء: (برلنتي عبد الحميد).

كان أول لقاء معها في شقة في الزمالك حيث أقام له رجاله حفلة للترفيه عنه وللتخفيف عن أزمته النفسية التي حدثت له بعد الانفصال الذي حدث بين مصر وسوريا والمعاملة السيئة التي لقيها من الانفصاليين في سوريا.

تحدثت معه برلنتي عن الثقافة والسياسة. وأهم ما لفت نظره إليها أنها تجيد التحدث بالفرنسية والإيطالية. حتى أنه أشيع وقتها أنها مرتبطة بالمخابرات الإيطالية.

وبدأت الرحلة مع المشير وكانت البداية.

وكان لا بد من اصطياد الرجل الثاني، وهو رئيس جهاز المخابرات العامة صلاح نصر فقد أخبرته «سنية قراعة» بأن أربعة خبراء ألمان حضروا إلى مصر لتحويل معمل «أحمد خورشيد» من الأبيض والأسود إلى ألوان.. وعندما سمع «صلاح نصر» الخبر فكر كثيراً لأنه لم يكن يعلم أن «أحمد خورشيد» يمتلك معملاً لتحميض الأفلام.

كانت المخابرات العامة في أشد الحاجة إلى معمل لتحميض الأفلام التي يتم تصويرها للشخصيات التي تزور مصر، وكانت معظم هذه الأفلام «سرية للغاية» لأنها كانت تصور غالباً في مخادع النوم، ومعهم راقصات معروفات أو مطربات أو ممثلات.. وكان نفس الشيء يحدث للوزراء حتى تكون مستنداً ضد كل من يحاول أن يرفع رأسه حسب ادعاء ناصر حسين.

كان جهاز المخابرات في ذلك الوقت يطبع الأفلام في معمل «أبو الهول» في الدقي... ولكن العمال اكتشفوا نوعية الأفلام السرية جداً.. وصارت أفلاماً شائعة ومعروفة.

وكان لا بد من اختيار معمل آخر. . ولقي خبر سنية قراءة صدى في نفس صلاح نصر، وطلب منها تحديد موعد مع «أحمد خورشيد» لمشاهدة المعمل.

وفي المعمل التقى «صلاح نصر» باعتماد خورشيد. وكان من عادة الأجهزة في تلك الأمور امتلاك ثقة المتعامل معه. . وبدا لهم أن «اعتماد خورشيد» هي صاحبة اليد الطولى في المعمل وأنها مسيطرة على «أحمد خورشيد» تماماً. . ولا بد من التعامل معها وكسب ثقتها.

وظهر فيما بعد أن أحد الألمان الأربعة الذي حضر إلى مصر كان (عميلاً للمخابرات الأمريكية) وقد اكتشف أمره. . ولكن بعد أن دخلت «اعتماد خورشيد» حياة صلاح نصر. . ورغم أن الفترة لم تستمر طويلاً إلا أنها ألمّت ببعض الأحداث في تلك الفترة. .

في مكتب المشير وقع في شبك الفنانات اثنان أحدهما «علي شفيق» مدير مكتب المشير حيث زوجه زواجاً رسمياً من «مها صبري». . والثاني «عبد المنعم أبو زيد» سكرتير خاص المشير وكاتم أسراره، حيث زوجوه من «سهير فخري» زوجة «محمد كامل حسن» المحامي الذي كان مؤلفاً مشهوراً في تلك الفترة. .

تزوج علي شفيق من مها صبري، وكان دورها ربط صداقات مع الفنانين والفنانات بأي شكل من الأشكال ولا نعرف لماذا الفنانون والفنانات بالذات، وحتى تستطيع تكوين أكبر فريق منهم فقد كانت تهديهم بونات لاستلام عربات من القوات المسلحة دون أن يدفعوا شيئاً. . أو يدفع البعض جزءاً ضئيلاً كمقدم ثم يعفى من الباقي.

وعندما أراد النظام تطهير مكتب «المشير عامر» بعد الصدام ظهرت بونات العربات المهداة إلى الفنانين والفنانات الذين دخلوا في شبكة مها صبري وعلي شفيق.

أما الزواج الذي تم بين «عبد المنعم أبو زيد» سكرتير خاص المشير و«سهير

فخري» فقد أظهر مدى ارتباط هؤلاء بأجهزة عالمية.. فقد أظهرت قصة الصورة التي ادعت «برلنتي عبد الحميد» أنها سرقت منها ظهور شخصية في أفق تلك العلاقات. شخصية رجل فلسطيني يعيش في الأردن اسمه «زكريا الطاهر» اتهم في مؤامرة لقتل الملك حسين. وهرب إلى مصر وعاش فيها مدعياً أنه من الحركات الفدائية الفلسطينية.. ولم تكن قد تبلورت بعد فترة منظمة التحرير الفلسطينية..

وأسس «زكريا الطاهر» شركة توزيع سينمائي في شارع عدلي مكان شركة جبرائيل تلحمي ولم يمارس فيها نشاطاً يذكر.. وكان يتعامل مع الفنانين والفنانات من خلال شقيق له اسمه «محمد الطاهر» كان يشتري بعض الأفلام السينمائية للأردن.

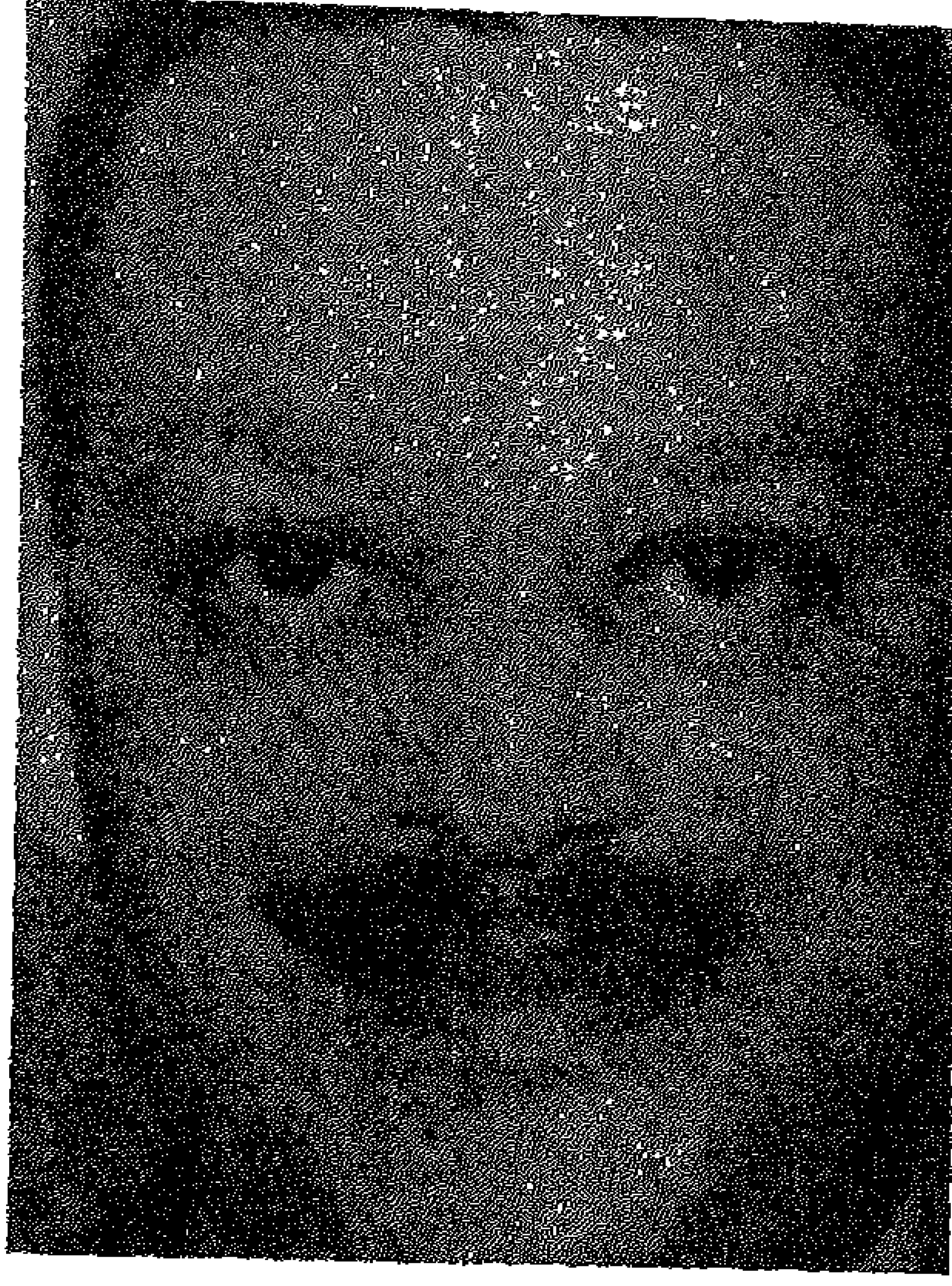
وقد اتهم «عبد المنعم أبو زيد» وقتها أيضاً في قضية مكتب «المشير عامر».. ولكنه بعد أن دخل السجن لفترة عاد مرة أخرى في خدمة المشير..

وإذا كان مكتب «المشير عامر» قد تمت محاصرته من خلال برلنتي عبد الحميد ومها صبري وسهير فخري والمخابرات العامة من خلال اعتماد خورشيد.. فكان لا بد من محاصرة مكتب الرئيس عبد الناصر أيضاً..

مكتب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وتجسس الفنانات

* أيام العز أيام رئاسة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر للجمهورية العربية المتحدة، ولجمهورية مصر العربية بعد الانفصال أيام لا تنسى حيث كانت للراحل بطانة ومستشارون وسكرتارية كان منهم (سامي شرف) سكرتير المعلومات للرئيس عبد الناصر وكان سامي شرف حسب ما قيل عنه، من أنزه الذين عملوا في مكتب الرئيس.

وأنه كان يعشق عمله لدرجة أنه كان يغادر المكتب الساعة الثالثة صباحاً ويعود إليه في الثامنة والنصف صباحاً.. وكان المقربون عنه يعرفون ذلك.. ورغم ضيق الوقت عنده إلا أن الشائعات طاردته في تلك الفترة بزواجه من «كريمة المعادي»، وقد لا يعرف البعض شيئاً عن ذلك الاسم.. ولكن بطاقتها تقول إنها فتاة جميلة عشقت التمثيل، ومثلت في فيلم واحد ولم يلق نجاحاً. التقت بالمطرب الفنان



سامي شرف ـ سكرتير الرئيس عبد الناصر للمعلومات

الراحل محمد فوزي الذي اشتهر في حينه بأغانيه الوطنية ومنها أغنية (مال القمر ماله) وتزوجته أو تزوجها لا فرق ومن المعروف أن المطرب محمد فوزي قد ارتحل إلى الرفيق الأعلى في عز شبابه وبقيت زوجته كريمة المعادي وجمالها وفتنتها تعيش على ذكراه.

أما كيف ارتبط اسمها باسم سامي شرف ـ سكرتير الرئيس للمعلومات قد انطلقت شائعات قوية.. وكل شائعة لا يمكن أن تنطلق من فراغ، ولا بد أن يكون لها ظل من الحقيقة.

وكما تقول مصادر تلك الفترة فإن إحدى سيدات المجتمع أقامت حفلة في منزلها ووجهت الدعوى فيها إلى سامي شرف وإلى «كريمة» وفي تلك الفترة كانت أصبحت تملك جميع مقومات المرأة الجميلة والناضجة التي تلفت النظر، لا سيما وأنها من مخلفات الراحل محمد فوزي الذي كان يعشق الجميلات الفاتنات.

وبعد ذلك انطلقت الشائعات والأقاويل ولكن السؤال: لماذا في تلك الفترة بالذات تقام حفلة يدعى لها سامي شرف، وكريمة المعادي؟ ولماذا ذلك الارتباط؟!

وهو يعلم من خلال المعلومات التي تصل إليه ما حدث للمشير عامر ولرجاله الذين تورطوا في علاقات من هذا النوع . .

أما الرجل الثاني - في مكتب الرئيس - الذي ارتبط اسمه بالفنانات فهو «محمود الجيار» ووظيفته مدير مكتب الرئيس عبد الناصر للشؤون الداخلية . .

دخل «محمود الجيار» وهو من أبناء الأسر العريقة في البحرية في ذلك السيرك العجيب، ولكنه خرج منه دون زواج . . وإن ارتبط بصداقة «زبيدة ثروت» .



عبد الحميد السراج - قبل الوحدة مع مصر

كان يعرفها من خلال زوجها السابق «صبحي فرحات» والأخير كان يعمل في «المكتب الثاني» الذي كان يرأسه «عبد الحميد السراج» قبل الوحدة بين مصر وسوريا .

ثم أشارت الأصابع إلى محمود الجيار في حادث مقتل زعيم الحزب القومي السوري في لبنان مع «إبراهيم قليلات» زعيم التجمع الناصري في لبنان «المرابطون» .

ورغم أن الاثنين ركبا طائرة أقلتهما إلى مصر بعد الحادث بدقائق . . إلا أن الصداقة التي كانت بينه وبين محمود الجيار من جهة وبين زبيدة ثروت والجيار من

جهة أخرى أثارت عدة تساؤلات في تلك الفترة.

وحتى تتم اللعبة دون تحليل أو تفكير فقد أدخلوا عليها زيجة عادية حتى تبدو الأمور في تلك الفترة وكأنها مسائل عادية تحدث لأيّ إنسان في مجتمعنا..

كانت اللعبة زواج الفنانة الكبيرة «ناديا لطفي» من المهندس «إبراهيم صادق» شقيق «حاتم صادق» زوج ابنة الرئيس جمال عبد الناصر..

لم تكن نادية لطفي تعرف حدود اللعبة في تلك الفترة.. تزوجته عن حب واقتناع.. ولكن الغلاف الخارجي كان يراد به تفسير أشياء أخرى.. ولكن ذلك الزواج لم يستمر طويلاً لأنه كان زواجاً بعيداً عن أيّ مصالح أو ارتباطات..

وأخيراً نعود للسؤال عن نتائج ظاهرة ارتباط وزواج كبار المسؤولين من الفنانات اللامعات. والجواب:

«إن نظام التجسس في العالم يعتمد منذ القدم كما شرحنا في هذا الكتاب على شيئين أساسيين:

- الجنس (أي المرأة) قبل المال.
- المال لامتلاك المرأة.

وهنا فالمال موجود لدى المسؤولين خاصة من كان منهم في وزارات ومؤسسات هامة تقع (ميزانيتها) تحت تصرفهم.

لذلك كان الجنس (المرأة اللعوب المشهورة) هو العامل الأول والمسيطر والمدخل الأساسي إلى قلوب ومعلومات هؤلاء المسؤولين.

الموضوع خطير والحرص واجب لحماية الأمن القومي للأوطان لأن هناك من قال أو أشاع:

«إن نكسة حزيران يونيو عام ١٩٦٧ كانت من نتائج هذه العلاقات والزيجات مسبقة الصنع». دائماً نعود إلى المخابرات وأعمالها الجاسوسية في العالم.

عملاء التجسس في العالم يستخدمون الفنانات لاختراق حياة السياسيين


اعتماد خورشيد، اعتمدتها المخابرات

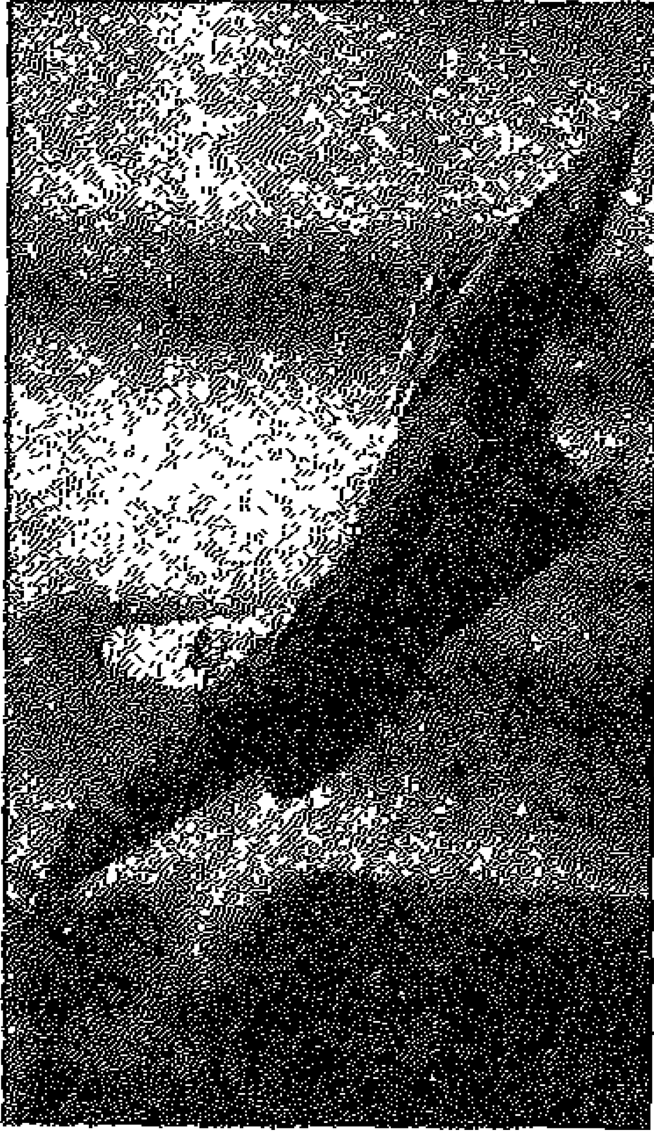

مها صبري كانت زوجة لعلي شفيق


فاتنة المعادي
و«مال القمر ماله» (كريمه)


كاميليا اليهودية الجميلة ونهايتها المحزنة
(احترقت في حادث طائرة)

الفصل الثاني والعشرون

طائرات التجسس لتحديد أهداف المخابرات والتشويش



* يبقى الإنسان وعقله وذكاؤه هوالأساس في جميع عمليات الطيران سواء لقيادة الطائرات الحربية أو لقيادة الطائرات بدون طيار (طائرات القيادة من الأرض) حتى بعد أن حلت الحاسبات في مجالي التوجيه والملاحة محل الإنسان لقيادة هذه الطائرات.

إن استخدام هذه الطائرات (يجنب) الأفراد تعريض حياتهم للخطر، لكن حتى الآن ليس معروفاً ما إذا كانت قادرة على تحقيق نتائج إيجابية في أوقات الحرب لذلك لا بد من الاحتفاظ بوجود الطائرات الحربية العادية التي يقودها الإنسان.

إن الكثير من طائرات الاستطلاع الصغيرة من دون طيار تستطيع تنفيذ العمليات الناجحة وبخاصة في المناطق التي تكون فيها الأحوال الجوية جيدة (مثل منطقة الشرق الأوسط) وبإيجاز يمكن القول إن الطائرات دون طيار تستطيع القيام بوظيفة الاستطلاع على أكمل وجه. وتشكل الطائرات بدون طيار تحدياً كبيراً للدفاع الجوي، إن عملية التشويش الالكتروني تختلف عن عمليات الاستطلاع إلا أن تكاليف الالكترونيات الـ ELOGM مرتفعة، ولذلك يجب عدم تركيب .M.E في جهاز يمكن فقدانه في أيّ وقت. إن الطاقة المطلوبة التي يجب توفرها في أجهزة بث التشويش تتطلّب وجود جسم طائر كبير ومتين. لكن هذا الجسم الطائر لن يكون قادراً على مقاومة الأسلحة التي تعمل بالأشعة تحت الحمراء لذلك يتم تطوير طائرات مضادة للرادار ستزود بها القوات المسلحة الجوية التي ستشكل دعماً كبيراً لعمليات سلاح الجو.

هناك اتجاه لتطوير هذه الطائرات بشكل يمكن معه استخدامها في مجالات مختلفة. إن الطائرات العادية تستخدم اليوم بفاعلية كبيرة. وغالباً ما يحدد السيناريو مسرح المعارك نوع الهدف ووضعية مسألة استخدام الطائرات أو الطائرات العادية، إن أنظمة الصواريخ أرض - جو هي العمود الفقري للدفاع الجوي المتكمل الذي يملكه حلف شمال الأطلسي، وتشكل صواريخ «باتريوت» «هوك» و«دولاند» نسبة ٨٠٪ من مجمل الأنظمة المستخدمة. هنا يطرح السؤال حول ما إذا كان تطوير الأجسام الطائرة وإنتاج أعداد كبيرة منها سيؤدي إلى إلغاء وجود الطائرات الاعتراضية. يمكن الإجابة بنعم عندما يتم توظيف مبلغ في مجال بناء قواعد الصواريخ، يوازي ثلاثة أضعاف المبلغ الذي يجب توظيفه لإنتاج الطائرات. إن مبدأ «الناتو» يحدد وظيفة الطائرات على الشكل الآتي: الثغر وتغطية الجوانب والوصول إلى المناطق التي تعجز أنظمة الدفاع الجوي الأخرى عن الوصول إليها.

وباختصار يمكن القول، إن الابحاث والتجارب التي أجريت حتى اليوم تبين أنه لا يمكن الاستغناء عن وجود الطائرات الحربية، وإن الأجهزة الالكترونية والحاسبات لا تعدو كونها وسيلة لدعم الطيار خصوصاً خلال قيامه بتنفيذ العمليات المعقدة.

ميزات الطائرة بدون طيار

* هناك ميزات خاصة ميّزت بها الطائرات دون طيار عن الطائرة العادية وهي:

- تكاليف الجهاز الأساسي أقل.
- الدعم اللوجستي أقل.
- إيجابيات تتعلق بالبيئة.
- عدد الأشخاص أقل.
- خطرها على حياة الإنسان أقل.
- تكاليف الإنتاج أقل.

أما الطائرة العادية فتتميز بـ:

- المرونة العالية في العمليات التكتيكية.

ـ المدى البعيد.

ـ ارتفاع درجة الدقة في الإصابة والفاعلية والقوة التدميرية.

ـ اتساع طيف الهدف.

ـ إمكانية التكليف بالاعتماد على الذكاء لدى الإنسان.

وفيما يتعلق بالطائرات دون طيار، يؤكد الخبراء الأميركيون ما يلي:

ـ عدم إجراء المحاولات الرامية إلى استبدال هذه الطائرة بالطائرات العادية التي يجب الاعتماد عليها للقيام بكل المهمات المعقدة والتي تتطلب بذل الجهد.

ـ يجب تحديد المهمات التي تستطيع الطائرة القيام بها ـ وهي الجولات الثانوية والصعبة ـ أي العمليات التي تكون فيها حياة الإنسان عرضة للخطر.

ـ يجب الإفادة من إيجابيات الطائرة والأخذ بعين الاعتبار أنه لا يمكن استخدامها في أثناء المبارزات لتحقيق التفوق، بل يجب تطويرها بحيث تكون قادرة على تجنب خط الإجراءات اللاإلكترونية المضادة، وبحيث تكون خدمتها سهلة، ويمكن توفير الدعم لها.

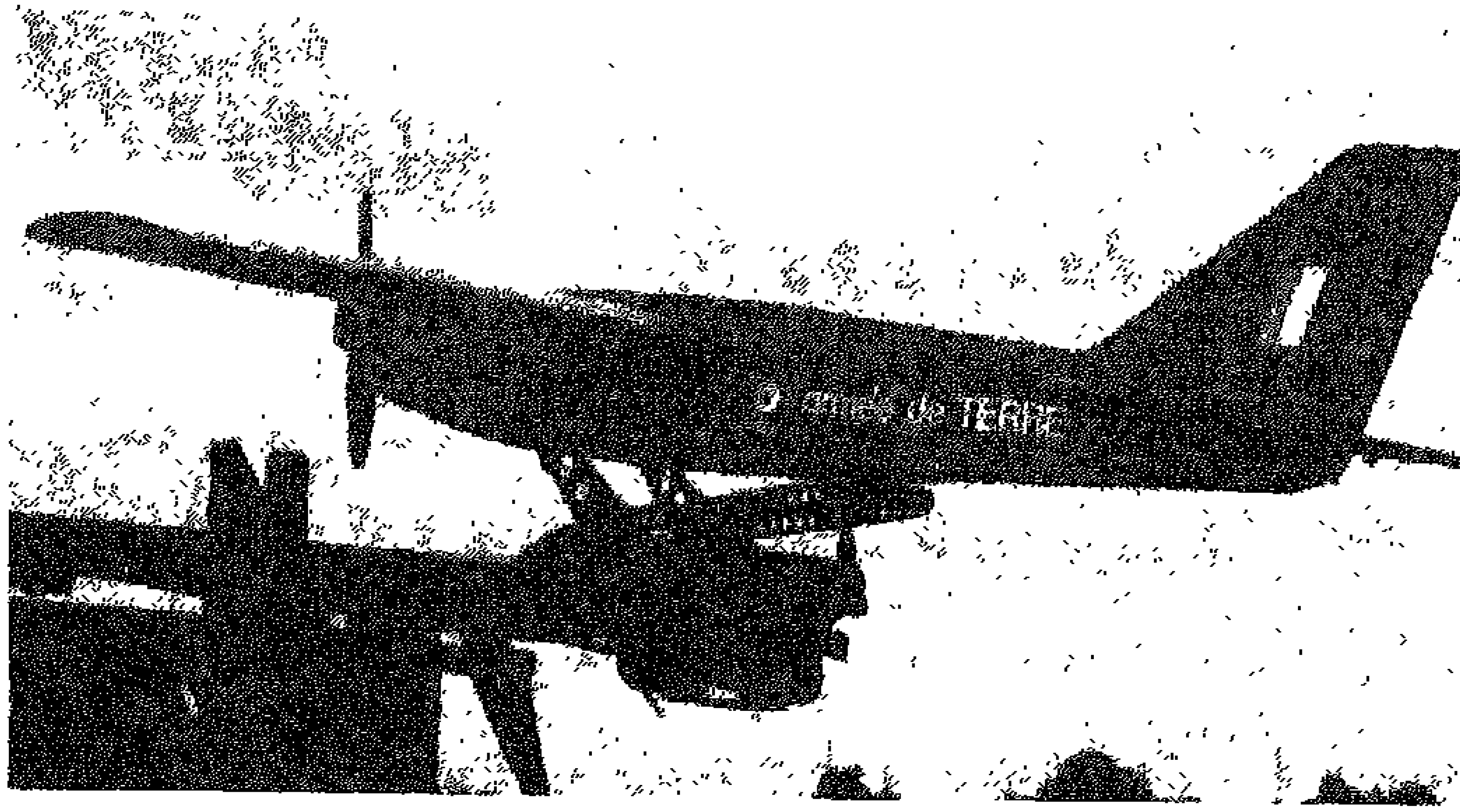
أما الطائرة الفرنسية MART طائرة الاستكشاف المصغرة، من دون طيار، الموجهة عن بعد التي شاركت في حرب الخليج باسم «الروبوت الاروبي الطائرة»، فقد ابتكرها الفرع التقني في جيش البر الفرنسي STAT، وصنعها بالتعاون مع الشركة البريطانية System : Target and Surveillance Tass لانتاج الطائرة المصغرة والقاذف، ومع الشركة الفرنسية Alpilles لإنتاج نظام الفيديو والمحطة الأرضية، مع طومسون ـ CSF للملاحة وللتعيين وتولت شركة COFRAS الفرنسية تدريب الأفراد وخدمة ما بعد البيع، في الأسواق الخارجية MART فهي تغطي حاجة الفرق العسكرية إلى طائرة استكشاف من دون طيار وتستطيع تحديد النسق المعادي الأول، قبل ساعة من وصوله إلى خطوط التماس، أي على مسافة ٢٠ كيلو متراً، داخل الخطوط المعادية.

شرطان حددا مسار المشروع: سرعة التسليم المفروضة، نتيجة إلحاح الحاجة، وكلفة منخفضة، لطائرة «تستهلك» في زمن الحرب. من هنا، مفهوم تطوير طائرة بدائية ومركونة تستطيع:

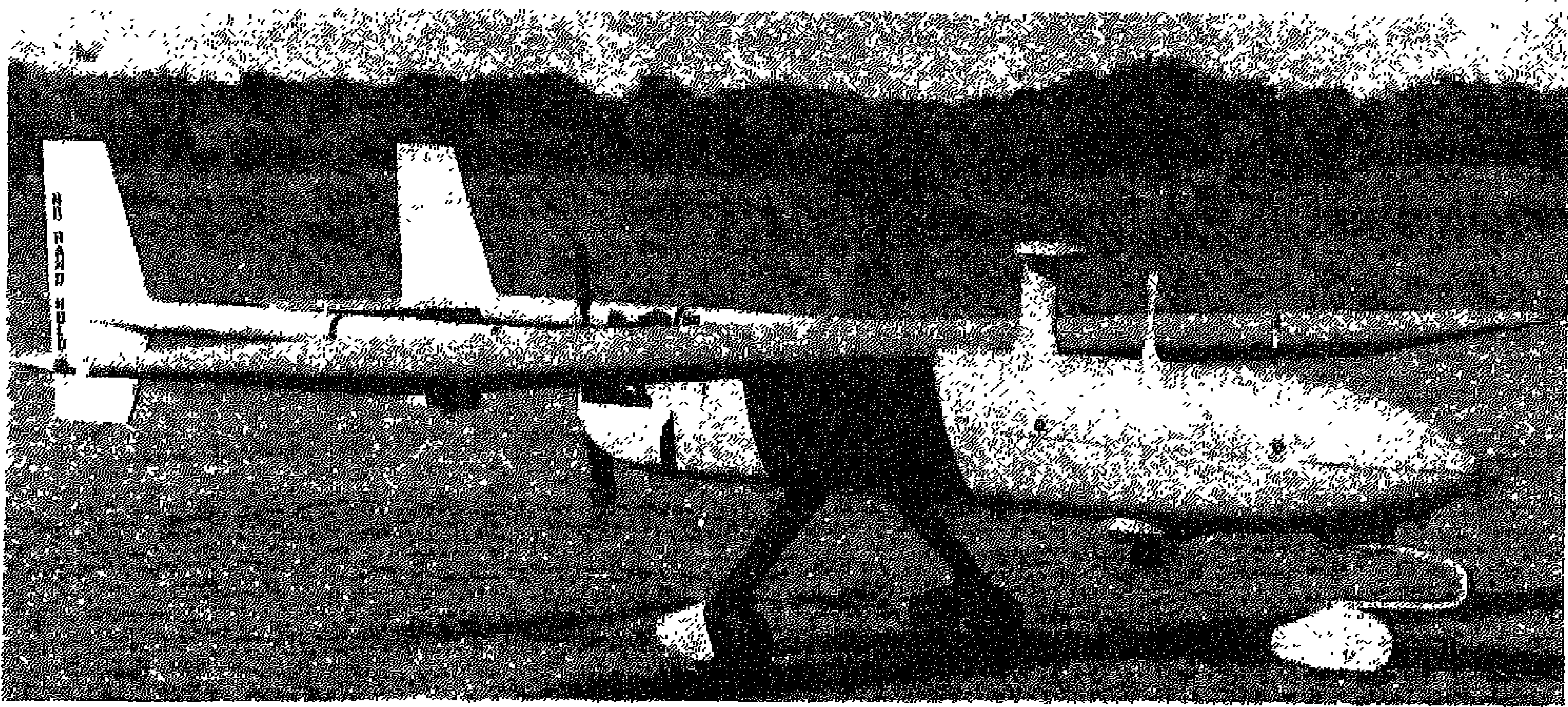
ـ أن تنقل في طريقة مباشرة، إلى محطة أرضية، الصور التي تأخذها آلة تصوير محمولة.

ـ أن تطير على ارتفاع حوالي ٣٠٠ متر، فوق سطح الأرض.

الوحدة التي يعمل في إطارها نظام MART هي الفصيلة، وهي تتراوح بين فصيلة مؤلفة من طائرات مع ١٥ من الأفراد، ومحطتين أرضيتين (واحدة تكتيكية وواحدة تقنية) وفصيلة مخفضة معروفة باسم «فصيلة الانتشار السريع «مؤلفة من ٥ طائرات و١١ من الأفراد، ومن محطة أرضية واحدة، متعددة الأدوار. وتبلغ قياسات الطائرة المصغّرة: الطول: ٣٢ر٣ متر، البسطة ٤ر٣ متر العلو: ٧٥ر. متر، الوزن الأقصى: ٩ر١ كيلو غرام، منها ٢٥ كيلو غراماً، حولة مفيدة، وتدفعه مروحة (قطرها: ٧٦ر. متراً) يدفعها محرك ثنائي الأشواط ٣٤٣ سنتمتراً مكعباً، يولد ٢٥ حصاناً، يعطيها سرعة قصوى ٢٢٠ كيلومتراً في الساعة، وسرعة ملاحية ١٠٠ كيلومتر في الساعة وتقذف الطائرة من على منصة ساندو، وتستعاد بواسطة مظلة، أم تهبط على بطنها. ويتم التقاط الصور، بواسطة تصوير فيديو CCD، التي تنقل في الوقت الحقيقي إلى محطة أرضية بواسطة اتصال فيديو UHF، ويحد مدى البث من مجالات استعمالها (٣٠ إلى ٥٠ كيلومتراً على ارتفاع ٣٠ متراً من الأرض، ١٠٠ كيلو متر على ارتفاغ ١٠٠٠ متر وأكثر) وستدمج الطائرة لاحقاً في شبكة ريتا. المحطة الأرضية، المركزة في ملجأ واق مكيف. موزعة على ٣ أجزاء عملانية قائدة المحطة، طيار «عن بعد» ومترجم صور الفيديو، وتشكل المحطة قلب النظام وتقوم بتلقي وتوزيع وعرض وتسجيل كل المعلومات الواردة أم المخصصة للطائرة المصغرة: توجيه عن بعد، قياسات عن بعد، تعيين موقع وصور ڤيديو عن الأمكنة التي تتولى مراقبتها. وتقوم الطائرة بالاستيلاء على المعلومات (إحداثيات الهدف، طرازه وحجمه) مع تفسير الصور التي تصل على الشاشات وتطبع مباشرة على الورق. وستساعد التجارب التكتيكية التي قام بها الفوج المدعي الثامن الفرنسي في فرنسا والتجربة العملانية، التي تحققت في الخليج على إنشاء وحدة من طراز فصيلة MART ستكون تركيبية تسمح بتعديل عدد الطائرات المجهزة بها وتكوين الحمولة المفيدة حسب المهمة التي تقوم بها (آلة تصوير تلفزيونية في النهار، وآلة تصوير حرارية لكل الأوقات، ومشوش واحد، وعناصر كيميائية أم نووية).



طائرة فرنسية بدون طيار



طائرة بدون طيار - نظام العربة المقطورة من بعيد (سيكر) Seeker مثال اساسي ونظام مستقل تماما متوسط المدى مصمم للاستكشاف الآني وتحديد مراكز الأهداف على مسافات تبعد حتى (٢٠٠ كلم) عن قاعدته..

المخابرات تطوّر الطائرات المسيرة عن بعد

* في الماضي استخدمت عبارتا المركبة المسيّرة عن بعد أو (آر بي في) و«ذرون» للدلالة على الطائرات وطائرات الهليوكبتر التي كانت تقاد بدون طيار. وفي الأصل، كان هناك فرق واضح بين الاثنتين. فقد بقيت مركبات (آر بي في) المقودة

عن بعد تسيّر من قواعد أرضية، بينما كانت مركبات «درون» تنصاع للأوامر التي كانت تخزن عادة في نظام التوجيه الذاتي الذي تجهّز به - ومع ذلك كثيراً ما كان يحدث تداخل بين نظامي توجيههما: حيث غالباً ما كانت تتحول مركبة (آر بي في) للعمل بوساطة طيارها الآلي المسبق المبرمجة (الذي يتولى توجيهها لإعادتها إلى قاعدتها الأرضية ثانية) حالما كانت تطير بعيداً وتتجاوز مدى أجهزة الاتصال اللاسلكية الأرضية.

وبالرغم من أن الكثير من مركبات الـ «درون» تطير على مسار برمج مسبقاً لكنها تهبط بوساطة التحكم الأرضي.

أما الآن فقد حل اصطلاح «يو أيه في» - أي: المركبة الجوية غير المأهولة أو التي لا تقودها طواقم بشرية - بدلاً من الاصطلاحين السالفي الذكر، لهذا سنستخدمه في هذا المقال كونه الأكثر شمولية.

يمكن تقسيم مركبات (يو إيه في) إلى فئتين رئيسيتين: قاتلة وغير قاتلة. وإلى الفئة الأخيرة تنتمي مركبات (يو إيه في) التي تحمل معدات الاستطلاع، وأنظمة المراقبة السلبية التلفزيونية والمراقبة بالأشعة تحت الحمراء ومحطات الترحيل ومعدات تعيين الأهداف أو الاجراءات الالكترونية المضادة، والأهداف الجوية. هذا وقد بدأ التخطيط من قبل لإنتاج أو اختبار مركبات (يو إيه في) التجسس على الإشارات أو للتجسس الالكتروني، وتلك التي تخدع الرادارات أو التي تطير على ارتفاعات عالية لرصد أحوال الطقس.

إلى الفئة القاتلة تنتمي جملة أسلحة «ذكية» متطورة تتراوح من الصواريخ الجوالة إلى مركبات يو إيه في المضادة للإشعاع وصواريخ أطلق وأنسى التي تمتاز بأنظمة توجيه «ذكية» من ناحية أخرى، يجرى الآن تطوير فئة ثالثة تدعى يويو في (أي المركبات الغير مأهولة للإبحار تحت الماء) وهذا النوع يستحق أن نفرد له حديثاً خاصاً به في المستقبل.

لا يشكل المبدأ الأساسي لتشغيل مركبات (يو إيه في) أمراً جديداً فأي طائرة نموذجية محكومة بالراديو هي عبارة عن (يو إيه في) قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية استخدم الألمان القنابل الانزلاقية الموجهة باللاسلكي ضد سفن الحلفاء وأحرزوا

نجاحاً باهراً، ولو أنها زودت بمحركات لكانت صنفت مع مركبات يو إيه. وفي نهاية الحرب كان العمل جارياً لتوجيه الطائرات الغير مأهولة والمملوءة بالمتفجرات بوساطة اللاسكلي لضرب الأهداف الحيوية كذلك استخدمت لنفس الاغراض مركبات «درون» المزودة بجهاز طيران تلقائي بدائي بوساطة برنامج وضع مسبقاً مثل في - ١.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية استمر تطوير مركبات (يو إيه في) في الشرق والغرب مما أدى إلى ظهور شريحة عريضة من مختلف أنواع الأسلحة من بينها صواريخ وطوربيدات. وقد استخدمت معظم مركبات (يو إيه في) كأهداف جوية لأغراض تدريبية. كذلك كان ينظر إلى مركبات (يو إيه في) على أنها منصات استطلاعية محتملة لكن الكاميرات وأنظمة التوجيه الألكترونية التي كانت تحتاجها للتحديد الدقيق للمواقع كانت لا تزال أضخم من أن تستوهبها. وحتى منتصف الستينات كانت الطائرات المأهولة أي التي تقودها طواقم بشرية - تقوم وحدها بعمليات الاستطلاع.

ومع ظهور الدوائر (الدارات) الالكترونية، تلاشت المشاكل المتعلقة بالوزن والحجم. وقد دخلت أول مركبة (يو إيه في) استطلاعية الميدان لأول مرة في ذروة حرب ڤيتنام عندما وصلت خسائر طائرات الاستطلاع المأهولة أعلى من حدود السماح. برهنت مركبات ريان أيه كيو أم - ٣٤ فايربي النفاثة - المستخدمة كأهداف والتي كانت تطلق إلى الأجواء وتستعاد منها - على أنها مركبات مثالية لأغراض الاستطلاع العامة وتقدير الخسائر كونها جهزت بكاميرا وتقارب سرعتها سرعة الصوت. وقد استطاعت هذه المركبات المرور من فوق منطقة الأهداف على ارتفاعات كانت تعتبر انتحارية بالنسبة لطائرات الاستطلاع المأهولة وبفضل خزانات وقود إضافية مركبة تحت جناحيها، تمكنت مركبات إيه كيو أم - ٣٤ من القيام بمهمات منتظمة بعيدة المدى للتصوير على مسارات حددت مسبقاً فوق الصين.

وقد شجع نجاح الطائرات الغير مأهولة على الزج بها عملياً في كل مهمة عسكرية مثل: الاستطلاع، القصف، المعارك الجوية والشؤون الإدارية. من ناحية ثانية، كانت مركبات يو إيه في أرخص بكثير من الطائرات فهي لا تتطلب أيّ طيار

ولا مهابط جوية متقدمة كما أنها لا تستهلك سوى كميات قليلة من الوقود. كذلك تستطيع مركبات (يو إيه في) خرق المجالات الجوية المحايدة بأدنى حد من المخاطرة والحرج السياسي لأنه في حال كشفها، تستطيع الدولة التي أطلقتها أن تدعي دائماً بأن الطائرة فلتت من سيطرتها. على أية حال، فقد مفهوم مركبات (يو إيه في) زخم الدعم الذي كان يحظى به أثناء حرب فيتنام بعد أن مر على انتهائها بضع سنوات الآن ويعود ذلك إلى سبب نفسي. فقد بدأ الطيارون يعتبرون بأن المركبات الجوية الغير مأهولة (يو إيه في) أصبحت تشكل تهديداً لمهنتهم إضافة لذلك أخذت مركبات (يو إيه في)، تتطور على حساب مخصصات برامج الطائرات المقودة بوساطة الطواقم البشرية، تلك المخصصات التي كانت ضرورية جداً لتحديث القوى الجوية وقد أدى هذا الوضع بالتالي إلى تخفيض تمويل برامج مركبات (يو إيه في). وبحلول عام ١٩٨٠ أجلت البرامج الأكثر طموحاً، أو أهملت أو أنها ألغيت برمتها.

ومع ذلك، فقد بقيت الصناعة واثقة من أن هذه النزعة ستنقلب ثانية، فقد تم تحديث الأنظمة وأعيد تصميمها وحسّنت عن طريق تزويدها بأجهزة توجيه رقمية متقدمة وبمضابط كذلك تم تصميم عدة مركبات أهداف (يو إيه في) من أجل زيادة أدائها ومواءمتها للأدوار القتالية. وقد استخدمت بعض الدول هذه المركبات بنجاح ضد الدفاعات الجوية المعادية وللاستطلاع والتشويش على رادارات الخصم وإحراز الأهداف. ولهذا الغرض أيضاً استخدمت مركبات (يو إيه في) المصغرة كما أنها كانت بطيئة وبسيطة ورخيصة الثمن من حيث الأساس كانت هذه المركبات عبارة عن نماذج الطائرات تقليدية مروحية الدفع حيث بلغ باع جناحها /٥ر٤/ وطولها /٣ر٣/ م وسيّرت بمحرك دراجة نارية مزدوج الشوط قوته /٢٠/ قدرة حصانية. وقد ازدادت تطوراً بعد أن تم تجهيزها بأنظمة مستشعرات الكترونية متقدمة للتوجيه والتحكم. في الغرب استطاعت بلجيكا تطوير مركبة (يو إيه في) مصغرة أيضاً وبنجاح أطلقت عليها اسم «أسمودي» يمكن استخدام «أسمودي» كطائرات أهداف أيضاً إضافة إلى المهام الأخرى التي تناط بهذا النوع من المركبات عادة وبسبب النجاح العملياتي الذي أحرزته هذه المركبات المصغرة البسيطة ميدانياً، انخفضت درجة الأهمية التي كانت تعار لمركبات (يو إيه في) المتطورة المسيرة بمحركات نفاثة، لذلك استيقظت من جديد المشاريع التي كانت نائمة لسنين والتي كانت تنطوي

على مركبات (يو إيه في) الصغيرة الحجم الرخيصة الثمن والتي يمكن الاستغناء عنها عند اللزوم، هذا إضافة إلى ظهور تصاميم أخرى كثيرة جديدة.

يكمن سر نجاح مركبات (يو إيه في)، المصغرة في احتوائها على معدات الكترونية للتوجيه والتحكم وتقنية مستشعرات ووصلتي إرسال واستقبال متطورتين للبيانات. وقد ثبت بأن تطوير هذه الأنظمة أصعب بكثير من تصميم وصناعة المركبة الطائرة بحد ذاتها. مثال حيوي على هذا كانت مركبة أم كيو أم ـ ١٠٥ أكويلا، التي صنعتها شركة لوكهيد. فقد بدأت دراسة تصميمها في ١٩٧٥ بينما قامت بأول طيران لها في عام ١٩٨٢، وبعد ذلك بأربع سنوات أتمت / ٣٥٠/ طيران تجريبي، حوالي / ٣٠٠/ منها كانت طلعات ناجحة فيما يتعلق بالإطلاق والاسترداد الخالي من الأخطاء. وقد خطط الجيش الأمريكي للحصول على ٥٣ محطة أرضية وشراء/ ٣٨٠/ مركبة (يو إيه في)، لكن ظهور مشاكل فنية لا حصر لها قلص طلب الشراء إلى كتيبة واحدة فقط من مركبات (يو إيه في)، للاستطلاع التي أوقفت عن العمل في ١٩٨٩ يعود سبب فضل برنامج أكويلا إلى أنها كانت تعتمد على التقنيات الالكترونية لمنتصف السبعينات تلك الفترة التي كانت فيها الذاكرات ذات المدارات الكهربائية المتكاملة للكومبيوتر التي تحفظ ملايين الأرقام، ونظام تحديد المواقع الشامل، ووسائل الملاحة، ووصلات البيانات العالية السرعة، العالية القدرة ونظام الطيار الآلي المنمنم، وأجهزة الاستشعار العالية الأداء لا تزال على لوحة الرسم علاوة على ذلك غالباً ما كانت تقنية الأسلحة التي خصصت مركبات (يو إيه في)، لدعمها بالمراقبة وتعيين الأهداف تفوق قدرات مستشعرات مركبة أكويلا الأصلية. والضربة القاضية التي وجهت لبرنامج أكويلا وأدت إلى إلغائه كانت بسبب ارتفاع سعرها الذي زاد عن / ١/ مليون دولار للطائرة الواحدة.

وقد قدر بأن الشروع ببرامج جديدة تشتمل على أحداث التقنيات سيكون أقل تكلفة خاصة إذا ما أمكن الاستفادة من خبرات بعض الدول التي سبق لها وأن استخدمت مركبات (يو إيه في) المصغرة ميدانياً وتوصلت إلى تصاميم جديدة واستخدام تكتيكي جيد لهذه المركبات. ومن المتوقع أن يصل الجيل الجديد من مركبات (يو إيه في) مرحلة النضج العملياتي في منتصف العقد الحالي. الولايات المتحدة من جهتها قررت تجاوز الفجوة وكسب الخبرة العملياتية اللازمة عن طريق

الحصول على مركبات (يو إيه في)، وتقنية توجيهها إطلاقها/واستردادها وتقنية مستشعراتها أيضاً مباشرة من الدول الصديقة لها والتي لها خبرة في هذا المجال. فمنذ /١٩٨٨/ والأسطول الأمريكي - مثلاً - يشغل مركبات «مزلات بيونير» المسيّرة عن بعد من على متن سفنه الضخمة لمراقبة ما وراء الأفق. تحمل مركبة بيونير مستشعرات يصل وزنها حتى/ ٥٠/ كغم، ويتم التحكم بها لاسلكياً وتصل مدة طاقتها حتى ثماني ساعات كذلك اشترت مشاة البحرية الأمريكية مركبات «بيونير» من أجل عمليات الاستطلاع والتهديف وبالمثل، يشغل الجيش الأمريكي عدداً من أنظمة مركبات (يو إيه في)، المخصصة بصورة رئيسة لوحدات التدريب العاملة في برنامج مركبات (يو إيه في)، القريبة المدى المقترح الذي تطوره القوات المشتركة للولايات المتحدة.

في ١٩٨٨ شكل الأمريكان مكتباً لتحديد المستلزمات لإنتاج مركبات (يو إيه في) مشتركة لجميع صنوف الأسلحة في الولايات المتحدة من أجل حقبة التسعينات وما بعدها. وتقرر أن تحمل هذه المنصات الجوية نفس أنظمة التوجيه، ولتحكم وإرسال البيانات ولن يختلف سوى برنامج المهمة لتلبية الحاجات المحددة لكل صنف من صنوف القوات. وقد تم تقسيم مركبات (يو إيه في)، إلى أربع فئات مختلفة.

طائرات يو. إيه. في. آي

* خصص هذا النوع من المركبات للطيران على ارتفاعات عالية تزيد عن / ٢٠/ كم وبمجال عملياتي يصل نصف قطره حتى / ٣٠٠/ كم وإطاقة أو قدرة على الطيران المتواصل لعدة أيام.

تعتبر هذه المركبة بمثابة مساعد أساسي لمركبات يوفي للمديات المتوسطة والقصيرة، وستعمل كمحطات ترحيل لتأمين الاتصالات البيانية مع المحطات الأرضية الخاصة بالتحكم بالمركبات الأخيرة، وستخصص للقيام بمهام الاستطلاع الممتدة البعيدة المدى فوق قلب أراضي الخصم مستفيدة من استخدامها لمستشعرات التصوير وأنظمة الرادارات الميكروويفية. أيضاً، يمكن استخدامها لأعمال التجسس

على الإشارات وعلى الاتصالات وللتنبؤ بأحوال الطقس. ويمكن أن تؤدي الحاجة إلى التقليل من إمكانية رصد واكتشاف المركبات إلى تصميم طائرات تسير بالقدرة الشمسية لكنها تدفع إلى موقعها بواسطة محرك ذي مكابس يمكن إيقافه عن العمل حال وصولها إلى الموقع الذي تقصده.

ويتحتم على هذه المركبات أن تتمتع بإطاقة طيران تصل حتى ست ساعات، وبنصف مدى يصل إلى /٣٠/ كم وكونها أعدت للاستخدامات التكتيكية (التعبوية) فإنها يمكن استخدامها حتى على مستوى الفصيلة وسوف تتسم بصغر حجمها، وببساطة تشغيلها ويمكن الاستغناء عنها والتخلص منها عند الحاجة ويجب أن تكون مركبة (يو إيه في) ومحطتها خفيفة بصورة كافية لكي يتمكن جنديان أو ثلاثة من المشاة أن يعيدوا توضيبها. وسوف تبقى مركبات (يو إيه في - سي آر، تحت سيطرة المحطة الأرضية أي ضمن مدى وصلتي إرسال واستقبال البيانات الميكروويفتين على خط البصر. وسوف تتمكن هذه المركبات من خلق ثورة في عالم الحرب الحركية بفضل ما تمتلكه من خواص التملص والقدرة على الرؤية من وراء الحواجز الطبيعية وترحيل المعلومات في وقتها الحقيقي.

طائرات يو.إي.في.سي.آر للمسافات القريبة

* ينبغي أن تصل طاقة طيران هذه المركبات حتى /١٢/ ساعة وأن يتراوح مدى طيرانها بين ١٥٠ـ ٣٠٠ كم. وكونها مخصصة بصورة رئيسة للعمل على مستوى الفرقة، فإنها ستعمل على إبقاء مؤخرة العدو تحت مراقبتها ليلاً ونهاراً. وعليها أن تقدم تغطية في وقتها الحقيقي لأنها علاوة على مهماتها الاستطلاعية، ستعمل كمنصات لإحراز الأهداف لصالح الصواريخ البعيدة المدى والطائرات وإضافة إلى امتلاكها خواص التخفّي، فإنها ستحتاج للاعتماد على محطات ترحيل ووسائل ملاحية عالية الدقة للتحديد الشامل للمواقع نظراً لأنها ستعمل وراء مدى وصلة البيانات الميكروويفية للمحطة الأرضية. ويمكن مدّ الوصلة البيانية عن طريق القمر الصناعي لكن الحال الأكثر فعالية يكمن في استخدام مركبات (يو إيه في) ذات القدرة على الطيران العالي المستوى ولمدة طويلة كمحطة ترحيل.

على أية حال، يبدو أن متطلبات وصلة البيانات قد أهملت حالياً وأن مركبات يو إيه في ـ سي آر. ستنطلق على مسار مسبق البرمجة حيث تطير باتجاه منطقة الهدف ثم تعود منه ثانية. ومن أجل تصحيح مسارها يمكن تزويد هذه المركبات لاسلكياً وبوساطة التردد العالي بخيار لإعادة برمجتها أثناء الطيران. لكنه يجب اعتبار هذا الإجراء مؤقتاً لأنه يقلل من فعاليتها ومن خواص التخفي فيها (وحتى الإرسال العالي التردد وعلى دفعات يعتبر غير مرغوب فيه أبداً في بيئة مكتظة بالحرب الالكترونية وستصبح وصلة البيانات الرقمية الميكروويفية المستمرة ممكنة حالما تدخل مركبة (يو إيه في) ـ أي الخدمة و/ أو المعدات الخفيفة الوزن التي يمكن معها استخدام الأقمار الصناعية حالما تتوفر نقاط الترحيل.

وقد علمنا مما سبق في هذه الصفحات أن العسكريين كانوا يميزون في السابق بين نوعين من المركبات الجوية المسيرة عن بعد وبدون طيار. فقد أطلقوا كلمة «درون» على المركبات التي كانت تسير بوساطة برنامج ذاتي تختزنه في نظام توجيهها وكلمة «آر بي في» على المركبات التي كانت تسير من محطات أرضية. وبسبب المزج بين المفهومين أحياناً فقد بدأ حديثاً يطلق اسم «يو إيه في» على جميع المركبات الجوية المسيرة عن بعد بدون طواقم بشرية. كذلك أشرنا إلى أن هذه المركبات تقسم إلى فئتين منها قاتلة كالصواريخ الموجهة وغير قاتلة كمركبات الاستطلاع والتجسس وما شابه ذلك.

وبفضل ظهور الالكترونيات والتقنيات الحديثة، أمكن التغلب على مشاكل ثقل الوزن وكبر الحجم اللذين كانت تعاني منهما مركبات «يو إيه في» قديماً. كما أن شريحة واسعة من المهمات أخذت تستند إلى هذه المركبات مثل التشويش الألكتروني والتجسس على الاتصالات المعادية والخداع والاستطلاع وترحيل المعلومات الخ..

في نهاية الثمانينات بدأ الأمريكان تنفيذ مشروع يهدف إلى إنتاج مركبات (يو إيه في) تخصيصه وذلك وفقاً للمهمة التي ستناط بها.. وقد ناقشنا في العدد الماضي ثلاثاً منها وهي:

مركبات (يو إيه في) ـ أي للإطاقة، مركبات (يو إيه في ـ سي آر) للمديات

القريبة جداً ومركبات (يو إيه في - سي آر) - للمديات القريبة. أما الآن فسوف نستكمل بحثنا عن هذه المركبات مستهلين إياها بـ:

مركبة يو إي في - أم أر للمديات المتوسطة

من المزمع أن يصل مدى هذه المركبات إلى /٦٥٠/كم وإطاقة طيران لمدة حوالي ساعتين وحمولة من العتاد الالكتروني بوزن /١٥٠/ كغم. ويجري تطوير مركبات (يو إيه في) - التي سرعتها أدنى بكثير من سرعة الصوت - لتتمم دور طائرات الاستطلاع المتوسطة المدى التي تقودها الطواقم البشرية مثل طائرات آ أف - ٤ فانتوم وبدائلها الحالية. ويجب أن يكون بمقدور مركبات فئة أم آر أن توفر بيانات استطلاعية في وقتها الحقيقي أو ما يقاربه.. تجمعها من ارتفاع منخفض نسبياً في ظل جميع أحوال الطقس وفي الليل والنهار وينبغي أن يكون العتاد الالكتروني المحمول على متن المركبة قابلاً للتبادل مع الأنظمة الكهربو بصرية، والمستشعرات السمعية تحت الحمراء، واجهزة الرادار الميكروويفيه والمسجلات و/أو الوصلات البيانية العالية السرعة الخ..

وسوف يتم تأمين الملاحة البعيدة المدى بوساطة نظام جي بي آس والوصلة البيانية عبر أقمار الاتصالات ومحطات الترحيل لمركبات يو إيه في - آي. من أجل المديات التي تصل حتى /١٥٠/كم يمكن أن تتحكم الطائرات ذات الطواقم البشرية التي تطير على ارتفاع عال بمركبات (يو إيه في) حتى حدود أفق الميكروويف/ والوصلة البيانية.

في ١٩٨٩ شكل مكتب البرامج المشتركة وأصدر خطته الرائدة للمركبات الجوية الغير مأهولة (يو إيه في) وقد كرست الخطة جميع الجهود الحالية لنوع أس آر التي ستمتلك نظاماً الكترونياً سيركب في جميع الفئات الأربع الأخرى وهذا يعني أنه بالإضافة إلى شيوعية أنظمة التحكم بمركبات (يو إيه في) وتوجيهها المذكورة أعلاه بين صنوف الأسلحة فإنه يتحتم توحيد معايير المحطات الأرضية ووصلات الاتصال أو على الأقل مواءمتها مع الفئات الأربع.

في الآونة الأخيرة صدر طلب بشأن تقديم عروض من أجل نظام يو إيه

في ـ آس آر. وقد تم تقديم خمسة عروض في مايو ١٩٨٩. فقد تقدمت شركة جي آي سي إيفيورنيكس البريطانية بنظام فينكس. وشركة لندنغ سيستمز الأمريكية بمركبة آمير ٤٥٠ (يو إيه في) وباسيفيك إيرو سيستمز مع آي بي أم هيرون ٢٦، وشركتا إيركرافت أندستريزومازلات مع تي آر دبليو بنظام إمباكت، وما كدونل دوغلاس مع مؤسسة تطوير العلوم بنسخة محسنة عن سكاي آي آر٤ أي ـ ٥٠ وبعد التقييم تم اختيار أنظمة سكاي آي وإمباكت (يو إيه في) وقد تأثر الاختيار إلى حد بعيد بالنضج الفني للأنظمة الفائزة التي قد تتطلب القليل من أعمال التطوير، بينما على الرغم من أن الأنظمة الأخرى متقدمة إلا أنها لم تجرب عملياً. ومركبة إمباكت التي هي في الأصل مطورة عن مركبة «بيونير» مستخدمة في الجيش الإسرائيلي. أما مصر فقد اشترت في عام ١٩٨٨ عدة أنظمة سكاي أي للمراقبة وطيرتها بنجاح مستخدمة فيها مستشعرات الكترونية بصرية تتصل مع محطات أرضية بوساطة وصلة بيانية ذات تردد «نطاط» فتوفر نتائج استطلاعية في وقتها الحقيقي.

ومن المزمع تعديل أو رفع كفاءة أنظمة التوجيه الالكتروني والتحكم والمعدات الالكترونية التي تجهز بها أيّ من المركبتين لترقى إلى مستوى معايير القوات الأمريكية. هذا وقد نصت الخطة على إجراء الطيران الاختباري للمركبات في ١٩٩١.

كذلك اتخذ قرار بشأن مركبات يو إيه في أم آر. ووقع الاختيار على مركبة تلداين طراز ٣٥٠ وتشتمل هذه المركبة على عدد من الأنظمة المستخدمة في المركبات طراز ٣٢٤ التي تنتجها الشركة لصالح الجيش المصري، يبلغ باع جناح تلداين ٣٥٠/ ٢٠ر٣/ م وطولها/ ٥/ متر وتستطيع هذه المركبة الصغيرة أن تطير بسرعة قصوى وقدرها/ ٩ر٠/ ماخ ويصل مداها التطوافي /١٥٠٠/ كم. أما عتادها الالكتروني فيتألف من نظام آتارز التكتيكي المتقدم للاستطلاع الجوي الذي تطوره شركة ديناكور بوريشن، وبهذا ستوفر قدرة نهارية ـ ليلية على الاستطلاع لتلبية المتطلبات التي حددت لها. ومن المتوقّع أن يستغرق مزاوجة «أتارز»، مع مركبة يو إيه في ـ أم آر وتطوير أنظمة التوجيه والسيطرة المتقدمة فيها وقتاً طويلاً، لذلك لن تقوم بطيران اختباري مجدول لها قبل ١٩٩٢ ويتوقف أن يجري تسليم أول دفعة منها في عام ١٩٩٤/ ١٩٩٥.

لقد تباطأت خطط تطوير مركبات يو إيه في - سي آر جداً إلى حدّ أنه لا يوجد في الوقت الحالي مركبة جوية غير مأهولة صغيرة بصورة كافية لأن تحمل من قبل الإنسان، اللهم باستثناء تلك التي تتعلق بالهوايات. على أية حال ليس هناك ثمة شك بأنه حتى الطائرات الصغيرة يمكنها حمل آلات تصوير تلفازية منمنمة تعمل ببصريات الأجهزة المقترنة بالشحنة لكن تطوير وصلة بيانات مرسلة مستقبلة خفيفة الوزن وقابلة للحياة والتركيب في طائرة ذات بسطة لا تزيد عن متر واحد لا بد له وأن يضع مشاكل أمام حتى أكثر التقنيات تقدماً.

ولم يمنح حتى الآن عقد من أجل مركبات الإطاقة الطويلة ومن غير المتوقع أن يبدأ العمل فيها قبل ١٩٩١ مع أنه توفرت من قبل ثلاثة أنظمة طائرة، النظام الأول:

آي إس أل إيغريت، وينصع بتعاون أمريكي - ألماني حيث تنفذه الشركات التالية: جروب أم بي بي تي أس تي، الكلوفت، آي سيستمزوهيوز. وقد تم اختبار طائرتين مروحيتين - عنفيتين تجربيتين بطواقم بشرية من طراز إيغريت فأحرزت أرقاماً قياسية فيما يتعلق بخطوط الارتفاع حيث استطاعت أن تطير على ارتفاع يزيد عن /١٥/ كم، كما أن أداءها كان ممتازاً أثناء التسلق، ومن المتوقع أن تستخدم أم كيه ١ كقاعدة من أجل النسخة الغير مأهولة لتلبي متطلبات مركبات يو إيه في - آي ويعتزم سلاح الجو الألماني شراء حتى /١٨/ نظاماً منها تستطيع أم كيه ١ حمل معدات الكترونية تشتمل على رادار بفتحة صناعية أو على أي نوع من المستشعرات التي تزن حتى /٤٠٠/ كغم.

ولم يتضح حتى الآن فيما إذا اختار الألمان نسخة إيغرت المأهولة أو الغير مأهولة بالطواقم البشرية تشبه مركبة (يو إيه في)، الثانية المسماة بووينغ كوندور مركبة إيغرت حيث أنها صنعت من مواد مركبة موصولة ببعضها البعض، ويسيرها محركان ذوا مكابس بقوة /١٧٥/ قدرة حصانية وباع جناحيها الضيّقَي الوتر أكبر من بابي ٧٤٧ وفي آخر اختبارات لها نجحت في التحليق على ارتفاعات تزيد عن /٢٠/ كم ويمكنها البقاء محلقة لمدة ثلاثة أيام تقريباً ويبلغ وزن ما تحمله من معدات الكترونية /٨٥٠/ كغ.

المركبة الثالثة وهي آمبر التي تطورها ليدنغ سيستمز وقد أنتجت بطيرانها حتى

الآن ثلاث مركبات آمبر مع مخحطاتها الأرضية التي تتحكم بطيرانها. خلال اختباراتها استطاعت آمبر الطيران لمدة /٣٦/ ساعة متواصلة على ارتفاع/ ١٠/كم.

في الوقت الذي أرسيَتْ فيه قواعد مستقبل برنامج مركبات «يو إيه في» في أميركا، لا يمكن قول الشيء نفسه عن أوروبا التي لا تزال تفتقر إلى مفهوم شامل مقبول.

ويمكن أن يسير الأوروبيون على هدى الولايات المتحدة حتى ولو اختلفت متطلبات الدول عن بعضها تقتصر المشاريع والبرامج الخاصة بالمراقبة حالياً على مركبات يو إيه في فئة آي أر تقريباً وقد كان النجاح الذي أحرزته طائرات الاستطلاع الغير مأهولة (يو إيه في) في مطلع الثمانينات بمثابة حافز لدول أوروبا الغربية والشرقية لتقوم بجهود مماثلة لتلك التي قامت بها الولايات المتحدة في هذا المجال. فقد انبعثت برامج مركبات دور مانت (يو إيه في)، من جديد في فرنسا ألمانيا وبريطانيا، حتى وصلت الآن مرحلة الاختبار العملياتي بعد أن أهملت لفترة طويلة، ويدرس الجيش الفرنسي حالياً انتاج مركبة أبيليه التي صممتها تومسون وأنتجت إضافة لها مركبة مارت للاستطلاع القصير المدى. كذلك لا تزال طائرة توكان القصيرة المدى المتعددة الأغراض التي تصنعها أم بي بي تحت الاختبار مع أنواع مختلفة من حمولتها من المعدات الالكترونية وقد تم اختيارها كمنصة من أجل مركبة (يو إيه في)، التي تصنعها ماترا/ وأم بي بي بريفل للاستطلاع وإحراز الأهداف من جهتها تعمل شركة دورنيير على انتاج طائرة «يو إيه اتش» الهليوكبر الغير مأهولة للحرب الالكترونية والاستطلاع الراداري. يطلق على هذه الطائرة اسم جيموس وترتكز في تطويرها على الطائرة هليكوبتر بدون طاقم عمرها/ ٣٠/ سنة اسمها جيراودين كيو ـ اتش ٥٠ لاكان يستخدمها الأسطول الأمريكي في الحرب المضادة للغواصات.

وتستخدم في طائرة هلستار الهليكوبتر الغير مأهولة «يو إيه اتش» التي يستعملها الأسطول الإسرائيلي التقنية نفسها بالضبط وكذلك في طائرة إيرود إينت سي إتش ـ ٨٤ بيغاسوس الأمريكية. ويبدو أن مهندسي مركبات يو إيه في جايرو داين التي كانت تتخذ من السفن قواعد لها قد ابتكروا في الخمسينات نظاماً ثورياً لم يكتب له النجاح لأنه لم تتوفر له متطلباته من التقنية الالكترونية المتقدمة.

تتمتع مركبة سيرتشر التي تنتمي إلى الجيل الثالث بخواص تخفي وقد زودت بقلابات «فاولر» لزيادة قدرتها على الارتفاع وإطاقتها لمدة/ ٢٤/ ساعة طيران على الرغم من أنها ليست أكبر حجماً من سلفها بيونير من أجل برنامجه الخاص بمركبات المراقبة وتعيين الأهداف قرر الجيش البريطاني الحصول على نظام فينيكس الذي يصنعه فريق جي آي سي/ فلايت ريفيو لينغ في سويسرا صممت شركة كونترافز وطيّرت مركبة رينجر المصغرة التي صممت لتشكل جزءاً رئيساً من نظام استطلاع سويسري متطور.

وقد بدأ إنتاج نسخ منها وبيعها هذه السنة١٩٩١.

طوّرت شركة كانادير هليكوبتر سي ال ـ ٢٢٧ سنتينل الغير مأهولة للمراقبة واحراز الأهداف التي تمتاز بقدرتها العالية على العيش، علماً بأن هذه الشركة قد طيّرت من قبل وبنجاح مركبتي «درون» سي أل ـ ٨٩ وسي أل ٢٨٩.

وباعتبارها مروحية تمتلك سي أل ـ ٢٢٧ سنتينل قدرة كاملة على الإقلاع والهبوط العمودي، كما تستطيع أن تحوم وتتقدم باتجاه الأمام وتتم السيطرة عليها عادة بوساطة وصلة بيانية لكنه يمكن استخدامها أيضاً كمنصة مستشعرات على متن السفن الحربية لمدّ أفق راداراتها وكونها تعمل باستقلال ذاتي فإنها تتمتع بطاقة تبلغ / ٤/ ساعات.

في أوائل ١٩٨٤ ظهرت لأول مرة في سماء دولة شرق أوسطية مركبة (يو إيه في) مصغرة من صنع روسي وعلى الرغم من أنه كان معروفاً بأن القوات الروسية كانت تختبر مركبات (يو إيه في)، فقد كان ظهور المركبة في الشرق الأوسط بمثابة مفاجأة حيث أنها كانت مؤشراً إلى وصولها إلى مستوى التشغيل وبدأ تصديرها لكنه كشف النقاب عن أنها مركبات استطلاعية ذات مستوى منخفض من التطور. فآلة التصوير التلفازية التي زوّدت بها لا يمكن توجيهها أثناء الطيران، وعدستها العريضة المجال تشير إلى الأمام بزاوية مقدارها/ ٣٠/ درجة، وباعتبار أن نظام وصلة البيانات رقمي، فإنه يمكن الافتراض بأن قوات الاتحاد السوڤياتي تستخدم أنظمة مشابهة وأكثر تطوراً إلى حد كبير.

إحدى الشركات الأوروبية القليلة المتخصصة في مركبات (يو إيه في) هي

الشركة الإيطالية ميترسبا ومنذ الخمسينات والشركة هذه تنتج مركبات أهداف ومركبات متعددة الأغراض لصالح القوات الإيطالية وغيرها وعلى مدى ما يزيد عن عشر سنوات تعاونت بشكل وثيق مع شركة أمريكية تدعى باسيفيم أيروسيستمز أنكوربوريشن (بي إي آي) تركز شركة بي إيه آي جهودها على أنظمة التوجيه والطيران الآلي وأجهزة السيطرة وقياس البعد وبمساعدة شركة ميتر طوّرت مركبة هيرون ـ ٦٢ (يو إيه في) ونظام التحكم بها من أجل التصدير ومن أجل الخدمة في صنوف الأسلحة الثلاثة للجيش الأمريكي.

في ضوء انخفاض حدة التوتر بين الشرق والغرب. تعتبر مركبات (يو إيه في) الحال المثالي الرخيص الكلفة للحفاظ على وضع ردعي معقول وكوسيلة للتحقق من الحد من انتشار الأسلحة وسوف تسجل للمخصصات المالية لتطوير مركبات يو إيه في العالم زيادة بواقع ١٩٪سنوياً على مدى السنوات العشرة القادمة. ويبدو أن هذا التقدير متحفظ إلى حدّ ما نظراً لأن مركبات يو إيه في، يمكن أن تستخدم لعدد كبير من المهمات المدنية والبوليسية ودوريات الحدود ولمراقبة / ٢٠٠/ ميل من المياه الاقتصادية الإقليمية، ولمكافحة المخدرات ولإجراء الأبحاث البيئية، ولترحيل الموجات اللاسلكية الميكرويفية في حالة الطوارئ، وفي عمليات البحث والإنقاذ، ولإعطاء معلومات دقيقة عن بعض المهمات التي يمكن أن تنفذها مركبات (يو إيه في) من فئة أس آر واي بتكاليف منخفضة. من ناحية أخرى تبشر مركبات سي آر وأم بأنها ستصبح أدوات دفاع مهمة في المستقبل لطائرات الاستطلاع المقودة بوساطة طواقم بشرية في خضم أيّ بيئة معادية.

الأهداف الجوية الخادعة

* الأهداف الجوية التي تطلق لخداع الوسائط الدفاعية وإلهائها وإشباعها عرفت تطوراً تقنياً كبيراً مع حرب فيتنام حيث استعملها الأميركيون بنجاح.

ومن المهمات التي يعهد بها عادة إلى الطائرات بعضها لا يتطلب وجوداً إنسانياً، فهذا هو حال، مثلاً، المهمات العالية الخطورة أم وصلات المراقبة الطويلة المدى، التي يمكن أن يعهد بها إلى «روبوتات طائرة» تشكلها العربات الطائرة المبرمجة مسبقاً أم الموجهة عن بعد UAV: Unmanned Aerial Vehicule وتحت

هذه التسمية العاملة، نجد اليوم، الطائرات من دون طيار التي هي كناية عن عربة طائرة، لا تحتاج إلى أية وسيلة، خارجية للقيام بمهمة مبرمجة قبل إطلاقها وهناك مركبة RPV: Remately Piloted Vehicule التي هي مركبة طائرة قابلة للاستعادة، وموجهة عن بعد لاسلكياً.

وتستعمل هاتان الوسيلتان حسب مميزاتهما التقنية، في مهمات تهدف إلى جمع المعلومات (مراقبة استكشاف، استيلاء على أهداف، تنصت الكتروني) وفي مهام دفاعية أم هجومية (إشباع، تشويش، خداع، إسقاط مؤن. .) أم في عمليات دعم (مرحلات للإرسال تعيين أهداف، أمرة رمي).

مهمات جمع المعلومات، تحتاج إلى تشغيل عدد كبير من أنظمة الرصد، تبدأ من آلة التصوير التلفزيوني أم IR البسيطة، وتنتهي بأنظمة الكترونية، متطورة جداً. وساعد تطوير تكنولوجيات معقدة على تحويل الروبوتات الطائرة ال مساعد ثمين للمدفعية. فإن زيادة مدى المدافع (٣٠ر كيلومتر) وظهور قاذفات الصواريخ المضاعفة، جعلا الوسائط العادية للاستيلاء على الأهداف، بلا فائدة. مما أدى إلى جعل العربة الجوية المبرمجة مسبقاً أم الموجهة من عن بعد العين، التي ترى ما يجري وراء رؤوس الجبال، فتعطي صورة مباشرة عن القرعة التي تطير فوقها، إلى مشغل على الأرض، يعتمد في دوره على مساعدة نظام معلوماتية معقد.

وتعتمد المهمات الهجومية، على روبوتات طائرة، مبرمجة مسبقاً، وفي التالي، مستقلة تماماً، وتستطيع تعديل مسارها على ضوء ما تواجهه من أحداث خارجية، ومشاركتها مع طائرات يقودها طيار تعطيها إمكانية القيام بدور إشباعي للدفاعات المعادية، البرية والجوية.

وأخيراً، فإن هذا النوع من الأنظمة، في استطاعته أن يمثل دوراً مهماً في مجال الاستعلام في عمق الدفاعات المعادية، إذا ما جهز بمرحل للمواصلات اللاسلكية.

ويمكن كذلك، تصنيف الروبوتات الطائرة الطائرة، حسب مداها واستقلالها العملانيين، وفي هذا الإطار توجد أربع فئات:

- مدى عملاني قصير جداً ٣٠ كيلومتراً و٧ ساعات طيران كحد أقصى، للمراقبة «فوق التلال» في سرعة ١٠٠ عقدة.

- مدى عملاني قصير: ١٥٠ كيلومتراً و١٢ ساعة طيران كحد أقصى، لإعطاء المعلومات عن الأهداف المطلوب معالجتها وعن الأوضاع التكتيكية.

- مدى عملاني متوسط ٧٠٠ كيلومتر وأكثر من ٢٠ ساعة.

مدى عملاني كبير: أكثر من ٣٠٠ كيلومتر و٣٦ ساعة، وفي استطاعة هذا النظام أن يعمل على ارتفاع متوسط وعال، وعلى مساحات واسعة جداً. وتكون مجهزة بمرحلات إرسال وبمعطيات وبنظام SIGINI وبعدد مختلف من أنظمة الالتقاط الالكترونية.

فوق التلال

عدد كبير من الدول، عمد إلى تطوير روبوتات طائرة للمراقبة «عن قرب» Clodi Range تسمح بإلقاء نظرة (فوق التلال).

ففي الولايات المتحدة، عمد الثنائي بل - بوينغ صانع أو سبراي، ذو الروتور الهزاز، إلى تطوير روبوت طائر قصير المدى، لحسابه الخاص أسماه بوينتر. ويبلغ طول هذا النظام٤ أمتار وفتحته ٢ر٣ متراً وقطر الروتور ٤ر٢ متراً، ووزنه ٢٨٠ كيلوغراماً. (منها ٧٠ كيلوغراماً للوقود) وهو مجهز بمحرك عنفي، وليامز اينترناشيونال WT 534 قوة ٩٥ حصاناً يدفعه في سرعة ملاحية تتراوح بين صفر و٣٠٠ كيلومتر في الساعة، إلى ارتفاع سقفه ٧٥٠٠ متر، وطاقة طيران مدة خمس ساعات، أي مدى عملاني قدره ٤٠٠ كيلو متر، وفي استطاعته بونيتر، أن يراقب في سرعة ١٣٠ كيلومتراً في الساعة، رقعة شعاعها ٢٠٠ كيلومتر مدة ٣ ساعات.

ويعمل الثنائي بل وينغ على دراسة روبوت طائر، متوسط المدى وله المميزات ذاتها، قد يصل وزنه إلى ٤٣٠٠ كيلوغرام وستبلغ سرعة هذه المركبة الطائرة الملاحية، ٤٥٠ كيلومتراً في الساعة السرعة المراقبة: ١٥٠ كيلومتراً في الساعة) على

ارتفاع ٩٠٠ كيلومتر، وسيكون في استطاعتها قطع مسافة ١٧٠٠ كيلومتر مدة الطيران القصوى: ٩ساعات.

اينترناشيونال إيروسبتايس تكنولوجيز الأميركية ـ الألمانية، طورت الروبوت الطائر MK 105 فلاشد، للمراقبة وصنعته من المواد المركبة (ألياف الزجاج والفحم، على شكل سندويش) وفي استطاعة هذا النظام أن يعمل بطريقة مستقلة أم موجه عن بعد. ويتولى محركات ثنائية الشوط و٤ سيلندرات (أي قوة ٢٤ حصاناً) دفعه في سرعة ٢١٠ كيلومتراً في الساعة وهو ينقل حمولة مفيدة (آلة تصوير تلفزيوني واتصال في الوقت الحقيقي) على مسافة ٥٠ كيلومتراً (مدى الطيران ٤ ساعات).

المركبة الطائرة من دون طيار BREBEL ثمرة التعاون بين ماترا الفرنسية وم.ب.ب الألمانية في شركة أورو درون تؤمن مراقبة الرقع والرصد وتعيين هوية الأهداف وتحديد مكانها في الوقت الحقيقي، إلى جانب تصحيح رمي مدفعية ١٥٥ ملم، وصاروخ MLRS ويتراوح بريفل بين ٣٠ و٦٠ كيلومتراً، وراء خط الجبهة وتزيد استقلاليتها العملانية عن ٣٫٣٠ ساعة، في حين تصل هذه الاستقلالية إلى مدى ساعات عدة في الطيران على ارتفاع منخفض، وهي تزن ١٥٠ كيلوغراماً تدفعها مروحة يشغلها محرك ذو مكابس، فيشنل أندرزاكس، قوة ٢٢ حصاناً وتتكون حمولتها المفيدة من نظام رصد يعمل بالأشعة دون الحمراء، ليلاً ـ نهاراً FLIR ومن تجهيز لنقل الصور في الوقت الحقيقي، سرعتها المنخفضة خلال أوقات المراقبة تسمح للمشغل على الأرض «رصد تسديدها مدة دقائق عدة، بالاستيلاء على الأهداف وتحريك رمي المدفعية ومراقبته، وستدخل هذه الطائرة مرحلتها العملانية في ١٩٩٥.

وسيعمد البوند سيور الألماني، طائرة بريفل، لدعم عمل نظامي CL - 89 وCL - 289 وأما جيش البر الفرنسي فإنه سيستعملها إضافة إلى طائرة CL - 289 كما أنها ستشارك على مستوى الفرقة، رادار RASITE نظام MART هو ثمرة تعاون بين المصلحة التقنية في جيش البر الفرنسي، مبتكرة المشروع، وبين الصناعات المكلفة تنفيذه آلبيل كوفراس، تاس وطومسون ويتحدر هذا النظام من سباروهوك. من A E F للقيام بأعمال المراقبة في العمق (٢٠ إلى ٤٠ كيلومتراً) على مستوى

الفرقة، وهو يطير في سرعة تتراوح بين ١٠٠ و٢٢٠ كيلومتراً في الساعة وعلى ارتفاع يتراوح بين ١٥٠ متراً و٣٠٠ متر، وينقل في الوقت الحقيقي، وإلى مسافة بعيدة صور تلفزيونية للأرض التي يطير فوقها إلى خطة أرضية تتولى توجيهه عن بعد.

وقد ذكرنا تفصيلاً كاملاً عن هذا النظام الفرنسي (ضمن هذا البحث).

الفستق السوادني اسم لطائرة

طورت شركة كنداير. روبوت CL - 227 سنتينيل، الطائرة الملقبة، Flying Peanut (فستق العبيد الطائر) بسبب شكلها الطريف الطائرة المذكورة هي كناية عن روبوت صغير، موجه عن بعد، علوه ٦٤ر١ متراً، مجهز بروتورات ثلاثية الشفرات، معاكسة الدوران قطرها ٥٧ر٢ متراً يحركها محركان توربو وليامز قوة ٥٠ حصاناً ويبلغ وزنها عند الإقلاع ١٥٤ كيلوغراماً وتتراوح حمولتها المفيدة بين ٣٠ و٤٥ كيلوغراماً ويصل مداها العملاني إلى ٥٠ كيلومتراً و٣ ساعات وليست في حاجة إلى تجهيز خاص للإطلاق، ويمكن تشغيلها قريباً جداً من ساحة القتال. ويسمح جزؤها الأدنى بتحميل أي تجهيز لكشف المعطيات أم لتحويلها: آلة تصوير حرارية، أم تلفزيونية FLIR محدد مواقع باللايزر إلى آخره.

وفي آذار (مايو) الفائت، سجلت سنتينيل، (الحرس) رقماً قياسياً في مسافة الطيران، فوصلت إلى ٤٠ كيلومتراً، بعيداً عن نقطة انطلاقها. ويدخل هذا الرقم القياسي، وفي إطار المرحلة الأخيرة من برنامج تقدير تجريبي مكثف، يقوم به الجيش الأمريكي. وشملت هذه التجارب الرحلة الأولى لطائرة CL - 227 وهي مجهزة بنظام رؤية بالأشعة دون الحمراء لتقدير الخسائر التي قد تلحق بأحد المطارات خلال هجوم معين. وتمكنت سنتينيل من تحديد متفجرات لم تنفجر والأماكن الأكثر تدميراً في المدرج، وسمحت هذه التجارب، كذلك بتقدير وملاحظة الإشارات الرادارية والصوتية، والبصرية التي تطلقها طائرة CL - 227.

وجرت كذلك تجربة النسخة البحرية من هذه الطائرة سي سنتينيل، في مركز تجربة الصواريخ في المحيط الهادي، في بوينت موغو في ولاية كاليفورنيا وكانت

تسع طلقات كافية لإثبات أن في استطاعة سي سنتينيل، الإقلاع من على متن سفن صغيرة والهبوط عليها ونقل الصور في الوقت الحقيقي إلى سفينة أم للعمل مشاركة مع رادار وتعيين الأهداف التي يكشفها الرادار ومراقبتها في الوقت الحقيقي.

فوينيكس الذي طوّرته جنرال الكتريك، آفيونيكس، موجه لمراقبة ساحة القتال وتعيين أهداف المدفعية وسيصار إلى دمجه مع نظام C2 بتارميغان ومع - Bates Battle Field Artillery Targeting Engagement - System ويتم إطلاق هذا الروبوت الطائر بواسطة منجنيق هوائي من على متن شاحنة من فئة ٤ أطنان (سرعة الإطلاق ٧٠ عقدة) ويتولى دفعه محرك ذو شوطين يعمل بالحقن WAEL 342 قوة ٢٥ حصاناً ويتم التقاطه بواسطة مظلة فيهبط على ظهره لحماية التجهيزات التي ينقلها (هوائياً المقدمة والمؤخرة في نظام تبادل المعطيات جو ـ أرض معالج ١٦ بيتس) المركزة في حاوية بطنية وآلة التصوير المعلقة تحت الحاوية وتكون آلة التصوير هذه العاملة بالأشعة دون الحمراء VICMII سنسورز، من جنرال الكتريك في برج مقر، في السمت وفي زاوية النظر، عملية معالجة الصور الفيديو تتم في صورة كلية، داخل البرج، وأما المحطة الأرضية، فإنها تضم طاقماً من ٣ أفراد (الطيار، ومراقب المهمة، ومحلل الصور). وتستطيع فوينيكس نقل ٤٥ كيلوغراماً حمولة مفيدة، وتزيد استقلاليتها العملانية على ٤ساعات.

طائرة المراقبة من دون طيار CL - 289 التي اشتركت في تطويرها شركات: كنداير (كندا) ودورنيه (ألمانيا الاتحادية)و SAT (فرنسا) اعتمدت لتجهيز جيشي البر الألماني والفرنسي وعلى مستوى الفيلق الفرنسي، مستعمل CL - 289 بالتعاون مع نظام أوركيده، المنقول بواسطة الطوافات والمعروف أن نظام أوركيده يتكون من رادار دوبلز ذي النبضات (طومسون ـ LCTAR\CSF) المركز على طوافة سوبر بوما، من إيرو سباسيال CL - 289 كورسير. وفي استطاعتها التعرف على رقعة تمتد ٥٠٠ متر على جانبي المسار المحدد لها، حتى مسافة١٥٠ كيلومتراً، ثم تحول المعلومات التي تجمعها إلى محطة أرضية تبعد ٥٧ كيلومتراً كحد أقصى. ، وانطلاقاً من هذه الطائرة التي تعمل من دون طيار عهد إلى إيروسباسيال، أنظمة التقنية بتطوير وإنتاج نظام استكشاف الأهداف وتعيين مكانها PIVER - 289 (ماترار) ملائم لاحتياجات جيش البر الفرنسي الخاصة، وتولى الجيش الألماني الغربي، تجارب

النموذج التجاري من 289 - CL بنجاح في بداية هذه الطائرة التي يتوقف أن تدخل في المرحلة العملانية في ألمانيا خلال هذه السنة على أن تتسلم كل الكميات المطلوبة حتى ١٩٩٢، وأما الكميات المطلوبة من الجيش الفرنسي، فيتوقع أن يبدأ تسليمها في بداية١٩٩١.

روبوت متقدم تصنعه شركة لوكهيد

* وفي الولايات المتحدة كانت لوكهيد، طوّرت في منتصف السبعينات، روبوتاً طائراً جد متطور ومتقدم على عصره: أكيلا. وكان كناية عن جناح طائرة موجه عن بعد، مصنوع من المواد المركبة. لا يترك سوى إشارات رادارية خفيفة جداً، بفضل شكله الدائري، وكان في استطاعة هذه الطائرة من دون طيار نقل عدد من الحمولات المفيدة: (آلات تصوير، كاشف باللايزر) حسب المهام المعهود بها إليها. وكانت تتميز بدقة عالية في تعيين الهدف، وباستقلالية عملانية طويلة الأمد. وكانت استعادتها تتم بواسطة شبكة على الأرض. وفي سنة ١٩٨٨ جرى الاستغناء نهائياً، عن أكيلا، نتيجة صعوبات تقنية، أثرت على تقديرات الكلفة وروزنامة الانتاج. وفي نهاية ١٩٨٧ أطلقت نظارة الدفاع الأميركية برنامج UAV مشترك بين مختلف أسلحة الجيش الأميركي يتناول الروبوتات الطائرة غير المقاتلة القصيرة المدى جداً، والقصيرة والمتوسطة المدى، وذات الاستقلالية العملانية الطويلة ومن شأن هذا البرنامج الذي ينفذ بإشراف البحرية الأميركية أن يؤدي إلى مراقبة كلفة استعمال الأنظمة الثانوية الموجودة في السوق، صنع الأنظمة الجديدة، مما يخفض الذيول المرتبطة بعملية تطوير كلاسيكية ولا يستثني هذا التطور أي تقدير عملاني للأنظمة الأجنبية أم الأميركية.

وفيما يتعلق بالروبوتات الطائرة القصير المدى، فإن البحرية والجيش الأميركيين، يسعيان إلى امتلاك ٤٠ من طراز هذه الطائرات للاستكشاف التكتيكي، في نهاية١٩٩٥، وبكلفة تقدر بين ٥٠٠ و٦٠٠ مليون دولار.

ويتألف النظام أساساً، من محطتين أرضيتين للمراقبة ومن محطة تخطيط المهام. ونهائيات فيديو، وحمولات مفيدة تركيبية، وأنظمة اتصال للمعطيات الروبوت الطائرة ونظام إطلاقه واستعادته واللوجستية التابعة.

وفي ختام مسابقة اشتركت فيها، جنرال الكتريك أفيونيكس (بريطانيا) وآي. بي. أم وباسيفيك إيروسيستم (الولايات المتحدة وليدينغ سيستمز (الولايات المتحدة) ماك دونل دوغلاس وديفلو بمانت سيانسز كوربورايش (الولايات المتحدة) (وTRW ومالات عهد إلى المجموعتين الأخيرتين تنفيذ المرحلة الأولى، من برنامج روبوت طائر فحصلت ماك دونل دوغلاس وديفلو بمانت سيانسز كوربورايش على ١ر٤٣ ميلون دولار، لنظام سكاي - آي R4E - 50 فيما ذهبت ٥ر١٨ مليون دولار إلى مالات ثمناً لروبوتها الطائر EMPACT - UAB(JIMPACT: Joint Improved Mugti. (mission pqyload Aerial Surbeillance Combat Survivable R4E - 50 طائرة من دون طيار مرتفعة الجناح ذات سطوح على شكل سهم دائم (١٩ درجة) مجهزة ومحرك ذات كباس دوار GR18. تصنعه تليداين كونتيننتال، بإجازة من البريطانية نورثون موتورز عند الإقلاع بين ٣٣١ و٤٥٤ كيلوغراماً وتزيد استقلاليتها العملانية على ٨ ساعات ويستقبل برجها الأمامي نظام رصد FLIR هانيويل MK3 أدمغة الكترونية جديدة تعطي المشغل فوق خرائط مرقمة مسجلة، خريطة بالألوان تعرض عليها إحداثيات وضع الروبوت الطائر وارتفاعها وتوجه نظام الرصد. ويتوقع أن يجهز الروبوت الطائر R4E - 50 بواسطة منجنيق مركز على شاحنة واستعادتها بواسطة مظلة رقائق معدنية، مما يسمح للمشغل على الأرض بمراقبة أفضل لعمليتي الاقتراب والهبوط ويذكر أن تليداين رايان أيرونا وتيكال حصلت على عقد قيمته ٦ر٦٥ ميلون دولار لتقوم بتطوير روبوتها الطائر نموذج ٣٥٠ المتوسط المدى المتحدر من نموذج ٣٢٤ سكارابه الذي طورته وانتجته لحساب جمهورية مصر العربية وسيجهز هذا الروبوت الطائرة بمحرك نفاث توربو تلداين CAE - 3739 - C قوته الدافعة ٤٣٥ كيلوغراماً، يعطيه مدى عملاني يزيد على ٧٠٠ كيلومتر وسيعتمد هذا النظام من الجيش والحبرية وسلاح المارينز في الولايات المتحدة لأعمال الاستكشاف البري والبحري، على أهداف محصنة الحماية.

الروبوت الطائر IMPACT UAV هو كناية عن بايونير محسن مجهز بمحركي بوش - بول - قوة ٤٥ حصاناً يدعانه في سرعة تتراوح بين ٦٠ و١٢٠ عقدة، على ارتفاع ٥٧٠٠ متر، باستقلالية عملانية، ١٢ ساعة طيران مع ١٠٠ كيلوغرام من الحمولة المفيدة، ويستطيع هذا النظام الذي يزن ٥٧٠ كيلوغراماً عند الإقلاع أن ينقل

في إطار حمولته المعيارية نظام رصد متعدد ـ الأوبرتونية MOSP مشارك مع كاميرا تلفزيونية. FLIR تتم عملية الإطلاق بواسطة منجنيق، أم بواسطة صاروخ وعملية استعادته بواسطة مظلة أم على مدرج مع حبل توقيف.

ونذكر من بين الروبوتات الطائرة الأخرى هيرون ـ ٢٦ ميزار من باسيفيك أيروسيستم الذي يطلق بواسطة المنجنيق أم بواسطة صاروخ ويستعاد بواسطة المظلة. تحريكه يتم بواسطة محرك ٢٦ حصاناً في سرعة ملاحية ٨٠ عقدة على ارتفاع ١١٠٠٠ قدم وتبلغ استقلاليته العملانية ٥ ساعات ويستطيع هذا النموذج نقل قاعدة GLIR AP438 مقرة محورياً وآلة تصوير بالأشعة دون الحمراء وتجهيزات ربط معطيات.

SEEKER طائرة مصغرة من دون طيار يبلغ وزنها عند الإقلاع ٢٠ كيلو غرام ومداها العملاني ٢٠٠ كيلومتر، وتستطيع البقاء في الجو ٩ ساعات مع ٤٠ كيلوغرام من الحمولة المفيدة. وهي تطير في سرعة ٦٥ عقدة وعلى ارتفاع ١٥٠٠ قدم وتنقل آلة تصوير تلفزيونية أحادية اللون مجهزة بزوم (٢٠ إلى ٣٠٠ ملم) يسمح لها بكشف أهداف حجمها ٣ أمتار على مسافة ٤٠٠٠ متر وهي تقلع وتهبط بتوجيه لاسلكي.

والمعروف أن إسرائيل تستعمل ثلاثة نماذج من طائرات التجسس من دون طيار، هي ماستيف وسكاوت وبايونير، ويتميز النموذجان الأولان بالأدات ذاتها، وبالحمولة المفيدة عينها، وتبلغ استقلاليتها العملانية أربع ساعات فهي سرعة ٦٠ عقدة، وعلى ارتفاع يتراوح بين ٤٠٠ متر للملاحة و ٢٤٠٠ متر فوق الأهداف.

باينونير هو روبوت طائر مصنوع من تركيب راتنج زجاج، ويدفعه محرك ساخس قوة ٢٦ حصاناً في سرعة ٧٠ عقدة على ارتفاع ١٥٠٠٠ قدم وتصل استقلاليته العملانية إلى ٩ ساعات حمولته المفيدة (٤٥ كيلوغراماً) قد تشمل: آلة تصوير حرارية، أم آلة تصوير تلفزيونية/ نهارية، تجهيزات حرب الكترونية، موصلات راديو أم تلفزيون، لايزر لقياس المسافات، أم معين يعلم باللايزر، وتستطيع المحطة الأرضية ومراقبة طيران بايونير في شعاع ٤٠ كلم وتلقي المعلومات التي يبثها في شعاع ٣٠ كلم.

وكشفت المصادر عن أن إسرائيل تعمل على دمج نظام C31 بطائراتها من دون

طيار، وإنها طورت نموذجاً جديداً من هذه الطائرات، سورتشر، ذات محرك واحد، صنع جناحها من مواد مركب جديد، زنة حوالي ٣٢٠ كيلوغراماً. وتصل استقلالية الطائرة المذكورة إلى ٣٠ ر١٠ ساعة وهي تستطيع أن تقوم في الوقت الحقيقي بمهام استكشاف ورصد وتعيين أهداف، ومرحل للاتصالات وبمهام الحرب الالكترونية.

وطورت الشركة الإيطالية ميتيور، كوستروتسيوني ايوناوتيكه ٥١ الكترونيك، من مجموعة إيرايطاليا الطائرة من دون طيار ميراك، ومن هذه السلسلة ميراك ١٠٠، ذات جناح واحد على شكل سهم منخفض تستطيع بلوغ سرعة ٨٥٠ كيلومتراً في الساعة وسقف طيران ٩٥٠٠ متر. ميراك ١٥٠، هي نسخة مطوّلة من هذه الطائرة من دون طيار. مجهزة بمحرك عنيف ـ نفاث، دفعه ١٥٠ كيلوغراماً، وبنظام رصد IR لينسكان وتستعمل في مهام الاستكشاف في سرعة كبيرة، وعلى مسافات بعيدة. ميراك ٢٦ هي طائرة مصغرة من دون طيار تدخل في نظام SORAO لمراقبة ساحة القتال وتعيين الأهداف. وهي مجهزة بمحرك قوته ٢٦ حصاناً وبآلة تصوير تلفزيونية و FLIR إيطاليا ويمكن تجهيزها بجهاز استقبال GPS.

ليدينغ سيستمز، الأميركية، تطور عائلة من الطائرات من دون طيار، آمبر، التي بقي أحد نماذجها في الجو طوال ٣٧ ساعة وجمع النموذج آمبر، أكثر من ٣٠٠ ساعة طيران خلال أكثر من ٦٠ عملية طيران تجريبي، شركة ليدينغ سيستمز، التي تحظى بدعم وكالة المشاريع الدفاعية المتطورة DARPA والجيش الأميركي وسلاح المارينز في الولايات المتحدة حصلت على عقد لانتاج ست طائرات تجريبية من هذا الطراز ويتوقع أن يتم التطوير الكامل لهذا النظام خلال سنة ١٩٩٣ المالية.

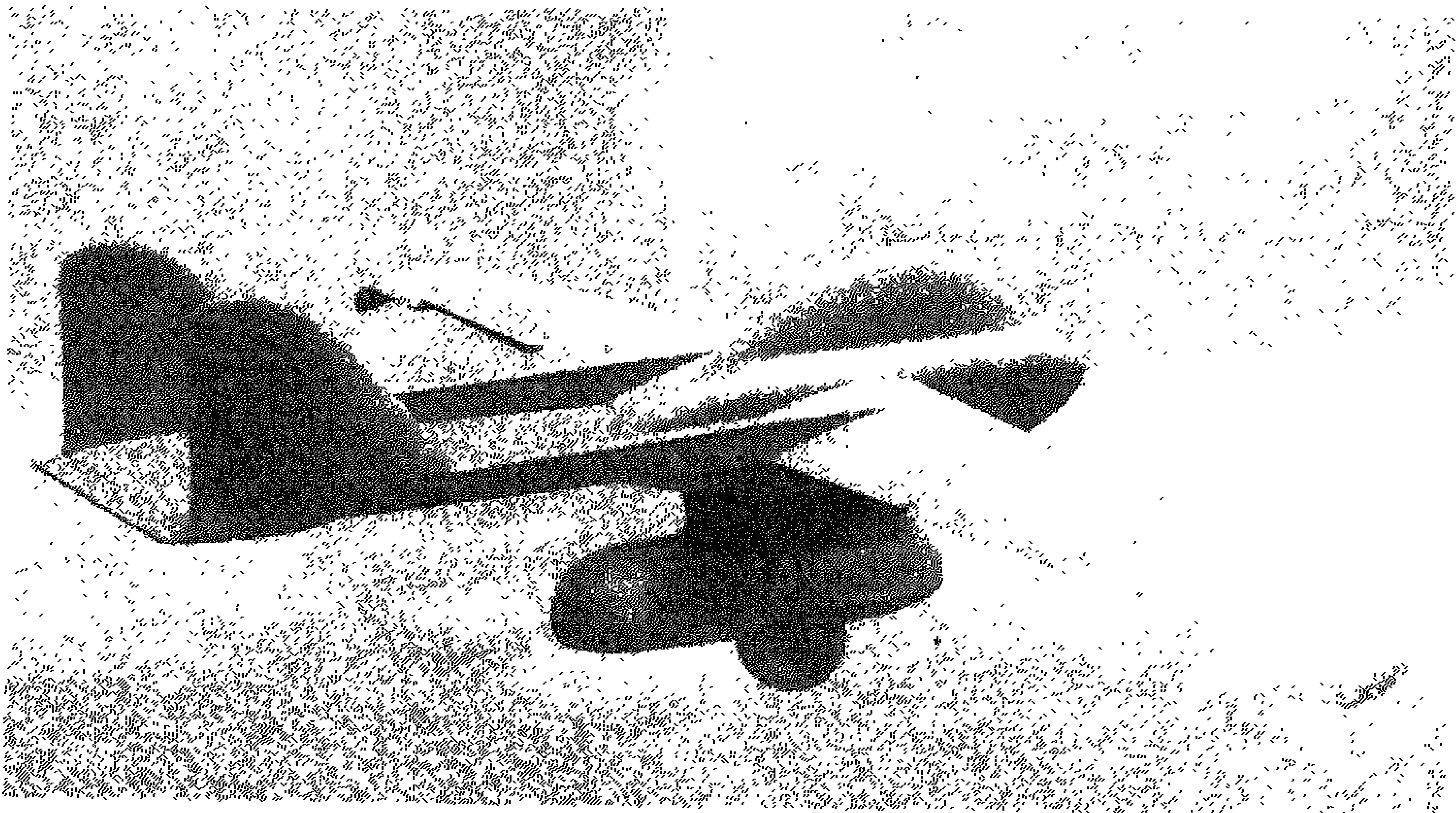
وتتميز أمبر بسطوح مركزة تحت البدن وبمروحة دافعة ومجموعة الذيل على شكل ٧ مقلوبة وأما الدفع فيتم بواسطة محرك ديزل هوائي KH - 1200 D ذي ثلاث اسطوانات أم بواسطة محرك ديزل مفرط في التغذية KH - 1200 DT.

وتموّل وكالة المشاريع الدفاعية المتطورة كذلك تجارب كوندور، التي يطورها فرع الطائرات العسكرية في مجموعة بوينغ ديفنس آند سبايس، التي رفعت ٢٠٠٠٠ متر السقف القياسي الذي بلغته طائرة مجهزة بمحرك ذي مكابس خلال رحلة دامت حوالي ٣٠ ساعة وأنهت كوندور بنجاح سلسلة من ٨ تجارب سمحت بتكريس

تكنولوجيتها للطيران على ارتفاع كبير، وللرحلات الطويلة وطاقة الطائرة نقل الحمولة المفيدة وإجراء التدقيق الأساسي للشحنات المفيدة المختلفة التي تستطيع نقلها، بما فيها حمولة مقدمة من البحرية الأميركية.

وبذلك ينتهي هذا الفصل في كتاب تاريخ التجسس في العالم عن أخطر أنواع التجسس (من فوق) أي التجسس من السماء بواسطة هذه الطائرات بدون طيار التي تطير فوق رؤوسنا ورؤوس القوات المسلحة بدون إذن، إنها تتمة مكملة لأعمال المخابرات والتجسس في العالم.

(ألبوم خاص عن أحدث طائرات التجسس)



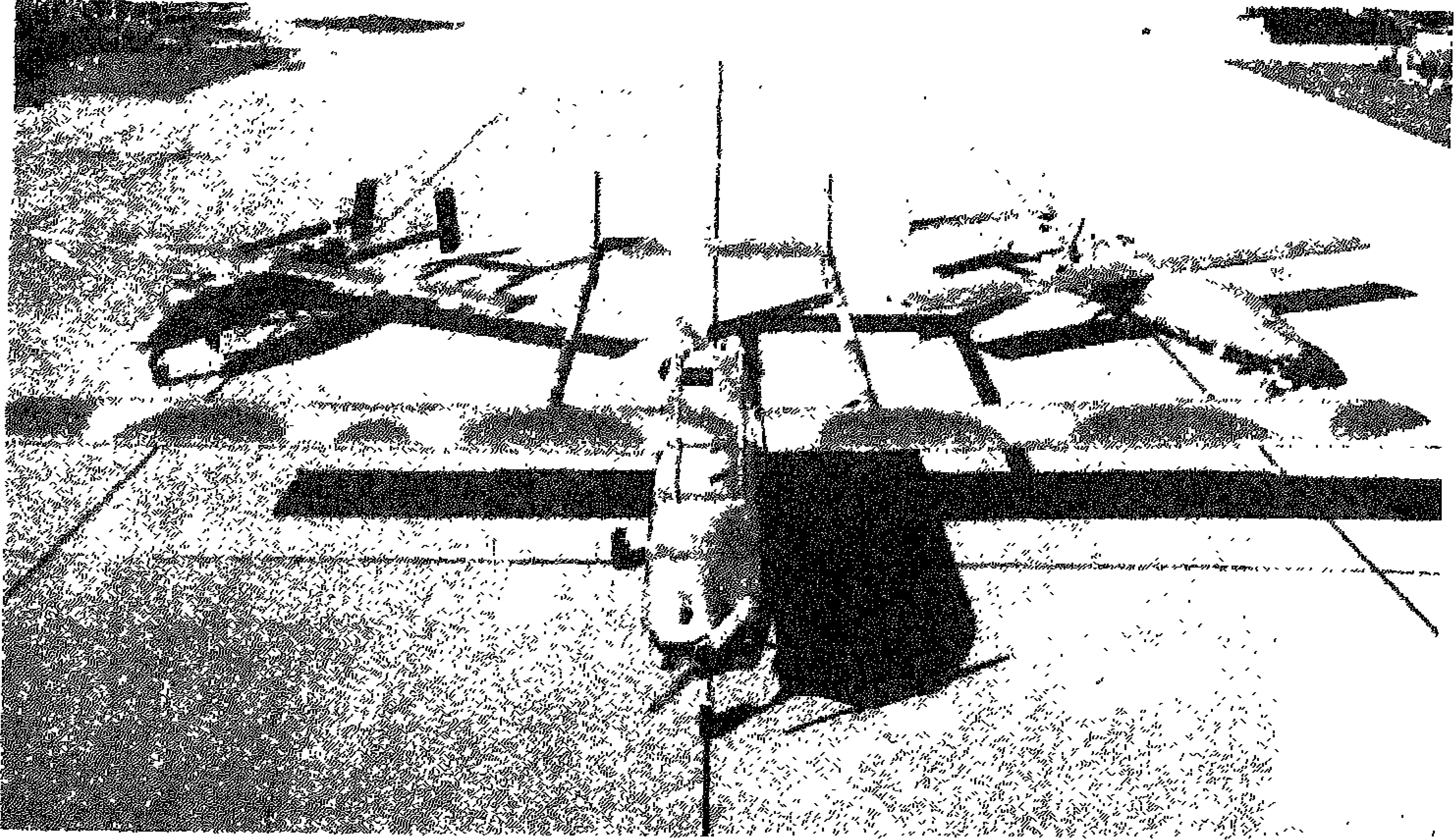
ـ طائرة (فينكس) للتجسس والرصد الجوي



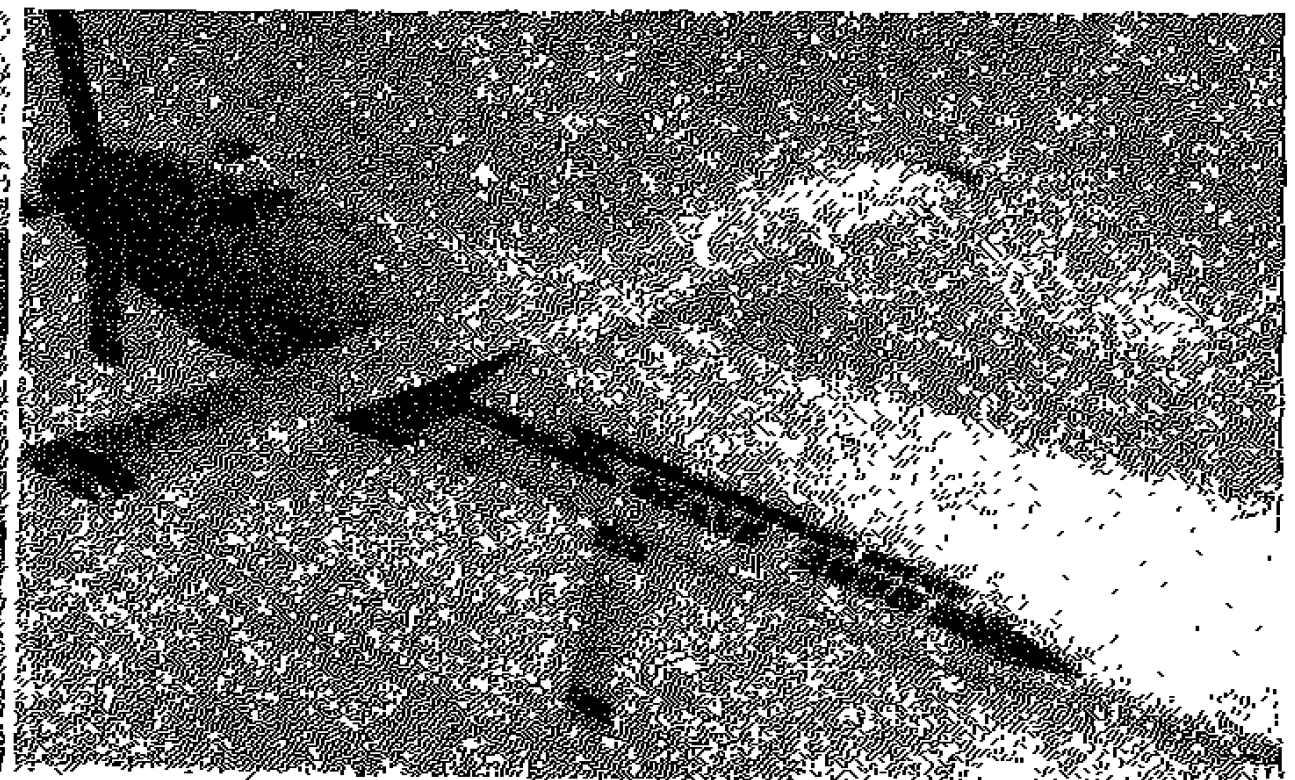
طائرة استطلاع للتجسس مسيّرة عن بعد..



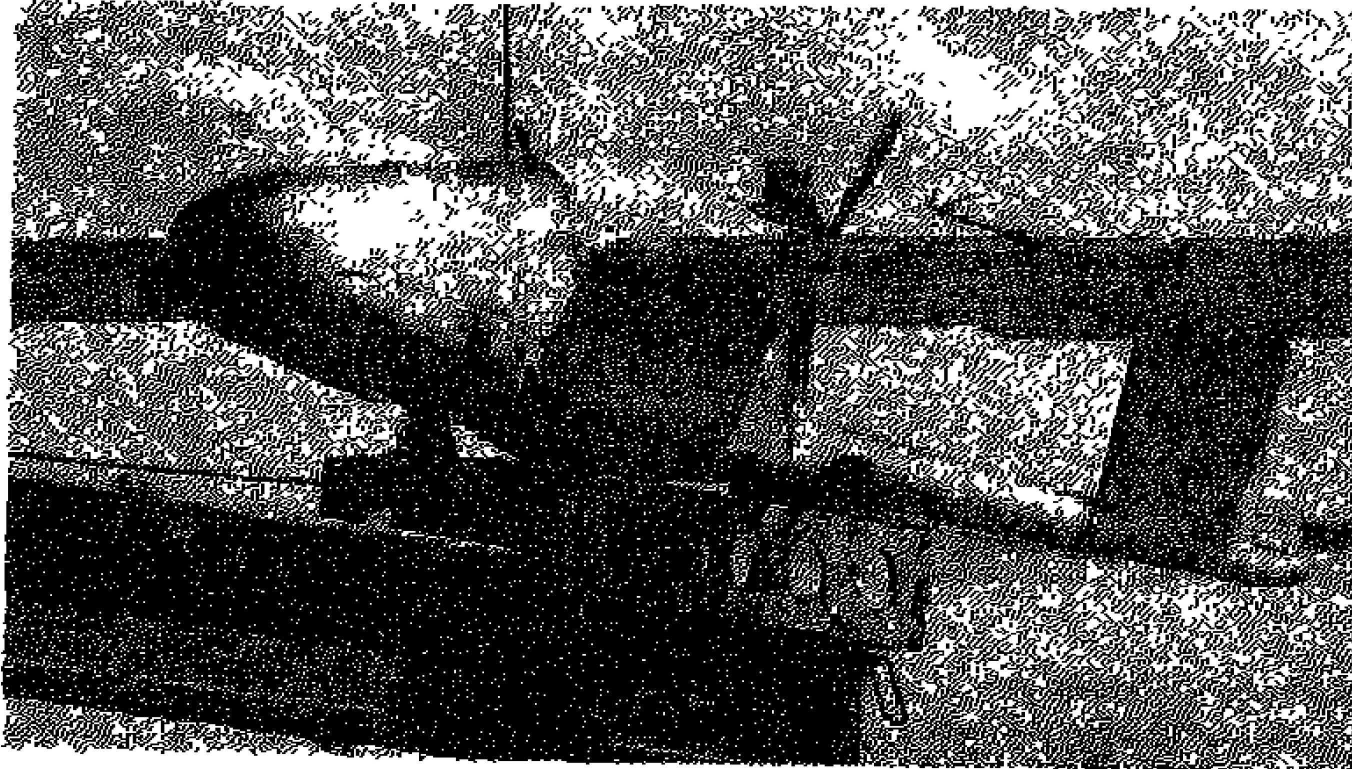
طائرة التجسس (فينكس) لدى إطلاقها من المنصة السيارة



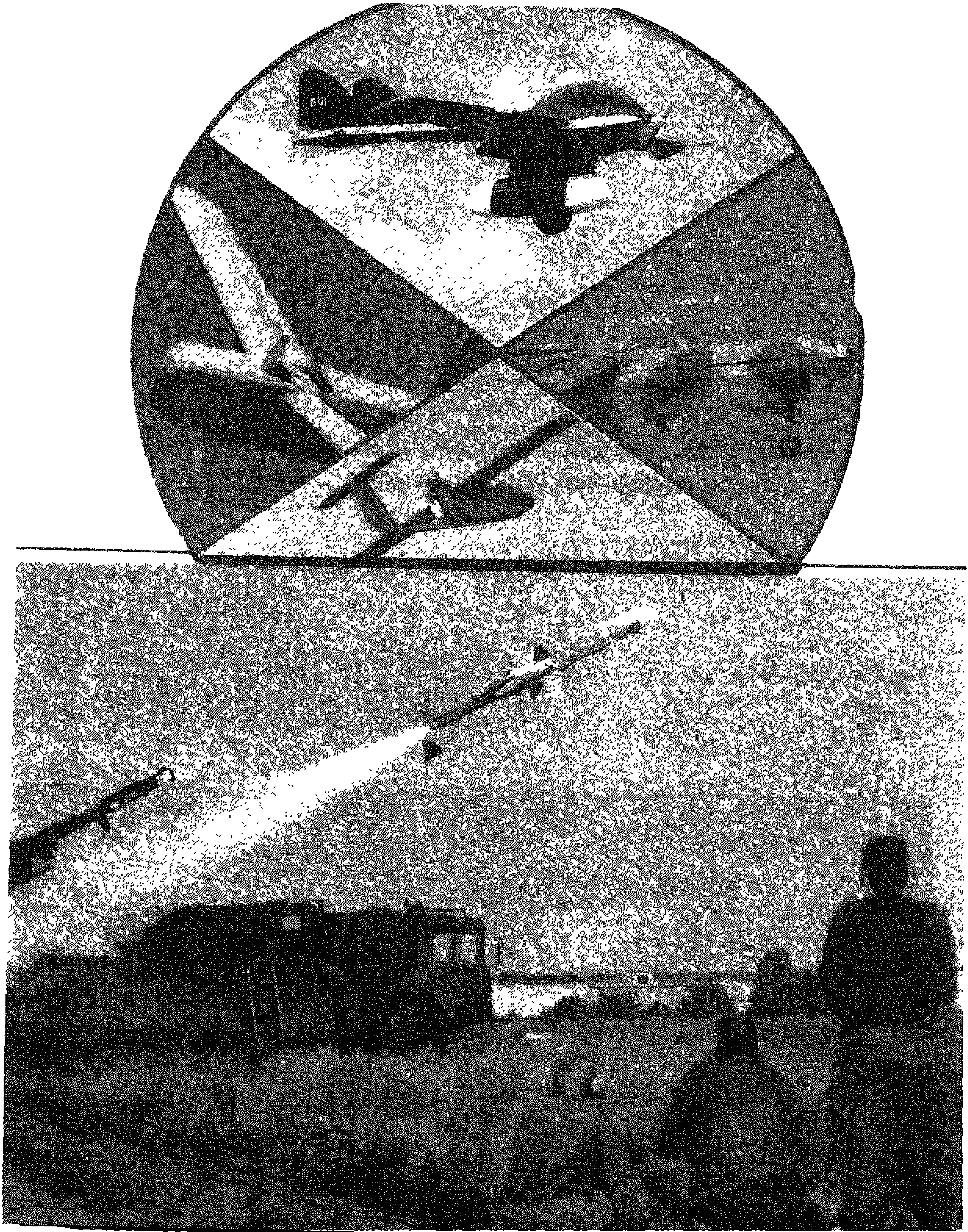
(اعرف عدوك) طائرة تجسس اسرائيلية ثلاثة انواع (بايونير)



طائرة تجسس / برايف ٣٠٠٠
صنع شركة بوينغ



طائرة تجسس ليلي نهاري



لحظة إطلاق نظام الاستكشاف الجوي التجسسي (GL-289)
في قاعدة مبتن في ألمانيا

الفصل الثالث والعشرون

عميل مخابرات مهدد بالقتل

* (من هو العميل عدنان عوض الفلسطيني الذي أصبحت تتناقل أخباره الصحف وتبحث عنه أكثر من مخابرات).

ـ ولد المدعو (عدنان عوض عام ١٩٤٢ في قرية أجزم من ضواحي مدينة حيفا في فلسطين وانتقل مع عائلته إلى دمشق صغيراً وحين كبر في العمر انتسب إلى ثانوية الوحدة التي يدرس فيها أغلب أبناء الفلسطينيين وفي عام ١٩٦٥ انتسب إلى منظمة التحرير الفلسطينية بعد عام من تأسيسها ثمّ تحول إلى جيش التحرير الفلسطيني لأداء الخدمة العسكرية وبعد انتهاء فترة التدريب العسكري انخرط في العمل الفدائي وتدرب على مقاتلة إسرائيل بالطرق الفدائية المعروفة.

بعد عشر سنوات من العمل في الفدائيين في لبنان عاد إلى دمشق وحصل على جواز سفر سوري خاص للفلسطينيين وهاجر إلى أبو ظبي للعمل ولكنه عوضاً عن العمل العادي الشريف عمد إلى تهريب الخمور (الممنوعة في جميع دول الخليج) وجعل شقته في شارع جمال عبد الناصر مركزاً لعملية التهريب، وبعد انكشاف أمره في أبو ظبي بعد أن فاحت رائحة الجوني ووكر والوايت ليبل حوّل هجرته إلى العراق بعد أن جمع ثروته من المصارف وحولها إلى ذهب رنان بلغ وزنه ٣٦ كيلوغراماً وضعها بشكل خفي وبقلب جامد داخل سيارته وعبر بها حدود ٤ دول حتى العراق.

في العراق باع الذهب الذي جمع ثمنه من التهريب في أبو ظبي ووضع القيمة في مصرف الرافدين وأخذ يعمل بالتجارة والمقاولات بقوة وبرأسمال قوي.

سنة ١٩٨٠ عندما بدأت الحرب بين العراق وإيران كان عوض يعمل في المقاولات وتعاون مع شركة يابانية لإعادة بناء ما دمرته الحرب فزادت ثورته (بنى مخبأ سرياً للرئيس العراقي صدام حسين عند بحيرة الحبانية غرب بغداد).

خلال تلك السنوات كان عوض قد عرف محمد رشيد (الفدائي الفلسطيني الذي كان ضابطاً في قوات أبو إبراهيم ومسؤولاً عن العمليات الخارجية) وعرف فاطمة زوجة رشيد (المخابرات المركزية اكتشفت في وقت لاحق أن الاسم الحقيقي لفاطمة هو كريستين بنتار المولودة في النمسا وأن عدداً من الفدائيين الفلسطينيين يتعمد الزواج من أوروبيات لتقليل شكوك المخابرات الأوروبية فيهم).

ثمّ عرف عدنان عوض أبو إبراهيم نفسه وبعد أن وثق فيه كلفه بمهمة فدائية في أوروبا: نسف فندق في سويسرا، كان ذلك في شهر أغسطس (آب) ١٩٨٢ وخلال هذا الشهر كلف أبو إبراهيم محمد رشيد بنسف طائرة أمريكية.

نسف محمد رشيد الطائرة الأمريكية وهي تهبط في مطار هونولولو في جزر هاواي (قادمة من طوكيو) لكن الانفجار لم يكن كبيراً، وقتل طفلاً يابانياً وجرح ٢٧ أخرين واعتقل محمد رشيد في وقت لاحق في أثينا (حوكم في السنة الماضية في أثينا وشهد عوض ضدّه).

أما عوض فلم ينسف الفندق بل سلم نفسه إلى السفارة الأمريكية.

كان عوض حسب خطة أبو إبراهيم، غادر بغداد يوم ٨ أغسطس (آب) ١٩٨٢ إلى بودابست حيث قضى أسبوعاً، ثمّ إلى زيوريخ في سويسرا ومنها بتاكسي إلى جنيف حيث قصد فندق هيلتون على بحيرة جنيف، ولم يكتشف أحد القنبلة.

وكان أبو إبراهيم قد شرح له كل شيء عن الفندق (كان عملاء له ذهبوا إلى جنيف، وصوروا الفندق من الداخل والخارج) وأمره أبو إبراهيم أن يحجز غرفة في أحد الطوابق الوسطى، حتى عندما تنفجر القنبلة يسقط المبنى مثل حائط من الرمل.

كانت القنبلة معه في الغرفة عندما بدأ يفكر في الانسحاب من المهمة. وكان يمكن أن يعود إلى بغداد، ويعتذر لأبو إبراهيم، أو يشرح له خوفه، أو أي عذر آخر كان يعرف أن مصيره سيكون القتل.

وقرر أن يذهب إلى السفارة الأمريكية، فقالوا له إنها ليست في جنيف، إنما في برن، فذهب إلى برن، قال إنه يريد أن يقابل مسؤولاً لأمر مهم، وبعد شكوك، واحتياطات، وتفتيش، أدخلوه ليقابل أول أمريكي في حياته.

قال له: عندي قنبلة، ومهمتي أن أفجر فندق هيلتون جنيف. طلبوا منه تفاصيل أكثر، ومعلومات عن نفسه، وعن مكان القنبلة. وانتظر عوض في السفارة لأكثر من ساعة، عاد بعدها المسؤول وقال له إن الشرطة السويسرية وجدت القنبلة، شكره لكن قال له إن هذه ليست أمريكا إنما سويسرا وأن الشرطة السويسرية ستتولى التحقيق معه، ومساعدته.

جاءت الشرطة السويسرية إلى السفارة وأخذته، وقال له الكابتن ميشيل: «أنت الآن ضيفنا فماذا تريد؟ أجاب: «ألا تنشروا اسمي أو صورتي في الصحف» وأعطاه السويسريون سيارة «بي أم دبليو» و٢٥٠٠ دولار كل شهر وجواز سفر سويسرياً.

المخابرات الإسرائيلية تدخل على الخط.

اعترافات عوض في سويسرا كانت كنزاً للمخابرات السويسرية والمخابرات الأمريكية والموساد. الموساد تفوقت على المخابرات الأخرى بأن أحضرت عملاء يتكلمون اللغة العربية، وحصل هؤلاء على معلومات أكثر من عوض.

ثمّ عرضت الموساد على عوض أن يكون عميلاً مزدوجاً: تنقله من سويسرا إلى باريس وتنفق عليه ليصبح مثل ثري عربي تزيد ثروته عن ٥ ملايين دولار فيوثق علاقاته بالمنظمات الفلسطينية والحكومات العربية، ويدعي أن عنده معلومات عن المخابرات الإسرائيلية يقدمها لهم.

كما عرضت الموساد أن تفجر قنبلة مزورة عند فندق هيلتون في سويسرا وتلتقط لها صوراً تلفزيونية وتوزعها على شبكات التلفزيون ليعتقد أبو إبراهيم أن عوض نفذ مهمته.

وكانت تلك أول مرة يقابل فيها عوض عملاء من الموساد. لكنه لم يستطع التعاون معهم، قال: «كنت أعرف أنهم سيقتلون أي فلسطيني أقدم اسمه لهم، وكان صعباً علي أن أفعل ذلك ضدّ الفلسطينيين».

قضى عوض سنتين في سويسرا، وأصبح اسمه «ماريو روساتي» كان واضحاً أن اسمه إيطالي، وبدأ السويسريون يشكون فيه ويسألونه: لماذا لا تتكلم الإيطالية، ولماذا لا تشبه الإيطاليين فاخترعت المخابرات السويسرية قصة أن جد عوض إيطالي

هاجر إلى لبنان في القرن التاسع عشر وأن والدته لبنانية، فهو إيطالي مولود في لبنان.

لكن عوض وجد صعوبة بالغة في أن يتذكر هذه القصة. كما وجد السويسريون صعوبة في تصديقها.

موافقة السلطات الأميركية على لجوئه إلى أميركا

بعد سنتين من إقامته في سويسرا جاءت موافقة المخابرات الأمريكية على هجرته إلى الولايات المتحدة.

استلمت المخابرات السويسرية منه المنزل والسيارة وساعدته على الانتقال إلى المطار ليستقل طائرة بان أميركان الأميريكية إلى نيويورك حيث كان ضابط منتدب بانتظاره نقله إلى دار الضيافة التابع للمخابرات الأميريكية (لمثل هذه الحالات) وبقي فيها شهراً ثم نقل إلى واشنطون لإجراء بعض التحقيق معه ولمدة شهر أيضاً نقل بعدها إلى ميامي.

وصل عوض إلى ميامي قادماً من واشنطن يوم ٢٢/ ١١/ ١٩٨٤، وفي ميامي تصادمت أحلامه عن أمريكا بصخرة الواقع. التجربة في البداية كانت مثيرة لكنها تحولت إلى كابوس والسبب الأول كان أن عليه أن يغير اسمه، كان عدنان عوض ثم أصبح محمد جاسم خلف، ثم ماريو روساتي، ثم محمد العاطي وفي ميامي كان عليه أن يغيّر أسمه مرة أخرى، فاختار اسم «سامي شريف» لأن الأمريكيين يحبون المصريين، واسم سامي شريف يبدو مصرياً جداً. كما كان يأمل أن تكون للاسم صلة في أذهان الأمريكيين اسم الممثل عمر الشريف.

أحب عوض شواطئ ميامي خاصة بعد الفترة التي قضاها في مرتفعات جبال الألب في سويسرا أخذته إليها لأول مرة شرطية فدرالية وبعد جولة أخذته إلى مطعم للغداء، وكان التفاهم بينهما صعباً جداً فهي لا تعرف العربية وهو لا يجيد الإنجليزية. في المطعم طلبت ساندوتشاً أمريكيا لم يأكله من قبل ثمّ أصرت على دفع الفاتورة، وهذا أغضبه جداً. وقال لها إن المرأة الشرقية لا تدفع عن الرجل، كما أن الرجل لا تحرسه امرأة تحمل مسدساً.

نزل في فندق «إيفركليد» وكان الطعام مشكلة بالنسبة له. لم يجد مكاناً يبيع

الحمص والفول، وكان لا يطيق الهامبرغر الأمريكي ولا يصدق أن الناس يأكلون «كلاباً ساخنة» (هوت دوكز) كما كادت الوحدة تقتله. وفي ليلة رأس السنة كان كل واحد يحتفل أو يستعد للاحتفال ولم يدر ماذا يفعل، فعاد إلى غرفته في الفندق وقال: «لم أبك يوم توفيت والدتي، لكني بكيت هذه الليلة». وبدأ البحث عن عمل. كان مهندساً ناجحاً في بغداد، وكانت ثروته بالملايين لكنه لا يعرف اللغة الانجليزية ولا يملك شهادة أكاديمية.

تنقّله ومحاولة الزواج

ثم قابل ميلي التي كانت تعمل في قنصلية كوستاريكا في ميامي، وفي وقت فراغها تدير مكتباً للسياحة. أهم زبون عندها كان رئيس جمهورية كوستاريكا وزوجته، قابلهما عدة مرات عن طريق ميلي.

وتطورت علاقته مع ميلي وفكر أن يتزوجها ويسافر إلى كوستاريكا لكن ذلك كان صعباً عليه لأنه لا يملك جواز سفر، قالت له ميلي إنها قادرة على أن ترتب إجراءات حصوله على جواز سفر من كوستاريكا بحكم علاقتها مع رئيس الجمهورية وزوجته.

لكنه كان لا بد أن يغادر ميامي فجأة إلى مدينة أخرى باردة في الشمال هي نيويورك، مرة أخرى تغير اسمه وأصبح جو يقول جو: أحسست ببعض الراحة لوجود جالية عربية. فعدت أتكلم العربية مع كثير من الناس «وآكل الفلافل والحمص والبابا غنوج» وقابل امرأة عربية كانت تعيش في أمريكا لأكثر من ٢٠ سنة وتملك شركة صغيرة وناجحة. لم يحك لها قصته الحقيقية ولا قال لها اسمه الحقيقي لكن علاقتهما ظلت طيبة لأنه وجد أخيراً من يشاركه أحاسيسه باللغة العربية (كان كشف اسمه الحقيقي، وقصته الحقيقية لفتاة كوستاريكا في ميامي لكنها لم تهتم).

لكن كان عليه أن ينتقل إلى مدينة أخرى، ويغير اسمه مرة أخرى، بعيداً عن الأجواء العربية والأصدقاء العرب وبعيداً عن المشاكل العربية، يقول:

«فكرت في الانتحار، وتصورت أن حادث سيارة ربما سيكون أسهل طريقة

لهذا كنت أتعمد قيادة السيارة بسرعة جنونية حتى أصطدم بأي شيء وأموت. أحسست أن أمريكا ستقتلني متى استنزفت مني ما تريد. فرأيت أن أقتل نفسي».

الطامة الكبرى وقعت سنة ١٩٩٠ يوم اتصل به صحفي من مجلة «تايم» وسأله بعض الأسئلة، وقال له إن اسمه الحقيقي ظهر في جريدة يونانية، كشاهد أمريكي سري ضد محمد رشيد الفلسطيني الذي اعتقل بتهمة تفجير طائرة أمريكية وقدم إلى المحاكمة في أثينا.

وقال له الصحفي إن الجريدة اليونانية قالت إنه يعيش في أمريكا منذ ١٩٨٤ ولم يكن هذا الأمر قد نشر من قبل في أي مكان.

ثمّ عرف في ما بعد أن صحفاً عربية نشرت الاسم، وعندما اتصل بشقيقه جمال في بغداد قال له: «اسمك ظهر في جريدة عراقية، وكل شيء بات معروفاً».

فخلال السنوات الست التي قضاها في أمريكا كان يتصل تلفونياً من وقت لآخر مع شقيقه جمال ومع شقيقته وأقارب آخرين في العراق. لكنه كان حذراً جداً.

كان يعرف أن السلطات العراقية لا تعرف أين هو حتى أنه لم يعط شقيقه معلومات محددة عن مكانه خوفاً من الرقابة الهاتفية في بغداد.

لكن كل ذلك كان صعباً عليه، فقد كان دائماً صريحاً مع جمال فهو شقيقه وصديقه، كانا يتحدثان ساعات وساعات عن السيارات الجديدة والفتيات الجميلات والبدلات الأنيقة.

وقد زاد خوفه على جمال والباقين عندما أصبح واضحاً أن الاتصالات التلفونية قد تسبب لهم مشاكل أكثر. ويوم قال له جمال أنه لا بد من إنهاء المكالمة التلفونية وقال «الله معاك» وضع سماعة التلفون وجلس على كرسي في المطبخ وحدق عبر النافذة إلى الخارج وبدأ يبكي.

يقول: «سنوات كثيرة مرت منذ أن شاهدت والدي. كان في دمشق ورأيت أن أتصل به تلفونياً، ولم يتوقف والدي عن البكاء، قال إنه سعيد جداً لسماع صوتي. وقال لي: إن شقيقتي تزوجت ورزقت طفلاً.

نسي العميل أهله

وفي ما بعد وصله خطاب من شقيقته. قالت له إنها تزوجت ورزقت طفلاً لكنه لم يصدق، يذكر جيداً آخر لقاء بينهما فيما كان عمرها ١٠ سنوات، بنت يافعة في المدرسة وكان ذلك قبل ١٢ سنة، والآن هي امرأة وأم، خطابها كان عنوانه «إلى الذي نسي شقيقته».

ثمّ جاءت أزمة الخليج.. يقول: «والآن الحرب انتهت وبغداد دمرت. لا أعرف ما حدث لشقيقي ولبقية أفراد الأسرة، لكنني أشاهد التلفزيون كل ليلة فقد ينقل صوراً من بغداد فيها واحد منهم أو أي شخص أعرفه».

كانت قد مرت ثماني سنوات على مغادرته بغداد فكر في العودة وراح يتساءل: هل سأكرر ما فعلته؟ لا أدري. ويقول: «الحياة أتعبتني، أحس وكأنني رهينة هنا أحب أمريكا وأحب فلسطين».

والده كان يقول له دائماً إنه ندم لأنه ترك فلسطين، وأن الذين بقوا باتوا أحسن حالاً، عندهم منازل يملكونها وأعمال يديرونها. أما هو فيقول: «فقدت وطني، وفقدت نفسي، من أنا؟ لا أدري».

هل كان الوضع سيختلف لو أنه سمع نصيحة والده وتزوج ابنة عمه سلمى واستقر مع بقية الأسرة في دمشق التي رحلوا إليها بعد نكبة ١٩٤٨.

ربما كان هذا مسلسل التقدم المعروف: الوالد ندم على ترك فلسطين، والابن ندم على ترك دمشق والأسرة. وربما أراد الابن أن يثأر لما حدث لوالده وله، عندما انضم إلى صفوف المقاومة الفلسطينية سنة ١٩٦٥. لكن أبا عدنان بقي في دمشق، وعندنان وجد نفسه في أمريكا «بطلاً» عند الأمريكيين، و «خائناً» عند (أحد الأجنحة الفلسطينية.

إلى أين؟

مؤلف كتاب «الإرهابي» (صحافي أمريكي اسمه ستيفن أميرسون الذي تحدث معه عوض طويلاً) لا يكشف أين يعيش عوض الآن. وعندما جاء عوض إلى

واشنطن ليشهد أمام لجنة الكونجرس كانت تحيط به السرية. ولم يشر إلى اسمه في المحضر الرسمي واستعملت بدلاً عن الاسم إشاة «اكس» (مجهول).

لكن مؤلف الكتاب يقول: إن عوض يعيش مع أمريكية شقراء في منتصف العمر، في مكان ما داخل الولايات المتحدة، وأنها هي نفسها باتت تقاسي بسبب عوض.

تقول: «كلما يخرج يبدأ قلقي: متى سيعود؟ وتضيف: «لا أخاف عليه من أعدائه فقط، بل أخاف عليه من أصدقائه، وأقصد الحكومة الأمريكية التي تحميه. كل مرة ينقلونه من مدينة إلى أخرى بلا سابق إنذار. وعندما يخرج من البيت أتصور أنهم سيتبعونه في الشارع؛ وينقلونه إلى سيارتهم ويأخذونه إلى مدينة أخرى».

السيدة الأمريكية نفسها تعترف: «هذه حياة لا تطاق، حياة مخيفة» تلك السيدة تعرف جيداً أن عوض له أعداء كثيرون وأنه خان كثيرين، وكشف الأسرار، وشهد في المحاكم ضد «رفاق النضال» ولا يزال يشهد ويساعد.

تقول: «هل يعرف أعداؤه أين هو؟ هل يتابعون تحركاته؟ هل سيقتلونه؟ متى وكيف؟

ويعيش عوض وصديقته الأمريكية وولد لها من زواج سابق في منزل هادئ فيه قفص داخله طيور الكناري، وطيور الحب من غابات الأمازون. وفي المنزل قطة وكلب أبيض أسمه «ميمي».

ويقضي عوض وقته في حديقة المنزل أو يصطاد السمك، أو يمارس هوايته المفضلة: الرسم بالألوان وقد علق بعض لوحاته على جدران المنزل. وأكثر لوحة تسترعي الانتباه: رجل يجري في منتصف الطريق بعد أن كسر قيوده رافعاً يديه عالياً منتصراً.

أمام المنزل تقف سيارة «إمباسادور» من النوع الذي يرفع غطاؤه أوتوماتيكياً. هو يملكها منذ عدة سنوات لكنه كلما انتقل من مكان إلى آخر وغير اسمه يحول ملكية السيارة إلى الاسم الجديد. يذهب إلى مكتب المرور وبمساعدة الشرطة التي تحميه، يملأ بيانات بيع السيارة من اسمه القديم إلى اسمه الجديد.

يقول عوض: «أعرف أنني أدفع الثمن. لكنني لم أقبض ثمناً. ولم أتعاون مع الأمريكيين مقابل مال أو رشوة».

ويقول: قررت بكامل قواي العقلية أن أقدم المعلومات التي أعلمها إلى الحكومة الأمريكية، لم يضغط علي أحد، أنا لست للبيع، المسألة مسألة شرف بالنسبة لي».

لكن الثمن الذي يدفعه عدنان ليس قليلاً. قال أمام لجنة الكونجرس: «أحس بأنني لا أعيش في أمريكا، رغم أنني أعيش فيها. لا أعرف القراءة والكتابة باللغة الانجليزية، ولا أحد يريدني أن أكون أمريكياً، وقال: ظللت رهينة في أمريكا منذ يوم وصولي إليها».

لكن السناتور جوزيف ليبرمان (ديموقراطي يهودي من ولاية كونتيكات) طمأنه، وقال له: أنت بطل، قدمت لنا معلومات قيّمة عن الإرهاب».

الصحف تدافع عن عوض

كتبت جريدة نيويورك تايمز «يوم ظهور عوض أمام لجنة الكونجرس تعليقاً بقلم ستيفن أمرسون جاء فيه: «الحكومة الأمريكية عاملت عوض معاملة رديئة وإذا كانت تريد إغراء المزيد من الهاربين للمجيء إلى أمريكا وإفشاء الأسرار فلا بد أن تحسن معاملتها له».

وأضافت الجريدة: «يعامل عوض وكأنه مجرم صعلوك أكثر منه شخص رفض تفجير فنادق وطائرات وقتل الأبرياء».

وهكذا وجد عوض نفسه وسط مشكلة أخرى بين الحكومة الأمريكية ومعارضيها الذين يرونها مقصرة في حماية «المتعاونين».

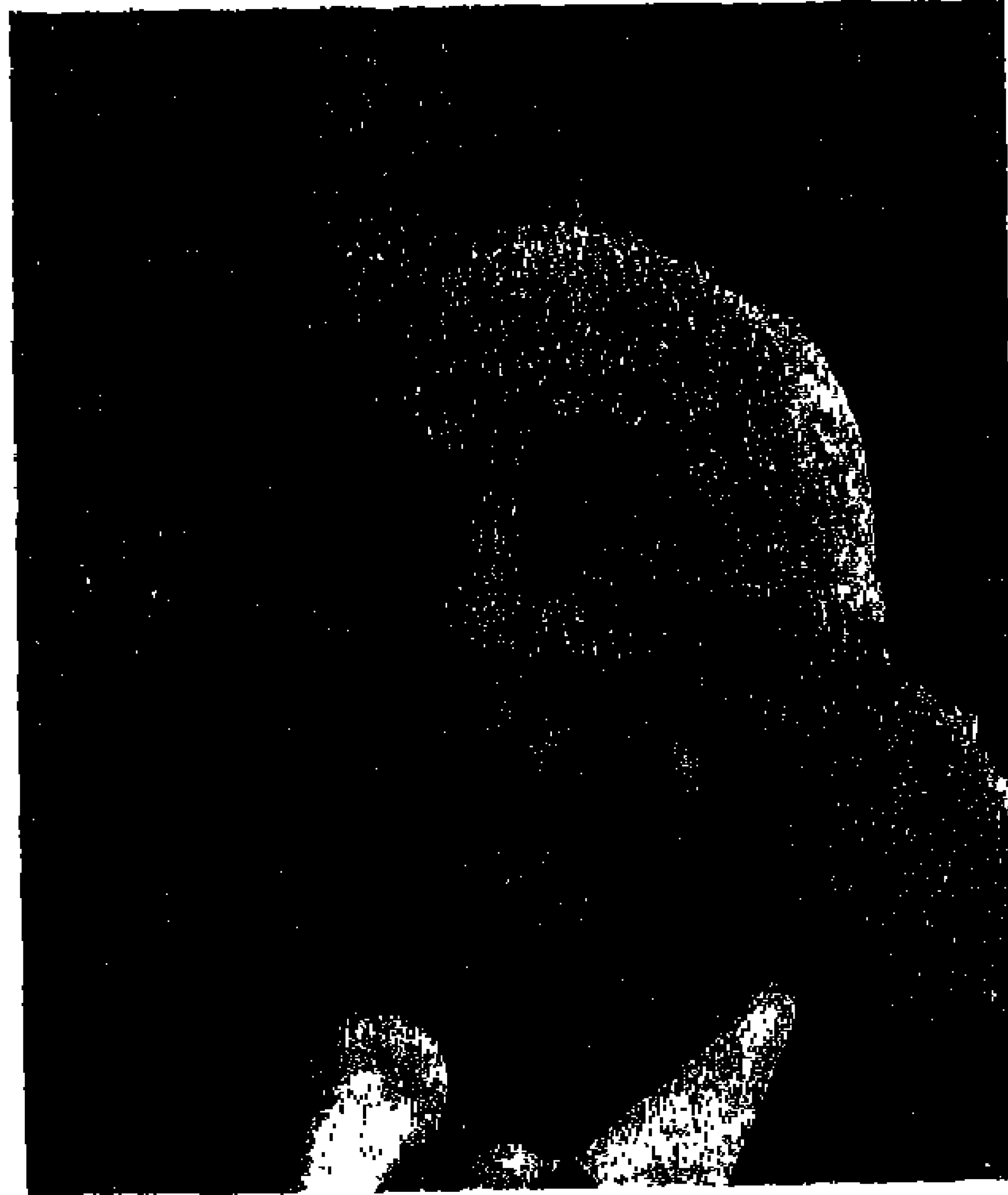
وفي جلسة الكونجرس بالإضافة إلى شهادة عوض، شهد مدير قسم مواجهة الإرهاب في مكتب التحقيق الفدرالي (أف.بي.آي) وشهدت المساعدة السابقة لوزير العدل، وكذلك المدير السابق لخدمة حماية الشهود.

وهذا البرنامج تشرف عليه الشرطة الفدرالية وكان بدأ نشاطه قبل سنوات عندما

كانت الحكومة تتعقب عصابات المافيا. كانت الشرطة تحمي الشهود الذين يقدمون معلومات تدين العصابات وتغير اسم كل شاهد، وتنقله إلى مدينة أخرى وتعطيه راتباً، وتشرف على حمايته التي قد تستمر سنة أو أكثر، حسب استمرار الخطر. وخلال السنوات الأخيرة. وبعد صدور قرار الكونجرس أباح للشرطة الأمريكية ملاحقة «الإرهابيين» خارج أمريكا، توسع قسم حماية الشهود وأصبح يشمل أشخاصاً مثل عوض.

ومنذ أن جاء عوض إلى أمريكا سنة ١٩٨٤ ظل محمياً، لكن لا أحد يعرف كم سنة ستستمر الحماية، وهذه إحدى مشاكله ومشاكل قسم حماية الشهود كذلك. فماذا لو أعطي الشخص إقامة دائمة (الكرت الأخضر)؟ أو أعطي الجنسية الأمريكية والجواز الأمريكي؟ وماذا لو هرب.

وعوض ليس العربي الوحيد الذي لجأ إلى أمريكا، ووزارة العدل الأمريكية التي أدانت المواطنين الليبيين (عبد الباسط المقراحي والأمين فحيمة) اعتمدت على شهادة ليبي لجأ إلى أمريكا، ولا يعرف أين هو الآن، لكنه دون شك تحت حماية الشرطة غيّر اسمه ومكان إقامته أكثر من مرة.



عدنان عوض يتكلم أمام الكونغرس

مكتب التحقيقات الفدرالي (أف.بي.آي) قال إن قرابة ١٠ أجانب لجأوا إلى أمريكا مؤخراً، وقدموا معلومات ساعدت على تحاشي الكثير من الانفجارات، وخطف الطائرات، وهؤلاء يصرف عليهم من اعتماد مالي خاص قيمته ٤ملايين دولار (جزء منه تبرعات من شركات الطيران والآخر من وزارة العدل).

وعدنان عوض خائف من العلاقات المستقبلية بين الولايات المتحدة والعراق. فحتى غزو العراق للكويت كانت إدارة الرئيس جورج بوش تحسن علاقتها مع العراق. وعندما قال عوض للشرطة التي تحميه أنه يعرف أسراراً كثيرة عن نظام صدام حسين، لم يستمع إليه أحد. لكنه بعد الغزو وحرب الخليج أصبح عوض مصدر معلومات مهمة. فماذا لو عادت العلاقات الأمريكية العراقية إلى ما كانت عليه قبل حرب الخليج؟

الكونغرس يحقق مع عدنان عوض

استدعي عدنان عوض إلى مكاتب الكونغرس للإدلاء بشهادته أمام السناتور وليام كوهين (كوهين اسم أو لقب يهودي) والسناتور جوزف ليبرمان وهما أعضاء لجنة شكلت خصيصاً، ونحن نقدم الترجمة الأصلية للشهادة التي بدأها السناتور جوزف ليبرمان كما يلي:

* هل حذرك أحد عندما جئت إلى الولايات المتحدة؟

ـ عوض: كنت في سويسرا، وقابلني أمريكيون قالوا إنهم يحققون في انفجارات وقنابل. عرضوا علي صوراً وأوراقاً وقعت عليها. لم أفهم كل ما وقعت عليه. على أي حال، عرضوا علي الحضور إلى أمريكا.

* ليبرمان: هل حذروك؟

ـ عوض: قالوا أنت صاحب القرار. لا تأت معنا إذا كنت لا تريد، قلت لهم أحب أمريكا جداً، وأريد الذهاب معكم.

* ليبرمان: احك لنا، عن أول يوم لك في الولايات المتحدة؟

ـ عوض: أخذوني إلى فندق جميل في نيويورك ومنه إلى طبيب أجري لي

فحوصات.. لكنني بدأت أحس بأنني تحت الحراسة وأن الشرطة السرية ترافقني في كل لحظة. أخذوا جوازي السويسري وأوراقي الخاصة، ومفكرة أرقام التلفونات، والصور الشخصية، وقالوا إن اسمك سيكون كذا وسنحميك لمدة سنتين، وبعد ذلك ينتهي كل شيء.

* ليبرمان: كيف كنت تصرف على نفسك.

- عوض: كانوا يعطونني حوالي ١٢٠٠ دولار كل شهر نقداً، أدفع منها إيجار الشقة، أو فاتورة الفندق والأكل.

* كوهين: قل لنا عن تجربتك في ميامي؟

- عوض: في العراق كنت مليونيراً. كانت عندي ٤ سيارات. لكني وجدت نفسي في ميامي بلا سيارة، أمشي في الشارع فينظر الناس إليّ في شك، بسبب لغتي، ولوني، ولأنني عاطل بلا عمل كان الناس يعتقدون أنني حرامي، أو تاجر مخدرات. ولم يثق بي أحد.

* كوهين: عندما أحضروك إلى واشنطن هل قدمت معلومات عن الإرهابي محمد رشيد؟

- عوض: جاءوا وقالوا لي: قبضنا على محمد رشيد، وسنقدمه إلى المحاكمة، ونريد أن ترافقنا إلى واشنطن لتشهد ضدّه، وسألوني: هل ستشهد ضدّه؟ قلت: بالتأكيد، لأني ضد الإرهاب وقتل الأبرياء.

* كوهين: هل قدمت معلومات عن جماعة «١٥ مايو»؟

- عوض: كل شيء سألوني عنه كنت أجيب عنه بقدر ما أعرف. كانوا يعرضون علي صور ناس ومبان ويسألونني، وكنت أساعدهم.

* كوهين: أيّ جواز كان عندك عندما جئت إلى الولايات المتحدة؟

- عوض: جواز سويسري.

* كوهين: وفي العراق؟

ـ عوض: جوازات مختلفة، وأسماء مختلفة، كلها كانت عن طريق أبو إبراهيم.

* ليبرمان: هل كان المحققون الأمريكيون يسألونك عن صدام حسين، ودعمه للإرهاب؟

ـ عوض: ليس في ذلك الوقت. هذا قبل أزمة الخليج، كانوا يعرفون حقيقة صدام، لكنهم لم يكونوا يريدون إحراجه، لأنه كان يحارب إيران.

* ليبرمان: هل أنت صادق في أن حكومتنا كانت تعرف حقيقة صدام؟

ـ عوض: أكثر من ذلك يا سيدي. الحكومة الأمريكية كانت تعطي صدام السلاح والتكنولوجيا.

* كوهين: متى غيّرت رأيك في المسؤولين الأمريكيين؟

ـ عوض: سنة ١٩٨٦، عندما فشلت في الحصول منهم على جواز أمريكي، أو أي أوراق أمريكية. كل مرة كنت أطلب منهم ذلك، ربما طلبت ذلك من أكثر من ٤٠٠ شخص. كلهم كانوا ودودين، ويبتسمون ويقولون إنهم سيساعدونني لكن بلا نتيجة.

* كوهين: لماذا تريد جواز سفر أمريكياً؟

ـ عوض: لأذهب إلى بلد عربي أعمل فيه، وأعود إى أمريكا متى أريد.

* كوهين: لو سألتك «ماذا تريد الآن؟ ماذا تقول:

ـ عوض: أريد نفسي، أريد عدنان عوض.

* كوهين: لا أفهم ماذا تقصد؟

ـ عوض: يا سيدي. أصبح لي حتى الآن أكثر من ١٠٠ اسم، كل مرة يغيرون اسمي. نسيت توقيع عدنان عوض. ولا أذكر كل مرة اسمي الجديد لأوقّع به على الأوراق. ولا أحد يثق بي: أقابل شخصاً في واشنطن وأقول له: اسمي «جو» ثم أقابل آخر في ميامي وأقول له اسمي: «لورنس» الناس باتوا يعتقدون بأني تاجر مخدرات.

* كوهين: تقول إنك تشعر أنك مثل رهينة هنا؟

- عوض: ليس مثل الرهينة يا سيدي. أنا رهينة فعلاً.

* ليبرمان: متى اكتشف الناس سرك أول مرة؟

- عوض: في أثينا، عندما أخذوني من أمريكا لأشهد ضد محمد رشيد الذي حاكمته محكمة يونانية وفجأة نشر اسمي الحقيقي في الصحف اليونانية وغيرها، خاصة العربية.

* ليبرمان: هل تحسّ بالأمان الآن؟

- عوض: لا أخاف من الموت. إذا جاء وقت الموت فلا مفرّ منه. لكنني أخاف على أسرتي. فمنظمة أبو إبراهيم هددت أسرتي، وحكومة العراق هددتها كذلك.

* ليبرمان: نحن نعتبرك بطلاً هنا.

- عوض: يا سيدي أنتم تقولون إنني بطل وهناك يقولون إنني «خائن» وأنا لا أعرف من أنا. لا شيء عندي. لا اسم لي ولا أوراق. كيف أكون بطلاً بلا أوراق؟ حتى الكلب توجد على رقبته قطعة من الحديد فيها اسمه ورقم تسجيله.

* كوهين أكرر سؤال السناتور ليبرمان: هل تحسّ بالأمان وأنت في الولايات المتحدة؟

- عوض: لا. أحمل معي مسدساً، وأضعه تحت الوسادة عند النوم. صحيح هناك شرطة سرية تحميني. لكنهم لا يستطيعون حمايتي كل دقيقة وكل ثانية. اسمي كشف في الصحف العربية. واليوم نشروا صورتي في جريدة «نيويورك تايمز» وإذا لا بد من الموت فأريد أن أموت واسمي عدنان عوض. نقلوني ألف مرة من مدينة إلى أخرى. إذا مت سيقولون إن «فلان» مات، ولن يعرف أحداً أن عدنان عوض هو الذي مات؟

* كوهين: هل حاولت الشرطة مواساتك وعرفوك بعرب في الولايات المتحدة يتكلمون العربية، وتنسجم معهم؟

- عوض: مرة أو مرتين قابلت عرباً وانسجمنا لكن الشرطة تريد حمايتي، ولهذا يأخذونني منهم وينقلونني إلى مدينة أخرى. أعرف أن واجبهم هو حمايتي، وأعرف لماذا يأخذونني بعيداً عن العرب.

* كوهين: هل تضايقك حماية الشرطة لك؟

- عوض: مرة كنت في رحلة في سفينة، وكنت أعرف أن الشرطة تحميني، لكني عندما دخلت الحمام دخلوا ورائي ولاحظ الناس ذلك، وشكوا بي، لم تعد لي حياة خاصة.

* ليبرمان: ماذا لو كانوا أعطوك جوازاً أمريكياً قبل ٥ سنوات؟

- عوض: كنت سافرت.

* ليبرمان: وبلا جواز، ماذا تريد؟

- عوض: قلت لهم إذا تعذر إعطائي جواز سفر فاعطوا اخواني واخواتي تأشيرات دخول إلى أمريكا ليزوروني، سنوات كثيرة مضت، تزوجوا، وولدوا، وماتوا، وأنا هنا في الغربة.

* كوهين: بالإضافة إلى المعلومات عن محمد رشيد، ماذا أعطيت الشرطة؟

- عوض: أعطيتهم معلومات عن انفجار الطائرة الفرنسية فوق تشاد، وكان فيها السفير الأمريكي.

* كوهين: هل أنت مستعد للمساعدة في هذا الموضوع؟

- عوض: مستعد لكل شيء، ليس من أجل المال والدولارات، ولكن من أجل أمريكا. أنا أحب أمريكا كثيراً. ولا أريد من أمريكا أكثر من أن تعاملني كإنسان.

* كوهين: وهل أعطيت معلومات عن صدام حسين؟

- عوض: كما قلت قبل حرب الخليج لم يكن أحد يريد أسراراً عن صدام. لكن عندما بدأت الحرب، وبدأوا يبحثون عن صدام، جاء عدد من مندوبي المخابرات المركزية (سي.آي.إيه) ومكتب التحقيق الفدرالي (أف. بي.آي)

وسألوني عن مخبأ صدام تحت الأرض. قلت لهم: أنا اشتركت في بناء المخبأ مع مهندس ياباني. الصحفي ستيفن أمرسون يعرفه وساعد في معرفة مكان المهندس الياباني واتصلوا به.

* ليبرمان: السناتور كوهين سألك السؤال، وأنا أسألك مرة أخرى؟ ماذا تريد الآن.

- عوض: أريد هويتي، وأريد نفسي، اعطوني عدنان عوض، ثم اعطوا عدنان عوض حريته كنت أحب أمريكا منذ أن كنت صغيراً، لكني جئت فوجدتها مثل إعلانات التلفزيون: بهرجة بلا شيء ملموس.

* ليبرمان: اطمئن: نحن نراك بطلاً هنا في الولايات المتحدة الأمريكية وسنعمل على مساعدتك.

وبعد هذه المقابلة والشهادة في الكونغرس الأميركي عاد عدنان عوض للاختفاء ليظهر باسم جديد أو قد لا يظهر مطلقاً.

الفصل الرابع والعشرون

الاستطلاع والتجسس من الجو منذ عهد المنطاد إلى طائرات وأقمار التجسس

* هناك نوعان من المخابرات: المخابرات التكتيكية والمخابرات الاستراتيجية، والفارق الأساسي بين النوعين هو أن المخابرات التكتيكية تهتم بصورة أساسية بالأحداث التي تحصل على أرض المعركة أو بالنشاطات المباشرة للعدو التي تسبق المعركة (أماكن تمركز القوى وتحركاتها. .) بينما تهتم المخابرات الاستراتيجية بالعوامل الطويلة الأمد (المحاصيل الزراعية، الإنتاج الصناعي، تجارب الأسلحة. . .) ومع ذلك فإن تعبير «الاستطلاع» ينطبق على المخابرات التكتيكية والاستراتيجية معاً. يعتبر الاستطلاع التكتيكي تحليقاً في الجو وإلقاء نظرة على ما ينوي العدو القيام به ثم العودة. عندما بدأ التجسس من فوق استخدم للاستطلاع فوق أرض المعركة فقط.

سبق طائرة التجسس والأقمار الاصطناعية منذ القدم (منطاد الهواء الساخن) وهو الذي اخترعه في القرن الثامن عشر مونتغولفيه في فرنسا. وفي أواسط القرن التاسع عشر بدأ الاستطلاع الجوي وكان غاسبارد فيلكس تورشون أحد أكثر المدافعين عن الاستخدام العسكري للمنطاد، وهو فرنسي، وكان أول من التقط صورة من المنطاد عام ١٨٥٨. وتعتبر تلك الصورة ورقة أثرية في تاريخ التجسس الجوي. قال تورشون: «كان لبرج الكنيسة حيث كان ضباط الأركان يعطون ملاحظاتهم أهمية استراتيجية للقيادة العامة. . . وأنا عندي برج كهذا في أية نقطة. . . وشكراً للكاميرا لأنها أوصلتني إلى وضع يمكنني فيه أن أرسل إلى القيادة العامة أكثر المعلومات صدقاً كل ١٥ دقيقة. (هذا الادعاء يعادل أكثر برامج المراقبة تقدماً).

في الحرب الأهلية الأميريكية بدأ أول استغلال عسكري للمنطاد الطائر وبرز

في هذا المجال جون وايز وجون لومونتان وتادوس لو الذين عملوا في صفوف الاتحاديين. صنع وايز أول منطاد حربي من الحرير وصممه خصيصاً لأرض المعركة وجهزه بطبقة معدنية في قعر السلة للحماية من النيران الأرضية. كان منطاد وايز مثل مناطيد تلك الأيام مربوطاً إلى حبل، وكان يسمح للمنطاد أن يرتفع، ولكنه يلجم بواسطة الحبل المتصل بالأرض. بادر لومونتان الذي أثاره فضوله لمعرفة ما يجري خلف خطوط العدو إلى قطع الحبل والتحليق فوق تلك الخطوط. كان يندفع بعيداً ثم يسقط الأثقال ويرتفع إلى علو الرياح المسيطرة آملاً أن تعود به إلى منطقة آمنة، ومع هذا فقد نجحت الخطة بالصدفة. حقق تادوس لو أكبر تقدم في المناطيد العسكرية في الحرب الأهلية، وحصل على دعم شخصي من الرئيس لنكولن. تضمّن المنطاد حسب فكرة لو الجديدة ضوءاً من الكالسيوم للتصوير الليلي ونظام إشارات فوسفورية ومكبراً قوياً للصور الفوتوغرافية. بعد الحرب الأهلية لم يستخدم المنطاد كثيراً في الاستطلاع بسبب عدم الاتكال على اتجاه الرياح، وصارت المناطيد أهدافاً سهلة وبطيئة ومزعجة. هناك سبب آخر لإهمال المناطيد والتخلي عنها، وهو أنه في بداية القرن العشرين ظهرت تكنولوجيا جديدة وأساليب جديدة في التجسس من الجو جعلت المناطيد متخلفة كثيراً.

عام ١٩٠٤ بد ألفريد مول وهو مهندس في دريسدن ـ ألمانيا يرسل آلات تصوير في الصواريخ وفي عام ١٩١٢ طوّر جهاز استطلاع يمكنه إرسال آلة تصوير ثابتة بالجيرو سكوب حتى علو ٢٠٠٠ قدم وإعادتها برفق إلى الأرض بواسطة مظلة. ظن مول أنه توصل إلى أقصى ما يمكن في صناعة وسائل الاستطلاع الجوي، ولكنه سرعان ما أخذ بالطائرة التي كانت عام ١٩١٢ تستطيع التحليق على ارتفاع أعلى وتنفيذ مهمات استطلاع أصعب وأشمل من الصورايخ. ومع أن ذكر مول قد انحسر، فمن المهم أن نذكر كيف توصل إلى التصوير الفوتوغرافي في الصواريخ لأن ذلك كان من بشائر الأقمار الاصطناعية المخصصة للمراقبة والتجسس حتى الآن.

كان أول استخدام عسكري للطائرة في مهمات الاستطلاع، أما طائرات القتال فقد ظهرت إلى حيز الوجود في الحرب العالمية الأولى. وعندما ازدادت أهمية المراقبة بواسطة الطائرات بدأ كل جانب بتسليح طياري الاستطلاع حتى يدافعوا عن أنفسهم ويسقطوا خصومهم. كان الطيار نفسه يلتقط الصور ثم أصبح هناك مصور

خاص يجلس في حجرة القيادة ويضع الآلة على صدره ثم يلتقط صورة لأي منظر على الأرض. فيما بعد ركّبت آلات التصوير على أقواس ثابتة على جوانب الطائرة، أو في فتحة في قعر الطائرة، واستخدمت وسادات مطاطية لامتصاص الذبذبات الناتجة عن المحرك حتى لا تهتز الصورة. وكانت تلتقط الصورة العمودية والمنحنية.

بعد الحرب العالمية الأولى ظهرت أهمية الاستطلاع الجوي وتتابعت الأبحاث والدراسات وبرز في تلك الفترة جورج غودارد. وبما أن الطول المحرقي Focal Length (هو المسافة بين العدسة ونقطة المحرق داخل الآلة) يحدد حقل الرؤية لآلة التصوير ودقتها، فقط طوّر غودارد آلة تصوير ذات طول محرقي طويل أعطت صوراً أرضية مع تفاصيل أكثر أو أدق. ومن إنجازات غودارد أيضاً طريقة للتصوير في الليل حيث تقطر طائرة الاستطلاع طائرة شراعية تحمل مواد ملتهبة تضيء الأرض من تحتها عندما تنفجر. وذلك بتطوير فيلم ظاهر تحركه عدسة الكاميرا بنفس السرعة التي تطير بها الطائرة حتى لا تظهر الصور مغبشة، كما طوّر أيضاً فيلماً بدائياً يعمل بالأشعة دون الحمراء.

في تلك الفترة ظهر غودارد آخر هو من العاملين في تطوير التصوير الفوتوغرافي أثناء الطيران على ارتفاعات عالية، إنه الدكتور روبرت غودارد ويعتبر من رواد الصواريخ في أميركا. لقد أصبحت الصواريخ التي تعمل بالوقود السائل والتي اخترعها غودارد في العشرينات أساساً لبرامج الولايات المتحدة لأبحاث الصواريخ وسبر أغوار الفضاء في الأربعينات والخمسينات. في ١٧ تموز يوليو ١٩٢٩، أطلق غودارد أول صاروخ يعمل بالوقود السائل وجهّزه بآلة تصوير، ولهذا يعتبر غودارد مع مول من الرواد الأوائل للأقمار الصناعية.

استندت تطورات التصوير الجوي في الحرب العالمية الثانية وفي الحرب الكورية على التقدم في نوعية الفيلم المستخدم. يستطيع فيلم (البانكروماتيك) تسجيل جميع الأضواء في مجال الرؤية، كما تم تطوير فيلم الأشعة دون الحمراء وهو يلتقط الأضواء التي هي دون الحمراء الموجودة في مجال الرؤية، وهي الأضواء التي لا تستطيع العين البشرية رؤيتها. وشهدت هذه الفترة أيضاً كثرة استخدام الستيروسكوب، وبهذا الجهاز يمكن لصورتين لهما نفس الملامح «المدينة مثلاً» أن

توضعا برفق فوق بعضهما البعض بحيث إذا نظر أحد إلى الصورتين من خلال زجاج الستيروسكوب فإن الملامح تبدو له كأنها من ثلاثة أبعاد، تظهر التفاصيل في الصورة (بنايات المدينة مثلاً) كأنها نافرة.

في حرب كوريا اكتشفت طريقة غريبة للاستطلاع الليلي. يمكن لمراقب مدرب أن يمكث خمس ساعات قبل الرحلة المقررة في الليل في غرفة مظلمة بحيث تضبط عيناه إلى المستوى المنخفض من الضوء، وقبل الإقلاع بقليل تعصب عيناه وينقل إلى المطار، وفي الجو يزيل العصبة ويراقب الأرض تحته من خلال فتحة في بطن الطائرة. بهذه العيون المعتادة على الظلام يمكنه أن يشاهد ويحدد القطارات وقوافل الشاحنات وتحركات القوى في الظلام الدامس. ولكن مع ظهور تكنولوجيا جديدة متطورة للرؤية في الليل لم تعد إضاعة هذا الوقت والجهد ضرورية.

لم يكن التطور البارز في الاستطلاع الجوي خلال الحرب العالمية الثانية وفي السنين اللاحقة نتيجة للتقدم التكنولوجي فقط، بل نتيجة لثورة في إعادة التفكير في أهداف الإستطلاع وإمكانياته. وكما ذكرنا من قبل فقد استخدم التجسس من فوق من أجل استطلاع أرض المعركة فقط، أو بكلمة أخرى من أجل المخابرات التكتيكية، ففي أوائل أيام الحرب العالمية الثانية كان الطيارون الذين يكلفون بمهمات قصف يزودون بخرائط عمرها عشرون سنة، وبينما هم يحاولون تنفيذ المهمة يتبين لهم أن المدينة التي ينوون قصفها لم تعد موجودة وأن خط سكك الحديد غير موجود في مكانه. لقد برزت الحاجة إلى مخابرات تضطلع بجميع نشاطات العدو وخططه الطويلة الأمد. كانت ولادة الاستطلاع الاستراتيجي أول تطور مهم، تبعه تطور آخر مهم جداً هو القرار بإبقاء عمليات الاستطلاع الجوي إلى ما بعد نهاية الحرب.

في ذكرى عملية بيرل هاربور، أقرّت الحكومة الأميريكية بالحاجة الدائمة للاستطلاع الاستراتيجي لمواجهة احتمال ضربة مفاجئة، ومع ظهور القنبلة الذرية وتفجيرها فوق هيروشيما عام ١٩٤٥ صارت هذه الفكرة مرعبة جداً. فجأة، تحمّل الاستطلاع الجوي مسؤولية هائلة واعتبر كلب حراسة ضد الحرب النووية، وهو عمل شاق، طويل الأمد، ويختلف عما كان عليه قبل مائة عام عند ما كان الاستطلاع نوعاً من الفضول بواسطة المنطاد الهوائي كما ذكرنا.

طائرة التجسس يو ـ ٢

* في أوائل الخمسينات شعرت الولايات المتحدة أن مركزها قوي جداً في العالم، وعندما فجر السوفيات قنبلتهم النووية الأولى عام ١٩٤٩ (بدا ذلك أبكر من المتوقع ورأى البعض أنه جاء نتيجة للتجسس السوفياتي أكثر من كونه نتيجة التطور والخبرة التكنولوجية) كانت الولايات المتحدة تتفوق على الاتحاد السوفياتي في عدد القاذفات وإمكانياتها، وصنعت بالاشتراك مع كندا جهاز الإنذار البعيد وهو خط من محطات الرادار يمرّ عبر القطب الشمالي لتأمين الإنذار المبكر. في ١٢ كانون الثاني ـ يناير ١٩٥٤ وفي خطاب أمام مجلس العلاقات الخارجية في مدينة نيويورك كشف وزير الخارجية الأميركي آنذاك جون فوستر دالس عن سياسة أزينهاور في الانتقام الكثيف، وقال إن الولايات المتحدة سوف تستخدم الأسلحة النووية لمنع الحرب التقليدية وأبدى ثقته في التفوق الأميركي في الأسلحة النووية، وصرح بأنه لا يمكن لأحد أن يتجاوزه في المستقبل المنظور. لقد كانت الإدارة الأميركية مخطئة، فبعد خمسة أشهر من ملاحظات جون فوستر دالس ظهر أول خلل في ميزان الأسلحة.

كان تفجير القنبلة الهيدروجينية عام ١٩٥٣ في الاتحاد السوفياتي بعد أقل من سنة على تفجير الولايات المتحدة لقنبلتها الأولى، أول إشارة تدل على أن السوفيات لم يكونوا بعيدين جداً خلف الولايات المتحدة. في العرض العسكري في أول أيار ـ مايو ١٩٥٤ شاهد المراقبون الأجانب في الاتحاد السوفياتي قاذفات جديدة ذات مدى بعيد. إنها القاذفة م٤ التي تستطيع بفضل مداها البعيد وسرعتها التي تقدر بـ٦٠٠ ميل في الساعة أن تقلل فترة الإنذار التي يؤمنها جهاز الإنذار البعيد من ٤ ساعات إلى ساعتين. والأخطر من ذلك أن م ٤ كانت ستنتج قبل الطائرة الموازية لها في الولايات المتحدة ب٥٢ في ذلك الوقت كانت طائرة واحدة فقط من نوع ب٥٢ قد أنتجت وسمّي هذا الوضع الفجوة في مجال القاذفات، وهي الفجوة الأولى في سلسلة فجوات قادمة.

ويحوث الولايات المتحدة نفسها فجأة بحاجة ماسة إلى معلومات حول حقيقة مستوى إمكانيات القاذفات السوفياتية ومدى تقدم برنامج الصواريخ السوفياتي. وقد

تبين للمجموعة الاستخباراتية أنه من الصعب الحصول على معلومات موثوقة من مجتمع مقيد وتوتاليتاري مثل المجتمع السوفياتي، ومن المستحيل اختراق مكافحة التجسس الواسعة الانتشار. وقد كان يحدث أحياناً كسب غير منتظر من قبل المنشقين أو بعض العملاء (هم غالباً جماعة من المنشقين الذين يبقون في البلاد ويؤمنون مصدراً استخبارياً) الذين كانوا قليلين ومتباعدين. أمام هذه المشكلة برز التجسس على الاتحاد السوفياتي من الجو كواحد من الحلول المعقولة، مع أنه كان الأكثر كلفة والأكثر إثارة، ولكنه الأكثر وعداً.

أول مشاهدات التجسس للاتحاد السوفياتي

* إن المحاولات الأولى للتجسس على الاتحاد السوفياتي من فوق تعيد إلى الأذهان جون لامونتان وطيرانه في الحرب الأهلية. ففي أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات عادت أميركا بشيء من اليأس والتهور إلى وسائل بدائية من القرن الماضي وأطلقت في الجو مناطيد غير مأهولة وضخمة جداً تحمل آلات تصوير على أمل أن تجرها الرياح إلى أجواء الاتحاد السوفياتي، ثم إلى بحر اليابان حيث تستطيع الطائرات الأميركية إسقاطها وانتشال آلات التصوير منها. ولكن إذا كان الأمريكيون يستطيعون إسقاط المنطاد، فهذا يعني أن السوفيات يستطيعون ذلك، وهذا ما حصل واستغله السوفيات إعلامياً. لقد كان ذلك البرنامج مربكاً للولايات المتحدة، من جراء الخسارة الإعلامية، ولأن المعلومات التي يمكن الحصول عليها هامشية نظراً لعدم التحكم بخط الطيران.

كانت الطائرة ر ب ٤٧ طائرة الاستطلاع المتوسطة المدى، والمصدر الرئيسي للاستطلاع الجوي في الولايات المتحدة في تلك الفترة، وهي نموذج مطور عن القاذفة ب ٤٧. قامت ر ب٤٧ بمهمات استطلاع والتقاط صور جوية ومهمات المخابرات الالكترونية.

بالنسبة إلى المخابرات بالصور، زوّدت الطائرة بسبع آلات تصوير دقيقة، كانت تصوّر باستمرار وبطريقة آلية، الأرض الواقعة تحت خط سير الطائرة. أما بالنسبة إلى المخابرات الالكترونية فقد كان أفراد من طاقم الطائرة يعملون على أجهزة تستطيع اعتراض إشارات الراديو والرادار. كانت مشكلة ر ب ٤٧ أنها كبيرة بحجم القاذفة

وترتفع حتى علو ٤٠ ألف قدم فقط مما يجعلها هدفاً سهلاً للصواريخ المضادة للطائرات. كانت طائرة ر ب٤٧ قادرة على أن تندفع بسرعة داخل وخارج الأجواء الأرمينية مثلاً إلى أن تكتشفها أجهزة الإنذار والرادار المعادية، ولكن لم يكن لها من السرعة والارتفاع والمدى ما يكفي لتحلق فوق الأهداف الهامة مثل مراكز تجارب الصواريخ البالستيكية العابرة للقارات، والتي تخبأ بعيداً داخل الاتحاد السوفياتي في حينه. ماذا كان السوفيات يفعلون هناك؟ إنها أسرارهم.

أكثر ما كان يخافه الرئيس أيزنهاور هو الضربة المفاجئة. عام ١٩٥٤ أنشئت هيئة للضربة المفاجئة وعهد برئاستها إلى جيمس كيليان رئيس مؤسسة ماسا تشوستس للتكنولوجيا، ومهمتها دراسة احتمال إقدام السوفيات على توجيه ضربة مفاجئة دون إنذار. تفرّعت عن هذه الهيئة لجنة المخابرات الفرعية وكانت برئاسة رجلين هما: الدكتور أدوين لاند مخترع آلة تصوير بولا رويد الأرضية ورئيس شركة بولا رويد، وادوار بورسل وهو أستاذ في جامعة هارفرد وحائز على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٥٢. وفي خريف ١٩٥٤ بعد التفتيش عن نوع المخابرات الضروري لإزالة عامل المفاجأة، أوصت اللجنة الفرعية بأن تباشر الولايات المتحدة برحلات استطلاع جوية فوق الاتحاد السوفياتي بأسرع ما يمكن. وهنا برزت المشكلة، وهي أنه لم يكن هناك طائرة تستطيع أن تنفذ هذه المهمة.

نوع مختلف تماماً من الطائرات التجسسية

* كانت هذه المشكلة تراود تفكير مصمم الطائرات البارز في شركة لوكهيد كليرنس جونسون. خلال الحرب العالمية الثانية صمم جونسون وأنتج أول طائرة نفاثة مقاتلة في الولايات المتحدة وهي ف ٨ وذلك خلال ١٤١ يوماً وعمل أيضاً في مشروع طائرة هيركوليس ١٣٠ المخصصة للنقل (ما تزال في الخدمة الفعلية كطائرة نقل في القوات الجوية الأمريكية) وطائرة ف ١٠٤ ستارفايتر. وفي عام ١٩٥٤ وجه تفكيره نحو المشاكل التي ترافق صنع طائرة تحلق على ارتفاع ٧٠ ألف قدم ولفترة طويلة.

كان الارتفاع هو المسألة المركزية، فعلى ٧٠ ألف قدم يعطي المحرك النفاث ٦٪ فقط من القدرة التي يعطيها على سطح البحر. ولهذا يجب أن يكون المحرك

أقوى ويستهلك كمية أكبر من الوقود. وبغية تأمين السرعة المطلوبة وزيادة مدى العمل، على الطائرة إما أن تحمل وقوداً إضافياً (مما يؤدي إلى زيادة وزن الطائرة والحاجة إلى قوة رفع إضافية) وإما أن يكون الوقود عجيباً وفعالاً، كما أن هناك مشاكل في السيطرة على طائرة تطير على ارتفاع ٧٠ ألف قدم حيث يكون الهواء خفيفاً ويتبخر الوقود بسبب قلة الضغط الجوي، ممّا يسبّب إغلاق بعض الفتحات في المحرك ويوقفه عن العمل.

حل جونسون هذه المشاكل وغيرها بتصميم نوع جديد من الطائرات، يبدو مثل هجين الطائرة الشراعية والطائرة النفاثة، بخفة وقوة الأولى وبسرعة الثانية (٥٠٠ ميل/س أو أكثر). عرض جونسون هذا التصميم بحماسة على القوات الجوية عام ١٩٥٤، ولسوء حظّه لم يقبل تصميمه واعتبر خيالياً إلاّ أنه أصرّ على موقفه بكل ثقة.

في خريف عام ١٩٥٤ استطاع جونسون من خلال تريفور غادرنر وهو مستشار تقني لفرقة الأبحاث والتطوير في القوات الجوية عرض تصميمه أمام لجنة المخابرات الفرعية التابعة لهيئة الهجوم المفاجىء المعروفة بهيئة لاند بورسل. اقتنع كل من لاند وبورسل بتصميم جونسون وحملاه إلى مدير المخابرات المركزية ألن دالس، ثم بدأت طائرة جونسون تحصل على التأييد. مساعد دالس الخاص رتشارد بيسل وهو من أشد المتحمسين للوسائل التكنولوجية في جمع المعلومات ومن معارضي المخابرات البشرية، عمل جاهداً من أجل إنجاح طائرة جونسون ودعمها واستطاع كسب تأييد وزير القوات الجوية هارولد تالبوت. وأخيراً كانت هناك حاجة لصوت واحد هو صوت رئيس الجمهورية. في اليوم الذي يصادف يوم الشكر وهو أحد الأعياد الكبرى في أميركا، في عام ١٩٥٤ قدم لاند وبورسل ودالس إلى الرئيس أيزنهاور الاقتراح بصنع طائرة تسمح للولايات المتحدة بالتجسس على الاتحاد السوفياتي من الجو دون عواقب.

كان أيزنهاور يعلم فوائد صور الاستطلاع الجوي عندما خطط لعملياته العسكرية خلال الحرب العالمية الثانية. ومثل بيسل لم يثق بالمخابرات البشرية وكان متلهفاً للحصول على مخابرات تقنية موثوقة. صادق أيزنهاور على المباشرة بصنع الطائرة، وهكذا استدعي دالس وبيسل فوراً إلى البيت الأبيض لعرض جهازه. ذكر

بيسل فيما بعد أن قرار صنع الطائرة كان جيداً ولكن لم يكن لأحد منهم فكرة حول كلفتها ومن أين الحصول على المال اللازم، أين تصنع وأين تختبر ومن سيطير بها؟ كانت الإجابة عن هذه الأسئلة من مهمة بيسل.

بعد الظهر ذهب بيسل إلى وزارة الدفاع حيث أعلم تريفور غاردنر بقرار الرئيس واتصل غاردنر بدوره بكيلي جونسون في كاليفورنيا وأخبره. في خلال أيام جمع جونسون فريقاً من ٢٣ مهندساً وذهب معهم إلى مستودع لوكهيد الفارغ في بربانك ليبدأ العمل بالطائرة. أعطي المشروع اسم أكواتون وأعطيت الطائرة. اسم يوتيليتي ٢ أو يو٢، وأطلق المهندسون اسم الملاك على الطائرة. وعلى سبيل المزاح ومن أجل تأمين السرية المطلقة في العمل، أطلقوا على المستودع الذي يعملون فيه اسم أعمال (الظربان) وهو حيوان أميركي نتن الرائحة (Skunk Works). واليوم وبعد مرور هذه السنين لم يعد الاسم سرياً وتستعمل لوكهيد أعمال «الظربان» بكل اعتزاز في أعمال التطوير المتقدمة وإذا كان للولايات المتحدة أن تتجسس على الاتحاد السوفياتي من فوق، فلا بدّ لها أن تقوم بأعمال أخرى أكثر من صنع طائرة تستطيع تنفيذ هذه المهمة. يجب تطوير آلة تصوير جديدة وأنواع جديدة من الأفلام. اعتبر رأي كلاين وهو نائب مدير وكالة المخابرات المركزية، ريتشارد بيسل «واحداً من أبطال مهنة التجسس»، وهو الذي أشرف على المشروع بأكمله، وخصوصاً على آلات التصوير والتفتيش عن الطيارين كما استعمل كلاين نفس التعبير لأرثر لوندا هل وهو «بطل تفسير الصور الجوية».

صورة واحدة تساوي عدة جواسيس

* ينظر إلى أرثر لوندا هل على أنه هو الذي طرح فكرة التجسس على الاتحاد السوفياتي من فوق. وخلال مثوله أمام لجنة لاند وبورسل وقبل ظهور طائرة جونسون بوقت طويل، كان لوندا هل يحث بقوة على الاستطلاع بالصورة الجوية وتفسير تلك الصورة.

كان لوندا هل مفسراً للصور الجوية خلال الحرب العالمية الثانية، وعمل كثيراً في هذا المجال وأصبح خبيراً في تفسير الصور والتصوير المساحي (هو علم قياس أبعاد الأجسام على الصورة الفوتوغرافية) وكان يدرّس هذه الموضوعات في جامعة

شيكاغو، وعام ١٩٥٥ تلقى عرضاً للعمل في المخابرات المركزية فقبل العرض وترك مركزه في الجامعة وأعدّ وحدة صغيرة لتفسير الصور في المخابرات المركزية في واشنطن شوقاً منه لوضع معلوماته موضع التطبيق، وهناك سبب آخر لقبوله هذه الوظيفة هو أنه كان يودّ أن يشد انتباه المجموعة الاستخباراتية لموضوع تفسير الصور.

قال راي كلاين: «قلت عن أرثر إنه مروّج متفوق لتفسير الصور» وكان فعلاً كذلك. كان لوندا هل يعرف بترديده مثلاً صينياً يقول «إن الصورة تساوي ألف كلمة» وأضاف عليه ألف جاسوس. وبغية تطوير مهنته بقي على اتصال وثيق بخبراء صنع آلات التصوير والعدسات والأفلام في الولايات المتحدة وطلب مساعدتهم للتغلب على مشكلة التصوير من ارتفاع عال.

ومما ساعد أيضاً أن الدكتور لاند من شركة بولا رويد كان على اطلاع دائم على تطوير آلات التصوير. وقد صنعت شركة هيكون في كاليفورنيا الكاميرا الكبيرة B وهي تزن ٤٥ رطلاً، وقد صنعت خصيصاً لتلائم جسم الطائرة يو ٢ واستخدمت فيلماً جديداً من نوع (ميلار) له سماكة فيلم ساران راب، ولهذا يمكن حمل آلاف الأقدام من الأفلام في المهمة الواحدة. وتعتبر العدسة القسم الأهم في آلة التصوير وقد صممها الدكتور جيمس باكر استاذ علم الفلك في جامعة هارفرد، يتم قياس قوة تحليل العدسة بحساب عدد الخطوط البيضاء مقابل الخطوط السوداء التي تستطيع تمييزها في المليمتر (العين البشرية تستطيع تمييز عشرة خطوط في المليمتر) كانت أفضل العدسات المستعملة في الحرب العالمية الثانية تميز من ١٢ إلى ١٥ خطاً في المليمتر. أما الفيلم الذي طوره باكر فقد كان يميز من ٥٠ إلى ٦٠ خطاً في المليمتر، والفيلم المستخدم كان له قوة تحليل ١٠٠ خط في المليمتر تقريباً. إن جمع عدسة ذات قوة تحليل عالية مع فيلم يعني أن الكاميرا ب B يمكنها أن تلتقط صورة طابة التنس من مسافة ٨ أميال في الجو، كما تلتقط صورة بحجم صحيفة من ارتفاع يو٢ المقترح أي ٧٠ ألف قدم.

من ذلك الارتفاع تستطيع الطائرة يو٢ تصوير قطاع من الأرض بعرض ٧٥٠ ميلاً (أي عرض ولاية تكساس) بشكل ظاهر في مهمة الاستطلاع العام. أما في

المهمات التي تتطلب قوة تحليل أكثر فهي قادرة على تصوير قطاع بعرض ١٥٠ ميلاً فقط. يمكن استعمال ١٢ ألف قدم من فيلم ميلار الخفيف في كل رحلة كما يمكن تصوير الولايات المتحدة بكاملها في ١٢ رحلة.

في كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٥٤ تسلم لوندا هل مسؤولية استلام وتفسير الكمية الهائلة من الأفلام التي تصورها يو٢، وأعد لذلك مركزاً فوق كاراج تصليح سيارات في حيّ في جنوب غرب واشنطن. بينما كان لوندا هل ورجاله جاهزين لتلقي صور الطائرة، لم يكن هذا «الملاك» بعيد القدوم، وكان جونسون وهو الرجل المعروف بسرعة عمله قد أعد طائرة يو٢ للاختبار في آب ـ أغسطس ١٩٥٥ أي بعد ثمانية أشهر فقط من نيله الموافقة على المشروع.

الطائرة ـ يو ـ ٢ـ التي هزت العالم

* كانت يو ٢ مركبة غريبة المنظر بالنسبة إلى الذين شاهدوها لأول مرة. لها فتحة جناحين بعرض ٨٠ قدماً بحيث تظهر كأنها جناح بمجملها، وبدت هشة وناعمة ولها محرك واحد فقط وضع في الذيل واستعماله صعب جداً لوقت طويل، وسرت إشاعة تقول إن كل طائرة تستخدم مرة واحدة فقط، إلا أن ذلك لم يكن صحيحاً وكان مظهرها يخفي الكثير من إمكانياتها.

(يو٢) وهي الهجين (بين الطائرة الشراعية والطائرة النفاثة) تختلف عن أية طائرة لأنها صممت لتقوم بأشياء لا تستطيع أية طائرة أخرى القيام بها. كان اهتمام كيلي جونسون الأول هو الوزن وخصوصاً وزن الأجنحة، وطوّر مزيجاً معدنياً خفيفاً يستعمل في صنع أجنحة لها حمولة ٣ أرطال على كل قدم مربع أي ثلث وزن الأجنحة العادية، تم صرف النظر عن كل ما ليس ضرورياً، وذلك لتخفيف الوزن. لم تلحظ التصاميم الأولى مقعداً للنجاة وافترض أنه عندما تصاب الطائرة يخرج الطيار منها كما كان يحصل في طائرات الحرب العالمية الأولى. ولتوفير الوزن أيضاً لم يلحظ جهاز هيدروليكي لغطاء حجرة القيادة بل كان يفتح يدوياً. أما الذيل فقد كان مثبتاً بثلاثة لوالب، كانت هذه الطائرة خفيفة جداً وسهلة ويمكن تفكيكها ووضعها في صندوق شاحنة ونقلها إلى أي مكان.

أما حجرة القيادة فقد صممت مثل معظم الحجرات في الطائرات المقاتلة، وكانت الشرّاقه والجنيح المتحرك وكابح السرعة إلى اليسار، وأجهزة الملاحة والراديو إلى اليمين. وبسبب موقع حجرة القيادة كان يتعذر على الطيار أن يشاهد مباشرة الأرض التي يحلق فوقها، لذلك جهزت الطائرة بمنظار أرضي يستخدم في الملاحة والمراقبة الدفاعية وحساب الانحراف. تعمل جميع أجهزة القيادة بطريقة يدوية غير هيدروليكية بواسطة كوابل، وكذلك جهاز ضبط العواصف الذي يضبط الجنيحات الصغيرة والكبيرة المتحركة ويجعل الطائرة مستقرة في خط طيرانها.

بعد فتحة الجناحين، كان لجهاز الهبوط في الطائرة شكل مروّع، وقد صمّم بوزن خفيف يشبه الدراجة الهوائية، والعجلات مرتبة تحت جسم الطائرة، وليست متوازية كما في معظم الطائرات. وعندما تقف الطائرة على طريق معبدة فإنها لا تتمتع بثبات مستقر بل تنوء على جناح واحد إلا إذا استندت على أجهزة تثبيت، هي مبدئياً عصيّ مع عجلات في كل طرف. كان من الصعب الإقلاع والهبوط بواسطة هذه الأجهزة..

أثناء الإقلاع، تحفظ أجهزة التثبيت الطائرة من أن تميل إلى أي اتجاه أثناء سيرها على المدرج، وذلك بأن يجلس رجلان من الطواقم الأرضية، واحد على طرف كل جناح، وعندما تصل الطائرة إلى سرعة معينة للإقلاع يندفع الرجلان إلى المدرج فترتفع الطائرة، ولكن عندما تهبط وتخفف من سرعتها، فيجب التأكد من أنها لا تميل باتجاه أحد أجنحتها. وقد جهز كل جناح بغطاء خشبي في طرفه للحماية. هذه هي الطائرة التي جعلها جونسون جاهزة في آب ـ أغسطس عام ١٩٥٥. وبقيت الحاجة إلى أحد ما يطير بها.

تم اختيار مقاطعة واترتاون لاختبار الطائرة وهي تقع في منطقة مهجورة في جنوب نيفادا وهي أرض مسطحة جافة وغير مأهولة وتمتد أميالاً عديدة، وكان من المفترض أن لا يعرف أحد أي شيء عنها. قال عنها فرنسيس غاري بورز الذي كان من ضمن مجموعة الطيارين الثمانية الذين وصلوا إلى «المزرعة» ـ كما أسموها ـ «إنه مكان لا يمكنك فيه معرفة هنا من هنالك».

كان بورز والطيارون الآخرون موظفين مدنيين لصالح شركة لوكهيد، وكان

بيسل قد أجبر الطيارين القادمين من القوات المسلحة على الاستقالة خلال فترة البرنامج. كان الرئيس أيزنهاور مصراً على الطابع المدني للمشروع، وكان يريده مشروع مخابرات أكثر منه مهمة عسكرية، وقد سبّب ذلك إزعاجاً وغماً للجنرال كورتيس لو ماي من قيادة القوات الجوية الاستراتيجية الذي جاهد ليجعل يو٢ جزءاً من أسراب طائرات الاستطلاع التي تعمل بإمرته.

جندت المخابرات المركزية الطيارين بالاستناد إلى سجلات الطيران الممتازة وقدرتهم على التحمل وروحهم الوطنية العالية «وبراءة ذمة أمنية» لهم على جميع المستويات. لعبت الروح الوطنية دوراً في قبول الطيارين لعرض المخابرات المركزية وذلك لعب الراتب العالي دوره، وهو يبلغ ٣٠ ألف دولار سنوياً ويعادل راتب أعلى مسؤول في شركة طيران، كما يعادل ١٠٠ ألف دولار بالنسبة لعملة اليوم.

تحت شمس نيفادا الملتهبة وأمام طائرة غريبة بدت وكأنها ستتفكك فور إقلاعها، واجه أول فريق من الطيارين طائرة من تصميم جديد لا يعرف أحد كيف يطير بها. وعندما جلس كل من الطيارين الثمانية الأوائل في حجرة قيادة يو ٢ لم يتعلموا كيف يطيرون بها بل اكتشفوا كيف يطيرون.

كيفية الطيران بطائرة يو ٢ـ U2.

* يبدأ الاستعداد للطيران بـ (U -2) قبل بضع ساعات من دخول الطيار إلى حجرة القيادة، يتناول الطيار وجبة من اللحم والبيض تحتوي على كمية عالية من البروتين لا تنتج عنها سوى فضلات قليلة، وذلك نظراً لمدة الطيران الطويلة التي تصل إلى ١٢ ساعة، ولعدم وجود مرحاض في الطائرة. يرتدي الطيار بزة ضغط كاملة نظراً لارتفاع الطائرة العالي جداً وعليه أن يتنفس الأكسجين نقيا في جميع الأوقات. وليس تنفس الأكسجين سهلاً كما يظن البعض، إذ إن التنفس الطبيعي يحتاج إلى جهد بسيط للشهيق ـ تمدد عضلات الصدر والحجاب الحاجز ليدخل الهواء ـ أما الزفير فيتم دون جهد ـ ندع عضلاتنا ترتاح فيخرج الهواء ـ وعندما نتنفس تحت تأثير الضغط وبواسطة قناع الأوكسجين تصبح العملية بالعكس. في الشهيق يجد الأوكسجين طريقه مباشرة نحو الرئتين بعد خروجه من القنينة دون أي جهد، ولكن الزفير يتطلب انقباض عضلات الصدر للفظ الأكسجين وهذه ليست طريقة

سهلة أو مريحة، خصوصاً عندما يقود الشخص طائرة في الجو. في بداية برنامج يو٢ فشل نصف الطيارين المتدربين لأنهم لم يستطيعوا تنفس الأوكسجين تحت الضغط. كان على طيار يو٢ أن يمضي ساعة تنفس أو اثنتين بالقناع قبل الطيران حتى يعتاد على الأوكسجين وعلى الشهيق ـ الزفير ممّا يفيد في إخراج النيتروجين من الدم حتى لا يعاني الطيار من أي انقباض خلال صعوده السريع.

يحتاج الطيار إلى ثلاثين دقيقة ليرتدي بزة ضغط ليست مريحة. كانت الخوذة محكمة بحلقة على العنق تسبب الحكاك، فعندما يدير الطيار رأسه لينظر إلى حجرة القيادة يحتمل أن تنزف رقبته. عانى الطيارون من عدة أمور مزعجة أهمها الجفاف. يجب إزالة كل بقعة من الرطوبة حتى لا تتجمد على الاتفاعات العالية. عندما تخلو الطائرة من الرطوبة وتحكم بزة الضغط وتخلى الطائرة من أي مشروب أو سائل تصبح كلمة جاف ذات معنى آخر. ذكر بورز في كتاب «عملية الطيران الكبيرة» أن الطيار بعد نهاية الرحلة الطويلة يصاب بعطش أكثر مما يتصوره أي إنسان (زود الطيارون الذين يطيرون على النموذج الحالي من طائرة يو٢ وت ر ١ بزجاجات من عصير الفاكهة).

بسبب التعب الذي يسببه تنفس الأوكسجين يحافظ الطيارون على راحتهم ولا يقومون بأية حركة حتى بدء الإقلاع. يجلس الطيار في حجرة القيادة ويتفحص جميع الأجهزة، ويتعرض لحرارة قوية من جراء بزة الطيران، ولا يرتاح إلا بعد أن يصبح على ارتفاعات عالية. وعندما تصبح جميع الأجهزة جاهزة يقود الطيار الطائرة نحو المدرج. ويتركز عنصر من الطواقم الأرضية على كل طرف. وعندما يصل إلى سرعة محددة يدفع العنصران مسامير التثبيت ويتحرران بسرعة. وعندما يصل المحرك إلى قوة كبيرة، تقلع يو٢ بتسارع مفاجئ يشبه إطلاق المجنقة، وهي آلة تشبه المنجنيق القديم مزودة بنباضات قوية وجهاز دفع لدفع الطائرة بقوة من على سطح حاملة الطائرات لتسهيل الإقلاع.

كانت هناك أخطار عديدة. وقع حادث مميت في برنامج يو ٢ عندما لم يغلق أحد جهازي التثبيت، ودار الطيار حول المدرج والأجنحة تهز جهاز التثبيت الحر، ثمّ فقد السيطرة على الطائرة وتحطمت. اكتشف طيارو يو٢ بعض الأشياء الطريفة عن

الطائرة وهم في الجو. ذات مرة تحرك أحد الأجنحة بطريقة ملحوظة مما أحدث إرباكاً، ولم يفهم أحد لماذا حصل ذلك. كما كان محرك الطائرة يتوقف عن العمل مما يجبر الطيار على أن يطير شراعياً إلى ارتفاع أدنى ثم يعيد تدوير المحرك. لكن هذا العطل أظهر أحد أهم ميزات يو٢ وهي (قدرتها على الطيران شراعياً) وهي على عكس طائرات جيلها، لا تسقط كالحجر عندما يتوقف المحرك في الحقيقة لا تستخدم يو٢ المحرك طيلة الوقت في مهمات التجسس وذلك لتوفير الوقود بل تطير بالطيار الآلي معظم الوقت وهي مزودة بجهاز سيطرة يدوي، أثبت قدرة واضحة على المناورة. كانت تقوم بالدوريات بنعومة للمحافظة على استقرارها وعلى ثبات المعدات، وخصوصاً آلات التصوير، إذ لا يمكنها القيام بانعطافات حادة.

إنّ هم الطيار الرئيسي هو الاستقرار والسرعة. خزان الوقود في داخل الأجنحة وعلى الطيار أن يحافظ على نفس المستوى من الوقود في كل جناح ليؤمن الاستقرار. بالنسبة إلى السرعة على الارتفاعات العالية التي تطير عليها يو٢ كان هناك هامش ضيق بين الانهيار stall (أي الفقدان المفاجئ لقوة الرفع بسبب هبوط السرعة) والصدمة العنيفة Buffet (أي فقدان السيطرة عندما تسرع الطائرة بشكل كبير ولا تتجاوب إيروديناميكياً مع الهواء بل تشق طريقها بعنف) كان الجناح الخارجي يتحرك أسرع من الجناح الداخلي أحياناً ولمسافة أقل من عقدات قليلة مما يعرض الطائرة إلى الصدمة، بينما يعرضها الجناح الداخلي إلى الانهيار.

بعد تعرفهم على طريقة الإقلاع والتحليق، كان على طياري يو٢ تعلم الهبوط كانت المشكلة الأولى وضع الطائرة فوق المدرج، إذ يولّد الجناحان، وهما بعرض ٨٠ قدم، تأثيراً أرضياً كبيراً هو عبارة عن ضغط هوائي بين الأجنحة والأرض يثير قوة دفع إضافية بينها وبين المدرج، وعندما تصل إلى الأرض يصعب عليها ملامستها. وعندما تصل إلى ارتفاع قدم واحد عن المدرج على الطيار أو يوقف المحرك بغريزته بحيث تهبط الطائرة في آخر ١٢ إنشاً. في هذه الأثناء يجب أن تبقى الأجنحة ثابتة وعلى مستوى أفقي لأنها تهبط على عجلتين، وعلى الطيار أن يختار إحدى العجلتين للهبوط، التي يمكنها إبقاء الطائرة مستقرة وصامدة بحيث يمكن للعناصر وضع أجهزة التثبت في أماكنها تحت الأجنحة قبل أن تنحرف الطائرة وتدور حول أحد أجنحتها.

على الرغم من الأجنحة الخفاقة وتوقف المحرك والمجال الضيق بين الصدم والانهيار وصعوبة الهبوط، قال غاري بورز إنه أحبّ الطيران بـ يو٢ ووافق على ذلك العديد من الطيارين. ولكن كما ذكر بورز في كتابه «عملية طيران كبيرة» كان هناك خطأ واحداً في الطيران إلى أعلى ما يمكن، هو أنك لا تستطيع أن تتباهى بذلك نظراً لسريته.

في مؤتمر القمة في جنيف في تموز - يوليو١٩٥٥ وقبل أسابيع قليلة من البدء بإجراء التجارب على يو ٢، قدم الرئيس أيزنهاور اقتراح «السموات المفتوحة» وذلك بغية منع الحرب النووية. اقترح أن تتبادل الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي (السابق) مخططات ورسوم منشآتهم العسكرية والسماح لبعضهم البعض بتفتيش التسلح من الجو. شعر البعض أن السموات المفتوحة هي خطوة هامة نحو السلام بينما شك البعض في أن تكون لعبة أمريكية للحصول على معلومات أكثر من الأهداف السوفياتية. رفض خروتشيف اقتراح السموات المفتوحة، وقال إنها «ليست سوى خطة تجسس واضحة». مهما كانت دوافع أيزنهاور لاقتراح السموات المفتوحة فإنه خلال سنة كانت الولايات المتحدة قادرة على القيام بالتفتيش الجوي على الاتحاد السوفياتي من جانب واحد دون عواقب.

بعد موافقته على نتائج تجارب يو٢ في آب - أغسطس ١٩٥٥، طلب ريتشارد بيسل صنع ٢٢ طائرة، كلفة الواحدة منها ٣٥٠ ألف دولار في ذلك الوقت. عندما تطور البرنامج كان لا بد من شيوع خَبَره لدى الرأي العام، فلا مناص إذن من إيجاد تغطية لها. في عام ١٩٥٦ أصدرت اللجنة الاستشارية القومية لشؤون الفضاء بياناً صحفياً قالت فيه إنها تعاقدت مع شركة لوكهيد لصنع طائرات تقوم بأبحاث في طبقات الجو العليا. كانت يو٢ معدة لدراسة الاتحاد السوفياتي وليس لدراسة طبقات الجو العليا. وعام ١٩٥٦ أوفد ستة طيارين ومن ضمنهم بورز إلى قاعدة أنسرلك الجوية بالقرب من أضنة - تركيا وكانت هذه القاعدة تستخدم بشكل أساسي كمركز لإعادة التزود بالوقود للطائرات العسكرية الأخرى. وهكذا أمّنت النشاطات الكثيفة في القاعدة غطاء لعمليات يو٢. لقد كان برنامج يو٢ سرياً جداً لدرجة أن العناصر في أنسرلك لم يكونوا على علم بما كان يجري. ألّف بورز والطيارون الآخرون التشكيل ١٠-١٠ بإمرة الكولونيل ستانلي، وكان هناك تشكيلات يو٢ في اليابان وفي ألمانيا الغربية.

كانت أولى رحلات التجسس على أطراف الحدود السوفياتية مما يسمح للكاميرات بتصوير المراكز العسكرية الحدودية و «للصناديق السوداء» داخل الطائرة باعتراض إشارات الرادار والراديو. لاحظ الطيارون، وفي رحلات قليلة، مراكز إجراء التجارب على الصواريخ السوفياتية التي كان العديد منها يفصل كما كان يحصل مع الصواريخ الأمريكية. على أي حال يمكن أن تنفذ هذه المهمات الحدودية بأي طائرة. لكن يو٢ أعدت لمهمات خاصة جداً.

في أوائل تموز - يوليو ١٩٥٦ توجه ألين دالس وبيسل إلى أيزنهاور وأفاداه بأنهما قادران على استغلال إمكانيات يو٢ بكاملها لبدء رحلات كبيرة فوق الاتحاد السوفياتي. وفي اليوم التالي أرسل أيزنهاور جوابه «لكم فترة عشرة أيام للتجسس على روسيا».

في الأيام الأربعة الأولى كانت معظم الأجواء السوفياتية تكسوها السحب، في اليوم الخامس في ٤ تموز - يوليو ١٩٥٦ صحا الجو وأقلعت يو٢ في أول رحلة طويلة فوق الاتحاد السوفياتي. في ذلك اليوم تحقق دالس من بيسل عما ما إذا كانت يو٢ قد ارتفعت فوق الأرض. أجاب بيسل، «نعم إنها في الجو الآن» وعندما أخبر أن خط الطيران أوصلها إلى ما فوق موسكو ولينينغراد، لهث دالس وقال: يا إلهي هل تظن أن ذلك من الحكمة ومن المرة الأولى؟ أجاب بيسل: المرة الأولى تكون مثل أي مرة أخرى. ولسوء الحظ كشفت المعلومات الواردة من أول طلعة أن تكنولوجيا الرادار السوفياتية كانت متطورة أكثر بكثير مما كان متوقعاً. كان الاعتقاد السائد هو أن السوفيات لا يستطيعون حتى اكتشاف يو٢. لكن الحال لم تكن هكذا. لقد تتبعوها وكانوا متخوفين ولم يصدروا أي بلاغ علني لتجنب الإرباك لأنهم لا يمكلون الوسائل اللازمة لاسقاطها. على أي حال، وكردة فعل على الخوف الذي أتى في الأقنية الدبلوماسية، أوقف أيزنهاور رحلات يو٢ لمدة شهر على أن تبدأ بعد ذلك المصادقة على كل رحلة مسبقاً.

تعدد الرحلات التجسسية

* بدأت الرحلات بخط سير دائري، كانت الطائرات تطير فوق الاتحاد السوفياتي ثم تدور بالعكس. وبعدها نفذت طيراناً مستقيماً فوق الاتحاد السوفياتي،

من باكستان إلى النروج مثلاً، بحيث يمكن تغطية أكبر مساحة ممكنة في كل طلعة جوية تجسسية.

كانت هذه الطلعات تختلف عن أية طلعات عادية، وقال أحد الطيارين الأوائل: «لم تكن هذه المهمات مثل مهمات الاستطلاع التي نفذت في الحرب العالمية الثانية أو في حرب كوريا حيث الطيار يجد عذراً مناسباً ويقول إن الطقس عاطل ويعود إلى قاعدته عندما كان يشعر بالخطر إذا التقط صوراً فوق هدف محدد. أما خلال الطيران فوق الاتحاد السوفياتي في يو٢ فليس لك أي مكان تذهب إليه» أو أي عذر تعتذر به.

لم يكن من المتوقع أن تكون هذه الطلعات خطرة. لقد صممت يو٢ لكي تطير على ارتفاع ٧٠ ألف قدم، لأن المعلومات كانت تفيد بأن الصواريخ أرض - جو السوفياتية لا يبلغ مداها الأقصى أكثر من ٦٠ ألف قدم. كان العمر العملاني ليو٢ سنتين فقط، وذلك حتى يطور السوفيات وسيلة لاسقاطها إلا أنها حلقت فوق الاتحاد السوفياتي لمدة٤ سنوات، أي أكثر مما كان متوقعاً. تم الإعداد لاحتمال سقوط يو٢، كان كل مقعد نجاة (جهزت به النماذج الأخيرة عندما سمح بزيادة وزن قليلة حرصاً على سلامة الطيارين) يحتوي على عوارض خشبية للعوم وألبسة وطعام وماء وبوصلة ومصابيح وأعواد كبريت ومواد كيميائية تسبب نشوب حريق في غابة، وعلبة إسعافات أولية مع مورفين ورباطات طبية وحبوب تعقيم المياه. كما كانت عدة النجاة تحتوي على علم أميركي كبير يحتوي على رسالة بـ١٤ لغة تقول «أنا أميركي ولا أتكلم لغتك، أنا بحاجة إلى الماء والملجأ والمساعدة. أنا لن أؤذيك ولا أحمل أي ضغينة لشعبك وإذا ساعدتني سأكافئك. ومن أجل المكافأة زوّد الطيار بمبلغ ٧٥٠٠ روبل ٢٤ فرنكاً ذهبياً وتشكيلة صغيرة من ساعات اليد والخواتم تساوي ١٠٠٠ دولار وكانت جيبة المقعد تحوي على سكين ومسدس عيار ٢٢ذ بوصة مع كاتم للصوت.

كتب بورز في «عمليات الطيران الكبيرة» أن أحد مظاهر الإحباط في برنامج يو٢ هو أن الطيارين لم يتلقوا أي تعليمات واضحة حول السلوك الذي يجب أن يتبع عندما تسقط الطائرة. بعد الحرب الكورية حيث لم يستطع أي أسير حرب أميركي الفرار، واتهم عدد من الأسرى بالتعامل مع العدو، كان هناك جدل حول الطريقة

التي يجب أن يعتمدها الأسير ليضبط نفسه. الجيش فرض تعليمات مشددة، فلم يسمح للأسير بأن يبوح إلا باسمه ورتبته ورقمه المتسلسل. لكن القوات الجوية كانت متساهلة أكثر: «افعل ما تريد لتبقى على قيد الحياة» بالنسبة إلى طياري يو۲ كانت الإشارات مختلطة. رأى بعض الطيارين أن عليهم أن يقتلوا أنفسهم بينما قال أحد مسؤولي المخابرات المركزية إنهم إذا وقعوا في الأسر يمكنهم أن يبوحوا بأي شيء يعرفونه لأنه إذا استطاع السوفيات إسقاطهم، فمعنى ذلك أنهم قد علموا بمعظم ما يريدون معرفته. يتم إطلاع الطيارين على بعض تفاصيل المهمة، ففي اليوم السابق للرحلة يطلع الطيار على خريطة مموهة وملونة. يدل الخط الأزرق على الطريق العام، والعلامات الحمراء على الأهداف الأساسية. وبجانب كل منها لائحة بمعدات الجاسوس لتشغيلها في أوقات خاصة. يشير اللون البني إلى الطرق الجوية إلى القواعد الأميركية عندما يقطع الطيار رحلته لأي سبب. لم يكن الطيارون على علم بالسبب الحقيقي لرحلتهم ولم يطلعوا على أي من الأفلام التي كانوا يصورونها. كان بإمكانهم الإحساس بأهمية كل مهمة: مثلاً إذا وصل مفسر الصور جواً ليتفحص الفيلم، عوضاً عن إرساله إلى واشنطن، يكون من الواضح أن الفيلم مهم جداً. من التجهيزات المهمة التي لها علاقة بسقوط الطائرة والتي كانت تصطحب في كل طلعة وحدة متفجرة وزنها رطلان ونصف، كانت توضع قرب معدات الاستطلاع في جسم الطائرة. يشغّل الطيار الذي توشك طائرته على التحطم وحدة التفجير التي تعمل بتأخير ۷۰ ثانية، ثمّ يقفز من الطائرة. كانت المتفجرة كافية لتفجير الكاميرات ومعدات التجسس فقط وليس لتفجير الطائرة بكاملها. وهناك أيضاً دولار فضي للحظ السعيد بداخله إبرة بطول أنش واحد مطلية بنوع من السم (الكورار) يقتل بطريقة استرخاء العضلات، بما فيه عضلات القلب والرئتين. وما تزال قصص التعذيب وغسيل الدماغ التي تعرض لها أسرى الحرب في كوريا ماثلة في أذهان الطيارين، لذلك كانت الإبرة المطلية بالكورار تعمل لا كسلاح فقط بل كوسيلة للهروب النهائي. لكنها كانت خياراً لا أمراً، إذ لم تعط توجيهات إلى الطيارين بقتل أنفسهم. قبل تطوير إبرة الكورار كانت وسيلة تدمير النفس هو كبسولة السيانيد، وأعطى الطيارون الخيار بحملها معهم خلال المهمة (لم يحملها بورز مخافة أن تنكسر الكبسولة) (أو نتيجة حبه للحياة).

* وضع أيزنهاور قيوداً شديدة على رحلات يو۲. بعد أن يخطط للرحلة فريق صغير من القوات الجوية ووكالة المخابرات المركزية يأخذ بيسل خريطة خط الطيران إلى أيزنهاور للمصادقة عليها. كان أيزنهاور شخصياً يطلب تنفيذ الرحلات كما حصل في أزمة السويس عام ١٩٥٦ عندما أمر برحلة فوق الشرق الأوسط.

عام ١٩٦٠ بدأ عدد الرحلات يتناقص تدريجياً وذلك نظراً لتراكم الصور المعدة للتفسير بسبب الكميات الهائلة من الأفلام التي تحضّر في كل رحلة. كان أيزنهاور يعتقد بأنه يجب تفسير الصور المتراكمة قبل المباشرة بطلعات أخرى وإثارة غضب السوفيات الزائد دون مسوّغ. وهناك سبب آخر لتقليص الرحلات هو المخاوف من تقدم وتطور جهاز الدفاع السوفياتي. عام ١٩٥٨ كان مخططو الرحلات الجوية يرسمون طريقاً ليو۲ بعيداً عن مواقع الجيل الجديد من الصواريخ السوفياتية أرض - جو وهي (س أ ۲) غايد لاين. استناداً إلى تقديرات المخابرات المركزية، يمكن أن يبلغ مدى هذه الصواريخ ٦٠ ألف قدم. في بداية العام ١٩٦٠، ومع أن برنامج يو۲ استغرق مدة أكثر من المتوقع، كان هناك حس من السرعة أو التسرع لدى المسؤولين الأميركيين للقيام بأكثر ما يمكن من رحلات يو۲ قبل أن يصبح السوفيات قادرين على إسقاطها.

في منتصف نيسان - إبريل ١٩٦٠ ذهب بيسل إلى أيزنهاور وطلب رحلة ليو۲، وعرض عليه خط السير، وذلك بحضور وزير الخارجية هرتر. أبدى هرتر قلقاً تجاه الرحلة لأن هناك مؤتمر قمة مقرراً في باريس في أيار - مايو وشعر بأن الوقت ليس ملائماً لسقوط طائرة يو۲. أجاب أيزنهاور بأنه لا يوجد وقت ملائم لسقوط يو۲ وصادق على الرحلة. أعطي بيسل مهمة أسبوعين يقوم خلالها بتنفيذ الرحلة، ولكن خلال هذه الفترة كانت الأجواء السوفياتية ملبّدة بالغيوم، فحصل على تمديد، على أن لا تجري الرحلة بعد ۲ أيار - مايو لأنه يقترب كثيراً من موعد مؤتمر قمة باريس. تم اختيار الطيار فرنسيس غاري بورز وطار إلى بيشاور في باكستان تمهيداً للرحلة التي كان من المقرر أن تذهب به من بيشاور عبر ۳۸۰۰ ميل من أجواء الاتحاد السوفياتي إلى بودو في النروج. انتظر بورز ليصحو الطقس. وبحلول الموعد النهائي

صحا الطقس، وأعدّت الرحلة صباح ١ أيار ـ مايو، وهو من أكبر أيام العطل في الاتحاد السوفياتي (عيد العمل العالمي).

في الساعة الخامسة والدقيقة العشرين صباحاً صعد بورز إلى حجرة القيادة في يو٢ التي كانت مستقرة على المدرج في بيشاور، وكانت المهمة الثامنة والعشرين التي ينفذها وقد اعتاد على جهاز التنفس بالأوكسجين المزعج، وعلى ارتداء بزة الضغط، ولكن حصلت متاعب إضافية في ذلك النهار، وتأخر الإقلاع ٢٠ دقيقة، فشعر بالحر الشديد من جراء بزته، وعندما بدأ بالطيران كان مبللاً بالعرق. أقلع الساعة ٦ والدقيقة٢٠ وعندما ارتفع عالياً شعر بالبرودة والارتياح. في أول الرحلة تبين له أن الطيار الآلي معطل مما يعني أنه سيطير معظم الوقت يدوياً ـ ولا يعتبر ذلك عملاً شاقاً إنما يعني أنه سيكون مشغولاً أكثر من العادة بالقيادة.

بعد ساعة من الإقلاع اجتاز بورز الحدود السوفياتية، وأنذرت مراكز الرادار السوفياتية وحدات الدفاع الجوي من أن طائرة زرقاء غامقة قد اخترقت المجال الجوي السوفياتي. تلقى الرائد م فورنوف قائد وحدة مضادة للطائرات قرب سفر دلومنسك، الإنذار، وأنذر عناصر المدفعية والصواريخ: سرّ بورز لدى اقترابه من سفر دلومنسك لأنه أصبح قريباً من منتصف الطريق ولم يتعرض لأي حادث. وأثناء قيامه بدورة ٩٠ درجة على مسافة ٣٠ ميلاً من سفر دلومنسك، ولدى وصوله إلى منتصف الدورة شاهد حقلا فجوياً لم يكن ملحوظاً على خرائطه. كان واجب الطيار الرئيسي أن يشغل معدات الاستطلاع وعليه أن يراقب أي شيء يبدو مثيراً للاهتمام. سجل بورز مركز الحقل الجوي وتأكد من أن جميع الكاميرات ومعدات التجسس كانت تعمل بانتظام، ثمّ تفحص أزرار معدات الطائرة.

فجأة ومن دون سابق إنذار أصيبت الطائرة «أنا أستطيع أن أتذكر صوت الإنفجار وشعوري وإحساسي به. نظرت فوراً في لوحة المعدات، وقد كان كل ما حولي برتقالياً، وقلت يا إلهي لقد نلتها الآن». بدأت الطائرة تسقط بسرعة ولم يكن له أي خيار آخر. كل ما يستطيع أن يراه هو السماء الزرقاء لم يستطع استعمال مقعد النجاة لأنه كان في وضع يجعل من الممكن أن تنقطع رجلاه إذا أطلق مقعد النجاة. ماذا يستطيع أن يفعل؟ لقد أدرك أن عليه أن يهبط من الطائرة يدوياً كان الوقت ثميناً

جداً. عند هذه النقطة كان قد هبط ٣٠ ألف قدم. علم أن عليه أن يلقم وحدة التدمير لكنه لم يعلم المدة اللازمة للخروج، ويجب أن لا يكون داخل الطائرة عندما يقع الانفجار. قرر أن يحرر قبة المظلة ويعدها للقفز ثم يضغط قليلاً على أزرار وحدة التدمير.

لم يكن بورز قد لقم وحدة التدمير. حرّر حزام الأمان وعندما فتحه انطلق إلى خارج حجرة القيادة ولكنه لم يسقط حراً بل كان ممسكاً بخرطوم الأوكسجين مما أعطاه فرصة أخيرة ليلقم وحدة التدمير.

أصبح بورز متمدداً على أنف طائرة يو٢ تسقط في السماء فوق الاتحاد السوفياتي، وأعمى نظره لوحة الوجه التي تجمدت في اللحظة التي خرج فيها من الطائرة. حاول أن يتناول مفاتيح وحدة التدمير التي كانت على مقربة من أصابعه المتمددة. كانت كل ثانية تنزله مسافة ٣٠ قدم إلى الأرض. أدرك أن له مهلة لينقذ نفسه فقط.

اندفع بقوة نحو خرطوم الأوكسجين عدة مرات حتى انتزعه أخيراً وأصبح حراً وبعيداً عن الطائرة الساقطة. أسقط بورز آلات الأقرام قبل أن يسحب حبل فتح المظلة، وفور وصوله إليه حرر جهاز الضبط البارومتري، وفتحت قبة المظلة وانتفخت بالهواء. عندما هبط نحو الأسفل شاهد يو٢ تتحطم على مسافة منه. عندها حان وقت القرار الكبير.

أخذ بورز الدولار الفضي مع إبرة الكورار. ما كان عليه أن يفعل؟ كان له أمل ضعيف بأن يهرب بطريقة معينة لذلك رمى قطعة النقود بعيداً، وجلس في مكان هبوطه على الأرض السوفياتية يفكر بعد أن استبعد فكرة أو خيار قتل نفسه، وقد شرحت سبب عدم استعماله إبرة الكورار القاتلة أو المسدس المذكوره في صفحة(٢٩٧) من كتابي المخابرات والعالم - الجزء الأول.

أما هذه المعلومات فهي معلومات حديثة جداً لم يتطرق إليها أحد قبل الآن (إلا باللغة الروسية).

بعد لحظات من هبوطه على الأرض السوفياتية أحاطت به مجموعة من الفلاحين الذين كانوا يتكلمون لغة لم يستطع فهمها. نظروا إليه بذهول وساعدوه على

جمع المظلة. وبعد دقائق التقى ممثلين رسميين، رجال أبلغتهم وحدة فورنوف خارج سفر دلومنسك أنهم أسقطوا طائرة ثمينة. خلال ساعات كان بورز داخل زنزانة في سجن لوبيكانا.

أدرك السوفيات أنهم لعبوا ورقتهم بحكمة وبراعة. في البدء لم يعلنوا للعالم أن الطيار قد نجا بل أعلنوا فقط أنهم أسقطوا طائرة تجسس فوق أرضهم. في المقابل ظنت الولايات المتحدة أن بورز قد مات وأن الطائرة قد دمّرت، وأنكرت أنها كانت طائرة تجسس، بل قالت إنها طائرة أبحاث جوية تابعة للوكالة القومية لأبحاث الطقس انحرفت نحو الأجواء السوفياتية وأسقطت دون إنذار. عندها لعب خروتشيف ورقته الرابحة وأعلن: الطيار نجا وهو على قيد الحياة.

مع وجود بورز الأسير وحطام الطائرة الذي تمّ جمعه ومعدات التجسس المحطمة التي ما تزال مميزة، أدرك السوفيات أن لديهم برهاناً دامغاً بأن يو٢ كانت تتجسس. إنهم لم يسقطوا طائرة يو٢ فقط بل أوقعوا الولايات المتحدة في كذبة وحققوا نصراً كبيراً في الحرب الإعلامية مع الولايات المتحدة.

كان التوتر شديداً في قمة باريس لدرجة أن العديد كان يعتقد بأن المؤتمر قد يلغى بسبب حادثة إسقاط يو٢. لكن السوفيات أرادوا استخدام مؤتمر باريس كمنبر لحملة إعلامية ضد الولايات المتحدة. ألقى خرووتشيف خطاباً افتتاحياً طويلاً حول هذه المخالفة وأنهاه بالتعجب: «لقد أغرق». أما الرئيس الفرنسي ديغول وهو الرئيس المضيف للمؤتمر فصرخ أنه هو أيضاً قد أغرق بالأفكار الاصطناعية السوفياتية. احتجّ خرووتشيف وقال إنها أقمار بريئة، عندئذ سأله ديغول: كيف حصلتم على صور فوتوغرافية للجانب الآخر من القمر؟ أجاب خرووتشيف: إن ذلك القمر الاصطناعي قد جهز بآلات تصوير. قال ديغول: أه في ذلك لكم آلات تصوير.

لم تدم هذه السخرية طويلاً، وبعدها بقليل ثار خروتشيف والوفد المرافق خارج المؤتمر ووعد أيزنهاور بأن الولايات المتحدة لن تطير فوق الاتحاد السوفياتي. وما عدا طلعات قليلة فوق المناطق الحدودية بقي هذا الوعد نافذاً.

في واشنطن كان هناك غضب وقليل من الندم على سقوط طائرة يو٢. تساءل البعض حول ما إذا كان بورز قد حلّق على ارتفاع منخفض أم لا، واغتاظ البعض

الآخر لأنه لم يشغل وحدة التدمير، وأصيب آخرون بخيبة أمل لأنه لم يقتل نفسه. قال بورز فيما بعد إنه لم يحلّق على ارتفاع منخفض بل أصيب بصاروخ انفجر قربه (يعتقد البعض بأنه قد أطلق عليه صاروخان وبأن أحدهما أصاب طائرة ميغ سوفياتية كانت تحاول اعتراض بورز بينما انفجر الثاني على مسافة قريبة من طائرة بورز مما أدى إلى إصابتها). قال البعض في نطاق الدعم لبورز إن وحدة التدمير بكاملها لا فائدة منها لأنه من المستحيل أن تدمر رزمة من الأفلام بكاملها، واستطاع السوفيات أن يعثروا على كل ما يحتاجون إلى معرفته من الفيلم وحده. وهذا يعني أنه لا جدوى من انتحار بورز. ومع ذلك لم يهدأ الجميع.

منذ سنوات، ثارت شكوك في أنه لم يكن هناك فترة تأخير ٧٠ ثانية لوحدة التدمير، بل إنها كانت معدة لأن تنفجر فور تحريك مفتاح الوحدة بحيث ينفجر الطيار ومعدات التجسس. وقيل إن بورز كان على علم بذلك وإن هذا هو السبب في أنه لم يلقم الجهاز. أنكر بورز ذلك وقال أن وحدة التدمير هي آخر وحدة توضع في الطائرة قبل بدء المهمة، وعندما أشرف على إدخالها كان بإمكانه أن يتحقق مما إذا كانت قد وضعت في مكانها أم لا. ظن بورز أن أيزنهاور كان يعلم بأن لدى الطيارين تعليمات بقتل أنفسهم، إلا أن الحكومة أنكرت ذلك. ولكن مفاجأة أيزنهاور بنجاة بورز حصلت لأنه هو وبيسل والمخابرات المركزية وجميع الذين لهم علاقة بمشروع يو٢ لم يعتقدوا بأنّ هناك فرصة واحدة من مليون في نجاة الطيار بعد إصابة الطائرة بصاروخ أرض - جو على ارتفاع ٧٠ ألف قدم.

قام السوفيات طبعاً بضربة جيدة بإسقاطهم طائرة يو٢ وإعلان ذلك أمام الرأي العام وإجراء محاكمة علنية لبورز ونقلها على التلفزيون الرسمي. أدين بورز بالتجسس وحكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات ثمّ أطلق سراحه بعد فترة لم تكن طويلة كجزء من صفقة تبادل جواسيس، حيث تسلمت الولايات المتحدة بورز بدلا من العميل السوفياتي الكولونيل رودولف آبيل الذي اعتقل في نيويورك عام ١٩٥٧.

شعر الكثيرون بأن أسوأ نتيجة لسقوط يو٢ لم تكن المأزق السياسي فقط، بل خسارة مصدر مخابرات لا يقدر بثمن. عام ١٩٧٥ قال مدير المخابرات المركزية ريتشارد هلمز إن طائرة يو٢ أمنت ٩٠٪ من المعلومات المطلوبة لتنظيم التقدير

الأميركي للقوة السوفياتية. ومن ضمن المعلومات التي كشفتها يو٢ أنه لا توجد هوة بين القاذفات الأميريكية والسوفياتية. (قاذفات م٤ التي شاهدها المراقبون تطير بأعداد كبيرة في احتفالات أول أيار - مايو كانت في الحقيقة سرباً صغيراً يحلق ثم يظهر ثانية مما يوحي بأن هناك عدد لا يحصى من القاذفات) كما كشفت عن مخازن ومواقع الصواريخ ومن ضمنها مركز إطلاق سري في تيور أتام في آسيا الوسطى.

برزت مخاوف كبرى من أنّ فقدان يو٢ قد يغرق الولايات المتحدة في الظلام، فلا تعلم شيئاً عما يدور داخل الحدود السوفياتية. لقد استمر هذا الظلام حتى آب - أغسطس ١٩٦٠ فقط، عندما انتشلت في هاواي كبسولة من القمر الإصطناعي ديسكوفورو ١٤ تحتوي على أفلام التقطت فوق الاتحاد السوفياتي. وهكذا بدأ عصر جديد من التجسس من فوق.

على الرغم من بدء العمل بالقمر الاصطناعي المخصص للتجسس، بقيت يو٢ تعمل بشكل جزئي، مدة طويلة وما زالت الطائرة ت ر١ وهي بنفس التصميم تستخدم في مهمات التجسس. إن القمر الاصطناعي يحتاج إلى فترة أسبوعين حتى يصل إلى مركزه بينما يمكن وضع الطائرة خلال ساعات في مركزها. استخدمت الطائرة يو٢ فيما بعد، في مراقبة النشاطات السوفياتية والكوبية في أميركا الوسطى والبحر الكاريبي، وكان لها دور في التخطيط لعملية غزو جزر غرانادا. وكانت أبرز مهمات يو٢ بعد إسقاط بورز اكتشاف قواعد الصواريخ المتوسطة والطويلة المدى السوفياتية في كوبا في خريف ١٩٦٢.

أزمة الصورايخ الكوبية والتجسس

* في صيف ١٩٦٢ تبين للمجموعة الاستخباراتية الأميريكية أن السوفيات يشحنون كمية كبيرة جداً من الأعتدة العسكرية إلى كوبا. وكانت الولايات المتحدة قد زرعت شبكة من مراقبي السفن في الموانئ والنقاط الحساسة والممرات الهامة (مثل ممر البوسفور وقناة السويس وقناة باناما) يلتقطون صور السفن وصور البضاعة المحمّلة ويرسلونها إلى المركز القومي لتفسير الصور الفوتوغرافية في واشنطن. لقد طوّر أرثر لوندا هل ومفسروه علماً جديداً يحدد ما يحتويه صندوق الشحن بدقة.

من الملاحظات التي أخذت من احتفالات أول أيار ـ مايو في الاتحاد السوفياتي علم المفسرون حجم المعدات العسكرية السوفياتية وحجم الصندوق اللازم لشحن كل نوع. تدرس صور الصناديق المحمّلة على السفن بشكل واف، وكل ما يحتاج إليه المفسّر هو طول أحد الأبعاد في الصورة مثل عَلَم السفينة، ومنه يستطيع حساب حجم الصندوق وتقدير ما يوجد في داخله.

وقد وردت معلومات من العملاء السريين الموجودين على رصيف الميناء في هافانا والذين كانوا يراقبون تفريغ الصناديق تفيد بأنه يجري شيء ما غير طبيعي، إلا أن هذه المعلومات المستقاة من مصادر بشرية لم تكن موضع ثقة تامة. كانت المخابرات المركزية تتلقى بشكل روتيني معلومات من النازحين الكوبيين وكان قسم كبير منها خاطئاً أو مزروعاً من قبل عملاء مكافحة التجسس التابعين لكاسترو، لذا، برزت الحاجة إلى معلومات صحيحة وقوية عن المعدات السوفياتية والقطع المعدنية القادمة إلى هافانا، لذلك أرسلت طائرة يو٢ فوق كوبا في ٢٩ آب ـ أغسطس، وأظهرت الصور التي أحضرتها الطائرة نجمة داود المعروفة على مواقع الصواريخ السوفياتية أرض ـ جو (SAM) المنتشرة في الجزيرة. كان ثمانية مواقع منها قيد الإنجاز. لماذا هذا العدد الكبير؟ وما الهدف الذي تحميه هذه الصواريخ؟ كان السؤال مربكاً لأن الجواب المنطقي هو أن هذه الصواريخ أرض ـ جو قد نشرت لحماية الصواريخ النووية.

عبّر الرئيس كينيدي عن قلقه العميق لخروتشيف من خلال الأقنية الدبلوماسية. وفي ١٤ أيلول سبتمبر أكد خروتشيف لكينيدي أنه لا يوجد صواريخ في كوبا، وأنه لن يقوم بأية أعمال مزعجة خلال سنة الانتخابات. وبينما كان البلدان يتحركان باتجاه الوفاق كان كينيدي كالآخرين ميالاً إلى أن يصدّق ما قاله رئيس الوزراء السوفياتي. إلا أن الرئيس الجديد للمخابرات المركزية جون مكون لم يكن ميالاً إلى ذلك، وشعر بأن الروس يمكن أن يركزوا صواريخ في كوبا ليس بالضرورة لاستعمالها في الحرب بل للمفاوضة والابتزاز. حصل جدال في الأجهزة الحكومية الأمريكية: لماذا يضع السوفيات الصورايخ في كوبا وليس في دول أخرى من الكتلة الشرقية؟ أجاب مكون: لأن الروس لا يثقون بأحد. إن الصواريخ البالستيكية متوسطة المدى التي وضعت في كوبا قادرة على إصابة الولايات المتحدة أو أهداف أخرى في

نصف الكرة الغربي، بينما مثل هذه الصورايخ في بولونيا أو ألمانيا الشرقية يمكن أن تستخدم لتضرب موسكو.

تابعت يو٢ رحلاتها فوق كوبا واعتادت على تصوير عمليات تفريغ السفن التي كانت تجري بسرعة كبيرة، ولم ترد معلومات مهمة من هذه الطلعات. وفي ١٩ أيلول ـ سبتمبر أعلنت هيئة المخابرات الأميركية أنه من غير المحتمل أن يركز الروس صواريخ على الأراضي الكوبية، وطلب مكون أن يسجل رأيه المخالف. بعد ذلك بدأت الإدارة تتلقى تقارير جديدة من العملاء الذين كانوا يراقبون السفن السوفياتية الكبيرة في الميناء والمفتوحة الأبواب. كانت من النوع الذي ينقل الأخشاب لكنها كانت عائمة على سطح الماء أكثر مما لو كانت تحمل الأخشاب. ربما كانت تحمل شيئاً آخر.

في ٢١ أيلول ـ سبتمبر أفاد أحد العملاء عن مشاهدة صاروخ بعيد المدى على مقطورة شاحنة. كما وردت معلومات مماثلة من الكولونيل جون رايت من المخابرات الدفاعية وهو خبير في منشآت الصواريخ السوفياتية، وقد لاحظ شكل متوازي الأضلاع لصواريخ أرض ـ جو في موقع سان كريستوبل في كوبا، وهذا الشكل يشبه ما يرتّب حول مواقع الصواريخ المتوسطة المدى في الاتحاد السوفياتي.

كان الخبراء بحاجة إلى معلومات قوية. وفي ٤ تشرين الأول ـ أوكتوبر تقرر أنه من الخطر تنفيذ الطلعات بطائرات يو٢ بما أن صواريخ أرض ـ جو يمكن أن تصيبها. وإذا أسقط طيار تابع للمخابرات المركزية فإنه يعتبر جاسوساً، بينما يعتبر طيار القوات الجوية أسير حرب، وبما أن طلعات يو٢ قد تؤدي إلى نزاع مسلح، لذلك عهد إلى العسكريين بتنفيذ البرنامج.

مضت عدة أيام والسحب تكسو أجواء كوبا. كان النقيب الطيار ريتشارد هيبر يقود أول مهمة يو٢ وذلك في ١٤ تشرين الأول ـ أوكتوبر، والتقط ٢٨ صورة فوق كوبا، وتفادى لحسن حظه هجوماً لصاروخ أرض جو. نقل الفيلم بسرعة إلى جماعة لوندا هل في واشنطن، وبعد ظهر ١٥ تشرين الأول ـ أكتوبر اتصل أحد المفسرين الذي كان يعاين الصور بلوندا هل في منزله وطلب منه الحضور وقال له: «نريدك أن تنظر إلى شيء ما».

عندما وصل لوندا هل لم يقل له أحد أية كلمة، وكانت هذه هي الطريقة المتبعة، إذ لا يعبر مفسر لآخر عن رأيه كي لا يؤثر عليه. وضع لوندا هل نظارتيه الستيروسكوبيتين وذهب إلى طاولة الضوء. جلس إلى الصور وضبط نظارتيه. فوجئ عندما رأى شجر البلح، وممرات جرداء في الغابات لمعدات ثقيلة وناقلات صواريخ ورافعات وخيم للصواريخ وناقلات للأسلحة النووية السوفياتية. نظر لوندا هل إلى المفسرين في الغرفة وقال: «حسناً. . أنا أدرك ما تظنون وأنتم على حق. إنه موقع صواريخ بالستيكية متوسطة المدى. لا أريد أن يغادر أحد منكم هذه الغرفة، اتصلوا بزوجاتكم والغوا مواعيدكم. افعلوا ذلك بشكل طبيعي لكن إبقوا في الغرفة».

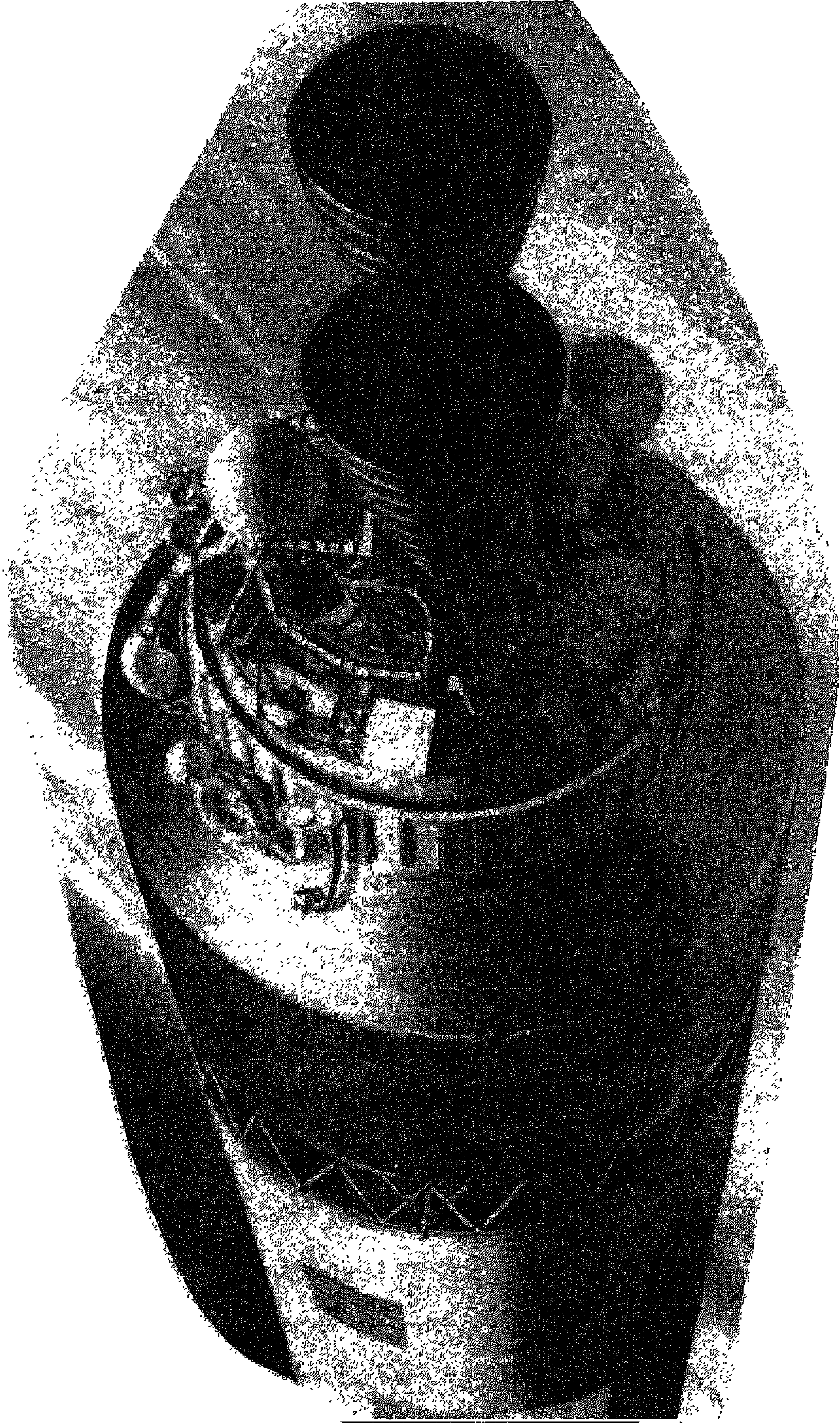
لم يتمكن لوندا هل من الاتصال بمكون فتحدث إلى نائبه رأي كلاين وأفاده بأنهم اكتشفوا موقعين لصواريخ بالستيكية متوسطة المدى من نوع س س ٤ جاهزة للانتشار ويبلغ مداها ١٠٢٠ ميلاً أي تستطيع الوصول إلى واشنطن.

اتصل كلاين بمساعد الرئيس مكجورج بندي في منزله، ولما لم يكن هاتفه آمناً من أخطار التنصت تكلم معه بلهجة مموهة: «أنت تعلم تلك الجزيرة التي كنا نتحدث عنها ذلك اليوم؟ حسناً لقد حصلوا على أشياء كبيرة. انقبض بندي وسأل: «هل هي جاهزة للرمي؟» أجاب كلاين: «كلا بل إنها تقترب بسرعة من أن تكون جاهزة».

أفاد بندي الرئيس كنيدي الذي كان خائفاً من أن يكون خوروتشيف قد كذب عليه، وبعد قليل وصل لوندا هل وكلاين إلى البيت الأبيض مع الصور. تفحصها كنيدي بنظارة مكبرة، ولكن كان من الصعب على شخص من غير المفسرين أن ينظر إلى الصورة ويرى جميع الأشياء التي يراها المفسّر، نظر إليهم كنيدي وقال: هل أنتم متأكدون؟ أجاب لوندا هل: «قد يكون هناك عالم من الورق المعجن لكني متأكد من ذلك كمفسر صور» وهكذا بدأت أزمة الصورايخ وهي أكبر أزمة اقترب فيها العالم من الحرب النووية. عرض على كنيدي عدة خيارات لكنه قرر عدم غزو الجزيرة بل فضّل القيام بحصار بحري بحيث يتم تفتيش جميع السفن الذاهبة إليها والعائدة منها. كان كنيدي ثابتاً في موقفه، على الاتحاد السوڤياتي أن يسحب صواريخه من كوبا، وأضاف كلمة وإلاّ، وإلاّ ماذا؟ غزو عسكري وخطر اندلاع حرب نووية.

خلال الأسبوعين المتوترين في تشرين الأول/أوكتوبر تابعت يو٢ التحليق فوق كوبا للتأكد من أن حالة الصواريخ لم تتغير. في ٢٧ تشرين الأول/أوكتوبر أسقطت طائرة يو٢ فوق الجزيرة. لم يصدق ذلك أحد. ماذا كان السوفيات يفعلون؟ هل هي غلطة؟ هل كانوا يحضرون للإطلاق وأرادوا إخفاء ذلك؟ طلب كنيدي من القوات المسلحة الأميركية المتجمعة في فلوريدا الاستعداد، وأصبح العالم على شفير الحرب وحبس الجميع أنفاسهم.

في اليوم التالي صرّح خروتشيف بأنه سيسحب الصواريخ وبأن المواقع سوف تفكك. عندها تنفس الجميع الصعداء. استخدمت يو٢ لمراقبة الانسحاب السوفياتي وللتأكد من وفاء خروتشيف بوعده. هكذا كانت أزمة الصواريخ وهكذا مرّت، وكان لـ«يو٢» دور فعّال في حلّها.



أحدث أقمار التجسس الأميركية في التسعينات

الفصل الخامس والعشرون

ضباط المخابرات السوفياتية سابقاً

يصبحون رجال أعمال ومدراء مشاريع.؟

* لكل شيء نهاية (هذه سنة الحياة) فقد شرحنا في مكان آخر عن تفكك الاتحاد السوفياتي العظيم (مثل السحر) وغورباتشوف الذي كان ملء السمع والبصر ليس في بلاده الاتحاد السوفياتي. بل في العالم كله. أصبح مثل السندباد أو الأصح ابن بطوطه، يتجول من بلد إلى بلد. في إسرائيل (ألبسوه الطاقية اليهودية الرمز) وصوروه يبكي جانب حائط المبكى (مقابل) بضعة آلاف من الدولارات منحوه إياها لقاء محاضرة أو جائزة (قبض من إسرائيل) مقابل سماحه لليهود السوفيات (وهو في موقع السلطة وفي زعامة الاتحاد السوفياتي) بالصعود (نعم) هكذا يقولون، الصعود إلى أرض الميعاد، وكانت النتيجة مئات ألوف اليهود السوفيات صعدوا إلى إسرائيل، وغورباتشوف يقبض (وقد سرقوا له سيارته الليموزين من أمام منزله المحروس كما يقولون) (اليوم السادس عشر من شهر تشرين أول لعام ١٩٩٢ وأثناء كتابة هذا الفصل عن السيد غورباتشوف سمعت من الأنباء أن الرئيس (يلتسين) أمر بمصادرة المسار الثقافية التي أسسها السيد غورباتشوف ـ من ماله ومن عرق جبينه كما يقال، وأغلقت الدار بالشمع الأحمر أو الأخضر لا فرق. .).

جواسيس الأمس أصبحوا رجال أعمال اليوم

* المكان جامعة كنت، في إحدى ليالي الصيف الانجليزية، الريفية الهادئة، حيث السهول المسطحة تتمدد عبر ملاعب أندية الجولف، لتصل إلى المدن

الساحلية، على طول القنال الساحلي. وترتفع القباب والأبراج العائدة إلى القرون الوسطى محاولة التقاط آخر شعاعات ذهبية، ما زالت عالقة في قوس السماء قبل غياب الشمس بدقائق.

سبعة رجال أقوياء البنية، يظهرون في غرفة بأحد أبنية الجامعة، يتحادثون بالروسية ثم يستمعون إلى مطالعة عن التكامل الأوروبي يقدمها اقتصادي بريطاني لامع، مظهر هؤلاء يوحي بأن لهم خلفية عسكرية، وبالرغم من ذلك لقد بدلوا ثيابهم الروسية، بسراويل من الجينز وأخرى من النايلون المخصص للتمارين، وارتدوا قمصاناً خفيفة وأحذية رياضية رخيصة مصنعة في جنوب شرق آسيا.

إنهم ضباط في الجيش الروسي - بعضهم في الجهاز السابق كي جي بي المخابرات السوفيتية - وهذا اليوم هو اليوم الأخير لما سمي «إدارة العمليات» ليس هناك ما يدعو إلى إخفاء شيء عن الحدث. فالأمر يتعلق بعلاقات صغيرة، الهدف منها مراجعة طرق الاستغلال الجريء لأجهزة المخابرات في كلا المعسكرين الشرقي والغربي، إبان الحرب الباردة. لكن هذا اللقاء لم يذهب إلى لب المآزق السياسية التي واجهتها أوروبا في عصر الحرب الباردة السابقة.

الضباط الروس السبعة يدرسون في جامعة كانتربيري في مقاطعة كنت، في كلية إدارة الأعمال ومتابعتهم للدروس هذا الصيف، هي محاولة متواضعة لبرنامج طموح يقضي بإعادة تأهيل الموارد الواسعة للخبراء العسكريين في الاتحاد السوفييتي السابق في اتجاه فهم أكبر لطرق إدارة الأعمال في الأسواق الاقتصادية الحرة.

وأول الغيث، وصول آلاف اللاجئين من المعسكر الشرقي السابق، وهؤلاء يطالبون بحقهم في اللجوء إلى الغرب وخطوتهم قد تجر مئات الآلاف كما يحذر خبراء في الشرق والغرب. والأسواق الجديدة التي يأمل رجال الأعمال الغربيون في فتحها في الشرق، ستبقى منهكة وبلا معنى فجوّ عدم الاستقرار والغموض، يكاد يقسم دول المجموعة الأوروبية ويقلص عملية التكامل الأوروبي، مع تطلع كل دولة إلى تقوية مصالحها الخاصة، والتركيز على فوائد الأمد القصير.

المقصود إعادة تكوين البنية الاقتصادية في دول الاتحاد السابق، خصوصاً على مستوى العدد الهائل من المكان والأراضي الشاسعة في الاتحاد المنحل. فضخ

المساعدات إلى هذه المناطق لا يكفي كما يؤكد الاقتصاديون. وأكثر من أي شيء آخر. إن سكان هذه الديمقراطيات الجديدة يحتاجون تدريباً. وإذا نجح هذا الصيف البرنامج الذي أعدّ في جامعة كنت بكلفة تقدر بـ١٣٠ ألف جنيه استرليني (٢٤٧ ألف دولار أمريكي)، فإن الخطوة ذاتها، قد تجر خطوات لإقامة برنامج أوسع وأشمل في روسيا ذاتها، الهدف منها إيجاد الآف من رجال الأعمال من بين ضباط الجيش السوفييتي السابق.

عملية «رجال الأعمال» كانت من بنات أفكار فيليكس باربر، رجل مخابرات بريطاني سابق. واليوم يدير مشروعاً لحساب شركة كونو أليس المحدودة التي تعنى بـ«إدارة العمليات في مراحل التغيير الجذري» وقد تمكن باربر من جمع جهود وزارة الخارجية البريطانية والحكومة الروسية وفريق من الشرطة البريطانية لتمويل مشروع، ثم استأجر كلية إدارة الأعمال في جامعة كانتربيري في كنت لتنظيم أربعة أسابيع من التدريب على أعمال الإدارة في إطار البرنامج. وأضاف إلى ذلك أسبوعين من الاطلاع العملي داخل المصانع والمؤسسات الخاصة، لإعطاء الضباط الروس خبرة حقيقية عن إدارة الأعمال في الغرب.

رجال المخابرات الروس هؤلاء هم نسخة عن نصف مليون شخص من الضباط السوفييت السابقين، انتهت مهمتهم في أواخر عام ١٩٩٠ كثيرون يريدون الاستقالة، والبدء في مهنة جديدة إذا ما سمح لهم العمر.

«أعرف أمثلة كثيرة عن مغامرات في مجال الأعمال تمّ فيها، بذل الآلاف من الأموال، وعلى مدى شهور ولم تأت بنتيجة، بسبب المعرفة المتواضعة من جانب الغرب بالوضع في روسيا» كما يوضح زاكاتوف. «أنا شخصياً يمكنني أن أساعد في هذا المضمار لأن لديّ بعض المعلومات على مستوى الأماكن والأفراد».

واستناداً إلى فيليكس باربر، وهو الآخر كان مقدماً في البحرية الملكية، فإن القوى المسلحة الروسية تشكل مورداً هائلاً «لأناس على درجة كبيرة من الالتزام، والتدريب التقني، ومن ذوي المواهب، الذين كما نعتقد سيشكلون الجيل الجديد لمبدعين ورجال أعمال».

ويؤكد زاكاتوف «كثير من العسكريين السابقين انخرطوا الآن في الأعمال.

مهنتي أن أعرف أعداداً كبيرة من الناس، وكلما تعرفت على الأشخاص، كلما اكتشفت أكثر تعلقهم بالأعمال. فخلال مهنتي في الجيش عشنا في أنحاء متفرقة في الاتحاد وفي دول حلف وارسو وفي السفارات وفي الخارج وأيضاً تم تدريبنا على التعامل مع الأشخاص وعلى النظام، وهذه مواهب يتمتع بها أيضاً رجال الأعمال». .

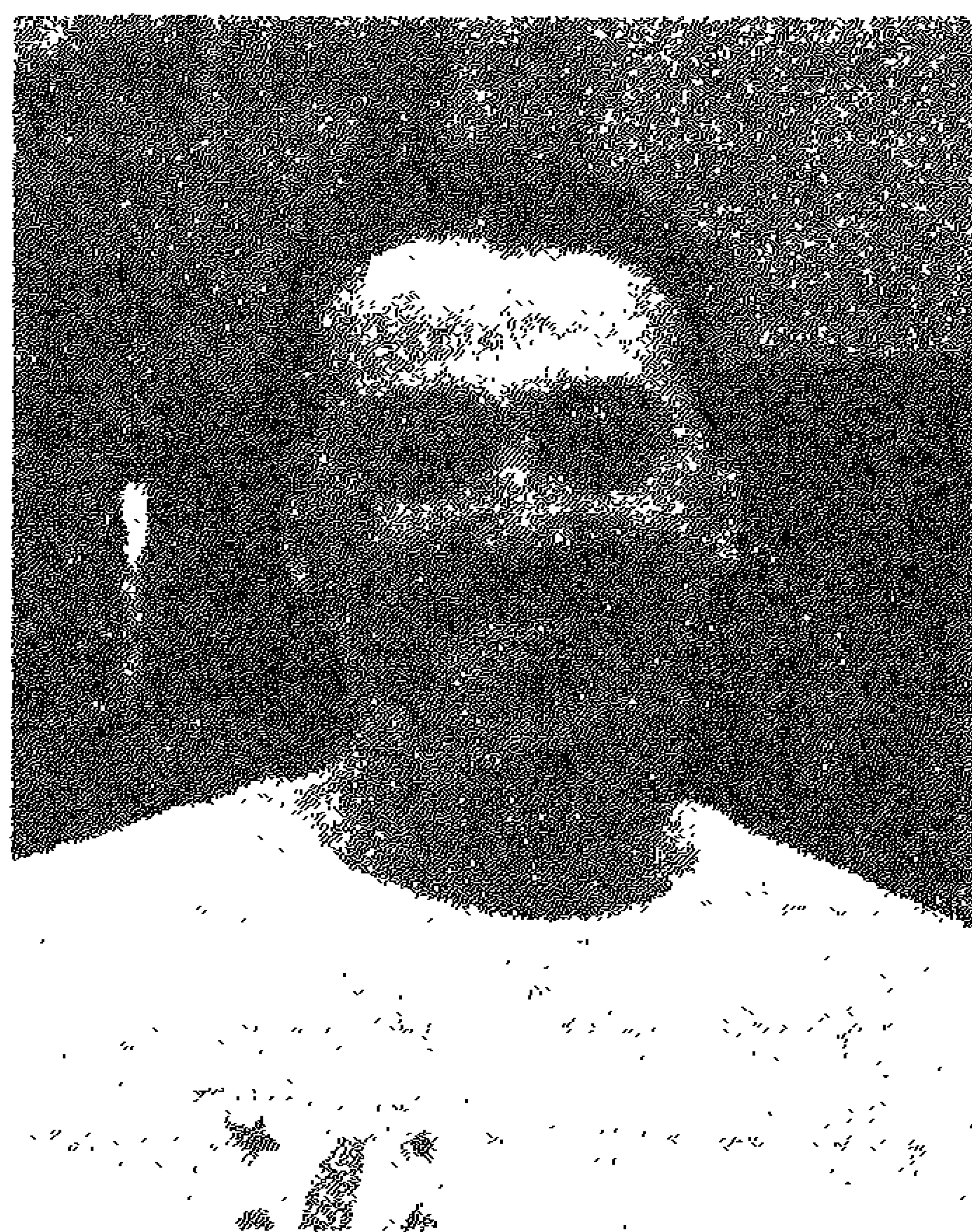
ورداً عما إذا كان موقفه تبدل تجاه الغرب منذ سقوط الشيوعية، استرسل زاكاتوف في الكلام الغني بقصص عن الحياة خلف الستار الجديد «أنا ضابط عادي في الجيش. تخرجت من كلية الحقوق. أمضيت عشرة أعوام عميلاً للكي.جي.بي. وكنت في جهاز الاستقصاء. وتركته قبل عامين. إذاً لدي معلومات أكثر من العسكريين العاديين، وبالنسبة إلى الغرب ليس أبداً العدو. عملت ضد المبدأ، ولا أعني في الواقع ضدّه. في الحقيقة عملت مع الـ سي آي إي (جهاز المخابرات الأمريكية) وكنا أحياناً نقوم ببعض الألاعيب. في تلك الأيام كان لدينا مجتمع غريب. وما زال غريباً جداً، لكنه مختلف. في السابق كان كل إنسان يتحدث عن الحكومة وكأنها مزحة.

ويرسم زاكاتوف، صورة ضبابية عن الحياة في بلاده اليوم. «لا يمكنك تصور الظروف التي تعانيها البلاد. التضخم في حدود الثلاثين في المائة شهرياً. في الشهور الثمانية عشر الأخيرة، أسعار المواد الأساسية قفزت مئة مرة، ليس مئة في المئة، بل مئة مرة. الرواتب ارتفعت فقط عشرات مرات ومعاشات التقاعد سبعة أو ثمانية أضعاف. إنه مأزق حقيقي. إن شعبية السياسة الاقتصادية الجديدة للحكومة (السوق الحرة) متدنية جداً. والانقسامات بين الغني والفقير ما زالت تتعاظم».

وإذا كان عليك الاتكال على راتبك، فلن تتمكن من شراء شيء. عليك الانخراط في الأعمال التي في غالبها تكون غير شرعية «ويضيف» من الصعب التصوّر، لكن من الأصعب أن تعيش في هذا الإطار. لا نريد العودة إلى النظام القديم. ويجب في المقابل ألا تكون الطريق إلى المستقبل مؤلمة الانقسام في الاتحاد السوفييتي إضافة المشاكل، وإضافة المعاناة. إننا نعيش الآن في جحيم، البلاد كلها جحيم.

في الواقع، إذا كانت البلاد كلها في حال مزرية، فليس واضحاً مدى أهمية

تدريب زاكاتوف وزملائه في كلية إدارة الأعمال في جامعة كانتربيري. وإعادة هذه الخبرة لتطبيقها في روسيا في الوقت الراهن، ليست هناك بنية تحتية شرعية لأعمال حرة في الاتحاد السابق. ونتيجة لذلك أن عدداً كبيراً من نشاطات القطاعين العام والخاص يفرض نفسه بطرق غير منظمة مما يجعل البلاد في فوضى اقتصادية. ولم تصدر بعد قوانين تنظم الملكية الخاصة الفردية، وهذا المعتقد كان غائباً أصلاً عن الممارسة الشيوعية السياسية.



المقدم سيرجي زاكاتوف من الـ كي جي بي سابقاً
ورجل أعمال حالياً

إن هذه ليست المشكلة الوحيدة أيضاً «حتى ولو كانت لديك أفكار جيدة» يقول زاكاتوف، «وفريق جيد لتحقيقها، ولك المستلزمات لإطلاق مشروع ما فستكون غير قادر على الحصول على قرض من البنك، ما لم يكتفي مقدورك الدفع لمديره نسبة مئوية مما تحصل عليه. وإذا أردت أن تكون صادقاً مع نفسك، لن تنال القرض.

«المخاطرة قد تكون كبيرة للأعمال الغربية في الاتحاد السوفييتي السابق» يقول زاكاتوف «لكن إذا بدأنا باكراً، نحصل في المقابل على النتائج المرجوّة. وبعدما

تلقينا التدريب هنا، سنذهب إلى أن روسيا، ونأمل في أن ننجح في مسعانا إلى أن نصبح رجال أعمال وممثلين للشركات البريطانية. وكل جنيه يصرف على تعليمنا سيعود بكثير من الجنيهات إلى بريطانيا. إنه استثمار جيد، أعدكم بأنه سيعمل جداً. إن النتيجة ستفوق المجهود العادي المبذول».

«يمكنك تولي شؤون بلد وشعب بطريقتين العصا والجزرة. في روسيا فقدنا العصا ولم تكن في يدنا أبداً أي جزرة. في السنتين المقبلتين، سنرى عودة إلى توتاليتارية أقوى على مستوى الأداء الحكومي، وإلا فنحن مقبلون على حرب أهلية. وبعد أن تضبط الحكومة نفسها والبلاد، يجب أن نتحرك خطوة خطوة نحو اقتصاد السوق الحرة، على النمط الألماني أو السويدي مثلاً الذي تتضمن الطرق فيه اشتراكية أكثر مما كنا نلاقي في الاتحاد السوفييتي قبل البرويسترويكا.

وما زال زاكاتوف يؤمن بأن على روسيا أن تستخدم العصا لتبقى كومنولث الدول المستقلة والجمهوريات السوفييتية السابقة ضمن الخط فدول الاتحاد السابق، لا يمكنها أن تترك في مهب التغييرات كما يقول. «سأعمل في الجمهوريات بالتأكيد. أنا روسي لكن جدتي استونية وجدي يوناني أنا متعدد الجنسية بالطبيعة. في أوكرانيا والجمهوريات الإسلامية، توجد غالبية القوى العاملة الصناعية. ماذا يمكن لهذه القوة أن تفعل بدون روسيا ٩ الجمهوريات الجنوبية ستقوم بما يطلب منها، لا خيار لديها. لكنني قلق بعض الشيء حيال أوكرانيا. فلديها أسلحة متعددة نووية وبيولوجية واحتمالات استخدامها تجعل الوضع مرعباً».

ونعود لمقولة لكل شيء نهاية، وما علينا إلا الانتظار لنرى عشرات ضباط المخابرات السوفياتية والمخابرات الشرقية وهم يحملون شنط رجال الأعمال يتجولون في طول البلاد وعرضها يدخنون البايب وينفخون الهواء كذكرى سنين عملهم في المخابرات.

الفصل السادس والعشرون

تعاون المخابرات بين واشنطون والسلطات العراقية

* الولايات المتحدة نفسها كانت تقدم الإعانات المادية والمعلومات الاستخبارية طيلة استمرار الحرب الإيرانية العراقية، واستمر التعاون المخابراتي بين واشنطون والحكومة العراقية إلى ما قبل غزو الكويت في ٢ آب - أغسطس ١٩٩٠ بأيام معدودة.

وللتأكيد على صحة هذه المقدمة فقد أفرجت اللجنة المصرفية في مجلس النواب الأمريكي عن وثائق سرية تظهر أن الولايات المتحدة استمرت في تقديم معلومات استخباراتية للعراق حتى وقت متأخر يعود إلى فترة شهرين قبل أن يغزو صدام حسين الكويت.

وهذه الوثائق التي قدمها للصحافيين النائب هنري غونزاليس، تظهر أن التعاون الاستخباراتي مع العراق كان على جدول أعمال اجتماع للمساعدين في مجلس الأمن القومي، عقد في غرفة عمليات البيت الأبيض يوم ٢٨- مايو ١٩٩٠م.

وقد عقد ذلك الاجتماع الذي شارك فيه نائب رئيس المجلس آنذاك روبرت جيتس لمناقشة خيارات تشديد السياسة الأمريكية تجاه العراق ويترأس جيتس الآن المخابرات المركزية.

وهذه الوثائق لم يكشف عنها عام ١٩٩١ خلال العملية الطويلة والمرهقة التي أجرتها لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ لتثبيت جيتس كمدير للمخابرات ويبدو أن هذه الوثائق تناقض بعض النتائج التي استخلصتها اللجنة.

وفي حينه تفحصت اللجنة المدى الذي بلغته الولايات المتحدة في تحولها إلى جانب العراق خلال الحرب العراقية - الإيرانية في الثمانينات، وتقاسم المعلومات الاستخباراتية بين واشنطن وبغداد بدأ عام ١٩٨٤ عندما أصدر الرئيس رونالد ريجان

أمراً تنفيذياً يتعلق بالأمر القومي. وهو أمر تم توسيع نطاقه مرتين خلال عام ١٩٨٦.

وفي مقطع من تقريرها حول تثبيت جيتس، استنتجت اللجنة أن «تقاسم المعلومات الاستخباراتية» استمر على أساس متقطع حتى عام ١٩٨٨ عندما انتهت الحرب بين العراق وإيران.

وهذا «يطرح بوضوح بعض الأسئلة الجديدة التي لم تحل» حسب قول مسؤول استخباراتي في الكونجرس طلب عدم ذكر اسمه.

وقال المسؤول إن هذه المعلومات توحي بأحد أمرين. إما أن لجنة مجلس الشيوخ لم تتعمق بما فيه الكفاية في تحقيقها بشأن جيتس. وإما أن إدارة الرئيس جورج بوش قد ضللتها.

وقال المتحدث باسم اللجنة الاستخباراتية زاخ ميسيث أن اللجنة لا تزال «تنظر في جميع الوقائع». وسوف يكون لديها ما تقوله في الموضوع خلال بضعة أيام.

وخلال إحدى جلسات اللجنة المصرفية، قال غونزاليس «إن تقرير الشيوخ مضلل»، مشيراً إلى أن التقرير يعتبر تقاسم المعلومات الاستخباراتية كمجرد عملية ارتباط روتينية نسبياً بين البلدين كانت تستهدف مساعدة العراق لتعزيز قدرته القتالية ضد إيران.

الكونغرس الأميركي يكشف عن التعاون المخابراتي بين واشنطون والحكومة العراقية

* الآن ونحن في النصف الثاني من عام ١٩٩٢ نستمع إلى الأخبار القادمة من واشنطون والتي تقول بأن الكونغرس الأميركي كشف الوثائق السرية التي تثبت تعاون المخابرات الأميركية والمخابرات العراقية أثناء الحرب الطاحنة التي دارت بين بلديهما.

وتظهر الوثائق السرية أن العلاقة بين واشنطن وبغداد «كانت تعتبر وتستخدم كأداة في السياسة الخارجية، وقال جونزاليس إن الوثائق «تظهر أن تقدم المعلومات الاستخباراتية كان اعتباراً سياسياً هاماً لأنه مكّن الولايات المتحدة من الوصول إلى أعلى مستويات الحكومة العراقية»، وفي وثيقة تتعلق بالخيارات السياسية، جاء أن إنهاء التعاون الاستخباراتي كان واحداً من ١٥ عقوبة محتملة يمكن أن تفرضها

الولايات المتحدة وتضمنت الوثيقة حجة تأييد فرض مثل هذه العقوبات، وهي أن تقاسم المعلومات الاستخباراتية كان لا يزال يوفر للعراق معلومات محدودة عن النشاط العسكري الإيراني.

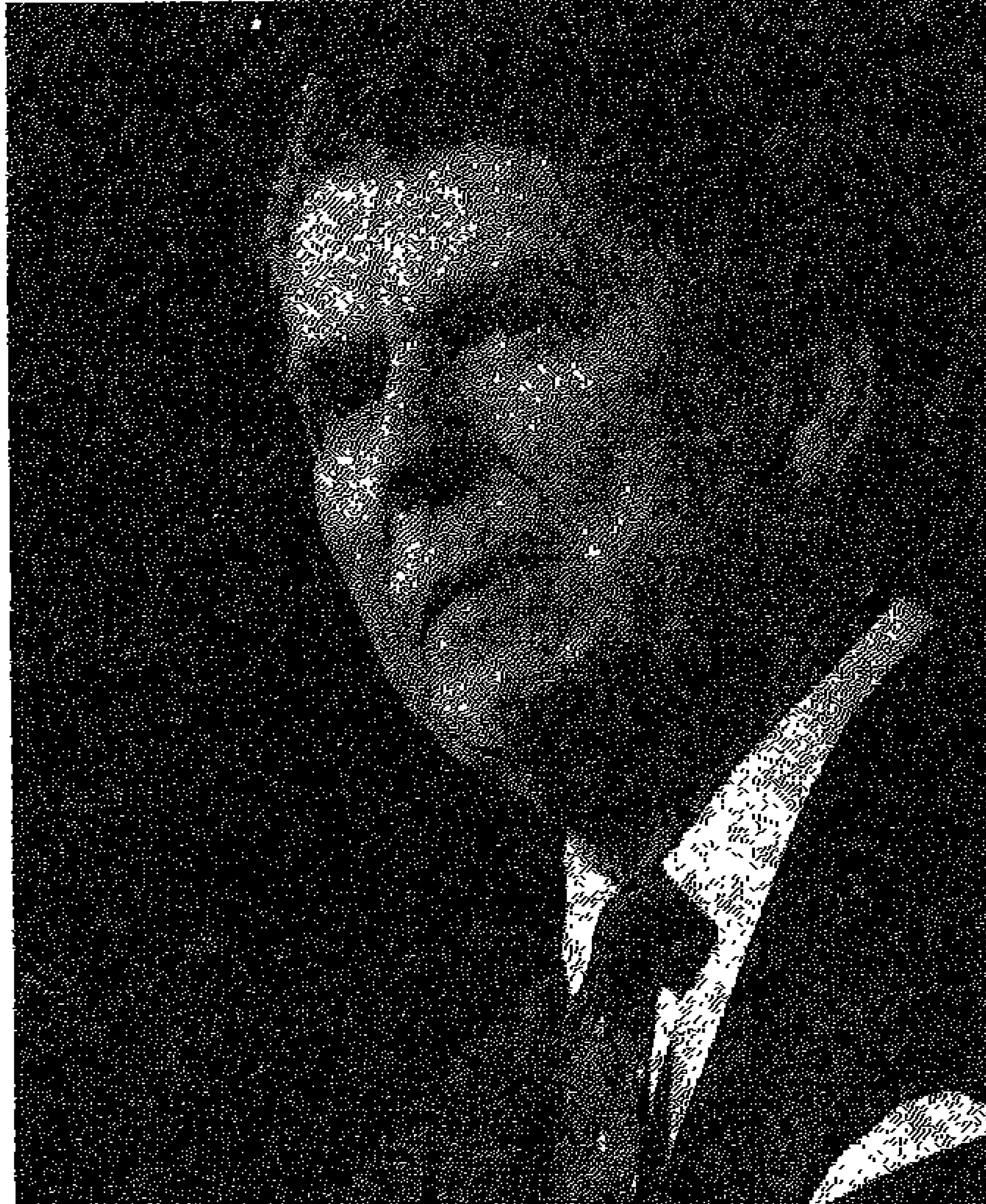
ولكن في المقابل، قالت الوثيقة إن إنهاء تقاسم المعلومات الاستخباراتية «كان سيمنع وصولنا المحدود إلى هذه الشريحة المهمة من المؤسسة العراقية».

من جهة أخرى، أعرب المتحدث باسم البيت الأبيض عن الأسف لإسهام الشركات الأمريكية في بناء آلة الحرب العراقية الحالية.

وقال مارلين فيتزو وتر على سؤال خلال إيجازه للسماح للشركات الأمريكية بالإسهام في ذلك بشكل عام. نحن آسفون للإسهام ببناء قوة صدام حسين.

لكنّ فيتزو وتر أشار إلى أن السياسة الأمريكية آنذاك كان تسنتند إلى أهداف وقواعد سياسية تتعلق بالأمن القومي.

ومن عندنا هذا الكلام مردود عليهم. فالأمن القومي الأميركي يزان بموازين المال وكانت الحكومة العراقية سخية جداً في الدفع لشراء التكنلوجيا والأسلحة الحديثة من أميركا بالذات كما كشف الكونغرس مؤخراً ولم يجدوا بعد ذلك سوى الحجة بالأمن القومي.



الرئيس الأميركي (السابق) رونالد ريغان أعطى الضوء الأخضر

الفصل السابع والعشرون

وثيقة جديدة تنشر عن الخرق التجسسي الأميركي الإسرائيلي لمصر..

* في هذا الكتاب الوثائقي عن التجسس في العالم لا بد من الإشارة إلى استمرار التجسس على جمهورية مصر العربية من قبل المخابرات الأميركية بالذات ومن قبل (ابنتها) المخابرات الإسرائيلية.

كيف يتم الخرق التجسسي الأميركي الإسرائيلي لمصر؟

* ما هي حقيقة حرب التجسس المصرية ـ الإسرائيلية؟ وما هو دور الولايات المتحدة الأميركية؟ وهل صحيح أن هناك اختراقاً إسرائيلياً أميركياً لأجهزة النظام المصري ومؤسساته؟ وما هي طبيعة الأبحاث العلمية الأميركية المصرية المشتركة؟ ومن أين جاءت وأين تصب؟

هذه التساؤلات نحاول الإجابة عنها في خلال تقرير ديبلوماسي «سري للغاية» وصل إلى الدوائر السياسية الغربية عشية الاحتفال الذي أقامته السفارة الإسرائيلية في القاهرة وحضره ٩٠٠ شخص لمناسبة قبول الحكومة المصرية الوساطة الأمريكية والمبادرة إلى إطلاق الإسرائيليين الأربعة (أفراد شبكة مصراتي) الذين كانوا معتقلين في مصر منذ شباط ١٩٩١ بتهمة التجسس لمصلحة إسرائيل.

يقول التقرير: «إن النشاط التجسسي الإسرائيلي ـ الأميركي في مصر بلغ ذروته في الآونة الأخيرة والذي يتخذ له من الجهات الأكاديمية اليهودية ـ الأميركية ساتراً عملياً للأعمال التجسسية.

وذكر التقرير أن جهات أمريكية - إسرائيلية نشطت في إعداد أبحاث ميدانية وصلت إلى تجول هؤلاء الباحثين في قرى تقع في صعيد مصر وعلى بعد ٦٠٠ كلم من القاهرة وأنهم يجمعون معلومات حول ١٤ قضية سياسية واجتماعية واقتصادية تتناول العلاقات الحقيقية بين المواطنين والنظام المصري، والتعددية الحزبية وشعارات «التغيير» السياسي ونشاط الجماعات الإسلامية ودعواتها، وأوضاع الطائفة المسيحية القبطية وموقف الشعب المصري من العلاقات مع الكيان الإسرائيلي ومع الولايات المتحدة وإعداد بحث موقف العمالة المصرية من عودة العلاقات بين مصر والدول العربية، إضافة إلى أبحاث أخرى تتناول قضايا اقتصادية منها توزيع الدخل في الريف المصري ومشكلات الإسكان الصحة والتعليم.

ويكشف التقرير أن خلايا التجسس تبدأ انطلاقاً من «القلعة الحصينة» المدججة بالأجهزة والرجال، التي تقع على شاطئ نهر النيل، والتي تم رفع سورها الخارجي بحيث بات اختراق «البنتاغون» ذاته أسهل من اختراقها.

إنها السفارة الأميركية التي تضم في داخلها ٤١٠٠ أميركي بين دبلوماسيين وخبراء وعملاء وجنود أمن مظليين، ويتربع على عرش هؤلاء فرانك ديزنر العسكري الأميركي صاحب التاريخ الحافل بالأعمال التجسسية في ڤيتنام وغيرها والذي يحمل وساماً رفيعاً سجله والده الذي خطط ونفذ عملية اغتيال المناضل الأفريقي باتريس لومومبا.

الواقع أن السفارة الأميركية في القاهرة تحمل خاصية مميزة فهي من أكبر السفارات في مصر على الإطلاق بل أن مجموع أعضائها العاملين فيها يتجاوز مجموع العاملين في السفارات الإفريقية جميعها في مصر، **كما أنها السفارة الوحيدة التي تتلقى تقارير رسمية من الوزارات المصرية المسؤولة عن الأوضاع في مصر، تحت ذريعة إقناع مجلس الشيوخ الأميركي بزيادة حصة مصر من المعونة الأميركية بحيث تتساوى مع حصة إسرائيل**. . ذلك كما جاء في المذكرة الرسمية التي وجهتها إحدى الدوائر المعنية في مصر العام الماضي للإدارة الأمريكية وأشير فيها أن دور النظام المصري في الاستراتيجية الأمريكية لا يقل عن دور إسرائيل، وبناء عليه فإن من حقه أن يحصل على ما تحصل عليه إسرائيل، إلا أن الإدارة الأميركية لم تكترث

لهذا المطلب على الإطلاق بل على العكس فقد خصصت مبلغ ٤٧ مليون دولار من حصة المعونة الأميركية لمصر على بند «الأبحاث العلمية المشتركة» مع مؤسسات وجامعات ومراكز بحوث مصرية. هذه الأبحاث التي يمكن وصفها بأنها «قراءة أميركية لما يدور في عقل مصر».

وفي الجانب الشرقي من النيل كذلك يقع مركز بحوث التنمية والتخطيط التكنولوجي بجامعة القاهرة والذي تم إنشاؤه عام ١٩٧٦ بالاشتراك مع معهد «ماساشوستيس» الأميركي للتكنولوجيا ومنذ ذلك التاريخ يقوم المركز بإعداد بحوث لكافة الوزارات والجهات الرسمية في مصر وفي المجالات كافة، ويتم تمويل هذا المركز عن طريق هيئة المعونة الأميركية وعن طريق الوكالة الدولية للتنمية وللمركز مديران وثمانية موظفين أميركيين وقد تم إنجاز ٢٩ بحثاً من أصل خطة تشمل ٤٧ بحثاً حتى العام الجاري. شملت موضوعات حساسة وحيوية، منها احتياطات مصر من الطاقة النووية وقدرة بحيرة ناصر على تأمين المياه لمصر والقوى البحرية المصرية في أعالي البحار، ودراسة عن المياه الجوفية وأخرى عن استصلاح الأراضي في سيناء وبناء المجمعات العمرانية الجديدة ويبحث في صناعة السيارات والمركبات في مصر.

وكما أن السلطات المصرية تستلم صورة عن نتائج هذه الأبحاث فإن السفارة الأميركية تتلقى نسخة أخرى وفي اللحظة ذاتها، وبدورها تحولها إلى السفارة الإسرائيلية في القاهرة. وهذا ما كشفته الفضيحة الأخيرة حيث تم العثور على معدات وأجهزة تنصت تابعة للسفارة الأميركية في سفارة إسرائيل.

يتابع التَقرير: ويوجد في القاهرة أيضاً جهة أميركية تعمل في مجال الأبحاث والدراسات العلمية والميدانية البعض منها يعمل تحت إشراف جهات أمنية مصرية. والبعض الآخر يعمل بطرق مريبة، ومنها السفارة الأميركية والجامعة الأميركية والمركز الثقافي الأميركي ومؤسسة راند، ومركز البحوث الأميركية ومؤسسة فرود موندشين وهيئة المعونة الأميركية ومعهد بروكينجز ومعهد التربية الدولية المتخصص في نهج السلام ومؤسسة روكفلر للأبحاث ومعهد الـ. أم. آي. تي المتعاون مع معهد ماساشوستيس الأميركي وفروعه العديدة في القاهرة ومعهد دراسات الشرق الأوسط

ومعهد المشروع الأميركي، والأكاديمية الدولية لبحوث السلام ومركز الدراسات الاستراتيجية والدولية بجامعة جورج تاون، ومركز البحوث الاجتماعية الذي يقع في القاهرة ويلعب دوراً خطيراً مع الجامعة الأميركية التي لا يتوقف حدود تعاونها مع إسرائيل عند حد معين.

ويشير التقرير إلى أن التنسيق بين المخابرات المركزية الأمريكية، وإسرائيل وصل إلى درجة اعتماد الـ سي.آي.إيه على عناصر الموساد في مصر واعتبارهم عملاء فوق العادة.. ولعل أبرز صورة للنشاط الأميركي ـ الإسرائيلي المشترك في مصر هو ما قام به الصحافي الإسرائيلي أريه ليفي عندما زار الجامعة الأميركية وعقد صفقات لمجموعة من الأبحاث مع عدد من أساتذة الجامعة بعضهم من الأساتذة المصريين لإجراء دراسات مشتركة حول الصراع العربي ـ الإسرائيلي وما يرتبط به من «إشكاليات» وقد ترتب عن تلك الصفقات صدور عدة كتب بالعبرية تحمل أسماء عدد من الأساتذة المصريين الذين بدت مشاركتهم في هذه الأبحاث كأنها تطبيع علمي مع الإسرائيليين، لكن الأخطر من ذلك، هو المعلومات التي لم تنشر والتي تصب عادة في الدهاليز السرية للمخابرات الإسرائيلية ـ الأميركية، وهو الأمر الذي كان مدار تحقيق قضائي جرى في الجامعة الأميركية قبل فترة وانتهى الأمر بحفظ التحقيق والقضية.

ويقول التقرير: إن وليم كيسي المدير السابق للمخابرات الأمريكية كان يتحدث وسط حشد من أساتذة الجامعة الأميركية عن النشاط الأميركي في الشرق الأوسط فاستوقفه أحد الأساتذة متسائلاً: لماذا تحتفظون بأكثر من ١٠ آلاف خبير وعميل في مصر؟ ولم يخف كيسي انزعاجه ولكنه تمالك نفسه وقال في ثقة: «لأننا نهتم أكثر فأكثر بالمناطق المضطربة في العالم ومن هذه المناطق إن لم يكن على قمتها تأتي مصر».

ويؤكد التقرير: أن هذا ما يفسر وجود هذا العدد الضخم من المراكز والأكاديميات التي تتغطى بستار البحوث العلمية والتي يقول عنها أشهر رجال المخابرات الأميركية الذين عملوا في الشرق الأوسط مايلز كوبلان.. «إن مدرسة أميركية واحدة أو جامعة تستطيع أن تؤدي بنجاح الخدمات التي يمكن أن يؤديه لواء أميركي محمول جواً ولكن دون رصاص وإصابات».

وهكذا فإن الأموال الأميركية والمراكز والسفارة الأميركية والأوكار النسرية الأخرى المتحالفة مع الإسرائيليين يحصون أنفاس الشعب المصري ويتجسسون على كل شيء في مصر والقاهرة التي وصفها تقرير صادر عن السفارة الأميركية عام ١٩٨٩ بأنها من أهل العواصم الشرق أوسطية بالنسبة للسياسة الأميركية، ولم ينس التقرير أن يؤكد أن إجمالي المبالغ التي أنفقتها الإدارة الأميركية - المصرية المشتركة هو ٢٩١ مليوناً و٢٥٧ ألفاً و٢٨٥ دولاراً وذلك من أجل تمويل ٦٤٧ بحثاً في مختلف أوجه الحياة والنشاط والتطور في مصر.

ويختتم التقرير بالقول: حتى لا يتساءل مواطن عربي حسن النية ماذا وراء كل هذه البحوث أو ما هو الضرر الذي يمكن أن تلحقه بمصر نعود إلى قصة رواها أحد المصريين المنزعجين من التغلغل الأميركي - الإسرائيلي في مصر قال فيها: في عهد الرئيس جمال عبد الناصر استطاعت المخابرات الإسرائيلية متابعة عد علب السردين المنقولة إلى منطقة الإسماعيلية وتمكنت بعملية حسابية بسيطة من معرفة عدد القوات المصرية المقاتلة في هذه المنطقة. إذن من هذا المنطلق يمكننا فهم مدى المخاطر المحدقة بالعالم العربي من خلال وفرة هذه الدراسات والأبحاث المكثفة المصرية - الإسرائيلية - الأميركية - بصورة مباشرة وغير مباشرة».

ونحن نعيد هذه الحادثة لا نعترف للمخابرات الإسرائيلية بوصولها وانتصارها على علب السردين فهذه الحادثة أتفه ما تكون من أنواع التجسس لأنه ليس شرطاً أن يكون السردين بعدد العسكريين المتواجدين في المنطقة.. أبداً لأنه من المعروف أن تموين جميع الجيوش وليس الجيش المصري بالذات يحتوي على العديد من أنواع علب المواد الغذائية وبالتالي فإن السردين قد يكون لكتيبة من الكتائب المقاتلة المتواجدة في المنطقة. كذا منطق المخابرات.

الفهرس

المقدمة ٣

الفصل الأول

المخابرات كانت منذ آلاف السنين وحتى الآن. . . ؟ ٥

الفصل الثاني

استعمال المخابرات للرموز من عام ١٨٤٨ إلى ١٩١٤ .... ١٤

الفصل الثالث

يقظة الغرب واستعمال المخابرات للرموز السرية ٢١

الفصل الرابع

تنوع أعمال المخابرات ٣٠

الفصل الخامس

الحرب العالمية الثانية والمخابرات ٤٧

الفصل السادس

الجاسوسية والحرب الباردة ٧١

الفصل السابع

المخابرات واكتشاف الراديو في الحرب العالمية الأولى ٧٦

الفصل الثامن

من أعمال الجاسوسية العالمية تنصت هاتفي، رقابة، تجسس ٨٢

الفصل التاسع

خطورة عمل الحقيبة السوداء ٩٦

الفصل العاشر

معلومات مفصلة عن عملية بيرل هاربور ١٠٦

الفصل الحادي عشر
المخابرات الروسية قبل الشيوعية والكي.جي.بي ١١٣

الفصل الثاني عشر
المخابرات تجند وتستخدم المرتزقة ١٢٦

الفصل الثالث عشر
الحرب المدمرة في الباسفيك وعمل المخابرات ١٣٦

الفصل الرابع عشر
قصة حياة عميل (سابق) للمخابرات السوفياتية الـ K.G.B ١٥٣

الفصل الخامس عشر
المخابرات في الولايات المتحدة من أيام واشنطون ١٨٧

الفصل السادس عشر
الأسلحة المزوّرة والإخفاء والتمويه في الحرب الحديثة ٢٠٤

الفصل السابع عشر
التجار لهم مخابرات خاصة أيضاً ٢١٤

الفصل الثامن عشر
لمحة تاريخية عن أقمار التجسُس ٢١٩

الفصل التاسع عشر
مخابرات الهواة ٢٣٣

الفصل العشرون
التجسس بالتخريب واستعمال المتفجرات ٢٣٩

الفصل الواحد والعشرون
التجسس في العالم بواسطة الفنانات ٢٦٣

الفصل الثاني والعشرون
طائرات التجسس لتحديد أهداف المخابرات والتشويش ٢٧٤

الفصل الثالث والعشرون
عميل مخابرات مهدد بالقتل ٣٠٥

الفصل الرابع والعشرون
الاستطلاع والتجسس من الجو ٣٢١

الفصل الخامس والعشرون
ضباط المخابرات السوفياتية سابقاً يصبحون رجال أعمال ومدراء مشاريع ٣٥١

الفصل السادس والعشرون
تعاون المخابرات بين واشنطون والسلطات العراقية ٣٥٧

الفصل السابع والعشرون
وثيقة جديدة تنشر عن الخرق التجسسي الأميركي الإسرائيلي لمصر. ٣٦٠